الفتح العثمانى للشام ومصر

ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له

دكتور
أحمد فؤاد متولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الزهراء للإعلام العربى
قســـم النشــر

ص ب ١٠٢ مدينة نصر ــ القاهرة ــ تلغرافيًا زهراتيف تليفون : ٢٦١١١٠٦ / ٤٠٢١٩٨٨ فاكس ٢٦١٨٢٤٠
P.O: 102 Madınat Nasr. Cairo -Cabl : Zahratıf- Tel : 2611106 - 4021988 - Fax : 2618240

بسم الله الرحمن الرحيم

«ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله
وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين»

صدق الله العظيم
فصلت/٣٣

الطبعـة الأولــى
١٤١٤ هـ ــ ١٩٩٥ م

دكتور

أحمد فؤاد متولي

الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته

من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة

الزهراء للإعلام العربي

المقدمــــة

يختلف المؤرخون حول تحديد الفترة التى ينتهى عندها تاريخ الشرق العربى الوسيط ويبدأ بها تاريخه الحديث . وقد كثر القول فى ذلك وتشعبت الآراء ، إلا أننا نميل إلى الرأى القائل بأن الفتح العثمانى للشام ومصر هو البداية لتاريخ الشرق العربى الحديث . وذلك لأن هذا الفتح قد استهل فترة من الزمن حدثت فيها تغيرات هامة بالمنطقة نتيجة هذا الفتح . وهذه التغيرات التى كانت أثرًا من آثار الفتح العثمانى والتى لا يمكن تجاهلها ، تحتاج إلى البحث الجاد غير السطح ، وذلك بالرجوع إلى الوثائق التى كتبت ودونت فى فترات معاصرة لهذه الأحداث . وهذه الوثائق تمدنا بمعلومات وحقائق جديدة ، لا سبيل إلى إنكارها أو تجاهلها ، لأن بها من المعلومات ما يصحح بعض أخطاء تاريخية وقع فيها كاتبوها نتيجة لعدم توفر مثل هذه الوثائق تحت أيديهم ، بالإضافة إلى توضيح ظروف وملابسات بعض الأحداث التى ظلت غامضة بعض الوقت ، مما يضيف إلى معلوماتنا التاريخية معلومات أخرى جديدة ، غير ما نجده فى كتب التاريخ المتداولة بين الباحثين ، والتى يحتاج بعض ما كتب منها إلى التمحيص والدراسة المتعمقة .

ولقد استمر الحكم العثمانى للشرق العربى زهاء اربعة قرون ، كانت البلاد فيها تخضع للحكم العثمانى على تفاوت فى أشكال ودرجات الخضوع والتبعية ، وحدثت فى تلك الفترة تغيرات كثيرة فى المجتمع العربى ، وكان لزامًا على الباحثين العرب أن يميطوا اللثام عن تاريخهم الحقيقى فى هذه الفترة اعتمادًا على الوثائق والمصادر المخطوطة والتى لم تنشر ، أو تترجم من قبل من اللغة التركية إلى العربية ، وذلك لأن معظم ما كتب كان معتمدًا على المصادر

الأوربية ، والتى لا يخفى ميل بعضها إلى تقديم التاريخ بالصورة التى تحقق أغراض وأهداف الأوربيين ، سواء عن قصد ، أو نتيجة الخطأ ونقص المصادر . ولست أريد هنا أن أضيف صفحات سبق لغيرى تسويدها فى تاريخ مصر والشام ، ولكننى أهدف إلى إلقاء الضوء على ما كتب ، وتجديد صفحاته باستخدام مادة علمية وثائقية جديدة ، بعد تحليل هذه الوثائق للإفادة منها فى ذلك .

وقد خصصت مجموعة الوثائق التى أقدمها بين يدى هذا البحث للفترة الخاصة بالفتح العثمانى لمصر والشام ، وكان لزامًا أن أقدم على هذه الوثائق بعض الوثائق الأخرى الخاصة بالفترة السابقة على الفتح العثمانى والخاصة بالعلاقات بين المماليك والعثمانيين ، حتى نتبين الدوافع الحقيقية لهذا الفتح ، والتى لم تكن أسبابه وليدة أعوام قليلة سبقت الفتح ، وإنما كانت نتيجة لخلافات وصراعات قديمة على النفوذ سبقت سنة الفتح .

وتظهر هذه الوثائق فى أشكال مختلفة ، فبعضها رسائل متبادلة بين سلاطين المماليك وأمرائهم من ناحية ، وسلاطين العثمانيين ووزرائهم من ناحية أخرى ، والبعض الآخر تقارير جواسيس وعيون كلا الطرفين فى أرض الآخر ، تتضمن رصد الأحوال الداخلية وتحركات الجيوش والقيادات وغير ذلك .

وهذه الوثائق التى أقدمها اليوم ينشر معظمها لأول مرة اعتمادًا على أصولها العربية والتركية المحفوظة بدور الوثائق بتركيا . وهذه الدور تحوى الكثير من الوثائق التى تحتاج إلى تضافر جهود الباحثين لنشرها ودراستها دراسة تحليلية ؛ للإفادة منها فى عملية إعادة كتابة تاريخنا الحديث .

ولقد كان من حسن الحظ أن تمكنت أثناء وجودى فى أنقرة واستانبول من جمع وتصوير كل الوثائق والنصوص المخطوطة ، التى تتحدث عن فتح العثمانيين للشام ومصر ، وأفدت منها فى كتابى هذا ، وقد بلغ عدد الوثائق التى وردت فى هذا الكتاب ثلاثًا وثمانين وثيقة ، منها أربعون وثيقة باللغة التركية والباقى باللغة العربية .

وقد أضفت إلى الدراسة الوثائقية ، دراسة أخرى اعتمادًا على المخطوطات والمطبوعات التركية والعربية المعاصرة للفترة ، بعضها من تأليف شهود عيان رافقوا الحملة على الشام ومصر . ولم أغفل فى دراستى الرجوع إلى المصادر التركية والعربية المعاصرة للفتح وغير المعاصرة ، وكذلك بعض المصادر الأوربية القليلة والتى كان اعتمدها على مصادر عربية .

كما أننى لم أغفل تعقب تحركات الغورى واستعداداته لملاقاة السلطان سليم .. وبهذا سرت فى خطين متوازيين بالنسبة للسلطان الغورى وللسلطان سليم استكمالاً للمعلومات ، كى يكون هناك وضوح للرؤية يتسم بالتعادل فى طرح المعلومات الخاصة بكل طرف ، دون التركيز على طرف بعينه دون الطرف الآخر .

والوثائق التركية والعربية المنشورة فى هذا الكتاب تحتاج إلى دراسة خاصة من جانب المهتمين بدراسة اللغة التركية واللغة العربية سواء من الوجهة الأدبية أو اللغوية ؛ للإفادة منها فى تعرف طبيعة الحياة اللغوية والأدبية فى تلك الفترة ، كما تحتاج أيضًا إلى عناية المهتمين بالدراسة الوثائقية للوقوف على ملامح وثائق تلك الفترة وخصائصها ، ومقارنتها بوثائق فترات أخرى للإفادة منها فى تنمية هذه الدراسات .

وهذه الدراسة خطوة أولى على طريق دراسة تاريخ مصر والشام الحديث ، تناولت فيها العلاقات بين طرفى النزاع فى خطين متوازيين بقدر ما أتاحت لى المصادر المتوفرة التى اعتمدت عليها .

وقد ذكرت خط سير الحملة العثمانية على الشام ومصر نقلاً عن الوثائق والمخطوطات التركية المعاصرة للفترة ، وانتفعت بدقتها ، وحللتها واستفدت منها كثيرًا فى إلقاء الضوء على تحركات السلطان سليم وقيامه بتضليل غريمه الغورى والتمويه عليه .

وفى النهاية أتقدم بعظيم شكرى إلى الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم الذى لم يدخر وسعًا فى توجيه النصح إلَيَّ أثناء قيامى بإعداد هذا الكتاب .

والله ولى التوفيق

القاهرة فى ١٩٧٦

دكتور أحمد فؤاد متولى

الفصــــل الأول

العلاقة بين المماليك والعثمانيين

قبل فتح الشام ومصر

الفصل الأول

العلاقة بين المماليك والعثمانيين
قبل فتح الشام ومصر

يجدر بنا قبل أن نبدأ الحديث عن فتح السلطان سليم الأول للشام ومصر ، أن نمهد الأرض التى نقف عليها أولاً ؛ لكى تتضح معالمها ، فنعود إلى الوراء إلى ما قبل عصر السلطان سليم ، حتى نتعرف على الخط البيانى الذى سارت فيه العلاقات بين المماليك والعثمانيين ، ونتبين المسببات التى أدت إلى الصراع بين الدولتين ، وما تلاه من معارك ، كانت نهايتها استيلاء العثمانيين على الشام ومصر والقضاء على دولة المماليك ، فلم تكن الأحداث التى دارت بين السلطان سليم من ناحية وقانصوه الغورى وطومان باى من جهة أخرى ، وليدة فترة حكمهم ، وإنما كانت لها جذور عميقة ترجع إلى عهود سبقت حكم هؤلاء الأطراف .

(١) العلاقة بين سلاطين المماليك والسلاطين العثمانيين :

بدأت العلاقة المملوكية العثمانية فى أول عهدها بداية طيبة ، فلم يحدث بين الدولتين عداء أو صدام ، لعدم تضارب مصالحهما فى المنطقة ، ولبعد حدود الدولتين عن بعضهما فى أوائل عهد الدولة العثمانية ، مما كان له أكبر الأثر فى عدم حدوث احتكاك بينهما . وجهت الدولة العثمانية جهودها فى أوائل عهدها لمحاربة القوى المسيحية المجاورة وخاصة البيزنطيين . وكان هذا

دافعًا لقيام علاقات حسنة بين المماليك والعثمانيين ودفعها إلى الأمام ، لعدم ظهور أطماع لأى منهما فى أرض الآخر . وقد زاد من قوة العلاقة بين الدولتين أن عدوًّا مشتركًا كان يتهددهما ، وهو الخطر المغولى الزاحف من جهة الغرب ، مما حدا بهما إلى زيادة الروابط بينهما ضد الخطر المدمر المتجه نحو بلادهما .

(١) عهد برقوق: ٧٨٤ - ٧٩١هـ ، ٧٩٢ - ٨٠١هـ (١٣٨٢ - ١٣٨٩ ، م ١٣٩٠ - ١٣٩٩ م):

أرسل السلطان مراد الأول ٧٦١ - ٧٩٢ هـ (١٣٥٩- ١٣٨٩) قصاده سنة ٧٨٦هـ (١٣٨٤م) إلى السلطان برقوق ، لتحذيره من مغبة تحرك تيمورلنك نحو الغرب وخطره الدائم على المماليك والعثمانيين على السواء[١] . وعلى الرغم من مخاوف برقوق من الخطر القادم نحو بلاده ، إلا أنه كان يخاف أكثر من أطماع العثمانيين .

صدقت مخاوف برقوق ، فقد هاجم السلطان الجديد بايزيد الأول ٧٩٢ - ٨٠٥ هـ (١٣٨٩ - ١٤٠٢م) قيصرية سنة ١٣٩١م ، وقبض على أميرها الذى كان مشمولاً بحماية المماليك . ولكن بايزيد سرعان ما أحس بحرج موقفه وخطأ ما أقدم عليه ، عندما أحس بالخطر المغولى يقترب من بلاده ، ولا نصير له فى المنطقة سوى المماليك . فاعتذر لبرقوق عما أقدم عليه وأرسل إليه هدية ثمينة مع أحد رسله ، وطلب منه أن يبعث إليه بأحد أطبائه المهرة لكى يشرف على علاجه كما يذكر ابن إياس (ت ٩٢٨، ١٥٢٢م) . فلبى برقوق طلب السلطان العثمانى ، وأرسل إليه الطبيب شمس الدين محمد ابن صغير ومعه بعض الأدوية والعقاقير[٢] .

---

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ١١٦ تاريخ م ، ورقة ١٥، ١٦.

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ١ ص ٢٠٠.

تبادل السلطانان رسائل الود والصداقة للتأكيد على التحالف بينهما . فبعث الظاهر سيف الدين برقوق رسالة مع قاصده سعد الدين سعد الله البريدى إلى السلطان بايزيد الصاعقة . ذكر له فيها أن « المملكتين كروحين فى جسد وساعدين فى عضد » ، وشكا له من سوء معاملة الجنويين وكفار « كفه »[1] لتجار المسلمين وابن قابونى . فرد عليه بايزيد برسالة فى ٦ شوال سنة ٧٩٣هـ (٦ سبتمبر سنة ١٣٩١م) أوضح له فيها أنه أرسل قاصده إلى أمير جنوه وإلى مشركى كفه ؛ لتنبيههم إلى عدم التعرض لتجار المسلمين وأموالهم ، وإطلاق سراح السجناء منهم وابن قابونى وتسليم أموالهم إليهم كاملة ، وأكد على أواصر الصداقة بينهما ، وطلب منه الاستمرار فى المراسلة .

وهذا هو نص الرسالة بالعربية :

﴿ هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ الآية . أدام الله تعالى نعم المقر المولوى المظفرى الكبيرى العالمى العاملى العادلى الباذلى العونى الغوثى النظامى الهمامى المشيدى المنعمى المفضلى النصيرى المجاهدى المرابطى المثاغرى الأوحدى الأمجدى الكاملى الكافلى الغياثى الظهيرى الذخرى الأشرفى . وهو المباهى ، بعون الله اللامتناهى ، عز الشرع النبوى ، والدين الباهر المصطفوى ، كهف الثقلين ، ظل الله فى الخافقين ، المؤيد من السماء بالشوكة الفاخرة المشكورة ، المظفر على الأعداء بالصولة الباهرة المنصورة ، حامى قطان حرم الله تعالى بالتأييد الربانى ، قاهر أعداء الله بالنصر الرحمانى ، رافع أعلام الشريعة الشريفة السنِّية السنِيّة ، وقامع الأحكام البديعة البعيدة البدعية . سلطان أرض الله ، حافظ بلاد الله ، ناصر عباد الله ، معين أولياء الله ، مذل أعداء الله ، سلطان الإسلام والمسلمين . لا زالت معاقد جلال أركان سلطنته مشيدة ، ومقاعد كمال بنيان مملكته ممهدة ، وأعناق نظام الأمور إليه منعطفة ، ومقاصد المسلمين بمساعيه الجميلة منتظمة ، وجنابه الرفيع فى دولة لا تنهدم دارها ،

(١) كفه : مدينة فى شبه جزيرة القرم تطل على البحر الأسود.

ونعمة لا تنفصم آثارها ، وسعادة لا تصفر أوراقها ، وسيادة لا تتغير آفاقها ، ومنشور عزه مكتوبًا على جبهة الشمس ، وجماجم أعدائه « كأن لم تغن بالأمس » ، بنبيه محمد خاتم الأنبياء وآله الأتقياء وصحبه الأصفياء .

فالمحب المخلص بعد عرض صدق النية والطوية ، وتقديم فرايد قلايد الدعاء ، وغرر صحايف لطايف الثناء ، آناء الصباح وأطراف المساء ، والتحيات الساميات ، كروضة زينتها الأزهار ، والتسليمات الناميات ، كجنة تجرى من تحتها الأنهار .

سلام كروض المزن روقه الصبا صباحًا وطيب العيش فى رونق الصبا

وقطره طل الصبح فى عين نرجس ورقة دمع الوجد فى عين من صبا

يبدى إلى العلم الكريم ، علم الكريم لا زال محفوظًا بما يسر من المقاصد السنية ، والمطالب المنيفة البهية ، بعيدًا عنه أثر كل منفر ، مدفوعًا عنه كدورة كل مكدر . أن المثال الشريف الزاهر ، والخطاب المنيف الباهر ، المشتمل على فنون البلاغة ، المتحلى بأساليب الفصاحة والبراعة ، المحتوى على الألطاف السنية على أسناها ، ومن الأعطاف البهية على أسماها . فتلقيناه بالإجلال التام ، وطالعناه بالإعزاز والإعظام ؛ فصار وروده سببًا للمباهات ، وإحكام أحكام الحب والموالات . على يد حامله الصدر الأجل الأمير الكبير الممجد سعد الدين سعد الله البريدى ، دامت معاليه ، وأطلعنا على ما تضمنه ،من أن المملكتين كروحين فى جسد ، وساعدين فى عضد . فلله در بلاغته ما أنور قمره ونجمه ، ولله در فصاحته ما أنضر شجره ونجمه . ومن أخبار تضرر تجار المسلمين وواقعة المساكين ، وابن قابونى من الكفار الجنوية ، بكفه على ما أجمل فيه وفصل بما يحويه .

فحصل علينا من ذلك انفعال فى الأحشاء لاينتهى تكربه ، واحتراق فى السويداء لاينطفى تلهبه . فموجب الإشارة المنيفة من الجد والسعى فى تخليص

المؤمنين المظلومين من الظالمين ، على مقتضى رأيه المنير ملحوظ فى نظرنا ، إنسان فى أعيننا ، بيان ألسننا . فشرعنا بتجهيز القاصد بالكتاب إلى أمير الجنوية ، وهو يظهر الصداقة والإخلاص ، وإلى المشركين بكفه بإعلامهم جرايمهم ، وتعرضهم لتجار المسلمين وأموالهم ، وأمرنا بإطلاق جميعهم وابن قابونى ، وتسليم أموالهم إليهم بلا نقصان ، وبعدم التعرض لتجار المسلمين وأموالهم قط ، بل بالصداقة والإخلاص لجناب الكريم . ونكرر العهد ، ونؤكد القول بهذا المنوال على الوجه الأبلغ ، والغالب أنهم يمتثلون ويحصل المرام إن شاء الله تعالى .

وبعد هذا عن قريب ، سينتهى إلى الجناب المنيف الأخبار الجمة بحقيقتها . والآن قد أعيد مجلس الأمير سعد الدين المشار إليه ، إلى الجناب المنيف أيده الله تعالى . ويجهز عقيبه من يقوم بوظائف الدعاء حق القيام ، وينوب عن المحب فى إبلاغ التحية والسلام ، وبث لواعج الأشواق التى يتكاثر عددها ، وإظهار تباريح الاشتياق التى تتواتر مددها ، وتمهيد قواعد المودة ، وتشييد مبانى المحبة .

والمتوقع من محاسن شيمه ، وفواضل كرمه ، أن يتواصل بمكاتباته الشريفة ، ومراسلاته العزيزة ، مشتملة على بسنح من المهمات ، ويتفصل بإنهاء أخباره التى هى أسباب المسرات .

والله تعالى يخص الجناب العالى بإتمام المطالب والحاجات . ويعينه ويحرسه بفضله العظيم فى الحالات ، ويؤيده بملائكة السموات ، إنه مجيب الدعوات ورافع الدرجات . تحريرًا فى اليوم السادس من شهر شوال المبارك سنة ثلاث وتسعين وسبعماية [1] .

---

(١) أحمد فريدون (ت ٩٩١هـ ، ١٥٨٣م) : منشآت الملوك والسلاطين ، مخطوط بمكتبة متحف طوپقپو سرايى باستانبول تحت رقم ١٩٦٠ R، ورقة ١٨١ ب - ١٨٣ .

ملحوظة : يقع هذا المخطوط فى مجلد واحد ضخم الحجم ، ويشتمل على عشرات من الوثائق لم ترد فى أى من النسختين المطبوعتين .

رد برقوق على بايزيد الأول برسالة عبر له فيها عن فرحته بما ورد فى كتابه من أن « المملكتين كروحين فى جسد وكيدين فى عضو » ، وبما قام به نحو حماية تجار المسلمين من اعتداء « رئيس الكفار الجنوية » عليهم . وذكر له أن تاجرين عثمانيين ، أحدهما يدعى الحاج « تنكر ورمش » من مماليك الحاج « فيروز بك » والى أدرنة ، والآخر يسمى الحاج « إلياس » من مماليك التاجر « خواجه قاسم » قد اتجرا فى مصر بأموال مولاهما فى تجارة فلفل على خلاف القوانين المصرية . ثم طلب منه أن يعفو عنهما لكى يعودا بما معهما إلى صاحبهما .

وهذا هو نص الرسالة بالعربية :

ضاعف الله تعالى نعم المقر الكريم ، المولوى المظفرى ، الكبيرى العالمى ، العاملى العادلى ، الباذلى العونى ، الغوثى النظامى ، الهمامى المنعمى ، المفضلى النصيرى ، المجاهدى المرابطى ، المثاغرى الأوحدى ، الأمجدى الكاملى ، الكافلى الغياثى ، الظهيرى الذخرى الأشرفى . وهو المباهى بعون الله الغير المتناهى ، معين الشرع النبوى والدين الباهر المصطفوى ، كهف الثقلين ، ظل الله على الخافقين ، سلطان السلاطين ، خاقان الخواقين ، لا زالت قواعد الإسلام مشيدة بمكانه ، وأركان الدين ممهدة بدوام أيامه وزمانه ، وكلمته العليا منصورة بمجاهدة أنصاره وأعوانه . وأمصار المسلمين معمورة بمحاسنه وإحسانه ، ولا برحت موارد نعمه وسوابغ كرمه ، فايضة على أوليائه ، وهمم كافة المؤمنين مصروفة إلى الابتهال بمزيد بقائه ، ما لمع لامع آل ، وخطر معنى ببال .

وبعد ، فالمحب المباهى بإخلاص المصافاة ، بعد تقديم التسليمات الوافيات الصافيات والتحيات الساميات التاميات ، المعنبرة بنسيم الوداد ، والمعطرة بشميم الاتحاد ، يوضح لعلمه الكريم :

أولاً : أن مفاوضتكم الشريفة ، وملاطفتكم المنيفة ، كالدرر النضيدة ،

والآلى العقيدة ، وردت من بحر المصافاة ، ويم المواخاة فى أشرف الأمكنة ، وألطف الأزمنة ، وصارت سبحة فى أيدى وأيدى المؤمنين ، لتعداد محامدكم العلية . فشاهدنا عن[1] لطف ألفاظها وصفاء معانيها ، اشتداد أساس المحبة ، واستحكام بنيان المودة من كون المملكتين كروحين فى جسد وكيدين فى عضد . وإرسال القاصد إلى رئيس الكفار الجنوية ، لمنعهم عن أخذ أموال المسلمين ، واسترداد ما أخذوه منهم من غير حق ، خصوصًا عن ابن قابونى ، ففرحنا من ذلك فرحًا شديدًا ، وصرنا ممنونًا منكم ، جزاكم الله وأبقاكم .

وثانيًا : أن الغلامين التاجرين ، مسمى أحدهما بالحاج تنكر ورميش من مماليك مفخر الأمراء والأكابر الحاج فيروز بك الوالى بمحروسة أدرنة ، والآخر مسمى بالحاج إلياس من مماليك مفخر التجار خواجة قاسم ، من يتردد إلى باب المحب المخلص ، قد اتجر بأموال مولاهما المذكورين تجارة فلفل ، على خلاف قانون من القوانين المصرية ، وخبطا خبط عشواء ، ولأجل ذلك مكثا مكثًا طويلاً . فالمرجو من فواضل خدم الأبواب الشريفة ، والمستمد من لطايف كرمهم ، وخصايص شيمهم ، أن يتفضلوا فى حقهما فى رفع الموانع والإطلاق ، حتى يوصلا ما فى أيديهما إلى صاحبهما جريًا على سنن المكارم المعهودة ، ومشيًا بسنن شنشنتهم المحمودة ، لتلحق هذه المكرمة إلى المنن السابقة ، ولا زالت أيام دولته مشرقة الكواكب ، مغرقة السحايب . والله تعالى يؤيد بمنه وكرمه[2] .

دأب السلطان بايزيد الأول على تأكيد صداقته واحترامه لسلاطين المماليك ، فأرسل سنة ٧٩٧هـ (١٣٩٤م) تحفًا وهدايا إلى الخليفة العباس فى مصر وهو (المتوكل على الله) فى ذلك الوقت ، طالبًا منه تشريفًا وتقليدًا

---

(١) يستعمل حرف الجر (عن) مكان حرف الجر (من) والعكس فى الوثائق العربية أحيانًا .

(٢) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ١١٨٣ . ١٨٤ ا

باعتماده سلطانًا ، فبعث له المتوكل بهذا التقليد ، وهذا دليل واضح على مدى مركز السلطنة المملوكية وسيادتها الإسلامية العليا فى المجال الدولى والعالمي[١] .

(ب) عهد فرج ٨٠١ - ٨١٥ هـ (١٤٠٠ - ١٤١٢) :

على أن أطماع العثمانيين التى كانت تدفعهم من آن لآخر للإغارة على بعض المناطق المشمولة بالحماية المملوكية لم تجعل العلاقات الطيبة بين الدولتين تستمر فى صفاء ووئام . فقد توجس المماليك خيفة من هذه الأطماع التى تسفر عن وجه العثمانيين الحقيقى . ففى سنة ٨٠١هـ (١٤٠٠م) استولى بايزيد الصاعقة على ملطية وحاصر دارنده[٢] . وبعدها طلب التحالف مع الناصر صلاح الدين فرج ضد الخطر المغولى المقترب من بلادهما ، فرفض فرج ذلك التحالف بعد مشاورة أمرائه . وبهذا تمكن تيمورلنك من مداهمة كلا القوتين على انفراد ، فهاجم الأراضى المملوكية ، وتمكن من إنزال الهزيمة بالمماليك سنة (١٤٠٠م) بالقرب من دمشق ، كما استطاع أن يهزم بايزيد الأول ويأسره فى موقعة « **چوپوق أووه** » القريبة من أنقرة فى سنة (٨٠٤هـ ١٤٠٢م) .

وبعد وفاة تيمورلنك سنة (١٤٠٥م) تجددت العلاقات الطيبة بين الدولتين .

(جـ) عهد المؤيد سيف الدين شيخ المحمودى

٨١٥ - ٨٢٤ هـ (١٤١٢ - ١٤٢١م)

تولى شيخ المحمودى عرش المماليك سنة ٨١٥هـ ، لكن السلطان العثمانى الجديد محمدًا الأول ٨١٦ - ٨٢٤ هـ (١٤١٣ - ١٤٢١م) تأخر فى تهنئته

(١) د . محمد مصطفى زيادة · نهاية السلاطين المماليك فى مصر ، المجلة التاريخية المصرية ، م ٤، ع ١، ص ٢٠٠، مايو . ١٩٥١

(٢) العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ ، القسم الأول من الجزء ٢٥، ورقة . ٧٨

باعتلاء العرش . ففى أواسط ذى الحجة سنة ٨١٧هـ أرسل كتابًا إلى السلطان المملوكى على يد قاصده قوام الملك والدين قاضى « ابنه كول » من أعمال بروصه ، يعتذر فيه عن تأخره فى المراسلة بسبب ما وقع بينه وبين إخوته من نزاع على العرش بعد موت أبيهم ٨٠٥هـ (١٤٠٢م) ومساعدة « تكفور[١] » القسطنطينية عما نويل لهم وتحريضه إياهم ضده ، ويهنئه باعتلائه العرش ويطلب منه تجديد أواصر الصداقة القديمة . وقد أرسل محمد الأول هدية مع رسوله إلى السلطان المملوكى ، كانت عبارة عن مجموعة متنوعة من الأقمشة : خمس طقوزات[٢] من الأقمشة الرومية[٣] المتنوعة وثلاث طقوزات من الأقمشة الإفرنجية وبوغچتين[٤] (صرتين) من الأقمشة العجمية .

---

(١) (تكفور) كلمة يونانية الأصل أو رومية ، كان العثمانيون فى عهودهم الأولى يطلقونها على حكام ولايات الأناضول والروملى من البيزنطيين قبل استيلائهم عليها .

Mehmet Zeki Pakalin: Osmanli Tarih Deyimleri Ve Terimleri, Vol 3, P 443 Istanbul 1971

(٢) كلمة طقوز فى التركية معناها تسعة . وتستعمل هذه الكلمة فى التركية فضلاً عن العربية والفارسية بمعنى هدية .

كانت عادة قديمة أن يقدم أصحاب المناصب من العثمانيين كالباشوات وحكام الإمارات هدايا إلى السلاطين العثمانيين عبارة عن تسعة أعداد من كل نوع مما تحويه الهدية .

Turk Ansiklopedisi, Vol 13, P 471 Ankara 1966.

تجمع كلمة طقوز فى العربية على طقوزات .

(٣) كانت كلمة « الروم » شائعة فى الكتابات العربية فى العصور الوسطى وكان المقصود بها الترك ، لأنهم استوطنوا أراضى الروم (البيزنطيين) فى الأناضول ، فأطلق عليهم العرب هذه التسمية . وخير مثال على ذلك اسم مولانا جلال الدين الرومى .

(٤) كلمة تركية الأصل معناها صرة أو رزمة ، وتنطق فى العامية المصرية بقجة .

وهذا هو نص الرسالة بالعربية :

بسم الله الرحمن الرحيم

حامدًا لله ، ومصليًا على حبيبه محمد ، وعلى آله وصحبه

أدام الله تعالى عز الجناب العالى ، العالمى العاملى ، العادلى الكبيرى ، العونى الغوثى ، الغياثى النظامى ، الهمامى المشيدى ، المنعمى المفضلى ، النصيرى المرابطى ، الأوحدى الأمجدى ، الكاملى الكافلى ، محيى مراسم الإسلام ، مبدئ الشرايع والأحكام ، قاتل الطغاة وأعداء الدين ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، لازال جنابه الرفيع منبع الشرف الجم ، ومطلع المجد الأشم ، محفوفًا بدولة لاينهدم دارها ، وعزة لاينفصم آثارها ، المحب المخلص ، الوارث لمحبة المجالس الشريفة ، والمقار المقدسة المنيفة ، الحاملين لسكان الحرمين الشريفين من آبائهم العظام ، نور الله مضاجعهم ، الباذلين حال الحيوة مهجهم ، فى إعلاء كلمة الله وقهر أعدائه .

بعد تقديم محبة أصبحت منورة بأنوار الوفاء والإخلاص الصافى ، وأضحت محجلة بصفاء الولاء والاختصاص الوافى ، وازهرت بصدق الطوية رياضها ، وامتلأت من زلال المحبة حياضها ، ورفع أدعية صالحة مستجابة شريفة ، وعرض أثنية خالصة مستطابة لطيفة . ينهى ويبدى لعلمه الشريف ، أن سبب التأخير فى إرسال الكتاب، إلى ذلك الجناب ، وقوع الفترة وامتداد المنازعة بيننا وبين الإخوان أصلح الله شأنهم ، لاسيما كثرة المكر ووفر الاحتيال الصادر عن تكفور القسطنطينية ، لعنه الله ودمره ، ومعاونته لهم وتحريكه إياهم . فلما يسر الله لنا فى هذه الأيام الفرصة والنصرة بلطفه الشامل العام ، جددنا رسوم آبائنا العظام ، وأجدادنا الكرام . أنار الله براهينهم إلى يوم القيام ، فى إرسال الرسل والرسائل إلى عتبتكم العلية ، وسدتكم السنية . فجهزنا قدوة

الأماجد والمقربين ، مولانا قوام الملك والدين دام فضله ، القاضى يومئذ بقصبة « ابنه كول » من أعمال بروسه المحمية ، صانها الله عن الآفات والعاهات والبلية ؛ لتجديد قواعد المودة القديمة ، وتمهيد مراسم المحبة المستقيمة ، بالرسالة المنبئة عن خلوص الطوية . ولأن يؤدى نيابة من حضرتنا البهية ، تهنئة جلوسكم على سرير السلطنة فى نفس القاهرة . ويعظم فى التكاليف العادية الملكية الملوكية ، وينقل عنا كلمات الألفة وحكايات الصداقة ، كما قرأنا عليه وقررنا إليه بلا زيادة ولا نقيصة .

وأصدرنا معه لرسم الهدية من الأقمشة المتنوعة الرومية خمس طقوزات ، ومن الإفرنجية ثلاث طقوزات ، ومن العجمية بوغجتين . فالمأمول من كرمكم القبول حين الوصول . وأن يلتفتوا[1] إلى القاصد المذكور ، ويعيدوه بالخبر الموفور ، ويعلنوا به أخبار سلامتكم ، وأثار صحتكم ، وكيفية أطواركم اللطيفة المنيفة ، والأجوبة المطابقة لأسولتنا الخفية .

الله يؤيدكم وينصركم إلى قيام القيامة ، وجعلنا وإياكم من الهادين المهديين ، ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ آمين . حرر فى أواسط ذى الحجة الحرام سنة سبع عشر وثمانمائة .

بقصبة ابنه كول[2]

رد السلطانى المملوكى على رسالة محمد الأول بكتاب أرسله مع قاصده قرطباى الخاصكى ، والذى رافق قاصد السلطان محمد الأول فى عودته فى أوائل شهر شعبان سنة (٨١٨هـ) ، بين فيه مدى سروره بما تحقق للسلطان العثمانى من نصر على تكفور القسطنطينية ، وغبطته بالتهنئة بالعرش وبالهدايا التى أرسلها إليه ، وكانت هدية شيخ المحمودى عبارة عن فرسين وسرجين من

---

(١) يستعمل ضمير الغائبين فى مكان ضمير المخاطبين والعكس فى الوثائق العربية أحيانًا .

(٢) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة (٢١٩ ب - ٢٢٠ ب) .

الذهب والفضة ، وخمس طقوزات من الأقمشة المصرية ، وأربع طقوزات من الأمتعة الهندية والاسكندرانية . ثم طلب منه فى نهاية رسالته الاستمرار فى المراسلة .

وهذا هو نص الرسالة بالعربية :

حامدًا لله ، ومصليًا على نبيه محمد ، وآله وصحبه .

أعز الله تعالى أنصار المقر الكريمى ، الأعلمى الأعدلى ، الأمجدى المثاغرى ، المرابطى الظهيرى ، النصيرى العونى ، الغوثى الغياثى ، الإمامى الهمامى ، المجاهدى الأعزى المعزى ، سلطان الإسلام والمسلمين ، ملاذ الغزاة والمجاهدين ، قاتل الكفرة والمشركين ، نصير أمير المؤمنين ، المؤيد من عند الله الملك الصمد ، ممهد الدولة والدين ، سلطان محمد » ، مد الله تعالى ظلال عدله وإحسانه على مفارق الأنام ، بالعزة الأبدية والسعادة السرمدية ، بحق صفته الأحدية ذى الجلال والإكرام .

وبعد ، فلما ورد كتابكم الشريف وخطابكم المنيف ، على يد قدوة الأماجد والمقربين ، مولانا قوام الملك والدين ، من جملة قضاتكم ، زيدت فضايله فى أحسن الزمان وأطيب الأوان ؛ أخذناه بيد المحبة ، وقبلناه بشفاه المودة ، إثر تعظيم القاصد المزبور ، وتفخيم المولى المذكور . فقرأناه من أوله إلى آخره ، واطلعنا ما فى باطنه وظاهره ، وفرحنا من غلبتكم على العدوان من الإخوان ، بعون الله الملك المنان . خصوصًا عن دفع مكايد التكفور الكفور الوالى بالقسطنطينية ، دمره الله ، وسخرها ، وجعل ملكه وسلطنته منتقلة إلى سدتكم العالية ، وعرصتكم الإسلامية . ورفع ظلمة الفترة بطلوع شمس إقبالكم على تلك المملكة ، وانعكس مرآة سروركم إلينا ، وانكشف عنها جمال المحبة لدينا ، وتلألأ مصابيح الاتحاد ، وتضأضأ قناديل الوداد . وبششنا زيادة البشاشة ، عن تشييد مراسم المحبة والتهنية ، وشرفنا غاية الشرافة عن تمهيد لوازم المودة البهية ، وعظمناه غاية التعظيم ، وكرمناه نهاية التكريم ، وقلنا له :

عباراته فى النظم والنثر كلها غرايب تصطاد القلوب بدايع

وصرنا محظوظين من الهدايا المتبركة والخطابات المختفية .

وأجزنا الرسول المشار إليه بكمال الرعاية ، مع رفاقة الأميرى الأمجدى الأكرمى قرطباى الخاصكى ، دام عزه وبالخير أعاده . وأرسلنا معه الفرسين الجيدين ، والسرجين المتخذين من الذهب والفضة ، وخمس طقوزات من الأقمشة المصرية ، وأربع طقوزات من الأمتعة الهندية والإسكندرية . فالمرجو من ألطافكم العميمة أن يقبلوها بأخلاقكم الكريمة ، وأن يفتشوا المشافهات عنهما ، ويرخصوا رسولنا بعد التفحص منهما بالخير والسلامة ، وأن يفتحوا أبواب المكاتبات ، ويهيئوا أسباب المراسلات ، لئلا ينسج بيننا عناكب النسيان فى بيوت الحدثان وزوايا الملوان .

ختم الله لكم ولنا بالخير والحسنى ، وأدامكم لسد الثغور الإسلامية فى الدنيا ، وحشركم مع الشهداء والصالحين والغزاة والمجاهدين فى العقبى ، بحق سيد الأنبياء وسند الأصفياء ، محمد المصطفى عليه التحية والثنا ، وعلى آله وصحبه نجوم الهدى ورجوم العدا ، وسلم تسليمًا دايمًا . حرر فى أوايل شهر شعبان المعظم سنة ثمان عشرة وثمانمائة(١) .

استمرت العلاقات الطيبة بين الدولتين العثمانية والمملوكية ، وتبادل الطرفان الرسائل من آن لآخر ؛ لتأكيد أواصر الصداقة وتبادل ما يستجد من أخبار .

أرسل السلطان محمد الأول (چلبى) رسالة إلى السلطان المملوكى فى (٤ شوال سنة ٨٢٢هـ) مع قاصده الحاج خير الدين خليل بك ؛ شرح له فيها أسباب تأخره عن المراسلة ، وتتلخص فى اهتمامه « بدفع أعداء الله القاصدين لتخريب بلاد الإسلام وقتل المسلمين وقهرهم » . ثم أكد فى نهاية

---

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة (٢٢٠ ب ٢٢١ ب) .

رسالته على أواصر الصداقة والمودة التى بينهما ، ووصاه بتسهيل مرور التجارة إلى بلاده .

وهذا هو نص الرسالة بالعربية :

تيمنًا بذكره العزيز العلام الذى يبقى وجهه ذو الجلال والإكرام .

مد الله تعالى أطناب خيام دولة السلطانى الإمامى ، الهمامى الأعظمى ، الأكرمى الأعلمى ، الأعدلى الأشجعى ، الكاملى الكافلى ، المكملى المشيدى ، المنعمى الأرفعى ، الأوسعى الجليلى ، الجميلى المعظمى ، المفخمى الزعيمى ، الكريمى المرابطى ، المشاغرى ، الأولوى الأعلوى ، ملك الملوك فى العالم ، أسوة الحكام بين الأمم ، معين الإسلام والمسلمين ، غوث الملهوفين ، وغياث المظلومين ، ظهير الأقيال والخواقين ، قهرمان الماء والطين ، حامى سكان الحرمين الشريفين ، قايد حكام الصفا والمروتين ، المخصوص بمحض اللطف الودودى ، عضد الملك والدين ، أبو النصر الشيخ المحمودى ، خلد الله تعالى أيام سلطنته وإقباله ، وأدام أعوام عزه وإجلاله ، مادار الفلك وسبح السمك .

وبعد ، فلما كان مراسم المحبة بيننا مشتدة كبنيان مرصوص ، وثابتة بالآيات والنصوص ، لزم علينا تجديد المصادقة القديمة ، وتمهيد المخالصة المستقيمة . فالمحب المخلص غب إبلاغ الدعوات الخالصات المستجابة ، وإثر إهداء المدحات الوافيات المستطابة ، الصادرة عن خلوص الوداد ، وخصوص الاعتقاد ؛ يبدى إلى علمه الكريم ، علم الكريم لازال محفوفًا بما يسر من المطالب العالية البهية ، والمقاصد الرفيعة السنيّة ، أن هذا المحب المخلص منعه الاشتغال بدفع أعداء الله تعالى – القاصدين لتخريب بلاد الإسلام وقتل المسلمين وقهرهم – عن إرسال الرسل ، وإبداء الأشواق ، ورفع الواقعات .

والآن ، لما وقع الفراغ بعون الله تعالى وفضله ، وبركات رسول الله ﷺ ،

من قهرهم واستئصالهم وتدميرهم ، وتخريب بلادهم ، وقتل أمرائهم وصناديدهم ، وأخذ حصونهم ؛ أراد تحريك سلسلة المحبة والإخلاص ، وإبداء مارسخ فى القلب من المودة والاختصاص ، ورفع ما وقع بفضل الله تعالى من الفتح وارتفاع أعلام الدين ، وتدمير أعداء رب العالمين ؛ لينشرح به القلب الكريم ، الذى قصده مدى الأيام فى إعلاء كلمة الله تعالى ، ونصر أوليائه وقهر أعدائه ، وكفى بذلك فخرًا وذخرًا .

جهز الأمير الخطير ، افتخار الأمراء العظام ، ينبوع الألطاف والمكارم ، معدن المآثر والمفاخر ، يمين الملوك العظام ، افتخار الحجاج والمعتمرين ، الحاج خير الدين خليل بيك ، أدام الله تعالى عزه ؛ لينوب عن هذا المحب فى إعلام ما فى ضميره من فرط المحبة وصدق النية ، وخلوص الاعتقاد وصدق الطوية . ويبدى أن الإخلاص الموروث الذى لهذا المحب ، إرث من آبائه لخدمته الشريفة على التزايد ، بتعاقب الليالى والأيام ، وتكرر الشهور والأعوام ، شامخة البنيان راسخة الأركان ، لا يمكن أن يستنشق مشامها رايحة الزلل ، أو يختلط مباسمها شايبة الخلل ، وحملناه من المشافهات ليرفعها إلى المسامع الكريمة ، لازالت محفوفة بالسلامة والكرامة .

فالمأمول من اللطف التام والكرام العام ، الإصغاء إليها على عادته الحسنة البهية ، وسيرته الكريمة المرضية ، والمسئول من شيم الجناب المنيف ، أن يشرف هذا المحب الخالص أحيانًا بمشرفاته الكريمة المشرفة ، وكتبه المبجلات المبجلة ، وينبه بأخباره السارة الدالة على انتظام أمور الدولة المظفرية القاهرة ، لازالت منصورة الأعلام ناصرة لدين الإسلام ، ليكون سببًا للبهجة وانشراح الخواطر ، وأن يعلم بسوانح المهمات التى فى وسع هذا المحب إتمامها ، ليجد فيها مباهيًا ، ويهتم بها كل الاهتمام إن شاء الله تعالى . وأن يمكن التجار والقوافل القاصدين لبلادنا من الورود حسبما يمكن هذا المحب ، ويسبر ترنح موانعهم نفعًا للعباد ليعينه الله الملك المتعال فى المهمات بفضله العظيم ، ويؤيده بملائكة

السموات ، بلطفه العميم . وكتب فى رابع شوال سنة اثنى وعشرين وثمانمائة [1] .

رد شيخ المحمودى على السلطان محمد جلبى برسالة بعث بها إليه فى (٢٧ صفر سنة ٨٢٤هـ) ، معبرًا عن تأثره البالغ بما جاء فى كتاب السلطان العثمانى إليه ، ومبديًا استعداده للمشاركة فى درء خطر الأعداء الكفرة ، قائلاً : « وقع الاطلاع على مضمونه [كتابه إليه] المشتمل على فنون الألطاف ، والشكاية من إحاطة أعداء الله على المجاهدين ، فحصل من ذلك انفعال لايكتنه كنهه ، واحترق القلب ، بحيث لو كان سبيل الوصول إلى بلد قِرناط[2] ، نتوجه إليه بالجنود لنيل درجة الجهاد مع هؤلاء الكفرة الفجرة الطاغين ، وتخليص المظلومين من الظالمين . لكن الوصول ممتنع ، و يكلف الله نفسًا إلا وسعها ، واكتفينا بنية دفعهم وقهرهم إن اتفق المجال ، ونية المؤمن خير من عمله[3] » . ومن الجدير بالذكر أن هذه الرسالة وصلت إلى دار السلطنة العثمانية بعد وفاة السلطان **محمد چلبى** .

(د) **عهد برسباى** ٨٤١- ٨٢٥هـ (١٤٣٨- ١٤٢٢م) :

بدت العلاقات بين الدولتين غاية الصفاء ، بفضل عداوة شاه رخ بن تيمورلنك لكل من برسباى ومراد الثانى ٨٥٥- ٨٢٤هـ (١٤٥١- ١٤٢١م) وابنه محمد الأول من قبل . وجاء رسل عثمانيون إلى القاهرة سنة ١٤٢٣م ، يحملون تهنئة السلطان العثمانى باعتلاء برسباى عرش السلطنة المملوكية فى العام السابق ، واغتبط برسباى بمقدمهم وبما أحضروه معهم من هدايا ثمينة ، رد عليها بأثمن منها حسبما يتطلبه الآيين المملوكى . لكن هذه الهدايا لم تصل إلى « ابن عثمان » ، إذ وقعت فى أيدى المتجرمة فى

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة (٢٤٦ ب . ٢٤٧ ب) .

(٢) لعلها غرناطة .

(٣) نص الرسالة ضمن ملاحق هذا الكتاب ، برقم (١) .

البحر الأبيض من أهل قبرص ، وإخوانهم فى القرصنة وقتذاك . غير أن ذلك لم يمنع السلطان مراد الثانى أن يبعث سنة (١٤٢٦م) إلى برسباى هدايا فخمة صحبة رسل عثمانيين مرة أخرى ، من باب التهنئة على ما أحرزت حملتان مملوكيتان من نصر فى جزيرة قبرص . وأقام أولئك الرسل بالقاهرة حتى عادت حملة مملوكية ثالثة من قبرص سنة (١٤٢٧م) ، مكللة بآيات النصر ، وفى ركابها عدد من الأسرى بينهم ملك القبارصة نفسه ، وهو جانوس الثانى لوزنيان . وعندما جيء بهذا الملك عارى الرأس مكبلاً بالسلاسل ، وكانت حضرة السلطان بالقلعة مزدانة بأولئك العثمانيين وغيرهم من القصاد الذين صادف وجودهم بالقاهرة ، وبذا شهد القريب والبعيد ما فعلت بسالة الجنود المملوكية خدمة للإسلام[١] .

أرسل برسباى قاصده « تغرى وردى »[٢] إلى مراد الثانى للتعرف على أحوال العثمانيين ومعاركهم مع المجر « انكروس »[٣] وغيرهم . فرد عليه السلطان العثمانى بكتاب مع رسوله جمال الدين بن حسن فى ١٠ ذى الحجة سنة ٨٣١هـ (١٤٢٧م) حكى له فيه أخبار انتصار العثمانيين على المجر عند نهر الطونة واستيلائهم على قلعتين من قلاعهم . وعبر له عن فرحته بموت ملك « قيرال »[٤] الممالك اللازية « توسبات بن لان »[٥] على إثر سماعه أخبار انتصار الجنود العثمانيين على المجر ، المجر ، وباستيلاء جنوده على قلاع اللاز[٦]

(١) د. محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ، (ص ٢٠٠) .

(٢) هو تغرى بردى بن عبد الله البكلمشى الدوادار المعروف بالمودى الأمير سيف الدين أحمد تولى إمرة الطبلخانات ٨٣٤هـ فى عهد برسباى ، ثم جعله أمير مائة ومقدم ألف بالديار المصرية (٨٣٩٨هـ ، توفى ٨٤٦هـ) . (ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج ٢، ص ٤٤٢، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢٠٩ تاريخ تيمور) .

(٣) انكروس أو انكيروز أو انقروس : اسم أطلقه العثمانيون على شعب المجر ، ويشيع استعماله فى النصوص التاريخية العربية فى العصور الوسطى .

(٤) قيرال : كلمة سلافية الأصل تستعمل فى التركية العثمانية بمعنى ملك الإفرنج ، وتستعمل فى النصوص التاريخية العربية فى العصور الوسطى بنفس المعنى ؛ وهى فى التركية الحديثة بمعنى ملك .

(٥) يذكر فى الكتب التركية باسم « اسطفان لازارافتش » Istifan Lazarevic.

(٦) الصرب .

الحصينة سيما « **كوكر چنلك** »[1] ويقال : إن الغيرة التى أثارها مشهد الأسرى القبارصة فى مصر ، هى التى أدت بالسلطان مراد الثانى أن يرسل إلى برسباى سنة ٨٣٢هـ (١٤٢٨م) خمسين أسيرًا مسيحيًا إثر انتصاره على المجر عند الطونة[2] .

أرسل برسباى رده على هذه الرسالة معبرًا عن فرحه الشديد بنصر الإسلام وجنود المسلمين ، وبعث إليه بهدية كانت عبارة عن « مملوكة **چنكية**[3] ليكون رسم المراسلات غير مهجور »[4] .

وقد ظل الجانبان العثمانى والمملوكى يتبادلان رسائل الصداقة والمحبة . فكلما تحقق نصر لأحد الفريقين على عدوه ، سارع إلى إيفاد رسول من عنده إلى الطرف الآخر يبشره بفتح الإسلام المبين .

فعندما تيسر للعثمانيين فتح قلعة سلانيك فى (٥ رجب سنة ٨٣٢هـ) ، « وهى أحصن القلاع الإفرنجية وأصعب الديار الحربية ، وهى القسطنطينية توأمان فى كونهما منبعى الكفر والضلالة فى أيدى الكفرة الفجرة » . أرسل السلطان العثمانى قاصده بدر الدين محمود بك برسالة إلى السلطان المملوكى يزف إليه بشائر النصر . ويخبره أيضًا بانتصاره على حاكم « المملكة الأرناؤطية »[5] المسمى إيوان بعد تظاهره بعدم القدرة على دفع الجزية . كما أرسل مراد الثانى رسوله هذا ليقوم بمراسم التعزية فى وفاة شيخ المحمودى والتبشير بنصر العثمانيين ، وقد جهز معه بعض الهدايا « ليكون رسم المراسلة غير مهجور »[6] .

---

(١) نص الرسالة بين ملاحق هذا الكتاب ، برقم ٢.

(٢) د . محمد مصطفى زيادة : نفس المرجع ، نفس المكان .

(٣) **چنكى** : عازف على آلة **الچنك** ، وهى آلة من آلات الطرب . (زياد : هامش السلوك ، ح، ص ٥٧٥) .

(٤)نص الرسالة ضمن ملاحق هذا الكتاب ، تحت رقم ٣.

(٥) المملكة الأرناؤطية : هى مناطق الروملى الغربية .

(٦) نص الرسالة بين ملاحق هذا الكتاب ، برقم ٤.

وعندما حاصر بنو الأصفر[1] قلعة **كوكر چنلك** سنة ٨٣١هـ (١٤٢٧م)[2] ،هبت جنود العثمانيين للذود عنها واسترجاعها وقد تمكنوا من إحراز النصر على عدوهم ، واسترجعوا القلعة بعد أن فر « قيرالهم » ملكهم هاربًا خشية الوقوع فى الأسر . وقد أرسل مراد الثانى رسالة إلى برسباى مع قاصده سعد الدين أغا ؛ ليخبره بما حدث ويقدم له بعض الهدايا والتحف . وقد رد السلطان المملوكى على هذه الرسالة معلنًا فرحته بالنصر وشكره على الهدايا والتحف[3] .

ولا أدل على قوة الصداقة والعلاقات الطيبة المتينة بين مراد الثانى وبرسباى ، من أن الأول بعث رسوله الحاج عوض بك إلى الثانى سنة ٨٣١هـ (١٤٢٧م) يستشيره فى أمر الصلح بينه وبين ملك بنى الأصفر من الممالك المجرية « الأنقروسية »[4] لمدة ثلاث سنوات ، وفى شرعية دفع الأفلاق للجزية .

وهذا هو نص الرسالة بالعربية :

حامدًا لله تعالى ، ومصليًا على نبيه المصطفى وآله وصحبه ، مفاتيح الهدى ومصابيح الدجى .

أدام الله تعالى نعم الجناب سدة السلطان ، الكبيرى العالمى ، العاملى العادلى ، العونى الغوثى الغياثى ، النظامى الهمامى ، المشيدى المنعمى ، المفضلى النصيرى ، المجاهدى المرابطى المظفرى ، الكامل الكافل الظهيرى

(١) بنو الأصفر : أطلق العرب على اليونان بنى الأصفر . وقد ورد فى الحديث ذكر النزاع بين العرب وبنى الأصفر وفتح حاضرتهم القسطنطينية . كما أطلق « ملوك بنى الأصفر » على أمراء النصارى ، وخاصة أمراء الروم . وأطلقت هذه التسمية وهى « بنو الأصفر » بعد ذلك على الأوربيين عامة وأوربى الأندلس خاصة . [ترجمة دائرة المعارف الإسلامية ، م ٣، ص ٤٦٩، ٤٧٠] . والمقصود ببنى الأصفر هنا « المجر » .

(٢) تنازل ملك الصرب الحديد **چورج برانكوفتش** عن **كوكرچنلك** **لسجسموند** ملك المجر مقابل منع العثمانيين من المرور إلى الصرب عبر أراضيه خشية بطشهم .

(٣) نص الرسالة والرد عليها ضمن ملاحق هذا الكتاب ، تحت رقم ٥، ٦ .

(٤) ملك المجر فى ذلك الوقت سجسموند .

الذخرى ، المولوى الأولوى ، الأشرفى الأوحدى ، الأمجدى الأعظمى الأكرمى ، رافع سماء الإنصاف بعمد رأفته ، قامع الجور والاعتساف بصوارم هيبته ، ممد سرادقات الأمان على الأنام ، ممهد قواعد أحكام الإسلام ، حامى حوزتى الدنيا والدين ، مظهر كلمة الله العليا فى العالمين . محيى قواعد الرسوم والدوارس ، معلى مناهج المساجد والمدارس ، باسط أجنحة الأمن على أهل الإيمان ، المتكئ بمتكأ ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ ، الآمر لعباد الله بإقامة النفل والفرض ، المخصوص بتشريف « هو الذى جعلكم خلايف فى الأرض » ، الذى يهتز بأوصافه المآثر ، ويختال بذكر اسمه المفاخر ، وبه أصبحت أمور الخلافة منتظمة ، وقوانين السلطنة ملتئمة ، ورايات الجهل والعدوان منتكسة ، وسبل البغى والظلم مندرسة ، وألوية الأمن والأمان منشورة مرفوعة ، وجماجم الأعداء مخفوضة مكسورة مجرورة مقطوعة ، لازالت رياض الثناء عن جود وجوده أريضة متبجلة ، وأرجاء الرجاء عن عرف عرفه متعطرة متأرجة ، ما خطب الأخطاب على منابر الأشجار ، وضحكت عن بكاء الغمايم مباسم الأزهار ، بالنبى النبيه والصفى الوجيه محمد وآله وذويه .

ينهى المباهى فى ولائه ، والمناجى بوروده فى دعائه وثنائه ، بعد عرض التحنن والأشواق الغير عديدة ، ونيثر صحائف الود الصادرة عن خلوص النية وصفاء الطوية ، وتقديم تحية أصبحت منورة بأنوار الوفاء والإخلاص ، محجلة بصفاء الولاء والاختصاص ، وأزهرت بصدق الطوية رياضها ، وامتلأت من زلال المحبة حياضها ، ورفع أدعية صالحة مستجابة ، وإهداء أثنية جمة مستطابة .

سلام كبيض ترايب كاعب ... سلام كتسويد عذار مراهق
سلام كعطشان ألم بمنهل ... وقد ذاب حرًا فى طوال السمالق
سلام كعقد الدر فى جيد غادة ... سلام كضوء النهار فى عين طارق
سلام كثير لا يعد فصوله ... بتحرير كاتب وتقرير ناطق

إن هذا المحب من جملة المخلصين لحضرة سلطان الإسلام ، خلد الله سلطانه ، وأوضح على العالمين برهانه ، وذلك الإخلاص والمودة عن التزايد ، بمرور الأيام وتجدد الأعوام شامخة البنيان ، راسخة الأركان ، لا يمكن أن يستنشق مشامها رايحة الذلل ، ويختلط مباسمها شايبة الخلل . وكانت المخالصة والمصادقة فى البين ، سنة السلاطين الكرام الماضين ، الحامين لقطان حرم الله تعالى ، وشنشنة آبائنا وأجدادنا المرحومين ، أفاض الله عليهم شآبيب الغفران ، ولاسيما فى أيام سلطان السلاطين ، لازالت رايات سلطنته فى الخافقين خافقة ، وآيات سيفه بالفتح والنصر ناطقة ، وسحايب أفضاله على رءوس العباد دافقة ، تزايدت هذه المنية ، وتضاعفت هذه البغية ، وما ذلك إلا من آثار ملكاته الملكية ، ومكارم معارفه الملكوتية القدسية ، فلا زالت هذه المصافاة متزايدة الإمداد متضاعفة الأعداد .

ياربى لا تسلبنـــى حبهــا أبــدًا　　　ويرحـم الله عبدًا قال آمينا

ووقعت الإشارة المنيفة فى إنشاء المراسلات الشريفة من المواقف المقدسة السلطانية والمقار الممجدة الخافاقية ، لازالت من سهام النوايب مصونة ، وبعظام المواهب مقرونة بأن يسقط شروط صدق المحبة أسباب التكليف .

وينهى الأخبار إلى الجانب الأعلى ، أعلاه الله تعالى أبدًا وسرمدًا فى كل برهة من الزمن . فيبدى لعلمه الكريم ، أن أكبر الملاعين قيرال اللعين ، وهو ملك بنى أصفر من الممالك الأنقروسية ، لعاين الله عليهم أجمعين ، قد تتابع رسله ورسائله أطلب وقوع الموادعة والمصالحة المؤكدة المؤبدة بيننا وبينه . فكرر هذا الطلب وأصر عليه ، فوقع الاستبشار بين صناديد المسلمين من أرباب العقول الصايبة ، وأصحاب الآراء الفايقة طريقة الثاقبة . فأحالوا الأنظار فى سجنجل الأفكار ، بأن المقاتلة مع الكفار طريقة المهاجرين والأنصار ، والملازمة على المجاهدة سبب تأكيد القواعد الربانية ، ومنشأ فيض الهداية الصمدانية ، كما قال الله تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ . فإن العساكر

الإسلامية وإن كانت مظفرة عليهم منصورة بنصر الله ، ولكن إفراط المحاربة وإطالة المعاداة بين الملوك ، لايخلو عن امتداد الفتن واشتداد المحن ، وانقلاب الممالك ، واضطراب المسالك ، وانقطاع الطرق على كل ذاهب وآيب وراحل وقافل . فلمصلحة المسلمين رضينا على الوادعة المؤقتة إلى ثلاثة سنين . فأما الكفار اللازية والبوسنوية ، فهم كانوا ذميين عن زمن آبائنا المرحومين . وأما الكفار الأفلاقية ، فرضوا بأن ﴿ يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ ، فوقع الاتفاق على قبولها سعيًا لبيت مال المسلمين ، فسلكوا مسالك الذميين .

وقد وجهنا على العجلة خدمة الأمير الكبير حاوى المعالى والمفاخر ، جامع المكارم والمآثر ، زاير الحرمين الشريفين ، عماد الدين ، الحاج عوض بيك ، دامت معاليه إلى الجناب المسعود ، أيده الله تعالى إلى انقضاء أعداد كل مولود ، وانقراض أعمار كل موجود ، لتبليغ التسليمات ، وعرض التحيات الناميات ، والأشواق والأنواق ، المنبعثة عن الصدق والصفا ، المبرأة عن شوب الريب والريا . ولتحمل أخبار سلامة المقر الكريم ، أيده الله العلى العظيم . وإيصالها إلينا بالتعجيل ، ليكون سببًا للبهجة والمسرة . ونشكر الله تعالى على ذلك ، ورفع ما وقع بفضل الله تعالى من ارتفاع أعلام الدين ، وانخفاض أعداء رب العالمين . يبدى إلى العلم الكريم ، لينشرح به الطبع المستقيم ، الذى قصده مدى الأيام فى إعلاء كلمة الله تعالى ، ونصر أوليائه ، وقهر أعدائه ، وكفى به فخرًا وذخرًا . وحملناه من المشافهات ليرفعها إلى المسامع الكريمة ، لازالت محفوفة بالسلامة والكرامة . فالمأمول من اللطف التام والكرم العام ، الإصغاء إليها على عادته الحسنة البهية ، وسيرته الكريمة المرضية .

فالمرجو من عميم إحسانه أن يواصل الرسل والرسايل دايمًا أبدًا ، وأن ينبهوا على سوانح الحالات ، وتيسير المقاصد والمهمات ، ليكون سببًا لإنشراح الخواطر وطيب الأوقات .

والله تعالى يؤيده وينصره بملائكته فى الأرضين والسموات ، ويرزقه

المقاصد والحاجات ، بفضله العظيم ، وكرمه الجسيم ، وإحسانه العميم[1] .

أشار برسباى على السلطان العثمانى بالامتثال بما قال عز من قائل ﴿ والصلح خير ﴾ ، ونصحه بعقد الصلح مع من يرى أن الصلح معهم أنفع وأخذ الجزية من البعض الآخر إذا رأى أنها صائبة ، كما سبق فى عهد الرسالة مع مشركى مكة المكرمة .

وهذا هو نص الرد بالعربية :

حامدًا لله تعالى على منته الصافية الأعداد ، الوافية الإمداد ، ومنحة الجاريات العداد ، كجرى العاديات الصافنات الجياد ، لاسيما على ما أفاض فى قلوب المؤمنين من زلال الوداد عن سحايب السداد ، فازدهرت به فى جنان خلوص النية وصفاء الطوية رياض الإخلاص والاعتقاد . إن هذا لرزقنا ماله من نفاد ، والصلاة على من هو مصباح الهدى ومفتاح باب النجاة فى يوم الميعاد ، محمد المبعوث بدين تحقق بالنصرة راياته ، وكتاب ينطق بالحكمة آياته ، وعلى آله الأمجاد وأصحابه الذين هم هداة سبل الرشاد ، ما خطب الأخطاب على منابر الأشجار ، وضحكت عن بكاء الغمام مباسم أزهار الأعواد .

وبعد ، فغب تقديم تحية أصبحت منورة بأنوار الوفاء والإخلاص ، وأضحت محجلة بصفاء الولاء والاختصاص ، وعرض أثنية معنبرة بنسيم عنبر الوداد ، ومعطرة بشميم عبهر الاتحاد ، وأداء كريم محامد الكريم ، كنفحات روايح فوايح النسيم ، فروح وريحان وجنة نعيم . ينهى المباهى فى ولائه ، أن لطيف كتابه وشريف خطابه ، من أوج برج الإقبال ، وذروة شامخات الجلال ، أعنى حضرة من خصه الله تعالى بالمكارم الملكية والملكات الملكية الملكوتية ، المستغنى ذاته الشريف عن التوصيف بالألقاب ، بشرف النفس وعلو الجناب . لازالت آيات سلطنته متلوة بألسن الأمم ، ومحسنات معدلته مشهورة

---

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٢٩٥ ا - ٢٩٧ ب .

بين أرباب الكرم . ورد فى أيمن الأوقات وأسعد الساعات ، أحسن من خدود ذوات الخدور وعقود الدرر فى نحور الحور ، محلى بحلية كل فى وصفها الألسن ، ومزينًا بزينة ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، أو كروضة زينتها الأزهار بل كجنة تجرى من تحتها الأنهار .

كـلام بــل مــدام بـل نظـام   من المرجان بل حب الغمام

بدائع ألفاظه درر ضاحكة ، يحكى عن جزالة مجارى البيان ، ولطايف معانيه سلسال باكية ، تنادى عن غرر سحايب التبيان . فأطلعنا على مضمونه المنيف من فنون التودد والتلاطف ظاهرًا من مطالعة فحاويه ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ ، ومن مشاهدة مطاويه ، ﴿ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾ . فصار وروده سببًا لتضاعف المصادقة والموالاة وإحكام أحكام الود والموافاة . فالمحب المخلص صادق الوداد ، وراسخ الاعتقاد ، مستقيم الحركة فى دايرة الوفاء ، مستديم السكون فى مركز الصفاء ، لايكدر زلال الحب بتغيرات الغبرائية ولا يتغير نيل الود بتبدلات الترابية ، عقيدتنا أزلية واتحادنا سرمدية . حفظكم الله وإيانا إلى يوم التناد ، على نهج خلوص الروحانية فى عالم الأجساد ، فهو المرام والمراد .

وبعد ، فإن المقر العالى ما أشار واستشار إلينا فى باب الصلح مع العدوان ، فأمر مشروع ، ودفع الخصم بلطف الله على محله مودوع . فإن لزم بمقتضى الحال فيجوز للاستراحة الضرورية الامتثال بما قال عز من قائل : ﴿ والصلح خير ﴾ . وإن لم يلزم ، فتوقف الشجعان والأبطال فى ذلك أمر محال . وأما ما وقع من المصالحة ببعض الكفار إلى ثلث سنين ، وبالبعض بإعطاء الجزية كساير المتنصرة ، ففيها نفع كثير بلا شبهة ، كما سبق فى عهد الرسالة عليه السلام مع مشركى المكة المعظمة .

فالمرجو من محاسن أخلاقه ، أن يؤثر هذه الخليقة ويسلك هذه الطريقة ، بأن يشرفنا أحيانًا بمثل تلك المشاورات الشريفة والمكاتبات اللطيفة ، حتى يكون

سببًا للمسرة ، ووسيلة للمفاخرة بين السادات والأشراف ، والأمراء والأخلاف . والله تعالى يؤكد أطناب إقباله إلى يوم التناد بمسامير الخلود والأوتاد ، ما أقيم على كتاب الله تعالى نقط وإعجام ، وتكررت الشهور والأعوام .

والحمد لله الملك العلام ، وصلى على سيدنا محمد المبعوث إلى كافة الأنام ، وآله وصحبه الكرام[١] .

وفى سنة ٨٣٧هـ (١٤٣٣م) لجأ إلى القاهرة الأمير سليمان العثمانى وأخته فاطمة شهرزاده فرارًا من السلطان مراد الثانى ، فأنزلهما السلطان برسباى القصور السلطانية ، وأحسن وفادتهما ، ورفض طلب السلطان مراد الثانى إعادتهما إليه ، وذلك خشية أن يقتل السلطان الأمير سليمان خوفًا على عرشه على جارى عادة السلاطين العثمانيين فى قتل إخوتهم وأقاربهم ، فساءت العلاقات بين الطرفين . وقد التحق سليمان بحاشية يوسف بن برسباى ، وانضمت فاطمة إلى حريم القصر . وفى سنة ١٤٣٦م تزوج برسباى فاطمة شهرزاده[٢] .

(هـ) عهد چقمق ٨٥٧- ٨٤٢هـ (١٤٥٣- ١٤٣٨م) :

توطدت أواصر الصداقة بين المماليك والعثمانيين فى عهد **الظاهر أبى سعيد چقمق**[٣] ، وتبادل الجانبان الرسائل والهدايا فى مناسبات عديدة . فبعد أن اعتلى **چقمق** العرش فى (١٩ ربيع الأول سنة ٨٤٢هـ) أرسل إلى مراد الثانى رسالة فى (١٠) جمادى الأولى من نفس العام مصحوبة ببعض الهدايا والتحف مع قاصده اسندمر Asandamear الخاصكى ؛ يخبره فيها بأن

---

(١) أحمد فريدون : المرجع السابع ، ورقة ٢٩٧ ب - ٢٩٨ ب .

(٢) تفصيل ذلك فى ص ٤٠.

(٣) **چقمق** أو **چقماق** أو **چاقماق** كلمة تركية الأصل معناها قداحة .

برسبان توفى بعد أن عهد إلى والده العزيز يوسف بالسلطنة وكان فى الرابعة عشرة من عمره ، وجعل **چقمق** وصيًّا عليه « وقائمًا بأعباء أود مملكته ومرشدًا له فى أقواله وأفعاله إلى أن يأنس رشده » . ثم قص عليه تطورات الأحداث من بعد ، بقوله : « فى غضون ذلك لاذ بالطفل المشار إليه زمرة من أحداث مماليك والده ، وأخذوا فى إضمار أمور تضحك السفهاء منها ويبكى من عواقبها اللبيب منها السعى فى تفريق الكلمة المنتظمة ، ومنها إلقاء الفتن والخلف بين العساكر ، ومنها سلب خليفة الله أمنًا على أنفسهم وذويهم ، ومنها استباحة ما حرمه الله عز وجل من أموال المسلمين ودمائهم وما وراء ذلك . إلى أن كاد والعياذ بالله تعالى أن يقع الخلل فيما نحن قابضون عليه من زمام المملكة . فلما تفاقم الأمر آوى إلينا خليفة الله فى أرضه ، مولانا أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين ، وهو المعتضد بالله داود بن المتوكل العباسى ، ثم جمعوا المشايخ العظام وعلماء الأنام والقضاة والفضلاء والأئمة والخطباء وجملة أهل الحل والعقد وكافة أركان الدولة الشريفة وزمرة العساكر الإسلامية وطائفةالجنود السلطانية ، وعرضوا على سمعنا اللطيف وألحوا فى قبول مرامهم وذلك الشروع فى أمور الخلافة [خلافة العرش] ... قالوا مرة بعد أخرى وكرة إثر أولى ، القبول لازم بل واجب إلينا منهم ... فعند ذلك استخرنا الله تعالى وأقبلنا على قصد المشار إليهم ، وفوض مولانا أمير المؤمنين المشار إليه - أعز الله الدين - السلطنة المعظمة إلينا » .

وبعد أن اعتلى **چقمق** العرش لبى طلب مراد الثانى الذى كان قد طلب فيلا من برسباى . وأمر نواب السلطنة المملوكية على الحدود مع العثمانيين بأن يحسنوا علاقات الجوار مع ابن السلطان العثمانى أحمد بك الذى كان حاكمًا على سيواس وتوقات وأماسيا وغيرها . ثم طلب من مراد الثانى فى نهاية رسالته أن يسهل عودة التاجر المملوكى خواجه زين الدين بكيساى بما عسى أن يكون بصحبته من المماليك الأجلاب[1] .

(١) نص الرسالة ضمن ملاحق هذا الكتاب ، برقم . ٧

أرسل مراد الثانى كتابًا مصحوبًا ببعض التحف والهدايا إلى **چقمق** مع قاصده ولد بك فى سنة ٨٤٣هـ (١٤٣٩م) لتهنئته بالجلوس على العرش وتبشيره بفتح قلعة سمندره وتخريب بلغراد وكوهين وطمشوار وانتصاره على اللاز وبنى الأصفر .

امتلأت رسالة مراد الثانى بعبارات كلها تبجيل وإجلال مما يدل على توثيق عرى الصداقة والمحبة بينهما . فقد قال بمناسبة اعتلاء **چقمق** العرش : « إن سرير السلطنة المتبركة تزينت بعز جلوس خير خلق الله خلقًا ودينًا أيده الله » . ثم أكد له على حسن الجوار ودوام الصداقة ، ووصف نسبته إلى **چقمق** بأنها « نسبة الولد إلى الوالد الكريم أيده الله العلى العظيم ، بل نسبة أطوع الموالى إلى مولى الموالى »[١] .

وفى ٢٠ ذى الحجة سنة ٨٤٣هـ أرسل **چقمق** قاصده أحمد بن الطاهر حاملاً الرد على الرسالة التى كان السلطان العثمانى مراد الثانى قد بعث بها إليه . عبر جقمق فى كتابه هذا عن فرحته الشديدة بما تحقق للإسلام من فتح مبين ، ووصف منزلة « ابن عثمان » عنده ، قائلاً : « ومنزلة المقر الكريم . والشفقة عليكم فى ضميرنا الشريف . أعظم من والده على ولده » وتمنى « أن تكون المملكتان كروحين فى جسد أو ساعدين فى عضد » .وقد ضمت التحف والهدايا التى صاحبت الرسالة ، المصحف الكوفى القيم الذى كتب بخط سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه [٢] ، مما يبرهن على مدى ما بلغته الصداقة بين السلطانين[٣] .

---

(١) نص الرسالة ضمن ملاحق هذا الكتاب ، برقم ٨ .

(٢) عندما عثرت على هذه الرسالة فى النسخة المخطوطة من كتاب أحمد فريدون بمكتبة متحف طوپقپو سرايى باستانبول فى شتاء (١٩٧٥) ، بادرت بإخبار مدير المتحف بذلك ؛ فقام بتصحيح المعلومات المكتوبة تحت هذا المصحف الشريف المحفوظ فى المتحف والتى كانت تشير إلى أن السلطان سليمًا الأول أحضره معه بعد فتح الشام ومصر .

(٣) نص الرسالة بين ملاحق هذا الكتاب ، برقم ٩ .

وقد زادت العلاقات بين السلطانين توثقًا بعد زواج **جقمق** من خوند شهرزاده بعد وفاة زوجها الأول برسباى[١] .

وعلى أثر انتصار العثمانيين سنة (١٤٤٤م) عند مدينة فارنا ببلغاريا الحالية على جيوش لادسلاس Ladislas ملك المجر ، وهنيادى Hunyadi نائب ترانسلفانيا ، أنفذ مراد الثانى خمسين مملوكًا وخمسة من الجوارى البيض وكمية من القماش على سبيل الهدية إلى **جقمق** ليبرهن له على مدى ما تحقق على أيدى العثمانيين من فتوح إسلامية[٢] .

وغدا السلطان **جقمق** موضع إجلال محمد الثانى (٨٥٥- ٨٨٦هـ) (١٤٥١- ١٤٨١م) بعد مراد الثانى ، بدليل هديته التى أرسلها إلى القاهرة عند اعتلائه لأول مرة عرش العثمانيين سنة ١٤٤٥م حتى إذا اعتلاه نهائيًا سنة ١٤٥١م بعد وفاة مراد الثانى ، أسرع **جقمق** بالرد على هذه الهدية بما هو أحسن منها ، مع وفد خاص للتهنئة[٣] .

ولما علم **جقمق** أن السلطان محمدًا الثانى أرسل جنده لتأديب بعض حكام شرق الأناضول الذين يقطعون طرق التجارة وينهبون الأموال ويستبيحون قتل الأنفس ، أرسل إليه سنة ٨٥٥هـ رسالة شكر وتقدير على ما قام به خدمة للمسلمين مع فخر الأمراء يخشى بك . وتدل الرسالة على مدى غبطة **جقمق** بهذا العمل الذى قام به السلطان العثمانى ، حيث يقول له : « استبشر المحب المخلص بذلك غاية الاستبشار ، وحصل به البهجة والسرور . فشرعنا فى الاستمداد من العلماء والصلحاء ليشتغلوا بأوراد الأدعية وامداد الأثنية ، لدوام نظام عقود السلطنة القاهرة ، وإعلاء أعلام الدولة الزاهرة ،

---

(١) انظر ص ٥٩.

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ذيل السلوك ، مخطوط بمكتبه أيا صوفيا باستانبول تحت رقم ٣١١٣ ورقة ١١٩٠ - ١٩١ب .

(٣) محمد مصطفى زياده : المرجع السابق ، ص ٢٠١.

وما هى إلا عزيمة عظمى ومجاهدة كبرى » ويستطرد قائلاً : « وقد جهزنا لخدمتكم العلية جمال الدولة والدين يخشى بك ، ليبلغ التحية والسلام . ويقوم بوظائف الدعاء حق القيام ، وبث لواعج الأشواق التى تتكاثر أعدادها . وإظهار نتايج الأتواق التى تتواتر أمدادها ، والأفئدة على وده متطابقة . والألسنة بشكره متوافقة ، لاسيما فى الطريقة الميمونة التى اقتضت العزيمة المسنونة . لازالت النصرة طراز لوائها ، والهزيمة من لوازم أعدائها » . ويطلب **چقمق** من السلطان محمد الثانى فى نهاية رسالته أن يفضى إليه بأخباره السارة ، وألا يقطع الرسل والرسائل ، فيقول : « المأمول من اللطف العام ، أن يفضل بإنهاء أخباره المبشرة التى هى أسباب المسرات . وأن يتواصل الرسل والرسائل ، ليكون سببًا لانشراح الخواطر وطيب الأوقات »(١) .

وفى يوم الأربعاء الموافق الثانى من شهر صفر سنة ٨٥٦هـ كتب محمد الثانى رده على هذا الخطاب ، وأرسله من العاصمة العثمانية فى ذلك الوقت وهى أدرنة إلى القاهرة . والرسالة مليئة بالمدح والثناء والدعاء لسلطان المماليك . وفيها يقدم السلطان العثمانى نفسه على أنه بمنزلة الابن بالنسبة **لچقمق**(٢) ، مما يدل على مدى ما بلغته العلاقات الطيبة بينهما فيقول : « ومن تتمة حديث المحبة الجارى على ألسن الأحبة ، أن نسبة الجناب السلطانى الأعظمى . لازالت أطناب خيام دولته مشيدة بأوتاد الخلود والدوام ، وأوامر مقام سلطنته القاهرة مؤكدة بعناية الأحكام والاستحكام . إلى هذا المحب نسبة الأب العطوف . وإن شئت قلت نسبة مولى الموالى إلى مولى هو أطوع الموالى » . ثم يستطرد محمد الثانى فى وصف ما حدث مع العدو جغتاى من بنى شاه رخ . وفى خاتمة الرسالة يؤكد السلطان العثمانى على أنه إذا تجدد خبر ، فعلى سلطان المماليك أن يرسل به على وجه السرعة ، فيقول : « إذا تجدد خبر يليق أن يتسامع به مسامعنا الشريفة ، لا يتوقف على تعيين قاصد .

(١) نص الوثيقة بالعربية ضمن ملاحق هذا الكتاب ، تحت رقم ١٠.

(٢) كان **چقمق** فى الثمانين من عمره فى ذلك الوقت ، وكان محمد الثانى فى الرابعة والثلاثين .

بل يكتب به على يد ساع بحيث يحضر بسرعة ويعود إليه جوابنا الشريف »[1] .

(و) عهد إينال ٨٥٧ - ٨٦٥ هـ (١٤٥٣ - ١٤٦١م) :

توفى جقمق سنة ٨٥٧هـ (١٤٥٣م) ، وخلفه على العرش الأشرف سيف الدين إينال فى مارس من نفس العام . كان السلطان محمد الثانى مشغولاً آنذاك بفتح القسطنطينية ، وبعد أن فتحت العاصمة البيزنطية ٨٥٧هـ (١٤٥٣م) احتفلت القاهرة بهذا النصر العظيم ، فزينت الأسواق والشوارع ، وأوقدت الشموع ، ودقت طبول النصر . وجاءت من عند ابن عثمان رسالة[2] على يد قاصده جلال الدين يوسف القابونى يهنىء فيها إينال باعتلائه على العرش ، ويبشره بالفتح ، : يصف محمد الفاتح إينال فى رسالته بأنه بمنزلة الأب[3] ، مما يدل على مدى التبجيل والاحترام الذى خص به ابن عثمان سلطان المماليك ، حيث يقول : « الملكى السلطانى الأشرفى الأبوى الأعطفى ، ضاعف الله تعالى ملكه وسلطانه وأفاض على العالمين بره وإحسانه » ثم يهنئه بالعرش ، فيقول : « لما تتابعت عندنا الأخبار التى تشتمل على صعود شمس السلطنة على أوج سرير الخلافة ، أدامه الله وأعلاه وبارك فيه وأبقاه ، ببركة نبيه المجتبى ورسوله المصطفى عليه وعلى آله من صلة الصلوات أزكاها ؛ ملئنا بهجة وسرورًا وغبطة وحبورًا ، وأنشدنا بلسان صدق : « هنيئًا لمصر أنت صرت عزيزة » . ويصف فتح القسطنطينية وما أبلاه جنوده فى فتحها ، فيقول : « من أحسن سنن أسلافنا رحمهم الله أنهم مجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ونحن على تلك السنة قايمون وعلى تيك الأمنية دايمون . ممتثلين بقوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ﴾ ،

---

(١) نص الوثيقة ضمن ملاحق هذا الكتاب ، تحت رقم ١١.

(٢) الرسالة بقلم معلم السلطان الفاتح « مولا كورانى » .

(٣) كان إينال فى الثانية والسبعين من عمره فى ذلك الوقت ، وكان محمد الثانى فى الرابعة والثلاثين .

ومستمسكين بقوله عليه السلام : « من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار » . فهمتنا فى هذا العام . عمه الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل ذى الجلال والإكرام ومتمسكين بفضل الملك العلام . إلى أداء فرض الغزاء فى الإسلام ، مؤتمرين بأمره تعالى : ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ جهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجورًا وكفرًا التى بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهى بكفرها فخرًا .

فكأنها حَصَفٌ على الخد الأغر   وكأنها كَلَفٌ على وجه القمر

وهى محصنة صعب المرام شامخة الأركان راسخة البنيان ، مملوءة من المشركين الشجعان خذلهم الله أينما كانوا . وهم مستكبرون على أهل الإيمان متناصرين بالجزاير الغربية ، مثل رودس وقطلان ووناديك وجنويز[1] وغيرهم من أهل الشرك والطغيان . وحصن مسدد مشدد مشيد متسق النظام ، وما ظفروا به أسلافنا العظام هؤلاء السلاطين الأساطين الفخام ، مع أنهم جاهدوا حق الجهاد ولم ينالوا بها نيلاً ... ونزلنا عليها فى السادس والعشرين من ربيع الأول من شهور سنة سبع وخمسين وثمانمائة ... وجرى بيننا وبينهم القتال أربعة وخمسين يومًا وليلة ... فمتى طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من شهر جمادى الأولى هجمنا مثل النجوم رجومًا لجنود الشيطان ... قد مَنَّ الله تعالى بالفتح ... وأول من قتل وقطع رأسه تكفورهم اللعين الكئود فأهلكوا كقوم عاد وثمود ... وصيرنا معابد عبدة الأصنام مساجد أهل الإسلام . وتشرفت الخطة بشرف السكة والخطبة » .

وقد أرسل الفاتح مع قاصده المذكور « هدية يسيرة من الأسارى والغلمان والأقمشة وغيرها » ليدلل على عظمة فتحه وانتصاره على « الكفار »[2] .

(١) رودس وقطلان ووناديك « البندقية » وجنويز « جنوه » ، جزر ومواني كان لها فى ذلك الوقت قوات بحرية كبيرة .

(٢) نص الرسالة ضمن ملاحق هذا الكتاب ، برقم ١٢.

وفى ٢٠ ذى القعدة سنة (٨٥٧هـ) أرسل إينال رده على رسالة الفاتح مع قاصده برسباى الأشرفى : هنأ السلطان المملوكى السلطان العثمانى فى رسالته بالفتح « الذى ادخره الله لأيام سعده ، وهذا النصر الذى مَنَّ الله تعالى به على المسلمين » . وأرسل إليه هدية « ليؤكد أسباب الوداد والمحبة ويوثق عرى الاتحاد والصحبة ، كما هو دأب السالفين الأقدمين من الحكام والسلاطين » [١] .

وفى سنة (١٤٥٦م) وصلت إلى القاهرة سفارة عثمانية ثانية ، برسالة تنبيء بانتصار محمد الثانى على الصربيين ، فى وقعة نوفوبردا وغيرها من الوقعات الدامية ببلاد يوجوسلافيا الحالية . وأرسل إينال ردًّا مشابهًا . وقبل أن يتحرك الأمير المملوكى قانى بك ، وهو الذى كلفه إينال أن يحمل هذا الرد إلى البلاط العثمانى . شاع بالقاهرة نبأ بوفاة محمد الثانى ، ثم ظهر كذب هذا النبأ ، فأمر إينال بدق البشائر السلطانية بالقلعة ثلاثة أيام . ثم سافر قانى بك إلى القسطنطينية ، ورجع سنة ١٤٥٧م محملاً بالهدايا الكثيرة[٢] .

(ز) عهد خشقدم ٨٦٥- ٨٧٢هـ (١٤٦١- ١٤٦٧م) :

بدأت العلاقة بين سلاطين المماليك والسلاطين العثمانيين تسوء ، منذ أن تولى خشقدم حكم المماليك ، نظرًا لاصطدام مصالح الدولتين فى مناطق شرق الأناضول وجنوبه . فقد بدأ العثمانيون يولون اهتمامهم إلى الأناضول ويتدخلون فى شئون بعض الإمارات التى كانت مشمولة بحماية المماليك كإمارتى ذو لقادر[٣] وقرمان[٤] لكن الأجل لم يمهل خشقدم للرد على هذا

(١) نص الرد ضمن ملاحق هذا الكتاب ، برقم . ١٣

(٢) د . محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ، ص . ٢٠٢

(٣) تكتب فى كتب التاريخ العثمانى ذوالقدر ، وفى كتب التاريخ العربية دولقادر ، دلقادر ، ذولغادر ،دلغادر . ولكن ذولقادر أقرب إلى الصواب فى ظنى نظرًا لاتفاقها مع لهجة تلك المنطقة من الترك .

(٤) قرمان أو قرامان أو قره مان

التدخل[1] .

(ح) عهد قايتباى ٩٠١- ٨٧٢هـ (١٤٩٦- ١٤٦٨م) :

ظلت العلاقات بين قايتباى ومحمد الثانى متوترة ، نظرًا للمنافسة التى اشتدت بينهما على التدخل فى شئون الإمارات المجاورة كدولة ذولقادر وقرامان . وكان الموقف ينذر بالخطر ، وأصبح الصدام وشيكًا[2] .

بدأت العلاقات المملوكية العثمانية تسوء من جديد . فبعد أن تولى بايزيد الثانى عرش العثمانيين ٩١٨- ٨٨٦هـ (١٥١٢- ١٤٨١م) نازعه أخوه « جم » على العرش . ولما لم يتمكن جم من التغلب على أخيه ، هرب إلى مصر سنة (١٤٨١م) وطلب مساعدة قايتباى ، فأمده سلطان المماليك بما أردا . تحرك الأمير العثمانى على رأس جيش من حلب سنة (١٤٨٢م) للاستيلاء على الأناضول وإرغام أخيه عن التخلى عن العرش . ولهذا السبب ساءت العلاقات بين العثمانيين والمماليك إلى حد بعيد [3] .

ظلت العلاقات سيئة بين المماليك والعثمانيين ، وحدثت بينهما صدامات عسكرية على الحدود ، أراد العثمانيون بها الانتقام من المماليك لإيوائهم الأمير جم . وقد كان النصر فى هذه المعارك فى صالح المماليك .

وقد بدأ أول صدام مسلح بين الطرفين باعتداء قام به علاء الدولة أمير ذولقادر ومعه بعض الفرق من جنود العثمانيين سنة (٨٨٩هـ (١٤٨٣م) على الحدود المملوكية ، فتصدى تمراز الشمسى للمعتدين واستطاع أن ينزل بهم هزيمة فادحة وأسر جندًا كثيرًا من قوات العثمانيين . وعلى الرغم من انتصار المماليك فقد آثر قايتباى حقن الدماء ، وأرسل قاصده أمير آخور الثانى

---

(١) تفصيل ذلك فى ص ٧٣.

(١) تفصيل ذلك فى ص ٧٣.

(٢) تفصيل دلك فى ص ٧٤.

جانى بك حبيب سنة ٨٩٠هـ (١٤٨٥م) ليعقد الصلح مع العثمانيين ويقدم للسلطان العثمانى تقليد الخليفة العباسى بأن يكون بايزيد سلطانًا على بلاد الدولة العثمانية وما سيفتحه من « البلاد الكفرية » .

التقى القاصد بعد أن عبرالحدود المملوكية العثمانية بعلاء الدولة أمير ذولقادر . فاستوقفه الأمير المذكور وأرسل ما معه من رسائل وأخبار إلى الصدر الأعظم مع مصلح الدين بك لكى يعرضها على السلطان ، وحمله رسالة شخصية إلى الصدر الأعظم قال فيها :

« عندما قدم إلينا عبدكم مصلح الدين بك ، جاءنا شخص من الشام يدعى خاير بك ، وجاء قاصد الخليفة العباسى فى مصر حاملاً معه رسالة . أخذ عبدكم المشار إليه الرسائل وحمل الأخبار وتوجه إلى خدمتكم لعرضها عليكم »(١) .

ومن المحتمل أن تكون الخيوط الأولى لخيانة خاير بك المشهورة فى تاريخ المماليك ، قد بدأت منذ ذلك الوقت الذى عبر فيه الحدود المملوكية العثمانية دون علم قايتباى ورغم وجود عداء شديد بين الدولتين ، واستمرت من بعد على شكل اتصالات سرية مستمرة بين خاير بك وبين بايزيد وابنه سليم من بعده .

ولم يذكر أحد من المعاصرين للفترة من مؤرخى العرب والترك شيئًا عن توجه خاير بك إلى العثمانيين فى هذه الفترة . وليس هناك مجال للشك فى أن هذه هى أول مرة يعبر فيها خاير بك الحدود المشتركة لكى يلاقى العثمانيين .

فالوثيقة تذكر اسمه على أنه شخص مجهول يعرف لأول مرة ، فتقول : « جاءنا شخص من الشام يدعى خاير بك » . ولم أعثر فى دور الوثائق بتركيا على أية وثيقة تكشف لنا ما فعله خاير بك فى أرض العثمانيين بعد عبوره الحدود .

---

(١) الرسالة محفوظة فى أرشيف طوپقپوسرايى باستانبول ، تحت رقم E ٦٢٠١.

وسيقوم خاير بك هذا بالسفارة بين محمد ابن السلطان قايتباى - بعد وفاة أبيه كما سيرد بعد - والسلطان بايزيد الثانى (انظر ص ٥١) .

لم يستجب بايزيد الثانى لنداء الصلح ، وقام بالاعتداء على حدود المماليك المجاورة ، فسير إليه قايتباى القائد أزبك فى سنة ٨٩٠هـ (١٤٨٥م) . ودارت بين الفريقين معركة انتهت بهزيمة العثمانيين وأسر أحد قوادهم وهو أحمد بك ابن هرسك . وفى العام التالى عاود بايزيد المناوشات على الحدود ، فأرسل إليه السلطان المملوكى أزبك مرة أخرى .

وقبل أن يصطدم الطرفان ، أرسل شخص يدعى إياس[١] رسالة إلى السلطان العثمانى على يد قاصده مصطفى ، يصف له فيها الاضطراب الذى يسود مصر والشام ، ويستحثه على أن يقتنص هذه الفرصة السانحة ليهاجم المماليك ، ويرسل بعض السفن إلى طرابلس الشام والإسكندرونة[٢] لكى يتمكن من إدخال الدولة المملوكية فى طاعته ، فيقول :

جناب صاحب العزة والدولة ، مكتسب السعادة ، حاوى خصائص أرباب الأنام ، أدام الله تعالى دولته . بعد السلام ، نعرض عليكم الأحوال التى وردت إلينا بعد الخطاب المعروف الذى أرسلناه إليكم لأننا ملك لكم . أحوال مصر يلى : جاء يونس بك ابن عمر وأحمد بك ابن طلحة وجمعة - من بنى مر - وبعض الأمراء إلى الفيوم وخربوا مملكة مصر . لم يرسل السلطان إليهم أحدًا ولم يذهب إلهم بنفسه ، ذلك أنهم تفرقوا بعد أن أعلنوا العصيان على أوزبك[٣] . ولما علم عرب الشام جميعًا بذلك تحركوا وقطعوا طريق الشام - مصر .

---

(١) من المرجح أن يكون إياس هذا جاسوسًا يعمل لحساب العثمانيين ، وليس لدى ما يؤكد جنسيته هل هو مملوكى أو عثمانى .

(٢) تذكر اسكندرونة فى الوثائق العثمانية بكلمة « اسكندرية » راجع وثيقة رقم E. 5693 .٥٦٩٣ ووثيقة رقم E. 6671 .٦٦٧١ بأرشيف طوبقبو سرايى باستانبول .

(٣) أزبك أو أوربك .

عاد الألف جندى الذين كانوا قد وصلوا من مصر واستقروا فى عينتاب . وصلوا إلى حلب ، فمنعهم نائب دمشق من السير إلى مصر عندما علم بتحركاتهم ، لأنهم إذا عادوا إلى مصر فإن التركمان يخربون البلاد .

لن يأتى أحد إلى حدودكم لمؤازرة الأمراء سواء من ذولقادر أو من الشام أو من الشرق . وإذا كانت لديكم رغبة فى المملكة [دولة المماليك] ، فلا تفوتوا الفرصة ...

إذا أرسلتم عدة سفن إلى طرابلس وبعضًا آخر إلى الإسكندرونة فإنها تكونكافية لإدخال المملكة [دولة المماليك] فى الطاعة . وبهذا تطيع كل مصر والشام لعدالة السلطان خلد الله ملكه . كلامى هذا صحيح لم أخف منه كلمة . إياس (١)

أرسل السلطان العثمانى أسطوله إلى شواطىء الإسكندرونة ، إلا أن عاصفة هبت عليه فأغرقت معظم قطعه . ولم تنجح خطة بايزيد الثانى فى قطع الطريق على أزبك الذى استمر فى تحركه حتى وصل إلى أذنة واستولى عليها . لم يهدأ بال السلطان العثمانى ، فأرسل حملة ثالثة استولت على سيس وطرسوس وغيرها . إلا أن قايتباى لم يجد الفرصة مواتية للتصدى للعثمانيين نظرًا لثورة الجلبان عليه وسوء الأحوال الاقتصادية .

وفى مايو ١٤٨٠م (جمادى الثانية ، رجب ٨٩٥) جاء رسول من قبل العثمانيين يعرض الصلح ، إلا أن الاتفاق لم يتم نظرًا لعدم جدية المساعى العثمانية التى كان القصد منها الخديعة . فقد تأكد بايزيد الثانى من اضطراب الأحوال فى مصر وعودة أزبك من حلب إلى القاهرة ، ووجود فرصة مواتية للثأر من الهزيمتين السابقتين . فقد تواترت لديه الأخبار من رسالة بعث بها الأمير مراد حاكم أماسيا وابن ولده أحمد - إلى الصدر الأعظم بناء على المعلومات التى وردت إليه من خمسة من الجواسيس كانوا قد أرسلوا إلى الشام

(١) الوثيقة محفوظة فى أرشيف طويقبو سرايى باستابول ، تحت رقم E.6671.

لجمع المعلومات عن تحركات الجيش المملوكى عند الحدود وأحوال الشام .

وهذه ترجمة عن التركية للرسالة التى بعث بها الأمير مراد إلى الصدر الأعظم :

حضرة الباشا الأعظم :

تحف التحيات الصافية المتوالية عنبرية النسيم ، وطرف السلام بكلمات مثالية لعهد الشيم التى تفيض من محض صفاء المحبة ومن مودة الوفاء الموسرة . ننهى إلى ضميركم المنير ونخبر أنه : جاء فى هذه الأيام خمسة جواسيس لنا من الشام . جاء اثنان منهم ذات مرة ، وجاء آخران مرة أخرى ، ثم جاء الخامس . وأجمعوا على أن حادث سلطان مصر صحيح[1] ، وأنه وقع خلاف بين أمراء حلب ، وأن أوزبك عاد إلى مصر .

أما والحالة هذه فالمرجو والمتوقع ألا تفوتوا الفرصة ، مادام حادث السلطان قد وقع فعلاً ، إذا كان ما يتعلق بهذا الموضوع صحيحًا وظاهر للصراحة ، فليس هناك مجال للندم من بعد . أحسنوا وأرسلوا خطابًا شريفًا من مقر السلطنة السنية . حان وقت الإقدام والتدخل من هذه الناحية[2] . فلابد أن تتوجهوا من هذه الناحية ، فلن يرى أحد من القرامانيين وجهًا للتدخل .

أجمع عامة الناس على دخولكم من هذه الناحية وانعقد رأيهم على هذه الأولوية . والخلاصة ، يجب العمل بموجب ما أجمع على صحته رأى جميع الناس وترك ما يخالف ذلك .

سيرسل لكم إن شاء الله تعالى افتخار الأكابر والأعاظم خادمى تاج الدين بك رسالة بشرى فى الوقت الحاضر بخصوص أحوال المناطق الشرقية وأوضاعها .

---

(١) لست أدرى ما هو حادث سلطان مصر ، ومن المرجح أن يكون ثورة الجلبان عليه .

(٢) ليس من الواضح المقصود من كلمة « هذه الناحية » ، وربما يكون القصد منها حلب على أساس أن الخلاف قد دب فيها بين الأمراء .

أرسل خطاب المحبة مع يوسف . ليكن معلومًا لديكم عند الاطلاع عليه إن شاء الله تعالى أن مبانى الصداقة غاية فى الإحكام فى تلك الناحية . لا تدخروا وسعًا وابذلوا النفس والنفيس بخصوص الشام ، فالبلاد خالية ، وهذا وقت تدخلكم .

ولتتفضلوا بملاحظة أن هذا عرض لما وقع وقد اختصر إلى هذه الدرجة . فليدم ظل وجودكم ممدودًا .

المحب المتفاني

سلطان[١] مراد[٢]

وفى أواخر عام ١٤٨٩ تجمعت لدى قايتباى المعلومات عن وجود حشود عثمانية قرب قيصرية ، فأرسل قائده أزبك على رأس جيش للتصدى للعثمانيين . وقبل أن يحدث صدام بين الدولتين ، أرسل القائد رسوله ماماى الخاصكى لبحث إمكانية عقد صلح مع العثمانين بناء على توصيات قايتباى . ولما لم يعد القاصد ، أدرك أزبك عدم رغبة بايزيد الثانى فى عقد الصلح ، فهاجم عساكر العثمانيين فى كولك واستطاع أن يجليهم عنها ثم استولى على كواره وعاد بعدها إلى القاهرة منتصرًا فى محرم ٨٩٦هـ (١٤٩١م) .

لم يأمن قايتباى جانب العثمانيين ، فأخذ يستعد لما عسى أن تأتى به الأيام . وأثناء علية الاستعداد هذه قدم سنة ٨٩٦هـ (١٤٩١م) رسول من قبل بايزيد الثانى صحبة ماماى الخاصكى يعرض الصلح . قبل السلطان

(١) كانت كلمة « سلطان » فى الدولة العثمانية تطلق على بعض الشخصيات الأخرى عدا السلطان الحاكم . فقد كانت ترد بعد اسم والدة السلطان ، فيقال : « والده سلطان » ، وبعد اسم الأميرات كـ« خانم سلطان » ، وقبل اسم الأمراء كـ « سلطان مراد » مثلاً .

(٢) الوثيقة محفوظة فى أرشيف طوبقبو سرايى باستانبول ، تحت رقم E. ٩٣٩٧ وصورتها ضمن لوحات هذا الكتاب ، تحت رقم . ٥

المملوكى الصلح ، وعقده فى جمادى الثانية ٨٩٦ (أبريل ١٤٩١م) .

توفي السلطان قايتباى[1] سنة ٩٠١هـ (١٤٩٦م) ، فتولى العرش من بعده ابنه محمد ٩٠١- ٩٠٤هـ (١٤٩٦- ١٤٩٨م) . قام السلطان الجديد بإرسال خاير بك إلى السلطان العثمانى بايزيد الثانى لكى يخبره بنبأ اعتلائه العرش حتى تظل علاقات الود قائمة بين الدولتين .

(ط) عهد قانصوه الغورى ٩٠٦ - ٩٢٢هـ (١٥٠١- ١٥١٦م) :

ظلت العلاقات حسنة بين المماليك والعثمانيين منذ وقع الطرفان على الصلح فى سنة ١٤٩١م وحتى نهاية عصر بايزيد الثانى ١٥١٢م . وخلال هذه الفترة اعتلى قانصوه الغورى عرش المماليك فزادت العلاقات بين الدولتين تحسنًا ، بدليل الرسائل الكثيرة والتحف والهدايا التى تبودلت بين الغورى وبايزيد الثانى .

أرسل بايزيد الثانى فى أواسط صفر سنة ٩٠٨هـ رسالة مع قاصد حيدر رئيس السلّاحين لتهنئة الغورى بالسلطنة جريًا على العادة القديمة بين الدولتين « وذهابًا إلى المذهب المعروف ، وتبعًا للرسم القديم ، كما مر آنفًا وتقرر سالفًا » .

وتتضمن الرسالة مدح قانصوه الغورى وحثه على إقامة العدل وعمل الخير ، حيث تقول : « لايخفى أن من اختاره الله تعالى لتنفيذ أوامره ونواهيه ، حتم على الرعية مطاوعته بحسن القبول ، وإطاعته بعد إطاعة الله والرسول ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ . وواجب تذكره بالدعوات الصالحة عقيب الصلاة فى الأوقات الخمس ، التى تظن فيها إجابة الدعوات . وحق عليه أن يوقر الكبير ويرحم الصغير ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . ويعتقد أن الدين والملك توأمان ،

(١) صورتا سيفى قايتباى فى لوحات هذا الكتاب تحت رقم ١، ٢ وهما مصورتان من متحف طوبقبو سرابى باستانبول ، حيث يحفظان برقم ٨٦ - ١، ١٨١ - ١.

لايتم أحدهما إلا بالآخر . ويصرف نيته إلى تقوية الحق وإعزازه ، ويعطف همته على نصرة الإسلام وإحرازه . ويخفض أجنحة الرأفة والمرحمة على المسلمين ، مسترشدًا بكلمة التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله ، أس الدين . ويراعى العدالة والنصفة فى حكمه وحكومته ، رهبة من قوله : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » . ورغبة بسعة حاله ، ويفرغ شعث مآله . فإن من عدل فى الحكم وكف النفس عن الظلم ، صفت له الدنيا ودامت عليه النعمى ، وملك القلوب وأمن الحروب ، وصارت طاعته فريضة وصحته غنيمة . قال النبى عليه السلام : « إن أحب الناس عند الله يوم القيامة وأدناهم مجلسًا ، إمام عادل » ، صدق رسول الله . وينبغى بجيرانه الكرام من السلاطين العظام ، أن يهنيه بتلك الدولة البهية والسيادة السنية ، لأن التهنية سنة حسنة ، وعادة مستحسنة بين السادات ، إذا تجددت لواحد منهم نعمة جزيلة وتمهدت رتبة جليلة .

هذا والغرض من ترتيب هذه المقدمات وتسبيبها ، قد سمعنا وعلمنا أن الله تعالى أعظم أمركم ورفع قدركم ، وأخذ يدكم وهيأ أدوات السعادة عندكم ، واصطفيكم لضبط الجمهور واجتباكم لرد المحذور ، وجعلكم خلف الماضين ، وأورثكم أرضهم وصيركم شرف الباقين ... وزين بوجودكم سرير السلطنة القاهرة »[(١)] .

أرسل قانصوه الغورى رده على رسالة بايزيد الثانى مصحوبًا ببعض التحف والهدايا مع أحد أمرائه الخاصكية ويدعى شجاع الدين هندوباى . وفى الرسالة يشكر الغورى الله سبحانه وتعالى على سلامة وجود السلطان العثمانى ، ويبين له أن سلفه قايتباى انعوج عن سبيل مصادقة بايزيد الثانى ، أما هو فقد أزاح غطاء المنازعة وكشف عن وجوه المصادقة . وأصلح ما أفسده قايتباى ، وأرجع العلاقات الطيبة بين الدولتين ونأى بها عن المعاداة ، حيث يقول : « شكرنا الله سبحانه وتعالى على سلامة وجودكم الكريم ، الذى بسلامته مناظم الدين منوطة ، ومصالح الشريعة بصحته مضبوطة ، وسألنا عن الرب الجليل جلت

---

(١) نص الرسالة بالعربية فى ملاحق هذا الكتاب تحت رقم ١٤ ، وهو مأخوذ عن أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٤٨٩ب - ٤٩١ ب .

قدرته أن يطيل بقاءه ، ويرزقنى على الوجه الأحسن لقاءه ، إنه على ذلك قدير ، وبحسن الإِجابة جدير .

وبعد ، فقد عرف الأداني والأقاصي وعلم الأذنات والنواصي ، أن مواقف السلطان الغازى [بايزيد الثانى] لازالت مكنونة بالجلال ومحفوفة بالإِقبال ... وأما المرحوم السلطان قايتباى ، لما انعوج عن هذا السبيل والمسالك ، فطرح وجوده فى غيابة جب المهالك . والآن يسر الله بفضله لنا مقامه الجليل ، ونظر علينا بعيون عنايته ولطفه الجزيل ؛ فعملنا على باب المخالفة ، وكشفنا عن وجوه المصادقة غطاء المنازعة ، فجلسنا على سرير النصفة بأعلى غرف القاهرة المصرية » .

ويبين سلطان المماليك لبايزيد الثانى مخاطر فرق القزلباش[(١)] على مناطق الأناضول الشرقية واعتداءاتهم المتكررة « وتوغلهم فى صميم بلاد الأمان

---

(١) القزلباش : اسم أطلقه الترك على تسع قبائل من التركمان كانت تلبس قلانس حمراء على الرءوس ، وهى : روملو وشاملو واستاجلو وتكه لو وذولقادر وأفشار وقاجار وورساق وصوفية قراباغ . والكلمة عبارة عن لفظين تركيين : الأول « قزل » ومعناه أحمر اللون والثانى « باش » ومعناه رأس . ومعنى الاصطلاح « أصحاب الرءوس الحمراء » . استطاع الشيخ صفى الدين الأردبيلى وأولاده من بعده . بزعامتهم لجماعة المتصوفة والدراويش . جذب الكثير من المريدين ليس فى إيران فحسب بل فى الولايات التركية من آسيا الصغرى والشام والعراق العربى بتأثير دعاياتهم القوية . وكان التصوف قد بدأ يشق طريقه إلى المجتمع الإيرانى فى ذلك الوقت .

وقد تحولت فرقة الدراويش التى يتزعمها الشيخ صفى الدين إلى مركز مذهبى لبث الدعوة الشيعية . وكان لممارسة شيوخ الأسرة الصفوية للناحيتين الدينية والعسكرية معًا الأثر الكبير فى إبراز قدرتهم ونفوذهم . وقد مهد الشيخ صفى الدين وأبناءه جنيد وحيدر المناخ لخليفتهم إسماعيل الصفوى الذى أعلن قيام الدولة مستفيدًا من مركزه الروحى والمعنوى ومستخدمًا أفراد قبائل القزلباش الذين لايهدفون إلى شيء سوى التضحية فى سبيل نصرة شيخهم ومرشدهم الكامل . ولا يستطيع دارس العصر الصفوى أن يتجاهل دور هذه القبائل فى إيجاد الكيان الصفوى . [انظر القسم الأول الذى كتبه د . أحمد الخولى فى كتاب : تاريخ الصفويين وحضارتهم ، ٣٧، ٣٨، ٤٤-٤٢ القاهرة ١٩٧٦] .

وتطلق الوثائق التركية والعربية التى كتبها العثمانيين والمماليك فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) على إسماعيل الصفوى لقب « الصوفى » وعلى القزلباش لقب « الصوفية » وتصفهم بصفات مختلفة ، منها : « الصوفية الملاحدة القزلباش » و « الطائفة المخذولة الأوباش » و « الأوباش القزلباش الملاعين » و « طائفة الملاحدة الملاعين » و « فرقة الملاحدة القزلباش لعاين الله عليهم » و « الطائفة الباغية دمرها الله » .

وبوادى الترك وبحبوحة ديار قرامان وممالك الترك . وشروعهم فى غض قبائلهم وهد معاقلهم ، وسبى أطفالهم ونسوانهم » . وكيف أن أبطال هذه المناطق وشجعانهم قاموا « بصون مواطن المسلمين من مكايد شرهم ومساكن المؤمنين من مصايد غردهم » .

ويذكر الغورى لبايزيد الثانى أن جميع الرعايا أطاعوه بمجرد اعتلائه العرش ، وأن خليفة المسلمين رشيد الدين محمد بن يعقوب العباسى بارك حكمه ، وأجازه الشريف محمد أمير مكة . ثم يختتم رسالته طالبًا من بايزيد « إعلام سائر السوانح والوقايع المفرحة من الحروب والفتوحات والغنايم والغزوات حيث وقعت وأين صدرت بعناية الله وتوفيقه[1] .

ولا أدل على حسن العلاقات بين المماليك والعثمانيين ، من أن بايزيد الثانى أرسل إلى الغورى رسالة يلتمس فيها العفو منه عن دولتباى حاكم طرابلس الشام لما ارتكبه من أخطاء ، فأجابه الغورى إلى طلبه . وأرسل إليه رسالة مع قاصده يوسف الخاصكى الأشرفى ، فرد عليه بايزيد فى أوائل ربيع الأول سنة ٩١٠هـ برسالة يمدحه فيها ويشكره على ما قام به ، ويخبره بأنه على علم بما نبهه إليه فى رسالته السابقة من خطر طائفة القزلباش على الممالك الشرقية ، فيقول : « انتهينا إلى ما اندرج فى فى ذيل مكاتبكم الجليلة من أحوال الرجل الذى ظهر فى البلاد الشرقية ، فهزم واليها وعلا أهاليها ، وأمطر سحابه مطرًا فنال من حاجته وطرًا . لاحظناه وكان كله مفهومًا ، وصار بأسره معلومًا »[2] .

رد الغورى على كتاب بايزيد برسالة حملها قاصده يونس الخاصكى الأشرفى ، وصحبه سنان بك رسول ابن عثمان عائدًا إلى بلاده . يُذكِّر الغورى

---

(١) نص الرسالة فى ملاحق هذا الكتاب تحت رقم ١٥، وهو مأخوذ عن أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٤٩١ ب . ٤٩٤ ا .

(٢) نص الرسالة فى ملاحق هذا الكتاب تحت رقم ١٦ وهو مأخوذ عن أحمد فريدون : نفس المرجع ، ورقة ٤٩٩ ا . ٥٠٠ ا .

بايزيد فى رسالته بأنه استجاب لالتماسه وعفا عن دولتباى ، ويطلب منه أن ينصحه حتى لاينحرف عن الطريق القويم مرة أخرى .

وينبه قانصوه الغورى بعد ذلك فى رسالته إلى خطورة الفرق القزلباشية على الممالك الشرقية . ويؤكد على أن دفع شرهم واجب على الجميع ، لأنهم أهل البدع والضلال ، هتكوا عرض المؤمنين والمؤمنات ، وقاموا بأعمال لم ير التاريخ مثيلاً لها فى غارات المغول أو فى ظهور الأحزاب التيمورية ، يقول الغورى : « أما قصة غلبة الفرق الضالة القزلباشية فى البلاد الشرقية ، فإنها بلية عامة ظهرت فى تلك النواحى ، فدفعهم لازم بل واجب على الأدانى والأقاصى . فالمقصود فى دفعهم واستيصالهم بعناية الملك العلام الموافقة والاهتمام ، لأنهم أهل البدع والضلالة وأصحاب الشر والشقاوة . كلهم روافض وجمعهم ملاعين ، ليس فى قلوبهم الردية أثر الرحمة والشفقة ، ولا فى طينتهم الخبيثة علايم الهداية والرأفة . وإنهم هتكوا عرض المؤمنين والمؤمنات وقتلوا علماء الدين والسادات ، وأغاروا أموالهم وأسروا صبيانهم . وعملوا فى هذه المملكة أعمالاً لا يرى مثله أحد فى خروج الأولاد الجنكيزية ، ولا سمع شبهة أذن فى ظهور الأحزاب التيمورية ﴿ أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ اللهم دمرهم واقهرهم وفرق شملهم وكسر أعناقهم وطهر الأرضين من هؤلاء الأرجاس الأنجاس ﴿ إنك على كل شيء قدير ﴾[1] .

تأكدت الصداقة بين الدولتين أكثر بدليل الرسالة التى حث فيها الغورى بايزيد على محاربة القزلباش وعرض عليه المساعدة . ففى ٨ ربيع الأول سنة ٩١٧هـ أرسل خاير بك رسالة إلى الصدر الأعظم مع خير الدين أغا بناء على أمر من السلطان المملوكى ، أخبره فيها بوجوب محو « فئة الصوفية الملاحدة القزلباش » ومريديهم من « الطائفة المخذولة الأوباش » لأنهم يعيشون فسادًا . وذكر له أنه أصدر أوامره إلى أمراء الحدود للاستعداد بجنودهم ، كما أرسل

(١) نص الرسالة بالعربية فى ملاحق هذا الكتاب رقم ١٧ وهو مأخوذ عن أحمد فريدون : ورقة ٥٠٠ ا. ٥٠٢ ا.

أمرًا إلى محمود بك أمير بنى رمضان ونواب سيس وطرسوس و **چقور اووه**[١] لجمع الجنود ، وأصدر تعليماته إلى جلال الدين قانصوه بك لكى يلاقى عساكر الدولة العثمانية ويشترك معها فى الحرب ضد القزلباش ، لأن حضرة سلطان الحرمين [الغورى] خلد الله ملكه فى الخافقين مهتم غاية الاهتمام بهذه الأمور وملتزم بها أشد الالتزام . وقد صدر لهذا المحب المخلص [خاير بك] الأمر بتنفيذ القصاص بقسوة مؤكدًا برسالة شفوية . ونحن مستعدون للخدمة بكمال الجد والاهتمام إذا وقع أى عمل فى الممالك المحروسة المحمية لحضرة صاحب الخلافة والدولة خلد الله ملكه وسلطانه حيث لحمك [بايزيد] لحمه [الغورى] ودمك دمه ... وأرجو رجاء الواثق بأن يتأكد ما بيننا [خاير بك والصدر الأعظم] من الإخاء القديم والموالاة العظيمة ، ويفتخر هذا المحب صادق الاعتقاد بما يصدر إليه من إشارة »[٢] .

أما عن العلاقات بين الغورى وسليم الأول وتطوراتها ، فستتضح معالمها فيما سأذكره فى الفصل الثالث .

ويتضح لنا من كل ماسبق أنه لم تكن للعثمانيين علاقة بالمماليك البحرية حيث كانت الدولة العثمانية فى دور النشأة والتطور . وعندما تسلم الجراكسة مقاليد الحكم بدأت العلاقات بين المماليك والعثمانيين فى عهد برقوق ومراد الأول والثانى .

بدأت العلاقات حسنة بين الدولتين لعدم وجود خلاف أو صراع على الحدود القائمة بينهما ولظهور عدو مشترك كان يتربص بها الدوائر ألا وهو المغول .

ظلت العلاقات حسنة بين الدولتين طالما لم يكن هناك تدخل من جانب

---

(١) ولايات تقع قرب الحدود بين الدولة العثمانية والدولة المملوكية فى الأناضول .

(٢) الرسالة ضمن لوحات هذا الكتاب برقم ٦، وهى محفوظة فى أرشيف طوپقپو سرايى باستانبول تحت رقم E. 5483

إحداهما فى شئون الإمارات التي تقع بينهما والتى كان بعضها مشمولاً بحماية المماليك والبعض الآخر مشمولاً بحماية العثمانيين . وقد ساءت هذه العلاقات عندما حدث التدخل ، وكانت الحرب بينهما سجالاً . وفى الفترات التى حدث فيها احتكاك بين القوتين المملوكية والعثمانية كان النصر حليف المماليك فى الغالب ، حيث كانت قوة العثمانيين لاتزال فى دور التطور والنمو .

(٢) إيواء المماليك للأمراء العثمانيين الفارين :

لم يكن لوراثة عرش السلطنة العثمانية قانون ثابت يتبع عندما يموت السلطان الحاكم أو يعزل أو يعتزل . وهذا ما أدى إلى تصارع الأمراء على العرش منذ نشأة الدولة العثمانية ، باستثناء الأمير علاء الدين وأخيه السلطان أورخان . وقد قتل كثير من الأمراء نتيجة لإعلانهم العصيان[١] أو للشك فى احتمال قيامهم بتمرد[٢] أو محاولة الاستقلال ببعض مناطق البلاد ؛ أو سملت عيونهم لكى يقعدوا عن الحركة[٣] . وقد أعلن بعضهم العصيان على أبيه[٤] .

وعندما اعتلى محمد الثانى العرش ٨٨٦- ٨٥٥هـ (١٤٥١,١٤٨١م) أصدر قانونه المعروف بـ (قانوننامهء آل عثمان) وأجازوا فيه للسلطان قتل إخوته من الأمراء حفاظًا على نظام السلطنة . ونص المادة الخاصة بوراثة العرش والتى وردت تحت عنوان « فى بيان تنظيم القانون الخاص بشئون السلطنة »

---

(١) بعد موت أورخان ٧٦١هـ (١٣٥٩م) وتولى ابنه مراد الأول العرش ، تمرد عليه أخواه خليل وإبراهيم ، فقتلهما .

(٢) خنق بايزيد الصاعقة ٨٠٨- ٧٩٢هـ (١٤٠٢- ١٣٨٩م) أخاه **يعقوب چلبى** خشية قيامه بالتمرد عليه .

(٣) سمل السلطان **محمد چلبى** ٨٢٤- ٨١٦هـ (١٤٢١- ١٤١٣م) عيني **أورخان چلبى** ابن أخيه سليمان . وكذلك فعل مراد الثانى ٨٥٥- ٨٢٤هـ (١٤٥١- ١٤٢١م) بأخويه يوسف ومحمود .

(٤) أعلن الأمير ساوجى التمرد على أبيه مراد الأول ٧٩٢- ٧٦١هـ (١٣٨٩- ١٣٥٩م) ، وكذلك فعل بايزيد الثانى ٩١٨- ٨٨٦هـ (١٥١٢- ١٤٨١م) مع أبيه محمد الفاتح . وقام بنفس العمل الأمير بايزيد مع أبيه سليمان القانونى ٩٧٤- ٩٢٦هـ (١٥٦٦- ١٥٢٠م) ، وقتل القانونى ابنه الأكبر مصطفى لتمرده عليه .

هى : « فلتكن السلطنة فى متناول جميع أبنائى ، وقد أجاز معظم العلماء للسلطان منهم قتل جميع إخوته الباقين حفاظًا على نظام العالم ، ولهذا فليعلموا بهذا القانون » (١) .

وقد ظل هذا القانون معمولاً به إلى عهد محمد الرابع ١٠٤٩- ١٠٣٢هـ (١٦٤٠- ١٦٢٣م) ، ثم غير هذا القانون وأصبح العرش لأكبر أفراد الأسرة الحاكمة سنًّا .

أدى عدم وجود نظام ثابت لوراثة العرش إلى تصارع الإخوة طمعًا فى الحكم أو حرصًا على الحياة . فبمجرد أن يعتلى أحدهم العرش يقيم المذابح لإخوته خوفًا من منافستهم أو تمردهم أو تآمرهم . لقد ولد هذا الرعب صراعًا مستميتًا على الفوز بدست السلطة ، فمن لم يفز بها فمصيره القتل ، ولو لم يكن لديه أى طموح فى تولى العرش . وأكبر صراع بين الإخوة من الأمراء شهده التاريخ العثمانى واستمر أحد عشر عامًا من ٨١٦- ٨٠٥هـ (١٤١٣- ١٤٠٢م) ، حدث بين أبناء بايزيد الأول سليمان ومحمد وموسى ومصطفى بعد معركة « **چوپوق أووه** » قرب أنقرة التى هزم فيها تيمورلنك بايزيد الصاعقة فى ١٩ ذى الحجة سنة ٨٠٤هـ (٢٠ يوليو سنة ١٤٠٢م) وأسره .

وبعد أن سن الفاتح قانونه ، سيطر الفزع على نفوس الأمراء ، فتمكن بعضهم من الهرب إلى ممالك مجاورة خوفًا على حياتهم ، أو نتيجة لإغراء حكام هذه الممالك لهم بالعمل على مساعدتهم فى تولى العرش ، أو بسبب خلافات دامية على الحكم . وقد أدى إيواء المماليك للأمراء العثمانيين الفارين

---

(١) قانوننامهء آل عثمان ، ص ٢٧، استانبول . ١٣٣٠

نص المادة التركية : « وهر كمسنه أولاد مدن سلطنت ميسر أوله

قرندا شلرينى نظام عالم **ايچون** قتل ايتمك مناسبدر . أكثر علما دخى **تجويز إيتمشدر** آنكله عامل أوله لر » .

من الإعدام والسجن أو خوفًا من العقاب ، إلى تأزم العلاقات بين العثمانيين والمماليك ، لأن سلاطين العثمانيين كانوا يخافون على عروشهم من منافسة هؤلاء الفارين .

(ا) سليمان وفاطمة شهزاده :

عندما أسر بايزيد الأول فى معركة « **چوبوق أووه** » تنازع أبناؤه الأربعة على الحكم ، وقد تمكن **محمد چلبى** فى النهاية من التغلب على إخوته واعتلاء العرش . كان من بين الأمراء المتنازعين على العرش أمير يسمى **سليمان چلبى** ، له ثلاثة أبناء أحدهم يدعى **أورخان چلبى** . تمرد أورخان على عمه السلطان **محمد چلبى** ، وحاول الاستقلال بالأفلاق لكن السلطان استطاع أن يفرق المجموع التى جمعها أورخان ، وأن يقبض عليه ويسمل عينيه ، ويحدد إقامته فى بورصه ، ثم رق لحاله بعد فترة من الزمن ومنحه حكم قرية كيوه فى آق حصار .

أعطيت لأورخان جارية سرًا ، فأولدها سليمان وفاطمة شهزاده[١] . تربى الطفلان فى الخفاء ، حتى لا يعلم بهما السلطان فيقتل الصبى خوفًا على العرش . وبعد وفاة **أورخان چلبى** ٨٣٢هـ (١٤٢٩م) متأثرًا بالطاعون الذى انتشر فى بعض مناطق الأناضول فى ذلك الوقت ، هرب أحد عبيده بالطفلين سنة ١٤٣٣م إلى مصر ، خوفًا على حياتهما .

ولا يعلم الطريق الذى سلكه الطفلان أثناء هروبهما إلى مصر ، ولكن الأرجح أنهما هربا بطريق البحر .

كان الملك الأشرف برسباى هو الحاكم المملوكى فى القاهرة فى ذلك الوقت . فأحسن استقبالهما ، وأنزلهما الدور السلطانية بالقلعة . انضمت

---

(١) ولدت فاطمة سنة ٨٢٥هـ (١٤٢٢م) ، وولد سليمان سنة ٨٢٦هـ (١٤٢٣م) على حد قول المصادر العربية .

الفتاة إلى حريم القصر ، والتحق الولد بحاشية العزيز يوسف بن برسباى .

عندما علم مراد الثانى بهروب سليمان وفاطمة شهزاده ، أرسل لبرسباى الرسل والرسائل عدة مرات يطلبهما : لكن برسباى رفض ذلك ، وخصص لهما المربين لتربيتهما وتعليمهما . دبر مراد الثانى محاولة لإغراء العبد الذى هرب بالأمير وأخته إلى القاهرة ، لكى يحضرهما إلى استانبول ، ولكن المحاولة باءت بالفشل .

تزوج برسباى فاطمة شهزاده (١٤٣٦م) وضمها إلى خوندات القصر ، ومنذ ذلك الوقت أطلق عليها اسم خوند شهزاده . وبعد عامين أى (٨٤١هـ) (١٤٣٨م) توفى برسباى . وقد توفى سليمان قبله بعدة أشهر وهو فى الخامسة عشرة من عمره . وتزوجت خوند شهزاده من **چقمق** بعد موت برسباى .

طلق **چقمق** شهزاده فى يوم الجمعة العشرين من ذى القعدة سنة ٨٥٥هـ (٢٥ ديسمبر ١٤٥٠م) ، فتزوجها من بعده مقدم الألوف ورئيس الحجاب برسباى البجاسى . مرضت خوند مدة طويلة من الزمن بعد زواجها من رئيس الحجاب ، ثم ماتت فى أواخر رجب سنة ٨٥٩هـ (يوليه ١٤٤٥م)[١] .

(ب) جَمْ :

أنجب السلطان محمد الفاتح ولدين ، أحدهما اعتلى العرش من بعده وهو بايزيد الثانى ، والآخر وهو الأمير جم[٢] نازع أخاه على العرش ، لأنه كان يعلم أن القانون الذى سنه أبوه سيطبق لأول مرة عليه حفاظًا على استقلال السلطنة ومنعًا للفتنة . وقبل أن يموت الفاتح كانت تراود الأمير أحلام العرش ،

---

(١) انظر ما قاله ابن تغرى بردى فى كتابيه عن قصة هروب سليمان وفاطمة شهزاده إلى مصر فى ملاحق هذا الكتاب ، تحت رقم . ١٨

(٢) يكتب اسم جم فى الكتب العربية المعاصرة للفترة « جمجمه » .

فلما تمكن أخوه الأكبر بايزيد من الفوز بعرش السلطنة ؛ جمع جم جيشًا فى قونيه وتحرك عى رأسه قاصدًا بروصه . تمكن إياس باشا بمعاونة ألفين من الجنود العثمانية من صد هجوم الأمير فى البداية ، لكن جم استطاع أن يستولى على بروصه فى ٢٩ مايو سنة ١٤٨١م ، وقرئت الخطبة له فيها كسلطان وضربت السكة باسمه ، وأعلن نفسه حاكمًا على المناطق المجاورة أيضًا . لم يهدأ لجم بال ، فأرسل إلى أخيه وفدًا مكونًا من سلحوق خاتون ابنة للسلطان **محمد چلبى** ومولانا إياس و **أحمد چلبى** بن شكر الله لكى يعرضوا عليه اقتراحًا بتقسيم السلطنة ، على أن يكون جم حاكمًا على الأضول وبايزيد سلطانًا على الروملى ؛ لكنه لم يستجب لهذا النداء .

استمر حكم الأمير فى بورصه ثمانية عشر يومًا ، ثم تركها هاربًا إلى يكبشهر لهجوم جيوش السلطان المكثف عليه . توجه جم إلى قونيه ، ولما أحس باقتراب الجيوش نحوه تركها فى (٢٨ يونيو سنة (١٤٨١) ، واتجه جنوبًا حيث سلطنة المماليك . عبر جبال طوروس ووصل إلى طرسوس ثم أذنه ، وتوجه بعد ذلك إلى سوريا . طلب جم من أمير حلب أن يبلغ قايتباى برغبته فى اللجوء إليه ومعه ثمانمائة محارب من أتباعه ، فوافق سلطان المماليك على استقباله فى القاهرة متى وصل إليها .

عندما وصل الأمير إلى حلب فى ١٩ يولية فى نفس العام ، علم بايزيد الثانى بعبوره إلى الأراضى المملوكية ، فأرسل إلى علاء الدولة ذولقادر أمرًا بالقبض على الأمير إن صادفه فيما بعد .

وصل جم إلى مصر فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٤٨١م ، فاستقبله قايتباى استقبالاً حافلاً ، وعامله معاملة أبنائه ، وبعد مدة من الزمن أرسل الأمير خطابًا إلى أخيه يقترح عليه بعض المناطق فى الأراضى العثمانية ، لكنه رفض ، واكتفى بتعيين راتب سنوى له قدره مائة ألف **آقچه**[1] .

---

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٢٩١ ا .

ترك جم مصر فى ١٠ ديسمبر من نفس العام وذهب إلى الحجاز مصطحبًا معه أمه وزوجته لأداء فريضة الحج . ولما عاد إلى مصر فى ١٢ مارس سنة ١٤٨٢م ، عاودته أحلام السلطنة مرة أخرى . وفى تلك الأثناء ، أرسل إليه حلفاؤه من أمراء الأناضول . أمثال قاسم بك القرامانى وحاكم أنقرة محمد بك وكذيك أحمد باشا حاكم لارنده . يستدعونه ويعدونه بالمساعدة .

طلب جم المساعدة من قايتباى لكى يتمكن من العودة إلى دياره . عقد السلطان المملوكى مجلسًا حضره كل أمرائه ، وطرح عليهم الموضوع ، فوافقوا بحجة أنه إذا حدثت اضطرابات فى الأناضول فستكون فى مصلحة المماليك ، وعارض الأمير ازبك وحده رأيهم .

وبعد أن حصل جم على مساعدة قايتباى ، ترك فى مصر أمه وزوجته فى ٢٧ مارس سنة ١٤٨٢، ووصل إلى حلب فى ٦ مايو ، وفى يوم الأحد التاسع عشر من نفس الشهر دخل الأراضى العثمانية ، فتجمع حوله زعماء الأناضول الذين وعدوه بالمساعدة . وفى ٦ يونية تم له حصار قونيه ، لكنه لم يستطع الاستيلاء عليها لقوة حصونها ودفاعها ؛ فتوغل فى الأناضول حتى وصل إلى أنقرة وحاصرها ، إلا أن السلطان بايزيد تمكن من فك حصارها . أحس جم بالخطر يحيط به من كل جانب فهرب ، وقرر اللجوء إلى إيران لكنه عدل عن فكرته فى النهاية ، وأرسل لأخيه رسولاً يطلب منه أن يترك له حكم بعض الألوية ؛ لكنه رفض ، وطلب منه أن يعيش فى القدس مقابل راتب سنوى ، فلم يوافق جم على ذلك .

اقترح قاسم بك على الأمير أن يذهب إلى الروملى ، حيث يستطيع أن يطلب مساعدة ملك المجر ، ولم يوافقه رغبته فى اللجوء إلى العرب أو العجم . استقر رأى جم أخيرًا على أن يلجأ إلى جزيرة رودس لكى يساعده رئيس فرسان القديس يوحنا على دخول الروملى ومعاودة الثورة ضد أخيه(١) .

---

(١) Gavid Baysun. Cem Sultan, S. 15-13 Istanbul 1946.

لجأ جم إلى رئيس الاسبتارية Hospitallers دوبوسون d Aubusson فتوجس بايزيد الثانى خيفة مما قد يحدث فى المستقبل ، فعقد العزم على التفاوض مع دوبوسون لكى يحتفظ بالأمير عنده ويراقب تحركاته ، نظير دفع خمس وأربعين قطعة ذهبية بندقية سنويًا . وافق رئيس الاسبتارية على ذلك ، ثم استقر الرأى على ترحيله إلى فرنسا فقضى فيها سبعة أعوام انتقل بعدها إلى الفاتيكان ثم إلى إيطاليا فى صحبة ملك فرنسا شارل الثامن .

وفى جمادى الأولى ٩٠٠هـ (١٤٩٥م) توفى جم فى نابلى ، فاستراح بايزيد الثانى من شره .

(جـ) قورقود :

وبعد الحديث عن الأمير جم ونزاعه مع أخيه بايزيد الثانى ،نتحدث عن أمير آخر من أبناء بايزيد ألا وهو قورقود (٨٧٢هـ ، ١٤٦٧م)[1] . توفى الوالى القرامانى شهزاده عبد الله حاكم صاروخان (مغنيسيا Manisa) سنة ٨٨٨هـ (١٤٨٣م) ، فتولى قورقود حكم الإمارة مكانه . ولما لم تكن موارد هذه الإمارة كافية للصرف على نفقاته الخاصة ، طلب من أبيه المزيد ، فخصص له بعضًا من دخل الأرز ، لكنه عاود الطلب بحجة أنه لايكفى أيضًا ، فأمر بايزيد بنقل قورقود من صاروخان إلى تكه (انطاليه) مكان علمشاه وأمر علمشاه بأن يأخذ مكانه فى صاروخان ؛ وأعطيت كل واردات الإمارتين إلى الأمير . ولما توفى علمشاه ٩٠٨هـ (١٥٠٢م) طلب قورقود أن ينقل مكانه ، لكن الصدر الأعظم على باشا الخادم لم يوافق على ذلك . وأعطى حكم صاروخان إلى أخيه أحمد ، لكى يكون قريبًا من مقر السلطنة ، تمهيدًا لتوليته العرش من بعد أبيه .

---

(١) تربى قورقود بينما كان صغيرًا فى قصر جده محمد الفاتح ، فوجد الرعاية العلمية الكافية التى أهلته لأن يكون عالمًا فاضلاً وشاعرًا وموسيقيًا . وقد تبحر الفتى فى العلوم الإسلامية ، وكان يعرف العربية جيدًا وله عدة مراسلات بها إلى أبيه . ومن الجدير بالذكر أن اسم قورقود يكتب فى اللغة العربية المعاصرة للفترة « قرقد » أو « قورقد » .

غضب قورقود من هذا المسلك وأرسل إلى أبيه رسالة بالعربية سنة ٩١٣هـ (١٥٠٧م) يخبره فيها أنه لا يريد أن يكون واليًا لأن ذلك لا يليق به ، وهو مشغول بتحصيل العلم . ويرجو أن يخصص له مالاً ينفق منه من متحصلات الجزية المفروضة على غير المسلمين . ثم طلب الأمير من أبيه مرة أخرى أن يوافق له على حكم إمارة تكه ، ولكن أباه رفض ذلك ، وأرسل إليه فرمانًا فى شعبان سنة ٩١٤هـ يوافق فيه على صرف النقود اللازمة له من الجزية المفروضة على جزيرة ساقز والأناضول والروملى والبالغة ٢٥٠٢٧٥٥ **آقچه** سنويًا[١] .

ظل قورقود فى أنطاليه ، وعندما أراد أن يعود إلى صاروخان رفض الصدر الأعظم الموافقة على عودته بإيعاز من أخيه أحمد . تململ قورقود من الصدر الأعظم ؛ وأرسل لأبيه رسالة يستأذنه فى الذهاب لأداء فريضة الحج ، فلم يرد عليه .

يئس الأمير مما حدث له فقرر الرحيل سرًا إلى مصر فى أواخر محرم ٩١٥هـ (مايو ١٥٠٩م) فى سفينة شخص يدعى آقباش مصطحبًا معه خمسًا من خدم قصره فقط .

وصل قورقود إلى دمياط فى ٥ صفر سنة ٩١٥هـ (٢٥ مايو ١٥٠٩م) ، ولما علم الغورى بالخبر أمر باستقبال الأمير أحسن استقبال . ويروى ابن إياس فى بدائعه قصة وصول قورقود ، فيقول : وفى صفر [سنة ٩١٥هـ] جاءت الأخبار من دمياط بأن شخصًا من أولاد ابن عثمان يقال له قرقد بيك قد وصل إلى دمياط فلما تحقق السلطان ذلك عين إلى ملاقاته الأمير أقباى أمير آخور وازدمر المهمندار ونانق الخازن وأرسل صحبتهم ملاقاة حافلة من كل نوع فاخر وجهز المراكب حتى الحراقة الكبيرة التى يكسر فيها السد ثم برسم ابن عثمان ليجىء فيها فى البحر وجهز له إحراقة قط تحرق قدامه فى البحر لما أن يقلع وما بقى من إكرامه ممكن فتوجهوا إلى دمياط بسبب الملاقاة[٢] .

---

(١) انظر الوثيقة رقم E. 6357. فى أرشيف طوبقپو سرايى باستانبول .

(٢) ابن إياس : المرجع السابق ، ج ٤، ص ١٥٢ النسخة التى نشرتها جمعية المستشرقين الألمان ، استانبول . ١٩٣٢

وبعد ثلاثة أشهر من وصول قرقود إلى مصر أرسل الغورى علان Allan الداوادار الثانى إلى بايزيد الثانى فى ٦ جمادى الأولى ٩١٥هـ (٢٢ أغسطس ١٥٠٩) لكى يخبره بمجىء قرقود ، فأحسن السلطان استقباله وأرسل فى نفس العام سفارة عثمانية إلى مصر برئاسة على أفندى قاضى أنقرة للوقوف على مدى الاستعدادات التى اتخذت للصرف على ولده قرقود[١] .

استأذن قرقود الغورى فى الذهاب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، فعلق السلطان المملوكى موافقته بموافقة بايزيد الثانى ، حيث قال له : « أرسل استأذن الوالد فإنه والدنا كلنا ، وله علينا تربية وإحسان لا نستطيع مكافأته أبدًا على ذلك » . أرسل الأمير التماسًا إلى أبيه مع أحد علماء الأزهر ويدعى الشيخ عبد السلام ، قص عليه قصته فيه ثم طلب منه الإذن بالذهاب إلى الأراضى الحجازية [٢] .

وفى شوال من نفس العام تقريبًا أرسل السلطان بايزيد الثانى رسالة إلى الغورى يوصيه فيها بابنه قورقود الذى ذهب إلى الأراضى الحجازية بقصد الحج . فرد عليه سلطان المماليك مجيبًا لطلبه ، ومحدثًا إياه عما فعله بالنسبة لابنه فى رسالة حملها قاصده كَسَباى . وقد طلب الغورى من بايزيد فى الرسالة أن يعفو عن ابنه قرقود ويحسن عليه بحكم بعض المناطق الهامة فى الأناضول كلواء أنطاليه وعلائية ومنوغاد Manavgat وحواليها .

وافق بايزيد على طلب الغورى[٣] وأرسل إليه رسالة . أثناء قيام قورقود بأداء مناسك الحج . يشكره فيها على ما قام به نحو ابنه ويخبره بإجابته إلى

(١) انظر الوثيقة رقم E. 6944 بأرشيف طوبقپو سرايى باستانبول .

(٢) نص الالتماس بالعربية فى ملاحق هذا الكتاب برقم ١٩، وهو مأخوذ عن محمد قورقود نفسه فى كتاب : وسيلة الأحباب بإيجاز تأليف ولد حركة الشوق لأرض الحجاز ، ورقة ١٦ ا - ٢٧ ب محطوط بمكتبة إياصوفيا باستانبول تحت رقم K. 3529.

(٣) خصص بايزيد لابنه اثنى عشر ألف فيلورى من خراج جزيرة ساقز وهو ما يقابل ثلاثة ملايين آقچة تدفع على ثلاثين مرة بواقع كل مرة مائة ألف درهم عثمانى ، وإذا لم يكن خراجها كافيًا يكمل المبلغ من خراج الروملى .

طلبه[1] .

حمل بكناى الخاصكى رد الغورى مع بعض التحف والهدايا وتوجه بها إلى بايزيد لكى يعبر له عن شكر السلطان المملوكى له على ما قام به نحو قورقود [2] .

مكث قورقود فى مصر أربعة عشر شهرًا ، عاد بعدها من ميناء رشيد إلى علائيه . وقد نجا من فرسان رودس الذين كانوا ينتظرونه فى البحر لكى يأسروه ويحتفظوا به رهينة يساومون بحياته السلطان العثمانى نظير مقابل مادى وسياسى فى نفس الوقت كما فعلوا مع عمه جم من قبل[3] .

وبعد أن اعتلى سليم العرش خنق أولاد إخوته الذين استطاع القبض عليهم وهم : محمد وعثمان وموسى أبناء أحمد وأورخان وأمير شاه ابنى محمود فى شوال سنة ٩١٨هـ (١٥١٣م)[4] خوفًا على عرشه . ففزع قورقود مما حدث وأرسل لأخيه خطابًا بالتركية يتعهده فيه بالولاء ويشهد الله على قوله [5] .

رد سليم على أخيه موافقًا على توسلاته[6] ، وبعد ذلك توجس خيفة من ردته فيما بعد ، فأنفذ إليه سنان بك أمير لواء منتشه ، فخنقه فى يوم الأربعاء ٥ محرم سنة ٩١٩هـ (١٣ مارس ١٥١٣م) .

(١) نص الرسالة بالعربية فى ملاحق هذا الكتاب برقم ٢٠، وهو مأخوذ عن أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٥٠٢ ا - ٥٠٣ ب .

(٢) نص الرسالة بالعربية فى ملاحق هذا الكتاب برقم ٢١، وهو مأخوذ عن أحمد فريدون ، ورقة ٥٠٤ ا - ٥٠٥ ب .

(٣) Ismail Hakki Uzuncarsili: It Bayezid in Ogullarindan Sultan Korkud S. 544- 584 Ankara 1966.

(٤) انظر ص ٦٧.

(٥) الترجمة العربية للرسالة موجودة فى ملاحق هذا الكتاب تحت رقم ٢٢، والأصل التركى مأخوذ عن أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٥٢٥ ب .

(٦) الترجمة العربية للرسالة موجودة فى ملاحق هذا الكتاب تحت رقم ٢٣، والأصل التركى مأخوذ عن أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٥٢٧ ا .

(د) أحمد وأولاده سليمان وعلاء الدين وقاسم :

عندما اشتد المرض على بايزيد الثانى استدعى ابنه أحمد إلى استانبول لكى يعينه مكانه ، وكان واليًا على أماسيا فى ذلك الوقت . علم الإخوة الثلاثة : أحمد وقورقود وسليم ، بقرب نهاية أبيهم ، فتجمعوا فى استانبول وبدأ صراعهم على العرش . أصر الإنكشارية على أن يعتلى سليم العرش ، فرضخ السلطان لأمرهم وأجلسه على العرش فى سنة ١٥١٢م .

لم يوافق أحمد على أن يكون سليم سلطانًا ، فأعلن نفسه حاكمًا على قونيه ، وأرسل ابنه سليمان إلى اسكيشهر وعلاء الدين إلى بروصه لكى يخبرا الناس بأن أباهما هو السلطان الحقيقى . وعندما علم سليم بذلك وهو فى بورصه جهز جيشًا وسار به لمحاربة أخيه وأولاده . لم يستطع أحد الصمود أمام أخيه ، فهرب إلى دارنده من توابع سوريا .

وبعد أن وصلت رسالة من السلطان سليم على يد قاصده شاويش يخبر فيها الغورى بما ينبغى عليه القيام به نحو الأمير أحمد الذى هرب إلى دارنده . تسلم خاير بك والى حلب الرسالة وقام بإبلاغ الغورى فى مصر بما حدث . وقبل أن يصل رد الغورى أرسل خاير بك رسالة إلى السلطان سليم فى ٧ شعبان سنة ٩١٨هـ يخبره فيها بحسن استقباله لأخيه أحمد ، وبأنه أرسل يستطلع رأى السلطان الغورى فيما حدث ، ويطمئنه على ما يكنه السلطان المملوكى له (لسليم) من محبة حيث يعتبره أحد أبنائه ، ويؤكد له على أن « المملكتين مملكة واحدة » .

وفى هذه الرسالة نقطة هامة تدل دلالة واضحة على مدى العلاقة الحسنة التى تربط خاير بك بالسلطان سليم ، وتشير إلى تواطؤ الأمير المملوكى مع السلطان العثمانى واتصالاته الخفية به ، حيث يقول للسلطان سليم : إننى أرسلت أستطلع رأى الغورى بشأن أخيكم أحمد ومهما يكن رده فإننى لن أتصرف بخصوص هذا الموضوع إلا بعد أن أستطلع رأيكم لأتصرف بمقتضاه

فأنا واقف على قدم الطاعة لما يرد على من مراسيمكم العالية لأبادر إلى تنفيذها .

وهذا هو نص الرسالة بالعربية[١] :

بسم الله الرحمن الرحيم   لطفه خفى

يقبل الأرض بين يدى المقام العالى[٢] المجاهدى المرابطى الدرغامى الاسفهسلارى[٣] .

سلالة الملوك والسلاطين قامع الكفرة والمبتدعين صاحب المملكة الرومية أدام الله علاه ونصره على أعداء وعظم شأنه وكبت من شأنه وينهى أن الموجب لعرضها على المسامع العالية هو أن المثال العالى[٤] ورد على المملوك [٥] على العايد بها إلى الخدمة العالية هو المجلس العلاى على شاويش بالخدمة العالية يتضمن ما رسمتم به من حضور أخيكم سلطان أحمد إلى المملكة الشريفة[٦] وغيره على الصورة المرسوم بها فقبل المملوك المثال العالى وقام إليه ووضعه على رأسه وعينيه وامتثل جميع ما رسمتم به بالسمع والطاعة والذى يعرضه المملوك على مسامعكم العالية أن السلطان أحمد المشار إليه حضر إلى مدينة دارنده من

---

(١) كتب عنوان المرسل إليه فالمرسل على ورقة ملتصقة خلف الوثيقة من أعلى على النحو التالى :

المقام العالى	مطالعه
صاحب المملكة الرومية المحروسة	المملوك
	خاير بك

(٢) لقب على السلطان العثمانى كان المماليك يستعملونه فى مراسلاتهم .

(٣) الدرغامى : نسبة إلى ضرغام . اسفهسلارى نسبة إلى اسفهسلار وهو مقدم العساكر [صبح الأعشى للقلقشندى ، م ٦ ص ٧، ٨ القاهرة ١٩١٥] .

(٤) المثال العالى : كلمة كان المماليك يستعملونها للدلالة على الرسالة التى ترد من السلطان العثمانى .

(٥) المقصود به خاير بك .

(٦) المقصود بها السلطنة المملوكية .

معاملة المملكة الشريفة ويسيل[1] الصدقات الشريفة[2] عظم الله شرفها فى الإذن له بما تقتضيه الآراء الشريفة[3] وقد توجه القاصد إلى خدمة الأبواب الشريفة[4] واستمر سلطان أحمد مقيم بدارنده ينتظر الجواب الشريف وعقبيها إن شاء الله تعالى يعود الجواب الشريفة[5] بما فى خاطر مقامكم العالى وزيادة ولله الحمد الذى حضر سلطان أحمد إلى معاملة والدكم المقام الشريف [6] فإنه محب لمقامكم العالى والمملكتين مملكة واحدة والمحبة مستمرة من عهد والدكم المقام المرحوم [7] تغمده الله تعالى بالرحمة والرضوان ولا يرا والدكم المقام الشريف إلا بما فيه الخير والصلاح بينكما وقد تلقى المملوك قاصد مقامكم العالى بالإكرام والاحترام وإكرام نزله وأحسن مثواه وألبسه من فايض إنعامكم كاملية مخملاً مفرية سمورا وأوصله نفقة مادية دينار وأعاده إلى مخدمه مقامكم العالى مكرمًا مرعيًا معاملاً بكل جميل وإن شاء الله تعالى مهما عاد به الجواب الشريف بسبب أخيكم سلطان أحمد يرسل المملوك يطالع مسامع مقامكم العالى فإن للملوك بشهادة الله تعالى محب لصدقات مقامكم العالى داعيًا لكم والمسئول من إحسان مقامكم العالى تشريف الملوك بمراسيمكم وخدمكم فإنه واقف على قدم الطاعة المملوك لما يرد عليه من مراسيمكم العالية ليبادر إلى قضائها وقد تعين خاير بك عرض ذلك على مسامعكم العالية أنهى المملوك ذلك إن شاء الله تعالى .

كتب

سابع شعبان المكرم سنة ثمان عشرة وتسعماية

---

(١) يسأل .

(٢) لقب على السلطان المملوكى .

(٣) يقصد بها آراء السلطان الملوكى .

(٤) المقصود مقر السلطان المملوكى .

(٥) تصحيحها : الجواب الشريف كما وردت فى السطر السابق عليها .=

(٦) لقب على السلطان المملوكى .

(٧) المقصود به بايزيد الثانى .

والحمد لله وحده وصلى الله على مولانا وسيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل[١] .

غضب الأمير أحمد من تصرف المماليك إزاء لجوئه إليهم ويئس من العودة إلى دياره ، فتوجه إلى مناطق شرق الأناضول التابعة لشاه العجم إسماعيل الصفوى . وهرب أبناؤه على التوالى سليمان وعلاء الدين وقاسم إلى مصر ابتداء من ٩١٨هـ (١٥١٢م) ، ولجأ ابنه مراد إلى بلاد فارس فيما بعد .

مكث أحمد مدة لدى الصفوى ، ثم عاد إلى بلاده . ولما علم سليم بعودته أمر بالقبض عليه وخنقه سنان بك فى يوم الجمعة ٢٥ فبراير ١٥١٣م فى بروصه ، كما خنق أخاه قورقود من بعده . لقد عاصر سليم المنازعات التى حدثت بين عمه جم وأبيه بايزيد الثانى ، وخشى أن تتكرر هذه الأحداث من إخوته وأبنائهم .

هرب سليمان إلى مصر فى يوم الخميس ٦ ذى القعدة ٩١٨هـ (١٣ يناير ١٥٠٣م) ، فأكرم الغورى وفادته على مضض منه فقد خشى أن يسبب ذلك غضب السلطان سليم . وفى السابع عشر من نفس الشهر توجه علاء الدين لزيارة القدس ، ثم التجأ إلى مصر فأنزلوه فى بيت الأتابكى تمراز .

مكث سليما فى مصر ثلاثة أشهر ونصف الشهر تقريبًا ، ومكث أخوه علاء الدين أربعة أشهر ، ثم ماتا بالطاعون . توفى سليمان فى بولاق فى يوم الأحد ١٨ صفر ٩١٩هـ (١٥١٣م) ، وتوفى أخوه فى يوم السبت ٨ ربيع الأول من نفس العام [٢] .

استراح سليم الأول من شر هذين الأميرين بعد موتهما . لكنه بعد أن قتل

---

(١) الوثيقة محفوظة فى أرشيف طوبقبو سرايى باستانبول ، تحت رقم ج. ٧١٤٣ .

(٢) انظر ما ذكره ابن إياس بهذا الخصوص فى ملاحق هذا الكتاب ، ملحق رقم ٢٤.

أخاه أحمد ، هرب ابنه قاسم ولالاه[1] سرًا إلى حلب ، ولم يتعد الثالثة عشرة من عمره . ولما علم الغورى بذلك أحضره سرًا إلى مصر وفرح بمقدمه لأنه كان فى طريقه لمحاربة السلطان سليم بعد أن علم بتأهبه للتوجه إلى الشام . اصطحب الغورى قاسمًا معه ، وعند حلب أخلع عليه الخلع السلطانية العثمانية نكاية فى عمه سليم . ولما قتل الغورى فى مرج دابق عاد قاسم إلى مصر ، واشترك مع طومان باى فى معركة الريدانية وفى معركة وردان ، ثم هرب بعد هزيمة السلطان المملوكى . وبعد مدة من الزمن قبض عليه ، وقتل[2] .

هكذا نرى أنه عندما كانت العلاقات سيئة بين المماليك والعثمانيين ، استغل المماليك الأمراء العثمانيين الفارين لبلادهم لغير صالح العثمانيين . وقد كان العثمانيون يعدون إيواء المماليك اللاجئين إليهم من الأمراء تحريضًا لهم على الفوز بالعرش مما جعل لهذا المسلك أثرًا عميقًا فى نفوس السلاطين العثمانيين الذين اعتبروا ذلك تصرفًا عدائيًا سافرًا .

---

(١) لالا : لقب كان يطلق قديمًا على الصدور العظام فى مقابل كلمة « آتا بك » بمعنى الأب العزيز ، وكان يطلق على مربى الأمراء العثمانيين أيضًا .

(M-hmet Zeki Akalin: Op. Cit, vol. 2,p. 354).

(٢) انظر ما كتبه ابن إياس عن هذا الأمير فى ملاحق هذا الكتاب ، ملحق رقم ٢٥.

(٣) الصراع على النفوذ

فى مناطق الأناضول الجنوبية الشرقية والمتاخمة للشام

كانت مناطق الأناضول الجنوبية الشرقية والمناطق المتاخمة للشام شمالاً تشكل تهديدًا دائمًا لقوافل التجارة القادمة من الشرق إلى بلاد العثمانيين ، كما كانت تعتبر المنافذ المؤدية للأناضول . وعليه كان العثمانيون جادين فى إتمام سيطرتهم على كل أجزاء آسيا الصغرى التى كانت تحت حكم الإمبراطورية البيزنطية من قبل .

وكانت المناطق المذكورة خاضعة لنفوذ المماليك فى كثير من الأحيان ، وكانوا يولونها أهمية خاصة لأنها تؤمن سلامة الأراضى الواقعة فى شمال الشام وعليه يعتمد المماليك فى شئون الأمن والدفاع عن الأطراف الشمالية لسلطنتهم .

ونظرًا لأهمية هذه المناطق للعثمانيين والمماليك على السواء ، سعى كل منهم لإحكام سيطرتهم ونفوذه عليها تأمينًا لسلامة أراضيه وإبعادها عن الخطر الذى يتهددها من جيرانه .

تصارع الطرفان على النفوذ فى الإمارات والدول التى تضمها هذه المنطقة الواقعة على الحدود بينهما ، وسعى كل منهما إلى تعيين أمراء وحكام موالين له ، مما جعل العلاقات تسوء بينهما وتنشب بعض المعارك .

(أ) إمارة ذولقادر :

نشأت فى البستان ومرعش من ممتلكات المماليك إمارة تركمانية صغيرة سنة ٧٤٠هـ (١٣٣٩م) سميت باسم ذولقادر .

اشترك المؤسس الحقيقى لهذه الإمارة ويدعى زين الدين قراجه بك (ت ٧٥٤هـ ، ١٣٥٣م) مع الجيش المملوكى فى إحدى معاركه ضد الأرمن بينما كان زعيمًا لعشيرته ، وأبلى فى المعركة بلاء حسنًا استحوذ على إعجاب قائد الجيش المملوكى . وفى سنة (١٣٣٩م) استولى على البستان من أرتنه بك Eretna واستطاع أن يجعل منها مركزًا لإمارته ثم ضم إليها مرعش فيما بعد . وقد تمكن ابنه وخليفته خليل بك (ت ٧٨٨، ١٣٨٦م) من ضم ملطية وخربوت وبهسنى Bahisni للإمارة .

ارتبطت هذه الأسرة بالعثمانيين عن طريق المصاهرة ، فقد تزوج السلطان **محمد چلبى** ابنة أحد أمرائها ويدعى سولى بك (ت ٨٠٠، ١٣٩٧م) . وأرسل السلطان مراد الثانى إلى أحد أمراء هذه الإمارة ويسمى سليمان بك (ت ٨٥٨هـ ، ١٤٥٤م) فى طلب خمس بنات ، زوج أجملهن وهى سيتى مكرمة خاتون لابنه محمد (الفاتح) . وتزوج بايزيد الثانى عائشة خاتون ابنة علاء الدولة ، فأنجبت له سليمًا (الأول) .

ظلت إمارة ذولقادر على علاقة حسنة بالمماليك والعثمانيين أيام حكم سليمان بك . ولما توفي اعتلى العرش مكانه ابنه ملك أرسلان بك . وفى عهده استولى أوزون حسن على خربوت ، فطلب ملك أرسلان العون من مصر ، وفى هذه الأثناء تمكن أخوه شاه بوداق من قتله ، واعتلى العرش بعده فى سنة ٨٧٠هـ (١٤٦٥م) . وبعد أن استتبت الأمور له ، تحالف مع المماليك . لكن السلطان محمد الفاتح تدخل فى الأمر واستطاع أن يعين أخًا لشاه بوداق يدعى شهسوار لتأكده من ولائه للدولة العثمانية . غضب خشقدم لهذا المسلك لكن الأجل لم يمهله طويلًا للرد على العثمانيين . وعندما قويت شوكة شهسوار تمرد على العثمانيين رافضًا ولاءه لهم ، فأصبحت الفرصة مواتية أمام المماليك الذين جردوا عليه حملة تمكن من أسره وشنقه على باب زويلة سنة ٧٨٨هـ (أغسطس ١٤٧٢م) ، ونصب قايتباى مكانه شاه بوداق . لم يسكت الفاتح على ما حدث ، فقام بمساعدة علاء الدولة على اعتلاء العرش سنة ٨٨٤هـ (١٤٧٩م) لأنه من صنائع العثمانيين .

عندما فرغ بايزيد الثانى من خطر أخيه جم واتفق مع رئيس اسبتارية على أن يحتفظ به لديه ، أراد أن ينتقم من المماليك لمساعدتهم لأخيه وتحريضهم إياه على الحرب ضده ، فساعد علاء الدولة سنة ١٤٨٣م وحرضه على محاربة المماليك وأمده بالجنود اللازمة . أغار أمير ذولقادر على ملطية التابعة للمماليك ، إلا أن القائد المملوكى تمراز الشمسى رده عن هذه المدينة وأنزل به هزيمة منكرة سنة ١٤٨٤م ؛ وأسر الكثير من جنود آل عثمان .

وبعد ذلك أنفذ قايتباى إلى عينتات فرقة مكونة من ٥٠٠ جندى جعل على رأسها القائد أوزبك لإرهاب علاء الدولة وتحريضه على ترك صداقة العثمانيين وإعلان ولائه للماليك . ولكن علاء الدولة رفض المساومة على صداقته للعثمانيين ، وأصر على موقفه رغم تكرار دعوته إلى التغاضى عنها[١] .

لم يستمر علاء الدولة على عدائه للمماليك ، فعندما أحس بقوتهم وخطرهم رضخ لمطالبهم فى الفترة التى حدثت فيها صدامات بينهم وبين العثمانيين ٨٩٠ - ٨٩٦هـ (١٤٨٥ - ١٤٩٢م) ، ومن ناحية أخرى كان يخاف بطش زوج ابنته بايزيد الثانى . ولما تأكد من أن المماليك يزدادون ضعفًا من يوم لآخر ، تحالف مع العثمانيين .

وفى جمادى الثانية سنة ٩١٣هـ (١٣ أكتوبر ١٥٠٧م) استطاع الشاه إسماعيل الصفوى الذى كان يسعى إلى نشر المذهب الشيعى فى الأناضول أن ينزل بعض الهزائم بعلاء الدولة[٢] .

وعندما سار سليم على رأس جيوشه سنة ٩٢١هـ (١٥١٥م) لمحاربة

---

(١) انظر التقرير الذى كتبه أحد رجال العثمانيين ويدعى مصطفى عما أدلى به جاسوس عاد من أرض العرب ضمن لوحات هذا الكتاب برقم ٧، وهو مقيد تحت رقم E.12105 بأرشيف طوبقبو سرايى باستانبول .

(٢) Dr. Ismail Hakki Uzuncaisili: Anadolu Beylikleri, S. 169 - 174 Ankara 1969.

الصفوى ، لم يساعده علاء الدولة عندما مر بأراضيه ، فأمر سليم - عند عودته من حربه مع الفرس - الصدر الأعظم سنان باشا بمحاربته والقضاء عليه .

تحرك الصدر الأعظم إلى إمارة ذولقادر فى غزة جمادى الأولى سنة ٩٢١هـ على رأس جيش قوامه عشرة آلاف جندى ، وهاجم علاء الدولة وهزمه وقطع رأسه مع رءوس أربعة من أولاده وثلاثين من أمرائه . وبعد أن استراح السلطان من شر جده لأمه ، منح حكم ذولقادر لعلى بن شهسوار الموالى للعثمانيين .

وبعد قتل علاء الدولة لم يعد للمماليك نفوذ فى إمارة ذولقادر فقد أصبحت تابعة للعثمانيين ، وسكت العملة وقرئت الخطبة باسم السلطان العثمانى .

وبعد القضاء على علاء الدولة وتعيين على بن شهسوار مكانه ، أرسل قانصوه الغورى رسالة مع قاصده إلى السلطان سليم ، يذكره فيها بأن منح على حكم قيصريه وبوز أوق تصرف غير لائق ، حيث كان أبوه شهسوار باعثًا على الخصومة والعداء ين سلاطين الروم والعرب ، وتم صلبه فى قاهرة مصر . ثم يدعوه بأن يبعد الأمير المذكور عن اهتمامه ، ويتمنى أن تذكر الخطبة فى إمارة ذولقار على النظام السابق . غضب سليم مما جاء فى هذه الرسالة وأجاب على الرسول ، قائلاً : « فلتقرأ الخطبة له وتضرب السكة باسمه فى مصر إن أراد »(١) .

ظل عليّ على ولائه للعثمانيين فاشترك معهم فى معاركهم ضد المماليك أثناء فتح الشام ومصر . وفى سنة ٩٢٨هـ(١٥٢١م) غضب عليه فرهاد باشا قائد الجيش العثمانى وقتله هو وأسرته ، فأصبحت إمارته ولاية عثمانية منذ ذلك التاريخ .

بعد أن فرغ سليم الأول من فتح قلعة الكماخ Kamah وإمارة ذولقادر أرسل وهو فى قيصرية فى أواسط جمادى الأولى سنة ٩٢١هـ رسالة الفتوح السلطانية بهذه المناسبة إلى ابنه الأمير سليمان فى القسطنطينية(٢) . كما كتب

---

(١) صولاق زاده : صولاق راده تاريخى ، م ١، ج ١، ص ٣٧٤ استانبول . ١٢٩٧

(٢) ترجمة هذه الرسالة بين ملاحق هذا الكتاب برقم ٢٦، والأصل التركى مأخوذ عن فريدون ، ورقة ٥٧١ب - ٥٧٢ا .

رسالة أخرى وأرسلها إلى الغورى مع رأسى علاء الدولة . ويخبره فى رسالته هذه التى حملها سيف الدين بك بما حدث أثناء فتحه قلعة الكماخ وقضائه على علاء الدولة حاكم إمارة ذولقادر . ويؤكد له أنه سيفتح البلاد الشرقية ، ويدفع « بقية السيوف من الرفضة القزلباشية » فى العام القادم . ويرجوه ألا ينصت لرجاءاتهم ولا يلتفت لتضرعاتهم وسفسطاتهم . أرسل سليم هذه الرسالة إلى الغورى ومعها رأس جده لأمه ، لكى تكون سببًا فى نشاطه وباعثًا على انبساطه على حد قوله ، ولكى يعلن « هذا الفتح المبين فى الأقطار والأمصار من بلاد الموحدين كما هو دأب الملوك والسلاطين » ، على الرغم من أنه يعلم جيدًا أن علاء الدولة كان من أقوى أنصار المماليك . ولشدة غضب الغورى على مقتل علاء الدولة لم يرد على هذه الرسالة [1] .

(ب) دولتا الشاه البيضاء والشاه السوداء التركمانيتان :

تكونت دولتان تركمانيتان فى جنوب شرق الأناضول فى منتصف القرن الرابع عشر . تركزت الأولى وتعرف بالآق قيونلية فى ديار بكر وما حولها ، واستوطنت الأخرى وتدعى القراقيونلية شمال بحيرة وان . كان من الطبيعى أن يكثر النزاع بين الدولتين ، لأن الأولى كانت سنية والثانية شيعية . تغلب مؤسس دولة الآق قيونلية « قره بولاق عثمان » على « قره محمد » زعيم دولة القراقيونلية سنة ١٣٨٩م فى المناوشات العديدة التى قامت بينهم .

عندما تحرك تيمور لغزو الأناضول ساعده قره بولاق ، واشترك معه فى معاركه فى الأناضول سنة ١٤٠٢م ، فعينه تيمور حاكمًا على ديار بكر بعد انتصاره . ظل النزاع قائمًا بين الدولتين التركمانيتين إلى أن تولى حكم الآق قيونلية أوزون حسن (حسن الطويل) ٨٧١- ٨٨٢هـ (١٤٦٦- ١٤٧٨م) ، فاستطاع أن يقضى على آخر حكام القراقيونلية ويدعى

---

(١) نص الرسالة بالعربية ضمن ملاحق هذا الكتاب تحت رقم ٢٧، وهو مأخوذ عن فريدون ، ورقة ٥٧٣ ب - ١٥٧٦ .

حسن على ، ويضم دولته إليه فى سنة ١٤٦٩م . ظل أوزون حسن يوسع أملاك دولته حتى شملت أجزاء من شمال العراق وبلاد فارس وأرمينية .

كان المماليك والعثمانيون يعتبرون أوزون حسن خطرًا عليهما سواء بسواء لأنه كان حاكما سنيًا قويًا فبينما كانت الجنود المملوكية تسير بقيادة يشبك الدوادار فى طريقها من الشام إلى شمال العراق سنة ١٤٧٣م ، لمحاربة أوزون حسن أمير ديار بكر ، جاء رسول عثمانى إلى المعسكر المملوكى يعرض استعداد السلطان محمد الثانى للاشتراك فى تلك الحرب ، على أن انتصار الجنود المملوكية على أوزون حسن تم وشاعت أنباؤه فى مصر والشام ، قبل أن يسهم العثمانيون بجيش أو بعض جيش ، ومع هذا لم يسع قايتباى إلا أن يرسل إلى محمد الثانى مبعوثًا خاصًا يشكره على استعداده لمساعدة الدولة المملوكية(١) .

وفى أغسطس سنة ١٤٧٣ هاجم محمد الثانى أوزون حسن وهزمه هزيمة منكرة جعلته يطلب العون من الدول الأوربية . توفى أوزون حسن فى تبريز ٨٨٢هـ (١٤٧٨م) ، فخلفه ابنه يعقوب . أخذ يعقوب يتقرب إلى المماليك ويتودد إليهم خوفًا على مملكته . وقد ساعدته الظروف على النجاح فيما سعى إليه حيث كان العثمانيون مشغولين بثورة الأمير جم ، وكان المماليك يسعون لتقوية نفوذهم فى إمارة ذولقادر خوفًا من انتشار النفوذ العثمانى فيها .

تنازع أبناء يعقوب على حكم الإمارة بعد موته ٨٩٦هـ (١٤٩٠م) ، وتمكن أحدهم ويدعى مراد من اعتلاء العرش . وقد استغل إسماعيل الصفوى فرصة ضعف هذه الدولة وقضى عليها تمامًا فى معركة شرور ١٥٠٢م .

(جـ) إمارة بنى رمضان :

كانت إمارة بنى رمضان ضمن الإمارات التابعة للمماليك فى الأناضول . وعلى الرغم من أن بايزيد الثانى تمكن من الاستيلاء على أذنه وطرسوس

---

(١) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ، ص . ٢٠٣

وحواليها مرة أو مرتين ، فإن هذه الإمارة لم تتخل عن ولائها للمماليك .

ذهب محمود بك إلى استانبول فى نهاية صيف ١٥١٥م يعرض على سليم الأول الدخول فى طاعته ، فأعلن المماليك تجريده من العرش وإحلال سليم بك مكانه . تدخل السلطان سليم فى الأمر وعين محمود بك فى حكم هذه الإمارة لتأكده من ولائه للعثمانيين . صحب محمود السلطان سليم فى حربه ضد المماليك واستشهد فى الريدانية ، فنصب سليم مكانه أكبر أبنائه الخمسة قباد بك . نقل قباد من أذنه إلى إمارة فى الروملى سنة ١٥٢٠م ، وظل يحكم هناك حتى توفى سنة ١٥٥٩م وهو فى الرابعة والثمانين من عمره . وعين أخوه بيرى محمد باشا مكانه فى أذنه عندما نقل أخوه إلى الروملى ، وظل يحكم حتنى توفى سنة ١٥٨٦م وله من العمر تسعون عامًا . وقد ظل بنو رمضان يتولون حكم إمارتهم حتى ضمت نهائيًا إلى البلاد العثمانية سنة ١٦٠٨م[١] .

---

(١) Yilmaz Ostuna: Turkiye Tarihi, C 5,S.34,35 Istenbul 1964

الفصل الثانى

أسباب الفتح العثمانى للشام ومصر

الفصل الثانى

أسباب الفتح العثمانى للشام ومصر

لا شك أن فتح سليم للشام ومصر كانت وراءه دوافع وأسباب عديدة . ولم يأت مصادفة ، أو دون مبررات قوية دعت إلى الاستيلاء على هذه المنطقة الشاسعة من العالم العربى ، التى ضاعفت أملاك الإمبراطورية العثمانية أكثر من مرة ونصف . امتزجت هذه الدوافع والمسببات مع بعضها وتفاعلت فى عقلية سليم الأول ، وأصبحت حافزًا قويًا له ومبررًا للقضاء على دولة المماليك الآخذة فى الضعف والانهيار والاستيلاء على الشام ومصر . والأسباب التى دعت سليمًا لفتح الشام ومصر ، بعضها ساهم فى صنعه المماليك والبعض الآخر نتج عن سياسة السلطان العثمانى وتفكيره . ولا يمكن أن نفصل سببًا عن الآخر ، فكلها مجتمعة كانت المحرك والدافع لقتال المماليك .

على أن المتتبع للسياسة العثمانية والسياسة المملوكية قبل عصر سليم يجد أن هذه الفترة مهدت للصدام وهيأت له على نطاق واسع بين القوتين . فقد ساءت العلاقات بين الطرفين فى كثير من الأوقات ، وحدثت بينهما صدامات محدودة على الحدود . عاصر الأمير سليم بعضها أيام أن كان واليًا على طرابزون سنة (١٤٩٠م) فى شرق الأناضول قريبًا من الأحداث الدامية . ويبدو أن هذه الأحداث أثرت فى تفكير سليم تفكيرًا قويًا ، نظرًا لأنها لم تكن فى صالح العثمانيين فى أغلب الأحيان . وقد أتاحت له الظروف قبل اعتلاء العرش أن يحكم فى منطقة مجاورة للمناطق التى حدثت فيها اضطرابات كثيرة

فى شرق الأناضول من تأثير نشر المذهب الشيعى بالقوة والقهر . لكن تصريف الأمور لم يكن فى يده أيام أن كان أميرًا ، ولا كان بيد أبيه بايزيد الثانى فى أواخر أيام حكمه ، حيث كان الصدر الأعظم على باشا الخادم يتولى شئون السلطنة لمرض السلطان ولطبيعته المسالمة قبل كل شيء .

واعتقادى أن فكرة اتجاه الفتح العثمانى نحو شرق الأناضول وجنوبه ، أى نحو بلاد فارس ونحو الشام ومصر ؛ إنما اختمرت فى عقل سليم أيام أن كان واليًا فى شرق الأناضول . فلما تولى العرش (١٥١٢م) واطمأن على الأحوال فى أوربا ، بدأ يستعد لمحاربة الصفويين للقضاء على خطرهم الذى كان يستفحل من يوم لآخر فى الأناضول . وبعد أن تم له دحر إسماعيل الصفوى ، بدأ يجهز لفتح الشام ومصر [١] .

يخضع بعض دارسى التاريخ أسباب الفتح العثمانى للشام ومصر لتصورات عصرية تبعد تمامًا عن حقيقة الدوافع الكامنة وراء الفتح . ولكن دراسة الوثائق والمصادر المعاصرة للفترة تكشف لنا عن الأسباب الحقيقية لدوافع الفتح ، وهى :

(١) إيواء المماليك للأمراء العثمانيين الفارين :

حرضت بعض الدول المجاورة للدولة العثمانية كدولة المماليك ودولة الصفويين الأمراء العثمانيين على اللجوء إلى أراضيها أو آوت الفارين منهم ، لما يحدثه ذلك من تهديد للعرش العثمانى . وقد سبب هذا التصرف عداءً شديدًا بين العثمانيين وجيرانهم لخوف السلاطين من إمداد هذه الدول بجيوش لمحاربتهم خاصة إذا كانوا فى أوائل عهدهم بالحكم ولم يستقروا على العرش تمامًا لوجود بعض القلاقل . وقد هرب بعض الأمراء خوفًا على حياتهم إلى

---

(١) لا أوافق توينبى فيما ذهب إليه بخصوص تعليل سبب الاستيلاء على الشام ومصر بأنه صراع مذهبى بين القوتين الإيرانيتين : الدولة العثمانية السنية والدولة الصفوية الشيعية . سعت له الدولة العثمانية لكى تخل بالتوازن بينها وبين الدولة الصفوية

(Toynbee : A Study of History, vol. 1, pp. 347 - 400 Oxford 1945)

المماليك أو الصفويين وأحسن هؤلاء وفادتهم وأكرموهم وأنزلوهم منازل خاصة ، مما زاد من غيظ السلاطين العثمانيين وحنقهم . وقد حاول بعض السلاطين العثمانيين جاهدًا أن يحصل على هؤلاء الأمراء الهاربين ، ولكن المماليك والصفويين لم يجيبوهم إلى مطلبهم ؛ بل إنهم أمدوا بعضهم بالجند والسلاح لمحاربة السلطان الجالس على العرش . فكلما حدث اضطراب فى الدولة العثمانية خاصة فى منطقة الأناضول ، كلما أفاد منه سلاطين المماليك وشاهات الصفويين ، حيث يضعف ذلك من قوة الدولة الفتية الآخذة فى النمو والقوة والتوسع ، والتى تهدد كيان هاتين الدولتين المجاورتين ، خاصة المماليك وهم آخذون فى الضعف والانهيار .

وقد سبب هروب الأمراء الذين لم يحالفهم الحظ فى تولى حكم السلطنة العثمانية فزعًا شديدًا لدى سلاطين آل عثمان لخوفهم على عروشهم من مناوأة هؤلاء . وكثيرًا ما أعمل السلاطين فيمن استطاعوا القبض عليهم القتل أو سمل العيون اتقاء شرهم وتحاشيًا لمنافستهم . وقد كان بعضهم صغيرًا ، لكن صغرهم لم يجلب رحمة السلاطين وشفقتهم عليهم ، فالصغير سيكبر يومًا ويحتمل أن يكون منافسًا على العرش فى نظر السلاطين . لقد خاف الأمراء على حياتهم كلما تولى سلطان جديد على الرغم من أن حلم السلطنة لم يكن يراود بعضهم .

ويبدو أنه بعد أن سن الفاتح قانونه ، وأورد فيه فقرة خاصة بوراثة العرش ، تبيح لمن يفوز به قتل جميع إخوته الباقين حرصًا على مصلحة البلاد ؛ خاف الأمراء الذين لم يحالفهم الحظ بنيل العرش على حياتهم . فقام جم يطالب بالعرش ويستميت فى الطلب ، وهرب آخرون فزعين خشية بطش السلطان الحاكم .

وعلى الرغم من إيواء المماليك والصفويين للأمراء العثمانيين الهاربين من ديارهم ، إلا أن كلًّا منهما لم يحسن استغلال هذه الفرص المتكررة لصالحه .

وقد شجعت مساعدة المماليك للأمير جم - رغم بساطتها - على زحفه على الأناضول ، وزيادة حدة العداوة بين العثمانيين والمماليك ، وحدوث بعض المصادمات على الحدود بين الدولتين[١] .

(٢) الصراع على الإمارات المجاورة :

تصارع المماليك والعثمانيون على النفوذ فى مناطق الأناضول الجنوبية الشرقية والمناطق الواقعة شمال الشام . فكل منهما كان يسعى إلى تعيين أمير موال له فى الإمارات الواقعة فى هذه المناطق ، مما سبب اضطرابًا شديدًا وتوترًا فى العلاقات بينهما . وقد كانت درجات الاضطراب والتوتر فى العلاقات تزداد حدتها كلما ازداد تدخل أى من الطرفين فى شئون هذه الإمارات التى كانت تتبع النفوذ المملوكى ، والموجودة فى صميم أراضى شبه جزيرة الأناضول وخطرها شديد على العثمانيين . وقد زاد الصراع على الحكم فى هذه الإمارات كلما ازداد تدخل أى من الطرفين المماليك أو العثمانيين . وكانت هذه الإمارات مهددة بالزوال من آن لآخر خاصة فى الفترة التى ازدادت فيها حدة الصراع بين هاتين القوتين . فهى إمارات صغيرة وضعيفة بالقياس إلى القوتين الكبيرتين اللتين تحيطان بها . وكان ضعفها سببًا فى عدم استقرار الحكم فيها ، ومشجعًا لكلتا الدولتين الكبيرتين على التدخل فى شئونها كثيرًا . يعتبرها المماليك حصونهم الشمالية ، ويعتبرها العثمانيون جسمًا غريبًا داخلا فى صميم أناضولهم ، مثار قلق دائم لهم وتهديد مستمر . كما أنهم كانوا يخافون من انتشار المذهب الشيعى فى هذه المناطق التى لا تتبعهم ، والتى وجد فيها الشيعة فى بعض الأحيان أرضًا خصبة لنشر مذهبهم ولو تحت تهديد السلاح والقمع ، لأن المماليك وهذه الإمارات تحت نفوذهم لم تكن قبضتهم عليها قوية فى بعض الأحيان خاصة فى أواخر أيام السلطنة المملوكية .

---

(١) لتوضيح ذلك ، انظر ما كتبته تحت عنوان « إيواء المماليك للأمراء العثمانيين الفارين » فى الفصل الأول من هذا الكتاب .

سبّب إيواء المماليك للأمراء العثمانيين الفارين وكذلك النزاع على النفوذ فى إمارات الأناضول ، توترًا فى العلاقات بين المماليك والعثمانيين . كان من نتيجته قبل فتح الشام ومصر ، قيام عدة صدامات على الحدود ، لم تتعد أن تكون تنفيسًا عن غيظ السلاطين العثمانيين من إثارة المماليك لهم بهذه التصرفات . فلم تكن صدامات على نطاق واسع لأن العثمانيين كانوا مشغولين بفتوحاتهم فى أوربا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لا يستطيعون القيام بعمل حربى كبير مع المماليك لاتساع جبهتهم وطولها ، والأناضول به إمارات لا تدين بالولاء لهم . ومن الخير لهم ضمها أولاً لتأمين ظهرهم ثم التوجه للقضاء على المماليك . وقد كان إسماعيل الصفوى خطرًا داهمًا عليهم لأن نفوذه كان يتسع من يوم لآخر فى الأناضول خاصة فى الإمارات التركمانية . فقد كان يسعى على الدوام لنشر المذهب الشيعى ووجد أرضًا خصبة فى الدويلات المذكورة لضعفها وصغرها .

كان تفكير سليم فى القضاء على خطر الفرس وخطر الإمارات التى لا تتبع العثمانيين فى الأناضول أولاً ثم التحرك إلى الشام ومصر تفكيرًا سديدًا يضمن عدم انقضاض أحد من أعدائه فى هاتين المنطقتين على مؤخرته وهو فى طريقه لملاقاة المماليك .

(٣) التحالف المملوكى الصفوى :

كان واجب الجهاد الدينى أحد المحركات الرئيسية للفتوحات العثمانية فى أوربا . فهى « بلاد الكفر » التى ينبغى فتحها وضمها إلى العالم الإسلامى . وكانت الغيرة على الدين حافزًا قويًا للسلاطين العثمانيين على الاستبسال فى فتح هذه البلاد التى يعتبر فتحها « جهادًا فى سبيل الله » ...

وكانوا كلما أحرزوا نصرًا يرسلون القصاد برسائلهم إلى المماليك الإسلامية لكى تقيم الزينات والأفراح وتبتهج بهذه الانتصارات الإسلامية . وكان حكام الديار الإسلامية يرسلون الهدايا إلى السلاطين العثمانيين فرحًا وابتهاجًا بالنصر

ومعها رسائل الفرح والبشر وقصائد المدح .

كانت القومية الإسلامية هى الموجه الوحيد المتحكم فى سياسة الدولة العثمانية وذلك أن دولتهم اصطبغت من لدن قيامها بالصبغة الإسلامية البحتة فقد كان سلاطينها الأول ينتمون إلى أهل الفتوة وكانوا يتلقبون بلقب الغازى فكان لقب أورخان بن عثمان مثلاً هو : السلطان بن سلطان الغزاة الغازى ابن الغازى مرزبان الآفاق وبطل العالم ، وهذا اللقب « سلطان الغزاة » لقب أضفاه درويش مولوى على أحد حكام آيدين المعاصرين لعثمان أبى أورخان . وتنتمى أسرة العثمانيين من ناحية الأم إلى أده بالى رئيس مشايخ الصوفية الذى زوج ابنته لعثمان جد الأسرة . وقد كان أده بالى هو الذى قلد عثمان السيف بوصفه أحد أصحاب الفتوة . ظل العثمانيون يتقلدون سيف عثمان فى حفل دينى بمسجد الصحابى أبى أيوب الأنصارى باستانبول من قبل إمام المسجد ، فيكون ذلك رمزًا للبيعة ، وقد حرص العثمانيون أيضًا على أن يكونوا ملوك الإسلام بوصفه قوة فاتحة متحركة .

وقد بلغت القومية الإسلامية مداها عند السلطان سليم الأول حتى لقد حاول أن يجعل على اللغة الإسلامية الأولى وهى اللغة العربية لغة قومية للترك ، ولم يمنعه من تحقيق هذا المشروع إلا المفتى .

ولا شك أيضًا فى أن الإسلام الذى عاش من أجله العثمانيون هو الإسلام السنى . وقد ازداد حدبهم عليه زيادة كبيرة بعد ظهور إسماعيل الصفوى وإرغامه السنيين فى إيران على الدخول فى المذهب الشيعي(١) .

كانت العداوة سافرة بين العثمانيين والصفويين بسبب اختلاف المذهب ، وبسبب سعى الفرس لنشر المذهب الشيعى والترويج له فى شرق الأناضول على

---

(١) د . أحمد السعيد سليمان : التيارات القومية والدينية فى تركيا المعاصرة ، ص ١٦، ١٧القاهرة (١٩٦١) .

الحدود مع العثمانيين وبعض المناطق التابعة للسلطان العثمانى ، وتفيض المصادر التركية فى القول فى هذا المجال وتصور المذابح التى قام بها إسماعيل الصفوى وأعوانه لإرغام الناس على اعتناق المذهب الشيعى بالقوة والقهر[1] . ولا يخفى علينا أن العثمانيين منذ أن أن دخلوا فى دين الله وهم يغارون على دينهم ويتعصبون لمذهبهم السنى ويعتبرون الخارجين على المذهب السنى من « الرفضة الملاحدة » الذين يجب قتالهم ومحوهم .

كان تحالف المماليك مع الصفويين ضد العثمانيين مثيرًا لغضب سليم من الغورى السنى الذى اتفق مع الصفوى الشيعى . لقد كان اتفاقًا هشًّا ؛ فلم يدخل الصفويون الحرب معهم ضد العثمانيين ويبدو أن التناقض بين الدولتين المملوكية والصفوية لم يجعل منهما صديقين حميمين أمام خطرهما المشترك على الرغم من أنهما اتفقتا على التحالف ضد سليم . كما أن سليمًا لم يثر المماليك أثناء حملته ضد الشاه فلم يتعرض للإمارات التابعة لهم - وقد مر بها - على الرغم من عدم مساعدتها له . وربما لم يساعد المماليك الصفويين

---

(١) قبل عصر بايزيد الثانى بقليل ، أرسل صدر الدين شيخ تكية أرديل المجاورة لتبريز والذى يدعو للمذهب الشيعى كثيرًا من مريديه إلى الأناضول لنشر مذهبه . ذهب أصدق مريديه قره بيق الخراسانى على رأس عشيرته إلى الأناضول ، واستوطن حول تكه (أنطاليا الحالية) . وبعد أن استقر بعض الوقت هناك ، صعد على أعلى هضبة بالقرب من « المالى » وأنشأ هناك تكية ، ظل قره بيق يتلقى تعليماته سرًّا من شيخه حتى مات بعد عشرين عامًا أو أكثر . وبعد موته حل محله ابنه شاه قولى فى إدارة التكية ورئاسة العشيرة .

بدأ شاه قولى يتلقى تعليماته سرًّا من شيخه ، وينفذها بحذافيرها فى هذه المناطق . وأخذ يوسع نطاق نشره لمذهبه من يوم لآخر حتى كثر أنصاره . فكون تشكيلات عسكرية سرًّا وكون حكومة ، وأخذ يجمع الضرائب بحجة الصرف على التكية ، وكان ينفذ تعاليم الشاه إسماعيل الصفوى التى كان يرسلها إليه مع أناس من تبريز يذهبون إليه بحجة التجارة أو ما شاكل ذلك ، وكان من أخلص أعوانه .

عندما تأكد شاه قولى من قوته بدأ يفرض مذهبه بالقوة والعنف على من لا يطيعونه فى هذه النواحى ، أعد الصدر الأعظم على باشا الخادم حملة للقضاء عليه ، فتقابل معه عند **كوك چاى** بالقرب من يوزغاد . ودارت بينهما معركة حامية سقط فيها شاه قولى قتيلاً ، وجرح الصدر الأعظم جرحًا بالغًا نقل على أثره إلى أماسيا حيث مات هناك فى يوليو سنة ١٥١١م .

Muallim Fuad Gucuyener : Yavuz Sultan Selim, vol. 1,p81, 82,90 Istanbul 1945.

ضد العثمانيين خشية أن ينتصر الصفويون فيكون ذلك وبالاً على المماليك على حد قول ابن إياس [1] . ذلك أن الصفويين قائمون على قدم وساق على نشر مذهبهم الشيعى والترويج له بشتى الوسائل . وهناك احتمال آخر ، وهو أن المماليك اتفقوا مع الفرس خشية أن يهاجمهم العثمانيون فيهب الصفويون لنجدتهم .

كان الوقت مناسبًا للقضاء على الخطر الصفوى الذى كان يستفحل مع الأيام . ولم يترك سليم الجبهة الغربية – أقصد أوربا – ويتحرك إلى الجبهة الشرقية وهى بلاد فارس إلا لازدياد الخطر الشيعى فى الأناضول وانتشاره . كذلك كثرة التحرشات والمنازعات التى كانت تحدث من آن لآخر بين الإمارات فى الأناضول وبين العثمانيين ومناصرة المماليك أو الشيعة لها .

وبعد أن قضى سليم على الخطر الصفوى ، بدأ يغير على الإمارات التابعة للمماليك فى الأناضول ويستولى على بعضها وينصب للحكم فى بعضها الآخر من يشاء دون اهتمام أو اكتراث بالقوة التى تساندها وتحمى عروشها فقد أراد أن يؤمن مؤخرته قبل البدء فى الصدام الكبير مع المماليك . قتل سليم علاء الدولة أكبر أنصار المماليك عند حدودهم الشمالية ، وبعد أربعة أشهر تقريبًا قتل ويراش خان حليف الشاه إسماعيل .

نصح سليم الغورى فى رسالته إليه فى (١٤ جمادى الأولى سنة ٩٢١هـ) بمناسبة القضاء على علاء الدولة ، بألا يلتفت إلى تضرعات الشيعة ، قائلًا : « صممنا العزيمة فى السنة الآتية إلى تسخير البلاد الشرقية ، ودفع بقية السيوف من الفرضة القزلباشية ، خذلهم الله ودمرهم بعون الله الأزلى وتوفيقه الأبدى . فالمرجو منكم ألا تلتفتوا بتضرعاتهم ولا تتقيدوا

---

(١) ابن إياس : المرجع السابق ، ج ٥، ص ٢٢. وانظر ص ٧٢ من هذا الكتاب .

بسفسطاتهم »[1] . فلم يرد سلطان المماليك على هذه الرسالة لشدة غضبه وغيظه مما حدث لأحد الحكام الموالين له . أرسل سليم للغورى رسالة أخرى فى أوائل محرم سنة ٩٢٢هـ يقول له فيها : « إن قيامنا بتأديب القزلباش الملاعين فيما مضى ، كان لمجرد إظهار أنوار النواميس الإلهية والشرائع النبوية ، وكشف حجاب ظلام ظلم أعداء الدين والدولة ، والعمل على نشر نور الشرائع النبوية على العالم »[2] . علم الغورى فى تلك الآونة بأن الدولة العثمانية تعد العدة لفتح الشام ومصر ، فأرسل إلى السلطان سليم بهذا الخصوص[3] . فرد عليه السلطان العثمانى مبينًا له عزمه على محاربة القزلباش[4] ، وذلك بعد أن تحرك فعلًا لمحاربة المماليك نظرًا لتأكده التام من تحالف الغورى مع إسماعيل الصفوى . ويعرض الغورى فى إحدى رسائله التى أرسلها إلى السلطان سليم فيما بعد الوساطة بينه وبين القزلباش حقنًا للدماء ، لأن أكثر الناس فى هذه المناطق التى يزمع محاربتها من أهل السنة والجماعة . وأن إسماعيل الصفوى قرر عدم اللقاء مع سليم فى أى معركة ، فهو يفضل الهروب دائمًا خوفًا وفزعًا ، ويكفى ما حاق به فى معركة **چالديران** سنة ٩٢٠هـ (١٥١٤م)[5] .

وعندما كان السلطان العثمانى فى طريقه لمحاربة الغورى أرسل إليه رسالة تهديد ، قال فيها : « اتضحت لنا بعض تصرفاتك التى لا تليق والتى قصدت بها تقوية ذلك الملحد المفسد ذى العادات السيئة الذى لا يدين بدين [إسماعيل الصفوى] . فقصدت إليك ذاتنا لأنك أسوأ منه »[6] .

---

(١) انظر ملحق رقم ٢٧.

(٢) انظر ص ٨١.

(٣) انظر ص ٨٥.

(٤) انظر ص ٨٩ - ٩١.

(٥) انظر ص ١٠١.

(٦) انظر ص . ١١١

عن الاتصالات السرية بين إسماعيل الصفوى والغورى ، انظر صفحات ٨٣، ٩٠، ١٠٤ .

(٤) الأسباب الاقتصادية :

بدأت الكشوف الجغرافية تظهر فى أوربا فى أواخر القرن الخامس عشر ، فقد اكتشف فاسكو داجاما سنة (١٤٩٨م) طريق رأس الرجاء الصالح . وقد أحدث هذا الكشف تحولاً خطيرًا فى البحرية الأوربية أثر بطبيعة الحال على التجارة العالمية وغير مجراها . كانت تجارة الشرق تمر بالبحر الأحمر ثم تصل إلى السويس ومنها إلى القاهرة فالإسكندرية أو تمر بالخليج العربى ثم تصل إلى ميناء البصرة فسوريا أو بيروت ثم تعبر البحر الأبيض إلى أوربا . وكان المماليك يحصلون مكوسًا باهظة على هذه البضائع ، كان الجنويون والبنادقة ينقلون هذه التجارة إلى أوربا ويحصلون مكوسًا عليها أيضًا . لكن البرتغاليين استطاعوا بكشوفهم أن يغيروا هذه الطرق التجارية العابرة من خلال الأراضى العربية ، ويجعلونها تمر عبر طريق رأس الرجاء الصالح ، ثم بدءوا يغلقون البحار العربية كالبحر الأحمر والخليج العربى . فتوقفت التجارة عبر هذه البلاد ، وأحدثت رد فعل سيء على اقتصاديات المنطقة .

حدثت صدامات عديدة بين المماليك فى عهد الغورى وبين البرتغاليين لفك الحصار المضروب حول المنطقة والذى يهددها بالاختناق . تحطم الأسطول المصرى سنة (١٥٠٩م) فى موقعة ديو ، فسعى الغورى يطلب الأخشاب من بايزيد الثانى لكى يبنى أسطولاً قويًا يحطم به الحصار . وقد وقعت بين الطرفين معارك عديدة فى المحيط الهندى ، إلا أن جهود المماليك لحل هذه المشكلة انهارت بانهيار دولتهم . وتم للبرتغاليين تطويق المنطقة العربية ومنع التجارة من المرور عبر مياهها أو أراضيها .

أراد سليم بفتحه للشام ومصر أن يؤمن التجارة العثمانية الآتية من الشرق عبر البلاد العربية ، والتى أصبح الخطر البرتغالى يعوق مسيرتها . وأن يحصل على الأموال الطائلة من المكوس المفروضة على البضائع ، إذ استطاع أن يعيد طرق التجارة كما كانت قبل الحصار البرتغالى .

وتعتبر الدوافع الاقتصادية التى دفعت سليمًا لفتح الشام ومصر إحدى العوامل الرئيسية المحركة للسيطرة على هذه المناطق الغنية والخصبة . خاصة بعد أن كثرت الحروب وأصبحت تكلف الدولة أموالاً باهظة . وقد أصبحت الفرصة مواتية لفتح هذه البلاد بسبب العلاقات السيئة بين المماليك والعثمانيين التى خلفتها العهود السابقة على تولى سليم عرش العثمانيين .

الفصـل الثـالث

الفتـح العثمانـى للشام ومصر

الفصل الثالث

الفتح العثمانى للشام ومصر

سليم أميرًا :

قبل أن نخوض فى ذكر المعارك التى دارت بين السلطان سليم الأول العثمانى وبين المماليك ، ينبغى علينا أن نعود قليلاً إلى الوراء أيام كان هذا السلطان أميرًا فى شرق الأناضول على عهد أبيه . لكى نتبين المؤثرات التى ساعدت على تكوين سياسته واتجاهه فى القتال . فلهذه الفترة الطويلة من عمر الأمير سليم التى كان فيها واليًا قبل جلوسه على العرش وتبلغ ثلاثين عامًا تقريبًا ، تأثير كبير دون أدنى شك فى تكوين شخصيته ورسم معالمها واتجاهاتها وبلورة أفكاره .

فقد حدثت صدامات عديدة فى هذه الفترة بين العثمانيين والمماليك وبينهم وبين الفرس ومع الإمارات التابعة للمماليك فى الأناضول فى بعض الأحيان . وكان الأمير قريبًا من هذه الأحداث يعانى ويقاسى مما يراه ومما يسمعه ، حيث لم تكن نتائج هذه الأحداث فى صالح العثمانيين فى كثير من المواقف . وعاصر الأمير سليم أيضًا المنازعات التى قامت بين أبيه وبين عمه جم على العرش ، والمعارك التى حدثت بينهما .

ولد سليم سنة (١٤٧٠م) فى أماسيا عندما كان أبوه واليًا عليها . أطلق

عليه « ياوز » Yavuz أى الصارم وهو لايزال صغيرًا ، لأنه كان عنيفًا فى تصرفاته ودائم الحركة ، متهورًا غضوبًا مقدامًا شجاعًا[1] . ولما كبر صار اللقب ملازمًا له .

كان لبايزيد الثانى ثمانية أبناء ، مات خمسة منهم وهو على قيد الحياة ، وهم : عبد الله (ت ١٤٨٣م) ومحمد (ت ١٥٠٤م) ومحمود (ت ١٥٠٧م) وشهنشاه (ت ١٥١١م) وعلمشاه (ت ١٥١٢م) . وبقى ثلاثة عينوا ولاة فى بعض الأقاليم . عين ابنه الأكبر أحمد واليًا على أماسيا ، وقورقود على صاروخان (مانيسه) فى ذى الحجة سنة ٨٨٨هـ (١٤٨٣م) ، وعين أصغرهم وهو « ياوز سليم » فى نفس العام تقريبًا على طرابزون .

وقبل أن يعين سليم أميرًا على هذا السنجق ، عاصر المعارك والمناوشات المتكررة التى حدثت بين أبيه وبين قايتباى ، بسبب إيواء الأخير لجم وبسبب النزاع على النفوذ فى الإمارات التابعة للسيادة المملوكية فى الأناضول ، كما شهد استمرارها بعد أن تولى حكم طرابزون . وقد كان النصر حليف المماليك فى أغلب الأحيان .

وفى سنة ١٤٩٤م أنجب سليم سليمان من زوجته الثانية (عائشة خاتون) . وعندما بلغ ابنه الخامسة عشرة من عمره عين واليًا على « شبين قره حصار » ، ثم نقل إلى « بولى » لاعتراض عمه الأمير أحمد على قربه منه . عاود أحمد الاعتراض مرة أخرى لقرب بولى من دار السلطنة ، فنقل سليمان فى ربيع الآخر سنة ٩١٥هـ (يوليو ١٥٠٩م) إلى كفه فى القرن لكى يكون بعيدًا عن استانبول وعن أبيه طرابزون أيضًا . وعين محمد بن شهنشاه على قونيه ، وعثمان بن علمشاه على جانقيرى ، وعين أورخان وموسى ابنا محمود على قسطمونى وسينوب .

---

(١) منجم باشى أحمد دده (١٠٤١ ١١١٣ هـ) : صحايف الأخبار فى وقايع الأعصار ، ج ٢، ورقة ١١٧٧ب ، مخطوط فى مكتبة (طوپقپو سرايى) باستانبول ، برقم A.2954

كان سليم وهو فى طرابزون يرصد تحركات الصفوى فى شرق الأناضول عن قرب ويتابع مساعيه الدائبة فى نشر المذهب الشيعى فى المناطق التابعة للعثمانيين فى المنطقة . وكان الصفويون ينشرون مذهبهم بالقوة فى بعض الأحيان ويغيرون على بعض المناطق العثمانية المجاورة وينهبونها . وقد أفاضت المصادر التركية فى ذكر المذابح وأعمال التخريب التى قام بها شاه قولى فى ديار السنة من ممتلكات العثمانيين فى الأناضول .

أثرت هذه الأحداث المؤسفة فى نفسية الفتى سليم . فأرسل رسالة إلى الصدر الأعظم وأعضاء الديوان ينبههم فيها إلى الحال السيىء الذى أصبحت عليه البلاد .

وهذه ترجمة للرسالة عن التركية :

حضرة الباشا نائل المنى .

بعد إهداء آلاف التحيات الرقيقة الممزوجة بالمحبة ، وصنوف السلام الباعثة على الإقبال ، الصادرة من المحبة الصادقة إلى وجودكم الطيب الباعث على الحبور ، ملجأ أرباب الحاجات . أنهى إليكم مايلى : تغمض العيون دائمًا عن إصلاح حال البلاد . ليس فى تدبير أمور السلطنة غير سوء التدبير والنية السيئة . وخلاصة القول ، أن الفتنة والفساد نشآ من عدم مبالاتكم . لهذا علينا أن نتدارك أحوال البلاد . لا بد وأن يصيبكم من تساهلكم فى هذا الشأن أنواع من الضرر والعقوبات فى الدنيا والآخرة ، ينبغى أولاً التفكير فيما يلزم عمله وما ينبغى اتخاذه حاليًا نحو التساهل فى تدارك أحوال البلاد . ووضع نظام لأحوال العالم .

كم يكون دفع الفتنة والفساد المسلطين على المسلمين فكرًا صائبًا وصلاحًا يسجل لكم . والإهمال فى تدارك أحوال البلاد يعتبر رضى عن الخراب الذى يحدث لها .ولن يسجل علينا الإهمال فى هذا الشأن على هذا النحو ، لأنه

ليس فرضًا لازمًا علينا شرعًا تدارك أمور البلاد . ولتلاحظوا أنه من غير الضرورى إطالة الكلام مع العاقل .. الباقى و « لالاى » ى[1] [سيدى] على الدوام يارب العباد .

المظفر

الأمير سليم شاه[2]

ولما لم يهتم أعضاء الديوان بهذا الكلام كتب هذه المرة لأبيه ، وهذه هى ترجمة الرسالة عن التركية :

يعرض العبد الأحقر على باب الملك المعظم والعتبة العليا فلتظل عالية وعن نكبات الدهر خالية ، يعرض مايأتى :

أرسلت رسائل مرارًا إلى الآستانة مقر الفلك لتدارك أحوال البلاد . ورأيت أن التعجيل بتدارك الأمور على أى صورة ممكن ومناسب إذا لم يحدث إهمال وكان هناك إقدام واهتمام . وغير وارد فى هذا الشأن أصلاً إغماض العيون . رجوت الانتقال إلى استانبول للإفصاح عن طريقة تدارك أمور المملكة . وعلى الرغم من ذلك لم تتدارك أحوال المملكة من ظلم المفسدين وتعديهم وهى فى قبضتهم تمامًا ، وللتأخير والإهمال تسير المملكة نحو الخراب المؤكد . إن الخسارة التى عادت على كثير من أهل المسلمين وعيالهم وأمتعتهم وأموالهم راجعة إلى ظلمهم أنفسهم . ومعلوم لدى عظمة السلطان أنه سلطان أهالى البلاد التى أصبحت ذليلة إلى هذا الحد فى يد الأعداء . لقد خرجت المملكة بالكلية من الأيادى وخربت ، وليس هناك شيء مناسب أو ملائم فيها . وبسبب الفكر الذى أدى إلى ارتكاب رزيئة متعمدة ، عرضت هذه القضية مرة أخرى على آستانة الدولة .

---

(١) راجع حاشية ص ٧١.

(٢) الرسالة ضمن لوحات هذا الكتاب برقم ٨، وهى محفوظة فى أرشيف طوبقبو سرايى باستانبول تحت رقم E. 6185 - 13

والمتوقع أن تعد هذه القضية من قضايا الجزاء ، ولا يجوز أصلاً الإهمال والتساهل فى هذا الخصوص . إنها من القضايا التى يجب على كافة المسلمين دفعها ، وتأخير حلها يؤخر المصلحة . فلنتدارك هذه القضية لكى تكون سببًا فى حياة حضرة السلطان الدنيوية ومثوباته فى الآخرة ، فإنه مع وقوع الخسارة على كافة المسلمين بسبب التأخير ، وقع الظلم أيضًا على حضرة السلطان . إننى أجزم أنه ارتكبت رزيئة سيئة . باقى الفرمان منوط بالعتبة العليا ومفوض . الظل الظليل للسلطان والعمر المديد .

أفقر العباد سليم شاه(١)

ولم يكترث به أبوه أيضًا . عند ذلك غضب سليم لهذه اللامبالاة ، ولم يطق الحياة فى شرق الأناضول لضغط الأحداث على أعصابه . وطلب من أبيه سنجقًا فى الروملى بعيدًا عن هذه الأحداث المؤلمة ، لكنه لم يجب إلى طلبه . فترك ولايته وذهب إلى جوار ابنه فى كفه . ومن هناك كتب إلى أبيه رسالة يطلب منه فيها أن يسمح له بمقابلته للتباحث معه فى أحوال البلاد ، لكنه لم يمنح هذا الإذن بسبب عناد الوزراء (٢) .

وجه الأمير سليم وهو فى كفه الحديث هذه المرة إلى الصدر الأعظم قائلاً أنه مكث فى طرابزون ثلاثين عامًا تقريبًا ، ولا يستطيع أن يبقى فيها أكثر من ذلك ، ولن يعود إليها مرة أخرى . ويذكر أن منحه حكم سنجق سلستره فى الروملى وإخلاء سبيله من حكم طرابزون مناسب تمامًا . ولو نفذ هذا المطلب فإنه مستعد لتنفيذ كل ما يطلب إليه . وهذه ترجمة للرسالة عن التركية .

حضرة الباشا نائل المنى ، زاد الله دولته إلى يوم الحساب .

بعد إهداء آلاف التحيات الممزوجة بالمحبة ، وطرف السلام الباعثة على

---

(١) الوثيقة محفوظة فى أرشيف طوبقبو سرايى باستانبول ، برقم ج. ٦١٨٥- ٨.

(٢) Cagatay Ulucay : Yavuz Sultan Selim, S. Io Istanbul 1959.

المودة ، الصادرة من الولاء الصادق إلى حضرتكم الشريفة ملجأ أرباب المقاصد . تقضى المحبة بما يأتى : استقر حبيبكم فى طرابزون المحروسة ثلاثين عامًا تقريبًا ، وعمل قدر استطاعته للحفاظ على المملكة . وكم عانى الصبر وتحمل شدائد تلك الديار المتنوعة ، وأخيرًا نفدت الطاقة ولم يعد لديه قدر من التحمل . فأرسل الرسل والرسائل كثيرًا إلى باب الدولة للإعلام عن الحال . ولم يساعده أرباب المصالح ، وسعوا وجدوا ضد مرادنا . وفى النهاية عزمنا على التوجه إلى الأناضول . لا يمكن لعتبة الملك أن تجيز ذلك . بعد أن توجهنا إلى « كفه » المحروسة ، قررنا عدم العودة إلى ولاية الأناضول ، وعقدنا العزم على ذلك .

ومن المؤكد تمامًا أن العوائق أزيلت من باب الدولة حاليًا . ومن مروءة « لالاى » (سيدى) الباشا تشم رائحة إخلاصه وتعمقه فى هذه الناحية من أفواه الرائحين والغادين على الدوام . ولهذا السبب يرجو مخلصكم هذا رجاء الواثق أن تخلو سبيله عن تولى حكم ولاية الأناضول .

يتضح سعيكم الجميل وهمتكم الجزيلة فى تلبية طلبى والوفاء بأمنية محبكم هذا ، وتعيينه فى **سنجق سلستره** أو منحه أى مكان آخر فى الروملى . وبعد ذلك فأنا مستعد لمقاتلة الأشرار وخوض أية حرب فى أى مكان ضد الأعداء ، حسبما يصدر الفرمان السلطانى الواجب التنفيذ . وأرجو لدولة عظمة السلطان أن تبلغ المنى ، وأن يكون ذلك سببًا فى نظام المملكة وقوام قواعد الأمن والراحة ، وأن يكون باعثًا على تقوية المحبة والوداد والتأكيد عليهما فى هذا الشأن . وإلا فلن يكون ممكنًا عودتى إلى ديار الأناضول مرة أخرى إن كلفت بذلك . ولتكن العاقبة كيفما تكون ، فليس هناك خيار ، ولن أرسل رسولاً مرة أخرى . ولتلاحظوا أن الرأى الصائب ينبعث منكم وتفويض الأمور لكم فى النهاية . أنت مقرون بالسعادة ، ومدبر أمور العباد .

الأمير سليم شاه[١]

---

(١) الوثيقة محفوظة فى أرشيف طوبقبو سرايى باستانبول ، برقم E. 6185 - 7

لم يجب الصدر الأعظم سليما إلى طلبه ، وأبلغ السلطان بما حدث ، يئس الأب من إقناع ولده برأيه ، فأرسل إليه أحد علماء العصر وهو مولانا نور الدين صارى كَورز لكى ينصحه بالعودة إلى طرابزون . لكن سليمًا أصر على موقفه ، ولم يوافق على العودة إلى ولايته مرة أخرى . قدم مولانا تقريرًا بمهمته إلى السلطان ، جاء فيه أن الأمير مصر على موقفه عنيد إلى أبعد درجات العناد . لا يطيع الأمر إلا إذا صدر ما يشابهه لأخيه قورقود . وهذه ترجمة للتقرير عن التركية :

قابلت الأمير ثم أقرأته سلام السلطان الأعظم أولاً . وأبلغته أنكم تسألون عن حاله ، فلم يرد قط . قلت له : إن فخامة السلطان يقول إن السعادة فى الدنيا والآخرة فى طاعة أوامرى . فرد قائلاً : أنا لم أوافق على رأيه من قبل فى كثير من الأحيان . فهل علم الآن أننى لا أزال كذلك ؟ إن الأخطاء الصغيرة تكبر بالعناد ، والأخطاء الكبيرة لايعلم إلى أى مدى تصير بنفس العناد . إما أن يكون هذا من عدم إطاعة أوامره أو من سوء طالعه أو من سوء حظى أنا . إذا كان القصد من الأمر هو العودة إلى طرابزون ، فلن أقبل ذلك حتى لو نزل جبريل من السماء ورجانى الرسول . فلا يعتقد أننى هكذا ، إلا إذا صدر نفس الأمر إلى قورقود بالعودة إلى مكان ما ، فى هذه الحالة يكون احتمال عودتى قائمًا ورضائى مؤكدًا . أما والأمر كذلك فلن أرجع عن رأيى قط ولن أقبل أن أحنى رأسى .

ذكرته أن الخروج على الطاعة سيكون سببًا فى توجيه السلطان إليه وحدوث بعض المواجهات . فأجاب قائلاً : ليحدث ما يحدث[١] .

أرسل سليم بعد ذلك إلى الديوان يستعطفه لتلبية مطالبه ، ويخبره بأن أحدًا لم ينظر إلى حاله فى طرابزون رغم أنه شكا مرارًا ، ويستطرد فى سرد أهم شكاواه إلى السلطان وكبار رجال الدولة . ويذكر أنه قرر الاستقرار مع ابنه فى

---

(١) الوثيقة محفوظة فى أرشيف طوبقپو سرايى باستانبول ، برقم E. 6322.

كفه بعد يأسه من تحقيق أمانيه ، ويشكو من أن السلطان لم يوافق على منحه حكم سنجق سلستره فى الروملى . أما أخوه أحمد فقد وعد بالسلطنة ، وعين قائدًا لعساكر « قپو خلقى » وعساكر الروملى . ويتمنى أن يعدل أبوه بين أبنائه ويمنحهم حكم الأناضول ، ويهبه حكم بعض مناطق فى الروملى .

وهذه ترجمة للرسالة عن التركية :

حضرة الباشوات العظام ، زاد الله دولتهم إلى يوم القيام .

بعد إهداء آلاف التحيات الممزوجة بالمحبة وصنوف السلام الباعث على المودة الصادرة من المحبة إلى حضرتكم الشريفة ملجأ أرباب الحاجات ننهى إليكم ما أتى :

عرضت أحوالى فى محروسة طرابزون مرارًا فى السابق ، فلم يكترث رجال الدولة بذلك فتغلب علىّ الضجر والاضطراب فى النهاية ، وكان لابد من ترك تلك الديار [طرابزون] عرضت ذلك على عتبة الدولة ، فأجاب حضرة السلطان بعدم رضائه عن ترك ديار الأناضول ، لأن ذلك يحدث فتنة وفسادًا . فاضطربت لهذا السبب ، لأننى لا أستطيع أن أسكن تلك الديار أو يقر لى فيها قرار . وعليه فالتوجه إلى ديار الأناضول محال . وصلت إلى « كفه » بقصد التقاعد هناك وعرضت مشكلتى مرة أخرى ، وجاء الجواب من عتبة الدولة مرة أخرى يأمر بالعودة إلى طرابزون .

ولما كان هذا فيه تكليف ما لا يطاق ، فقد عرضت الحالة مرة أخرى ، فمنحت سنجق منتشه ذا الهواء الفاسد والأرض الضيقة والحياة العسيرة ، وطرابزون بالنسبة له تعتبر جنة .

اهتمام أكابر الدولة وأعيانها وعنايتهم بهذا الضعيف قاصرة على الدوام ، لأنهم يهبونه المناطق غير المناسبة . أما أميرى السلطان أحمد [١] ، فإنهم

(١) يقصد أخاه الأمير أحمد .

يهتمون به ويعتنون ، بل إنهم وعدوه بالسلطنة وأمروه بذلك ونشروا الخبر فى الأنحاء والأطراف ، فأعلن أبناء حضرة السلطان العصيان . جمعت جيشًا لقمعهم وقلعهم ، فواجهتمونى جميعًا . ولهذا السبب حدثت الفتنة فى أنحاء العالم وثار الناس وإلى هذا الحد حدث الفساد . وبلغ السيل الزبى لدى هذا الضعيف [سليم] ، وهلك من الغيرة والحماس . ولما شاهدت فقد مرغت وجهى عند عتبة الدولة وعرضت حالى على تراب المذلة ، ولما غضب حضرة السلطان من عبده قال : « إن مرادك الهلاك والضياع ، عندما يصلك أى فرمان مرغ وجهك فى تراب المذلة وضعه موضع التنفيذ » .

قدمت التماسًا بمنحى سنجق سلستره فى الروملى ، حيث الحياة لا تتيسر فى غير ذلك المكان ، ولأننى لا أريد أن أعود إلى تلك الناحية [طرابزون] وأنا عبده الذى لم يذنب . فأجاب قائلاً : « لا يوجد قانون عثمانى فى هذا الخصوص ، إن هذا الأمر ميسر ولكنه مستحيل » .

عين أميرى سلطان أحمد قائدًا لعساكر « قپو خلقى »[1] وعساكر الأناضول ، وتقرر منحه السلطنة ، لم يكد يسمع بمجىء هذا الضعيف [سليم] إلى الروملى حتى جهز عسكره وأصبح على وشك التوجه إلى هذه الناحية لأنه تقرر منحه السلطنة . أما والحالة هذه فإن منية هذا الضعيف هى أن يسوى عظمة السلطان بين أبنائه فى الحب وما يعهد إليهم به . فيعين لهم جميعًا ولاية الأناضول ، أما ما يناسبنى أنا فيكون فى الروملى .

كل هم هذا الضعيف بكل ما أوتى من قوة لدفع الظلم والفتور والمحافظة على نظام المملكة . ولأننى وجهت نشاطى لوضع دين الإسلام ومساعى الآباء والأجداد العظام فى مكانها الصحيح لحسن هذه النية والأمان ، ينسب الأعداء

---

(١) « قپو خلقى » : تعبير عثمانى كان يطلق على الضباط والجنود والخدم الذين كانوا فى معية الوزراء والبكوات ساعة السلم أو الحرب .

Mehmet Zaki Pakalin: O Cit. vol 2, p.172.

العصيان مرة أخرى لهذا الضعيف أمام السلطان ، ويقولون له : « لقد جرد العساكر وسار بها إلى مقر السلطنة » إن هذا الشخص [سليم] من آل عثمان حكم سنجقًا لمدة خمس وعشرين عامًا . وانشغل بالغزو والحرب ومقاتلة أعداء الدين ومجادلتهم ..

الأمير سليم الشاه(١)

كون سليم قوة من رجاله ومن جنود خان القرن والروملى . وتوجه بها نحو أدرنة ليتباحث مع أبيه هناك . عندما علم السلطان بذلك أرسل إليه البعض لكى يرجعوه ، لكنه لم يستجب لأحد وواصل السير . ولما وصل بالقرب من الطونة جاءه قائد المشاة بفرمان سلطانى ، يتضمن منحه حكم سنجق كفه ، وراتب سنوى من حاصلات كيلى وآقكرمان إذا لم تكن إيراداته [السنجق] كافية للصرف على الأمير . فقال له سليم : « والله العظيم وقرآنه الكريم لن أرجع عن مياه الطونة أبدًا » . وفى هذه الأثناء أرسل سليم رسالة إلى الصدر الأعظم يخبره بما حدث .

وهذه ترجمة للرسالة عن التركية :

حضرة الباشا نائل المنى ، زاد الله دولته إلى يوم القيامة .

بعد إهداء آلاف التحيات الموسومة بالمحبة وصنوف السلام الباعثة على المودة الصادرة من الولاء الصادق إلى حضرتكم الباعثة على الحبور . أنهى إليكم مايأتى : أرسلنا الرسل مرارًا إلى آستانة الدولة للإعلام عن أحوالنا . وللإهمال فى بحثها كان لزامًا علينا أن نتوجه إلى آستانة الدولة فى النهاية لهذا الغرض . توجهنا إلى هذه الناحية ، وعندما بلغنا جزيرة كيلى أرسلنا رسولاً إلى الأستانة مقر الفلك لعرض التماسًا بخصوص تولى حكم سنجق سلستره . وفى

---

(١) الرسالة ضمن لوحات هذا الكتاب برقم ٩، وهى محفوظة فى أرشيف طوبقبو سرايى باستانبول تحت رقم E. 6185 - 5.

هذه الأثناء وصلنا بالقرب من مياه الطونة . وبينما نحن متوجهون إلى تلك الأنحاء جاءنا الفرمان الهمايونى مع قائد المشاة ، وفى مضمونه المنيف منحنا سنجق كفه . وإذا لم تكف إيراداته ، فإنه يأمر بمنحنا راتبًا سنويًا من حاصلات كيلى وآقكرمان . ويذكر أن منح أحد من آل عثمان سنجقًا فى الروملى يعتبر مخالفًا للقانون . ولا يخفى على علمكم الشريف خدماتنا الحالية يا سيدى ، فدائمًا يشكر محبكم هذا على المصالح المتعلقة به على غير العادة .

أصبحت أحوالنا على هذا النحو بسبب عدم الإقدام على الاهتمام بها والمضايقة إلى هذا الحد . لهذا فوالله العظيم وقرآنه الكريم لن أرجع عن مياه الطونة ، فهذا محال . ما كنت أود أن أحضر إلى عزتكم إلا لإتمام الأمور والمصالح المتعلقة بهذا الخصوص . فلا ينتهى اهتمامكم وحسن اختبارنا لكم ، فإتمام جميع مصالحنا منوطة ومفوضة بكم . الباقى ، والدعاء كما سبق .

الأمير سليم شاه(١)

أرسل السلطان بايزيد الثانى الفرمانات إلى بكوات السناجق وأمراء الألوية لكى يتجمعوا فى أدرنة خشية زحف سليم عليها . وفى هذه الأثناء أرسل سليم لأبيه رسالة يخبره فيها أنه ليس خارجًا عليه ، ولكنه يريد أن يقابله لكى يتحدث معه بصراحة عن أحوال البلاد . منع الوزراء وصول أى إذن لسليم بالموافقة على مقابلة أبيه نظرًا لعدم رضائهم عليه (٢) . ولما يئس الأمير من المحاولة رضخ على مضض لتوسط بعض كبار رجال الدولة ، ورضى بأن يكون حاكمًا على سنجق سمندره(٣) .

وقبل أن يتوجه سليم للحديث مع أبيه ترك بايزيد أدرنة وعاد إلى استانبول

(١) الوثيقة محفوظة فى أرشيف طوپقپو سرايى باستانبول ، تحت رقم E. 6185 - 17

(٢) Cagatay Ulucay : op. cit, pp. 10, 11

(٣) الوثيقة محفوظة فى أرشيف طوپقپو سرايىباستانبول ، تحت رقم E. 6265

حزينًا مريضًا بسبب الأحداث التى وقعت .

ولما مات ابنه شهنشاه فى ٥ ربيع الثانى ٩١٧هـ (١٥١١م) ، حزن عليه بايزيد واشتد عليه المرض ، فاستدعى ابنه الأكبر أحمد لكى يعينه مكانه على العرش . علم قرقود وسليم بالخبر ، فأسرعا إلى استانبول طمعًا فى العرش . تصارع الإخوة الثلاثة على الحكم : كان كبار رجال الدولة يودون أن يكون أحمد سلطانًا ، وكان الإنكشارية يفضلون سليمًا عليه . رجحت كفة الإنكشارية وفاز سليم بالعرش فى ٧ صفر سنة ٩١٨هـ (أبريل ١٥١٢م) بعد إصرار الإنكشارية عليه ورضوخ السلطان لضغوطهم . وقد سبق لنا أن تحدثنا عن منافسة أخوى سليم له على العرش وتمكنه فى النهاية من القضاء عليهما .

عاصر الأمير سليم المعارك التى دارت بين قايتباى وبايزيد الثانى والتى تحدثنا عنها سابقًا . وعاش الفترة التى تصارع فيها عمه جم على العرش . كما عاصر أحداث الأناضول أيام أن كان واليًا على طرابزون والتى أوضحناها هنا . وقرأ عن الفترة السابقة على حياته والتى حدثت فيها صدامات عديدة بين المماليك والعثمانيين حيث كان يحب قراءة التاريخ وكان مشغولاً به فى أكثر أوقاته وخاصة تاريخ وصاف (١) .

أثرت هذه الأحداث تأثيرًا عميقًا فى نفس الأمير وعرفته أحوال البلاد ، خاصة وأنه كان واليًا فى شرق الأناضول فى منطقة الاحتكاك والصراع بين القوى الثلاث فى المنطقة ، المماليك والعثمانيين والصفويين . وقد أتاحت الظروف لسليم أن يكوّن فكرة واضحة عن أوضاع القوى المجاورة وأطماعها . وكانت نتيجة الأحداث فى المنطقة فى غير صالح العثمانيين فى أغلب الأحيان ، مما جعل سليمًا يستصرخ أباه وكبار رجال الدولة والمسئولين عدة مرات ، لكى يتداركوا الأمور قبل أن تتردى البلاد فى الهلاك والدمار ، لأن

(١) منجم باشى أحمد دده : المرحع السابق ، المرجع السابق ، نفس الموضع .

أخطار الفرس تزيد مع الأيام ، ومصادمات المماليك مع العثمانيين فى الفترة الأخيرة نالت من هيبة العثمانيين لعدم توفيقهم فى كثير من المواقف .

العلاقة بين الغورى وسليم الأول :

بعد أن اعتلى سليم عرش العثمانيين لم يرسل إليه الغورى رسالة تهنئة بالجلوس على العرش ، ولكنهما تبادلا الرسائل من بعد فى مناسبات أخرى . وقد اتسمت المراسلات التى تبودلت بين السلطانين بشيء من الود الظاهرى أحيانًا وبالشك والحذر أحيانًا أخرى ثم تطورت إلى توتر فوعيد وتهديد . لقد اختلفت لهجتها عن لهجة المراسلات التى تبادلها الغورى مع بايزيد الثانى . ومع ذلك كانت هناك مراسلات سرية بين السلطان سليم وخاير بك اتسمت بالصداقة .

أرسل سليم رسالة إلى خاير بك – علها كانت فى الخفاء – مصحوبة ببعض الهدايا لتوطيد أواصر الصداقة بينهما . وفى ٢٢ ذى الحجة سنة ٩١٨هـ أرسل خاير بك ردًّا على هذه الرسالة ، متضمنًا شكره لسليم على الهدية التى أرسلها إليه مع رسوله بهرام ، ومذكرًا إياه بأن ما جاء فى رسالته من أن « المملكتين شيئًا واحدًا » أدخل عليه الفرح والسرور ، ومؤكدًا له على أن « المملكتين مملكة واحدة » وعلى أنه ينتظر ما يكلفه به لكى يقوم به خير قيام .

وهذا هو نص الرسالة بالعربية :

بسم الله الرحمن الرحيم   لطفه خفى

الملكى الأشرفي

يقبل الأرض بين يدى النظام العالى المغازى المرابطى المجاهدى

المملوك

خاير بك

السليلى سلالة الملوك والسلاطين صاحب المملكة الرومية عظم الله شأنه وكبت من شأنه ونصره على أعداءه ، وينهى أن المثال العالى أعلاه الله تعالى ، ورد على المملوك على يد المجلس السامى الزينى بهرام سلاح دار باشا بالخدمة العالية أعزه الله تعالى ، يتضمن ما أشارت إليه الصدقات العالية من أن المملكتين شيئًا واحدًا وبمحبة الملوك للصدقات العالية ، وبما أنعمت به الصدقات العالية على المملوك من الأرمغان[1] على الصورة المرسوم بها قبل المملوك المثال العالى ووضعه على رأسه وعينه ، وحصل له بذلك غاية ما يكون من جبر الخاطر ، ووصل ما أنعمت به الصدقات العالية على المملوك من الأرمنان زاد الله تعالى إنعامها وأداء برها وإحسانها وتلقى الأخوى بهرام المشار إليه بأحسن ملتقى وحصل للمملوك به غاية الأنس وأعاده إلى الخدمة العالية مكرمًا مرعيًا بكل جميل والمسول من الصدقات العالية استمرار المملوك على الخواطر العالية ، وتشريفه بخدمكم العالية فإن المملوك بشهادة الله تعالى محبًا للصدقات العالية ، والمملكتين مملكة واحدة والخواطر العالية أعدل شاهد بذلك ، والمملوك واقف على أثبت قدم لما يرد عليه من المراسيم والخدم ، ليفوز بقضائها وامتثالها بالسمع والطاعة أنهى المملوك ذلك .

كتب

في ثانى عشرين شهر ذى الحجة الحرام إن شاء الله تعالى

سنة ثمان عشرة وتسعمائة

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

وحسبنا الله وكفى[2] .

(١) أرمغان بمعنى هدية .

(٢) الوثيقة محفوظة فى أرشيف طوبقبو سرايى باستانبول ، تحت رقم ج. ٥٨٥٠-١ وصورتها ضمن لوحات هذا الكتاب ، برقم ١٠. =

والرسالة من أولها إلى آخرها على لسان خاير بك . ومن المحتمل أن تكون قد أرسلت سرًّا من قبله إلى السلطان سليم للتأكيد على الولاء التام له ، حيث تقول : « والمملوك واقف على أثبت قدم لما يرد عليه من المراسيم والخدم ليفوز بقضائها وامتثالها بالسمع والطاعة » .

وقد أحس سيباى نائب الشام بوجود مراسلات سرية بين خاير بك وسليم – على حد قول ابن زنبل – ، فأرسل إلى الغورى فيما بعد ، يخبره بخيانة خاير بك ومراسلاته المستمرة مع سليم ، قائلاً : « والذى يعلم به مولانا السلطان أن خير بك ملاحى علينا ومكاتيبه لا تنقطع من عند ابن عثمان فى كل حين »[1] .

تحرك السلطان سليم من أدرنه فى يوم الثلاثاء ٢٣ محرم سنة ٩٢٠هـ قاصدًا محاربة إسماعيل الصفوى . ولما علم الغورى بذلك خشى من العواقب الوخيمة المرتقبة على بلاده ، إذ إن من ينتصر منهما سوف يحاول القضاء على القوة المملوكية . فأمر بعضًا من قوات جيشه بالتحرك إلى حلب انتظارًا لمجريات الأمور بعد انتهاء هذه الحرب ، وهو يقول فى سبب ذلك : « حتى نرى ما يكون من أمر الصوفى وابن عثمان فإن كل من انتصر منهما على غريمه لا بد أن يزحف على بلادنا »[2] .

بينما سليم فى طريقه لفتح بلاد العجم علم بأن الشاه إسماعيل أرسل

= خلت هذه الرسالة من أى لقب يدل على السلطان المملوكى كالمقام الشريف مثلاً ، على عكس الرسالة السابقة التى أرسلها خاير بك إلى السلطان سليم (راجع ص ٦٨ – ٦٩) ، والرسالة التالية التى أرسلها إلى الصدر الأعظم أحمد باشا (انظر ص ١١٠ – ١١٧) ، واقتصرت على ذكر لقب خاير بك وهو « المملوك » . ومن الجدير بالذكر أن المراسلات التى لم تكن تصدر من القاهرة العاصمة ، كانت ترسل من إحدى الإمارات المملوكية بأمر من السلطان المملوكى متضمنة فحوى ما يتبغى كتابته ، وعليه كانت الرسالة ترسل على أنها من السلطان المملوكى ولكن على لسان الأمير الذى خصه السلطان بإرسالها .

(١) ابن زنبل (ت ٩٦٠هـ ، ١٥٥٢م) : آخرة المماليك « واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى » . (تحقيق عبد المنعم عامر) ص ٤ القاهرة سنة . ١٩٦٢

(٢) ابن إياس : المرجع السابق ، ج ٥، ص ٢٢ (تحقيق محمد مصطفى) القاهرة سنة ١٩٦١

قاصده إلى الغورى يطلب مساعدته ضد السلطان العثمانى إن هو فكر فى غزو بلاده . وقد أكد هذا الخبر لديه تحرك بعض فرق الجيش المملوكى إلى حلب .

أرسل الصدر الأعظم أحمد باشا رسالة مع قاصده محمد يستفسر عن صحة هذه الأخبار من خاير بك . بعث الأمير المملوكى الرسالة بدوره إلى الغورى فى مصر ، فورد من جانبه أقباى يكلف خاير بك بالرد على رسالة أحمد باشا ونفى هذه الشائعات .

وفى (١٣ جمادى الأولى سنة ٩٢٠هـ) ، وبينما جيوش السلطان العثمانى فى موقع بسيواس يسمى قلعة قوج متجهة إلى بلاد فارس ، أرسل خاير بك رده إلى الصدر الأعظم مع إينال باى متضمنًا نفيه حضور قاصد من قبل الشاه الصفوى ، لصدق المحبة بين سليم والغورى ، ولأن المملكة الشريفة والمملكة الرومية (العثمانية) مملكة واحدة وبيت واحد . وقد أفضى خاير بك إلى أحمد باشا بأن أحد جواسيسه أتى من بلاد الشرق ، وأخبر بأن الشاه بمكان يدعى قَرَفان ، وأن « حاله ضعيف جدًّا » . ثم أكد له على الصداقة بين السلطانين المملوكى والعثمانى والاتحاد بينهما ضد الصفوى .

وهذا هو نص الرسالة بالعربية :

بسم الله الرحمن الرحيم   وبه نستعين

الملكى الأشرفى

يقبل الأرض وينهى إلى الحضرة العالية والجناب المتعالية من أقامه الله

المملوك

خاير بك

سبحانه كفيلاً لمصالح المسلمين ووكيلاً لصالح أمور المؤمنين لازال أنوار شهابه ساطعًا فى العلويات ونجوم سعده مسايرًا فوق سبع سموات ، والذى

يطالع به علومه الكريمة أن مشرفه الكريم والدر النظيم[1] ورد على المملوك[2] على يد قصاد المقر المخدوم [3] فتلقاه .

المملوك بالرحب والتسنيم وتلا قوله تعالى : ﴿ يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم ﴾ يتضمن أنه اتصل بمسامع المقام العالى[4] صاحب المملكة الرومية زهت عظمته ونصره على أعدائه أن إسماعيل الصفوى [5] المخذول جهز قاصده إلى المقام الشريف[6] خلد الله ملكه المنيف وأنه وصل إلى مدينة البيرة المحروسة ثم إلى حلب المحروسة وعلى ما أشار إليه المقر المخدوم من

عود الجواب على صداقاته وإعلامه فيما حضر القاصد المذكور ، وعن أخبار إسماعيل المخذول فقد امتثل المملوك ذلك بمزيد السمع والطاعة والذى يعرضه المملوك على مسامع المقر المخدوم أنه لم يحضر قاصدًا من عند إسماعيل المخذول لا للبيرة ولا لحلب المحروستين وجميع ما اتصل بمسامع المقام المشار إليه ومسامع المخدوم لا حقيقة له ، فإن إسماعيل المخذول ليس له وجهًا أن يجهز قاصدًا إلى المملكة الشريفة ولا إلىالمملكة الرومية .

ولو حضر قاصد إسماعيل المخذول لما مكنوه مماليك الأبواب الشريفة والعالية من الدخول إلى المملكة الشريفة لما يتحققه المملوك من صدق المحبة الذى بين المقام الشريف وبين المقام العالى من المحبة والصداقة وإن المملكة [الشريفة][7] والمملكة الرومية مملكة واحدة وبيت واحد ، وإن إسماعيل

---

(١) يقصد رسالته .

(٢) يقصد به خاير بك .

(٣) يقصد به الصدر الأعظم أحمد باشا .

(٤) يقصد السلطان العثمانى .

(٥) راجع حاشية ص ٥٣.

(٦) لقب على السلطان المملوكى .

(٧) كلمة ممسوحة فى أصل الوثيقة استبطتها من سياق الكلام .

المخذول وجماعته لا دين لهم ولا مذهب ، وأما أخبار إسماعيل المخذول فإن جاسوس المملوك حضر من بلاد الشرق وأخبر المملوك بأن إسماعيل المخذول بمكان يسمى قرقان وأن حاله ضعيف جدًّا ولم يكن عليه إلا عسكر قليل ، فإن عسكره قتل غالبه عن يشل باش(1) وهلك من الغلا ولله الحمد على ذلك والمرجو من كرم الله تعالى وببركة سيد المرسلين والصحابة أجمعين وبسعادة المقام الشريف والمقام العالى المشار إليه ، إن المقام العالى وعساكرنا منصورون على إسماعيل المخذول ظافرون به قاهرونه ، فإنه ليس يخفى عن علم المقر المخدوم أن المقام الشريف والمقام العالى شيئًا [واحدًا](2) ونفسًا واحدة وحيث إن المشار إليهما على المحبة فما هو الصوفى المخذول وما هو أكبر منه بعون الله تعالى إلى غير ذلك إن فى يوم تاريخه وصل إلى حلب المحروسة المجلس السامى الناصرى محمد أولاق(3) المقام العالى من خدمة الأبواب الشريفة وهو فى غاية الإكرام والاحترام معاملًا كل جميل من فايض الصدقات الشريفة وعين المقام الشريف صحبته إلى خدمة المقام العالى المشار إليه الجناب الكريم العالى الأميرى الكبيرى السيفى إينال باى عين السادة الأمرا العشرا [......](4) ومن أعظم المقربين للخواطر الشريفة كتب الله سلامته بما على يده من المراسيم الشريفة للمقام العالى المشار إليه وعقيبها إن شاء الله تعالى يتوجه الناصرى محمد الأولاق وصحبته السيفى إينال باى المشار إليه وإنه ما أعاق الناصرى محمد الأولاق هذه المدة إلا إلى حين وصل محب الذات الكريمة المقر الكريم العالى السيفى اقباى قاصد الصدقات الشريفة إلى خدمة الأبواب الشريفة وتعين عرض ذلك على المسامع الكريمة والمسول(5) من الصدقات الكريمة مواصلة المملوك

---

(1) كلمة تركية معناها بط أحضر الرأس .

(2) كلمة ممسوحة فى أصل الوثيقة استنبطتها من سياق الكلام .

(3) كلمة تركية معناها القاصد أو الرسول .

(4) كلمتان ممسوحتان فى أصل الوثيقة ، يحتمل أن تكون الأولى « دواداره » والثانية صفة تطلق عليه ، لم أستطع استنباطها من سياق الكلام .

(5) والمسئول .

بتشرفاته ومهما كان للمخدوم من الحوايج والخدم يشرف المملوك ليفوز بقضائها فإن المملوك بشهادة الله تعالى باق على ما يعهد المقر المخدوم من المحبة [والمودة](١) وقد أعاد قصاد المقر المخدوم إلى خدمته الكريمة مكرمين مرعيين بكل جميل من فايض الصدقات الكريمة والله تعالى يمتع المملوك بطول حياته الكريمة بمنه وكرمه .

كتب   إن شاء الله تعالى

ثالث عشر شهر جمادى الأول المبارك

سنة عشرين وتسعمائة

الحمد لله وحده   وصلى على مولانا محمد وآله وصحبه

وحسبنا الله ونعم الوكيل(٢)

وهذه الرسالة لا تشير إلى حدوث اتفاق بين المماليك والصفويين ، فلو كان حدث اتفاق فى ذلك الوقت بين السلطان المملوكى والشاه إسماعيل لأفضى خاير بك بسره إلى الصدر الأعظم فى هذه الرسالة . وقد ذكر الأمير المملوكى فى رسالته إلى أحمد باشا معلومات جمعها أحد جواسيسه عن الصفوى مما يدل على حسن العلاقة بينهما رغم تخوف السلطان الغورى من نتيجة هذه الحرب سواء كان المنتصر فيها سليم أم إسماعيل .

بعد أن انتصر سليم على إسماعيل الصفوى فى **چالديران** فى (٢ رجب سنة ٩٢٠هـ (أغسطس سنة ١٥١٣م) ، أرسل رسائل الفتوح السلطانية مبشرًا بالنصر إلى أمراء الشرق والأكراد وحاكم أدرنه وهو فى **چالديران** فى أوائل رجب سنة (٩٢٠هـ) ، وبعث إلى ابنه إسماعيل وخان القرم وأعيان

(١) كلمة ممسوحة فى أصل الوثيقة استنباطها من سياق الكلام .

(٢) الوثيقة محفوظة فى أرشيف طوپقپو سرايى باستابنول ، تحت رقم E. 5552 وصورتها ضمن لوحات هذا الكتاب ، برقم ١١ .

تبريز وهو فى خوى فى أوائل رجب سنة (٩٢٠هـ) ، كما أرسل إلى ميرزا مراد أمير الآق قيونلية والشاه رستم حاكم لورستان وخزوان أحد حكام الأكراد وخان سونديك وهو فى تبريز فى أواسط رجب سنة (٩٢٠هـ) .. وبعث إلى الغورى رسالة مع قاصده خضر أغا يخبره فيها بانتصاره على القزلباش ، مما يدل على أن سليمًا اقتنع بنفى خاير بك وقوع اتفاق مع إسماعيل الصفوى رغم عدم وجودد وثيقة لدينا تثبت ذلك .

كلف السلطان المملوكى الأمير خاير بك بالرد على الرسالة ، فكتب يقول للسلطان سليم : « أن أباكم السلطان [الغورى] عز نصره فرح فرحًا عظيمًا بالنصر على الطائفة الطاغية من الأوباش القزلباش الملاعين خذلهم الله تعالى أجمعين ، وأعلن البشائر والأفراح ثلاثة أيام ، وأكرم رسولكم خضر أغا وأرسل معه مرسومًا شريفًا :

وهذه ترجمة للرسالة عن التركية :

أبو المظفر حضرة سلطانى المعظم سعيد الحظ نائل المنى .

يضع وجه الإخلاص فى مقام العبودية ، وفى مراتب الرقبة [العبيد] ، وعلى تراب المذلة . دوام الدولة إلى آخر المدى ، وقوام العظمة مرتسم على الخلود ، ملاذ الخلافة فلك فى انتباهه وشكله ، سلطان سلاطين من فى الأرضين ، قامع الكفر والمشركين ، رافع ألوية الإسلام ، ظل الله على قاطبة الأنام ، ناصر عباد الله ، حافظ بلاد الله ، الفانى فى سبيل الله ، المؤيد من عند الله . ذلك الذى تباهى أرض عرشه السماء ، ويخدم الزمان المواتى عتبة عرشه . الموفق بعون الله الملك الرحمن ، خلد الله ملكه وسلطانه ، وأفاض على العالمين جود إحسانه ، على انقراض الدهور والأزمان .

بعد المعمل بخلوص النية وصفاء الطوية بالأدعية ، من أجل صلاح أهل العالم ، فإن عرض سعى أمير عتبة الملك مقر الفلك هو ما يأتى :

أرسل المنشور ساطع النور ، والفرمان الذى ظهر كالشمس - متضمنًا رسالة الفتوح السلطانية لبلاد أهل البدع والعصيان بنى الكفر والطغيان ، أعنى بهم الطائفة الطاغية من الأوباش القزلباش الملاعين ، خذلهم الله تعالى أجمعين - مع قدوة الأمراء الكرام وعمدة الكبراء الفخام « خضر أغا » ، زاد الله تعالى رفعته . حمله هذا العبد الذليل الأحقر من ذرة مفتخرًا . وكان للأمر الشريف أنفذه الله تعالى فى الربع المسكون ، شرف النفاذ . هرع الرسول أمينًا وسالمًا حتى وصل إلى الشام . يعلم الله وهو العليم العلام ، أنه حدثت من هذه الأخبار السارة البهجة والسرور والفرحة والحبور . وقرئت الآية التالية باللسانين [العربية والتركية] ﴿ الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴾ ، فحمدًا ثم حمدًا على تلك النعم ، والحمد لله حسب الحكم .

هرع القاصد المعد بالرسالة ، حتى وصل إلى حضرة سلطان الحرمين ، أعز الله تعالى أنصاره . فرح أبوكم السلطان [الغورى] عز نصره فرحًا عظيمًا ، وأعلنت البشائر والأفراح ثلاثة أيام .

لقى خضر أغا المذكور دام عزه ، أنواع التعظيم والتكريم ، وحظى بغاية الإعزاز والاحترام . ولما كان قد بلغ مسامع كل الأمراء العظام والعساكر المنصورة وجميع الأعوان والأنصار والأصحاب والتجار ، حال الكفر والإلحاد الذى بلغه ذلك الأمير المردود [الصفوى] ، ابتهجوا جميعًا ، وسروا من دفعه ورفعه . واستمروا على شكر البارى تعالى على نعمه وتوالى إحسانه . ﴿ فقطع دابر القوم الذين [ظلموا][(١)] والحمد لله رب العالمين ﴾ .

ثانيًا : أعز السلطان عز نصره عبدكم هذا زيد قدره واحترمه احترامًا مضاعفًا ، وأرسل معه مرسومًا شريفًا ، وحمله السلام . وكل آراء المذكورين

(١) لم تذكر هذه الكلمة تكملة للآية فى أصل الوثيقة وترك مكانها خاليًا .

في المملكة ، قدرت بإعزاز واحترام ، المرسوم السلطاني الشريف عز نصره ، وأظهروا لعبدكم المحب ، صادق الوداد واثق الاعتماد ، الكرم والاحترام حسب القدر والطاقة ، ثم عاد الرسول إلى آستانة السلطنة مقر الفلك .

والأمل ياحضرة مفتح الأبواب ، أن يتيسر لك ويتحقق فتح جديد ونصر أكيد يومًا بعد يوم . ولتهلك الأعمار المنحوسة لجميع أعداء الأرض ، ولتعلق رءوس الأعداء على الدوام عند عتبة مقر الملك ، وليفرح أولياء الدولة وليقهر وينكب أعداء البلاد ، إنه سميع مجيب .

باقي الفرمان معلق بالفلك على مفارق عظام إلى يوم القيام ، مخلد ودائم بالسؤال والآمال . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا كثيرًا ، وبخالص الدعاء .

العبد الفقير الحقير

خاير بك[١] .

ورغم رسالة التهنئة بالنصر في جالديران التي بعث بها خاير بك إلى سليم بناء على طلب الغوري ، إلا أن ابن إياس يذكر في بدائعه أن السلطان المملوكي وأمراءه استاءوا من أخبار انتصار سليم الأول « وخشوا من سطوته وشدة بأسه لما يحدث منه بعد ذلك إلى جهة بلاد السلطان »[٢] الغوري .

وعلى الرغم من أن الغوري أكرم رسول السلطان سليم وأخلع عليه كما ورد في الوثيقة السابقة وكما سيجيء في كلام شاهد العيان ابن إياس ، إلا أنه لم يأمر بدق البشائر احتفالاً بالنصر الذي تحقق على يد العثمانيين ، مما يؤكد أن السلطان المملوكي قابل هذه الأخبار بقلق بالغ . يقول ابن إياس : « فلما حضر قاصد سليم باشا بن عثمان بين يدي السلطان وقرئت مكاتبته بحضرة الأمراء

(١) الوثيقة محفوظة في أرشيف طويقبو سرايي باستانبول ، تحت رقم E 9654

(٢) ابن إياس : المرجع السابق ، ج ٤، ص ٣٩٨..... القاهرة ١٩٦٠.

أخلع على القاصد الذى حضر بأخبار هذه النصرة كاملية مخمل أحمر كفورى بصمور عال من ملابيسه ثم أنزل القاصد من القلعة ولم يرسم بدق الكوسات فى القلعة ولم يناد فى القاهرة بالزينة ولم يعلم ما سبب ذلك »[1] . وعلى الرغم من ذلك فإن خاير بك فى رسالته السابقة إلى السلطان سليم : « فرح أبوكم السلطان [الغورى] عز نصره فرحًا عظيمًا ، وأعلنت البشائر والأفراح ثلاثة أيام » . وربما قال أمير حلب ذلك لعدم علمه بالحقيقة ، وتوقعه إعلان البشائر ما دام القاصد قد قوبل بترحاب شديد وأخلع عليه .

ويبدو - فى ظنى - أن الغورى أمر بإرسال هذه الرسالة إلى سليم رغم عدم امتنانه بنتيجة المعركة ، لأن السلطان العثمانى أرسل إليه رسالة تبشير بانتصاره على الصفوى ، وعلى الغورى أن يرد عليها لكيلا يثير على نفسه غضب ابن عثمان ، لأنه لو لم يفعل ذلك لتأكد لسليم تحالفه مع الصفوى ضد العثمانيين .

بعد أن هزم سليم إسماعيل الصفوى فى **چالديران** ودخل تبريز فى (١٦ رجب ٩٢٠هـ) وفتح آمد (ديار بكر) وخربوت ثم فتح أثناء عودته الكماخ وذولقادر وقتل حاكمها علاء الدولة حليف الغورى[2] ، ورجع إلى القسطنطينية إلى أن ينقضى الشتاء . وعندما حل الربيع عقد سليم العزم على فتح بقية البلاد الشرقية « لإعلاء كلمة الموحدين » فسافر إلى آقشهر ، وهناك علم أن الشاه إسماعيل عاود المناوشات على الحدود وجمع جيشًا قوامه عشرين ألفًا تقريبًا جعل على رأسه ويراش خان القراخانى حاكم ماردين .

أرسل السلطان سليم محمد باشا البيقلى والى ديار بكر لمحاربة القراخانى سنة (٩٢١هـ) دارت المعركة بين الطرفين فهزم ويراش خان وقطعت رأسه وأرسلت إلى السلطان العثمانى مع رسالة الفتوح التى كتبها البيقلى . وعندما

---

(١) ابن إياس : نفس المرجع ، ج ٤، ص ٤٠٤.

(٢) راجع ص ٧٢ - ٧٤.

علمت زوجة القراخانى وهى أخت الشاه الصفوى بما آل إليه مصير زوجها ، هربت مع بعض الجنود ، وتم للعثمانيين فتح قلعة ماردين .

وفى أواخر رمضان سنة (٩٢١هـ) أرسل السلطان سليم قاصده حسن بك السلحدار برسالة مصحوبة برأس ويراش إلى الغورى لكى يفرح بنصر الإسلام المبين [١] .

أرسل الغورى مع قاصده جمال الدين يوسف القيطان ردًا على رسالة السلطان العثمانى . وأرس معه واحدًا من الفيلين - اللذين كان قد قدمهما ملك الهند هدية إليه - للسلطان .

يعبر الغورى فى رسالته عن مدى فرحه بالفتح ، ويخبر سليما بأنه أعطى نقودًا لقاصده القيطان لكى يشترى بعض الأخشاب « اللازمة لبعض المصالح المهمة فى القاهرة » من العثمانيين ، ويطلب منه أن يرسل إليه بعض صناع الأخشاب أيضًا .

يقول الغورى فى رسالته : « فرحنا غاية الفرح وبشسنا نهاية البشاشة وابتهجنا بهذه البشارة كل الابتاج ، وزينا الأسواق بأنواع الأقمشة والديباج ، وفتحنا أبواب العيش والنشاط ، وانبسطنا كل الانبساط ، وقرأنا مع صلحاء بلادنا الأدعية المتوافرة والأثنية المتكاثرة ، لازدياد دولتكم ، وارتفاع أعلام نصرتكم فى الدنيا والآخرة ، إنه ولى التوفيق .

وأصدرنا إلى خدمتكم الشريف ومجلسكم المنيف برفاقة قاصدكم المزبور ، أحد خواصنا زين المقربين جمال الدين يوسف القيطان رزقت عودته بالسلامة . وجهزنا معه - من جملة أربعة أفيال التى أهدانا بها ملك البلاد الهندية فما وصل منها إلا الاثنان - فيلًا واحدًا مع بعض من الأمتعة المصرية . وسلمناه دراهم معينة لاشتراء الخشب اللازمة لبعض مصالحنا المهمة فى

(١) نص الرسالة بالعربية ضمن ملاحق هذا الكتاب ، تحت رقم ٢٨، وهو مأخوذ عن فريدون ، ورقة ٥٨٤ ب - ٥٨٧ ا .

القاهرة ، وإرسال جم من أهالى تلك الصنعة » .

وهذا هو نص الرسالة بالعربية :

بسم الله الرحمن الرحيم

حامدًا لله تعالى ومصليًا على رسوله الكريم ، ضاعف الله نعم المقر العالى ، السلطانى الكبيرى ، العالمى العاملى ، العادلى الكاملى الكافلى ، المؤيدى المهدى المشيدى ، النصيرى الظهيرى ، العونى الغوثى ،أسوة الملوك والسلاطين عون االغزاة والمجاهدين ، معين الإسلام والمسلمين ، المؤيد بتأييد الله الذى لا إله إلا سواه ، أبو النصر والفتح سلطان سليم شاه ، لا زال أولياء وجوده الشريف فرحين بالعز والإقبال ، وما برح أعداء ذاته اللطيف مقتولين فى معركة القتال .

وبعد ، فلما ورد كتابكم الشريف وخطابكم المنيف فى أيمن الأزمنة وأحسن الأمكنة على يد قدوة الأماجد والأخيار حسن بيك سلحدار زيد قدره مع رأس قراخان اللعين ملك الأمراء بين طايفة قزلباش الملحدين . فقرأنا تلك المفاوضة الشريفة والمخاطبة المنيفة ، واطلعنا على ما تضمنه من وقوع المحاربة بين أمير أمرائكم محمد باشا البيقلى والى ديار بكر وبين هؤلاء الظلمة الفسقة فى قرب قلعة ماردين ، وحصول الفتح والنصرة من الملك العلام لجيوش أهل الإسلام ، ونزول النوازل والبلية من حضرة القهار الذى هو عزيز ذو انتقام على رءوس الأعداء اللئام ، وظهور التفرقة بينهم مع كثرة عدادهم ومرور الدولة من جملتهم لعدم إسلامهم واعتقادهم .

فرحنا غاية الفرح وبششنا نهاية البشاشة وابتهجنا بهذه البشارة كل الابتهاج ، وزينا الأسواق بأنواع الأقمشة والديباج ، وفتحنا أبواب العيش والنشاط ، وانبسطنا كل الانبساط . وقرأنا مع صلحاء بلادنا الأدعية المتوافرة والأثنية المتكاثرة ، لازدياد دولتكم وارتفاع أعلام نصرتكم فى الدنيا والآخرة ؛

إنه ولى التوفيق والإِجابة .

وأصدرنا إلى خدمتكم الشريف ومجلسكم المنيف برفاقة قاصدكم المزبور أحد خواصنا زين المقربين جمال الدين يوسف القيطان رزقت عودته بالسلامة . وجهزنا معه – من جملة أربعة أفيال التى أهدانا بها ملك البلاد الهندية فما وصل منها إلا الاثنان – فيلاً واحدًا مع بعض من الأمتعة المصرية .

فالمأمول من جنابكم الرفيع حسن القبول لدى الوصول والعذر عند كرام الناس مقبول . وسلمنا دراهم معينة لاشتراء الخشب اللازمة لبعض مصالحنا المهمة فى القاهرة ، وإرسال جم من أهالى تلك الصنعة .

فالمرجو من كرمكم الإِحسان بقضاء الوطر وأن تلتفتوا إليه بلطف النظر ، فإن بيننا وبينكم محبة قديمة ومودة مستقيمة من عهد آبائكم العظام وأجدادكم الكرام أنار الله تعالى براهينهم ونور مضاجعهم إلى يوم القيام . ولا يتغير شيء منها بمزخرفات العوام بل يزيد كل اليوم من كرم الله ذى الجلال والإِكرام . أبقاكم الله تعالى بالدولة الأبدية السرمدية ، وأيدكم بتأييداته العلية السنية ما سبح فلك وسبح ملك ، والسلام والإِكرام(١) .

لم يوضح الغورى فى رسالته ماذا يريد بالخشب وصناعة صراحة ولكنه اكتفى بالقول بأن شراء الخشب « لبعض مصالحنا المهمة فى القاهرة » . فهل أراد السلطان المملوكى أن يجهز المراكب للتصدى للعثمانيين فى البحر الأبيض إن هم بدأوه بسوء ؟ أم أنه كان يريد أن يستعد لفك حصار البرتغاليين الذى يهدد موانى المماليك ويزداد خطره بعد فشلهم فى مواجهته من قبل ؟ الاحتمال الأول أقرب إلى الصواب فى نظرى لأن الغورى لو كان يقصد التصدى للبرتغاليين لقال ذلك فى رسالته صراحة لكى يفرح سليم ، حيث الخطر البرتغالى يزيد مع الأيام وتأثيره على العثمانيين قائم . ربما أيقن السلطان

---

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٥٨٧ ا – ٥٨٨ ا .

المملوكى أن الدائرة ستدور عليه بعد أن هزم سليم الشاه إسماعيل الصفوى وقضى على علاء الدولة حليف المماليك ، فأراد أن يجهز المراكب لكى لا يفاجئه العثمانيون وهو لم يستعد لذلك . لقد كان قتل حاكم ذولقادر أكبر أنصار المماليك عند حدودهم الشمالية منذ أربعة أشهر تقريبًا ، بمثابة مؤشر ونذير بالخطر الذى ينتظر المماليك ..

وعلى الرغم من أن الغورى فى رسالته السابقة أخبر سليمًا بأنه فرح لمقتل ويراش خان وأقام الزينات فى القاهرة ، حيث قال : « ابتهجنا بهذه البشارة كل الابتهاج وزينا الأسواق بأنواع الأقمشة والديباج » ، إلا أننى أعتقد أن سلطان المماليك كظم غيظه وأسرَّها فى نفسه حيث لم يمض وقت طويل على مقتل علاء الدولة ، والذى يعتبر قتله بمثابة ضربة له لم يستطع أن يرد عليها ، أو هو ألزم نفسه بما جاء فى مراسلاته السابقة مع سليم عندما أعرب له عن عدم اهتمامه بحاكم ذولقادر وترك حرية التصرف للسلطان العثمانى لكى يختار الطريقة التى ينتقم بها منه .

بعد أن قضى سليم على ويراش خان نصير الشاه إسماعيل وحاكم ماردين « لإعلاء كلمة الموحدين » ، أرسل رسالة إلى الغورى يطلب منه الدعاء له ويرجوه أن يكلف الفقراء والصالحين من أهل الحرمين الشريفين - « جريًا وراء العادة القديمة المأثورة عن أبيه » - بالدعاء لله أن يزيد الدين الإسلامى قوة ومنعة . ويذكر له العمل الذى ينبغى على الأمراء والسلاطين القيام به تجاه القزلباش الملاحدة المفسدين أرباب البدع والكفر والضلال » . ويخبره بأنه استولى على ديارهم « ابتغاء مرضاة الله » . ويؤكد على المحبة التى نشأت بينهما إرثًا واكتسابً .

وهذه ترجمة للرسالة عن التركية :

جناب مآب السلطنة صاحب العزة والدولة والسعادة ، ملكى الذات والصفات أخى سلطان مصر ، أيدت دولته وخلدت سلطنته .

فليكن معلومًا لديكم بعد أن يصلكم الخبر المبارك بالسلام ، أنه لما كان للسلاطين المشاهير والخواقين العظام ، يحافظون على دين حضرة سيد المرسلين بما ينبغى ، فإنهم كانوا يحلون العقدة التى يربطها الكفار والملاحدة سيئى النية ، لحبل الشرع المبين المتين بحد السيف والرمح . وإذا ظهرت فى أى وقت نقطة تغير واحدة فى بلاد الإسلام الفسيحة من تأثير الأعمال القبيحة لأرباب البدع والكفر والضلال ، هوى عليهم السيف البتار وسفك الخنجر دماءهم ، ومن واجب الأمراء ذوى القدر والسلاطين أولى الأمر على طول المدى ، أن يعملوا على إبقاء – أهل البلاد الشرقية المفسدين ، والزنادقة سيئى النية ، والملاحدة الذين يعملون على الفتنة والفساد – فى الضعف والوهن ، إنهم فئة ضالة منحرفة ، استولينا على ديارهم عملاً بقول الله ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله ﴾ . إنهم لا يخافون قول الله : ﴿ وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾ . وليسوا على علم بالظلم والاضطهاد الذى قاسى منه أهل السنة والجماعة ، ولا بما حدث لآل فرعون وأسباط بنى إسرائيل وبخت نصر وسكان بيت المقدس .

عملنا من صميم قلوبنا بقول الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ﴾ . وقررنا إحياء لمراسم الشريعة الغراء وإعلاء لكلمة الله العليا ، تسيير الجيش الهمايونى الجرار ، قرين النصر حامل لواء الانتصار الكبير إلى البلاد الشرقية ، لقمعها والاستيلاء عليها . وأود أن أنهض بدين الحق فى أقرب فرصة ، وأطمع فى العاقبة السعيدة ، وأرجو رجاء الواثق آملاً فى البشرى الطيبة ﴿ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ . وقد ظهر السر الجليل ﴿ وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ﴾ بمقتضى الإشارة المملوءة بالبشرى التى تقول ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ . ودفع الله سبحانه وتعالى فتنة أولئك الظالمين وفسادهم عن عجزة المسلمين ومساكينهم . وكان هذا سببًا فى إخلاصى فى العمل على أن يكون الصغير والكبير منهم طعامًا سائغًا

للسيف ، وأن تصير جثثهم غذاء للذئاب والأسود .

وفرض على كل مسلم يغار على الدين ويدافع عن الإسلام ، أن يدعو بالخير والعون للجنود المنصورة الظافرة ، التى جاهدت وحاربت ابتغاء وجه الله وطلبًا لمرضاته ، لإبادة طائفة الفجار المقهورين ، الذين سعوا لهدم بناء الشريعة النبوية المرصوص على واضعه أفضل الصلاة وأكمل التحيات .

ارتفعت المحبة والمودة التى نشأت بيننا إرثًا واكتسابًا ، إلى مرتبة الأبوة والبنوة ، مقامكم العالى . ونأمل منكم الدعوات المستجابة فى الأوقات المستطابة ، ونتمنى أن تجاب ، ولا يحدث هناك سهو أو غفوة عن ذكر الدعوات الصالحة . ونرجو التنبيه على الفقراء والصالحين ، الذين يعتكفون فى الأماكن الشريفة والأراضى المقدسة ، أن يتضرعوا فى الغدو والآصال بالدعوات الصالحة إلى الله أن يزيد الدين الإسلامى قوة ومنعة ، والسلام(١) .

الاستعداد للحرب :

استخرج كمال باشا زاده (ابن كمال) قاضى عسكر الأناضول بطريق الإشارة والرمز آية من القرآن الكريم تدل على أن ديار مصر ستفتح فى أيام الزمهرير سنة ٩٢٢هـ من قبل « عباد صالحين » ، وهذه الآية هى ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾(٢) .

---

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ١٢٧ب ، ١١٢٨ .

(٢) يذكر قاضى العسكر أن تحليل جملة « من بعد الذكر » بحساب الجمل يساوى ٩٢٢. فجملة « من ب عد الذكر » ، الباء فيها تساوى ٢، وعد « الذكر » من غير الألف واللام يساوى ٩٢٠. والإشارة الثانية هى وقت الشتاء حيث إن لفظ « الزبور » باعتباره ظرفًا يكون معناه الزمهرير لأن حرف « فى » أداة ظرف ، ووسط الظرف والمظروف « فى الزبور » حرف « زاى » يدل على زمهرير ، والإشارة الثالثة هى ديار مصر ، وتستخرج من لفظ « أرض » فى الآية ، حيث إن هذه الكلمة تدل فى كثير من المواضع فى القرآن الكريم على بلاد مصر لأن لام العهد تدل عليها كقوله تعالى : « وأورثنا الأرض » . « كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها » . [أحمد فريدون : نفس المرجع ، ورقة ٥٩٢ ا ، ب] ويقول بعضهم إن ابن كمال دكر أن لفظ « ولقد » فى الآية يدل بحساب الجمل على اسم « سليم » حيث يساوى كل منهما ١٤٠ [انظر : السيد أحمد بن السيد زينى دحلان : الفتوحات الإسلامية ح ٢، ص ٩١ القاهرة ١٣٢٣] .

وفى أوائل المحرم سنة ٩٢٢هـ أرسل سليم رسالة إلى الغورى ضمنها الآية السابقة بناء على بشرى ابن كمال . وهذه الرسالة تعتبر ردًّا على رسالة سابقة كان الغورى قد أرسلها إلى سليم[1] ، يسأل فيها عن سبب منعه للتجار والعابرين بعد فتح البلاد الشرقية . يذكر السلطان العثمانى فى هذه الرسالة مسببات ذلك قائلاً أن قيامه بتأديب القزلباش لم يكن للطمع فى ديارهم ، ولكنه كان لإظهار أنوار النواميس الإلهية والشرائع المحمدية ، ولذلك اكتفى بتفريق شملهم على ألا يعودوا إلى ما كانوا عليه . ولكنهم عادوا إلى سلوكهم القديم ، فأغلق طريق التجارة الشرقية ليقطع عنهم الإمدادات ، وقرر تفتيش القادمين من ديارهم ومنع العابرين إليهم . ويؤكد سليم على أنه ليس به طمع فى أحد من سلاطين المسلمين أو فى مملكته أو رغبة فى إلحاق الضرر به .

أرسل السلطان العثمانى مع مولانا ركن الدين بن زيرك حامل هذه الرسالة شمس الدين أحمد بن جعفر الشهير بقراجا باشا سفيرًا إلى الغورى للعمل على تحسين العلاقات بين البلدين .

يتحدث سليم فى أواخر رسالته من منطق القوة فيقول للغورى : « إذا لم توافقوا على قيامنا بسحق أعداء الدين حسبما أوجب الشرع الشريف وأصريتم على موقف الخلاف من هذا الأمر ، فليظهر حينئذ ما خفى من التقدير الربانى[2] « والأمر يومئذ لله » .

وهذه ترجمة للرسالة عن التركية :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتى

الحمد لله الذى أورثنا الأرض وجعلنا من الأخيار وعداده ، وبشرنا بأن نكون من الأبرار وصالحى عباده فيما قال ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد

(١) لم أعثر على هذه الرسالة فى مصر أو فى تركيا .

(٢) المقصود بـ « ماخفى من التقدير الربانى » هنا ، ما استخرجه ابن كمال من الآية القرآنية السابقة .

الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ . والصلاة والسلام على من اقتدينا بآثاره واهتدينا بأنواره ، محمد الذى منّ الله على المؤمنين به ، وعلى آله وأصحابه العظام ، وبعده .

ورد الخطاب الشريف على المقام ، وطالعنا المحتوى الذى احتواه مضمونه الجليل ، فعلمنا أنه منذ أن خطر لجنابنا العالى فى زمن ليس ببعيد ، خاطر عظيم لم نكن نقصده وهو أن نمنع التجار والعابرين ، خطرت ببالكم بعض الأمور لسوء ظنكم بمقامنا الشريف .

ليس بخاف على الرأى السائد فى العالم أن قيامنا بتأديب القزلباش الملاعين فيما مضى ، كان لمجرد إظهار أنوار النواميس الإلهية والشرائع النبوية ، وكشف حجاب ظلام ظلم أعداء الدين والدولة ، والعمل على نشر نور الشرائع النبوية فى العالم . ولم يخطر ببالنا الشريف حقيقة طمع فى المملكة أو استيلاء على الديار ، واكتفينا بتفريق شملهم وكسر أنوفهم . وإذا عملوا بالنصيحة فلن نتعرض لباقى أحوالهم . لكنهم لم ينتصحوا وقد علمنا أنهم ماضون على حالتهم الأصلية .

ظهرت الحمية السلطانية من جديد . فصممنا على محو وجودهم القبيح من وجه العالم كلية بالسيف البتار . أغلقنا طريق الشرق لنقطع عنهم الإمدادات والروابط تمامًا من الناحية البرية . وبعد أن منعنا التجار والعابرين ، قررنا تفتيش كل من يأتى من تلك الأنحاء والتحقق منه على الدوام . وعزمنا على إغلاق جميع الطرق التى توصل إلى ناحية الشرق على الذين يأتون من طريق حلب أو عن طريق البحر من إسكندرونة[1] ، ومنعنا العابرين إلى تلك الناحية . ولقد تحفظنا على أمتعة أولئك الذين كانت فى أيديهم أمتعة شرقية ، سواء كانوا من العرب أو من العجم أو الروم[2] ، للتشكك فى أحوالهم ،

(١) راجع حاشية ص ٤٧.

(٢) يقصد الترك .

وسلمناهم إلى من يضمنهم من الموثوق فيهم . أما الذين لاتوجد فى أيديهم أمتعة شرقية ، فلم نتعرض لهم أو نتدخل فى شئونهم قط ، وأبقينا على تجارتهم لتأكدنا من أحوالهم .

ويعلم الله وكفى به شهيدًا ، أنه لم يخطر على البال قط ، طمع فى أحد من سلاطين المسلمين أو فى مملكته أو رغبة فى إحاق الضرر به . لم يحدث ذلك لأن الشرع الشريف ينهى عنه .

لقد وصلت المودة التى توارثناها من قبل ، إلى درجة الأبوة والبنوة معكم خاصة ، ورعينا حرمة الحرمين المكرمين ، ولم يصدر عن مقامنا العالى تصرف يبعث على سوء التفاهم بين الجانبين حتى الآن ، أو موقف عداء يتسم بالطمع فى المملكة . وشاهد عدل على هذا الموقف ، أننا توجهنا إلى الديار الشرقية لإزالة آثار الكفر والضلال - التى خلفها ذلك المفسد الذى لايدين بدين- من العالم كلية ، قبل أن يصلنا خطابكم الشريف .

وجريًا وراء العادة القديمة المأثورة عن والدى حضرة السلطان خلدت سلطنته ، رجونا الدعوات الصالحة من الرجال الذين يعتقد فى قبول دعواهم فى الحرمين المكرمين .

أرسلنا إليكم أعلم العلماء المتبحرين أفضل الفضلاء المتورعين ينبوع الفضل واليقين ، مولانا ركن الدين زادت فضائله ، وعينا فخر الأمراء الكرام وذخر الكبراء الفخام ذا القدر والاحترام ، المختص بمزيد عواطف الملك الصمد ، « أحمد » دام مجده سفيرًا ، لتحريك سلسلة الود وتشييد مبانى الاتحاد ليس إلا . والله عليم وعلام أننا لا نقصد من هذا غير المحبة ، وليس هناك احتمال فى حدوث شيء آخر من بعد .

وإذا لم توافقوا على قيامنا بقمع أعداء الدين وسحقهم حسبما أوجب الشرع ، وأصريتم على موقف الخلاف من هذا الأمر ، فليظهر حينئذ ما خفى

من التقدير الربانى « والأمر يومئذ لله » .

ومعلوم لديكم ما ذكرناه عن أحوال السفن ، من أن جنابنا العالى لم يقصر فى مواجهة الكفار الأذلاء ودحرهم فى البحر . إن مراكبنا على أهبة الاستعداد فى كل آن للسيطرة على البحر ، وليس هذا الأمر مناف للمحبة بيننا والحالة هذه .

والأمل فى ألا يتخذ موقف يبعث على الفتور بين الجانبين من بعد ، أو يتوقف ورود الرسائل التى تحمل أخبار المودة وأن يتودد الرسل المحترمون بيننا ، كى تتوطد ساعة فساعة قواعد الوفاق والصداقة ؛ ويرتفع بناء الود يومًا فيومًا .
تحريرًا فى أوائل شهر محرم الحرام سنة ٩٢٢هـ : بمقام أدرنه(١) .

ورغم أن سليمًا طمأن الغورى فى رسالته السابقة ، على أنه لن يحدث بين البلدين ما يكدر الصفو ، وأنه لا يطمع فى الاستيلاء على بلد من بلاد المسلمين ؛ إلا أن الغورى علم مبكرًا بتجهيزاته واستعداداته وتأكد لبعد نظره من نواياه الحقيقية التى كانت ترمى إلى الاستيلاء على بلاده ، وذلك قبل أن يبدأ السلطان العثمانى فى التحرك إلى مصر بشهرين على الأقل . وقبل أن يتحرك صدره الأعظم بشهر واحد تقريبًا . ومن المحتمل أن يكون هذا راجعًا إلى نشاط الجاسوسية الذى كان المماليك يميلون إلى الاعتماد عليه للتأكد من نوايا جيرانهم كما كان يفعل العثمانيون .

لم تتخدر أعصاب السلطان المملوكى بما جاء فى تلك الرسالة ، فقرائن الأحوال تشير إلى أن سليمًا يريد مصر لا بلاد فارس ، خاصة بعد أن قضى فى جمادى الأولى ٩٢١هـ (١٥١٥م) على إمارة ذولقادر المشمولة بحماية المماليك وأصبحت حدود دولته ملاصقة لحدود دولة المماليك . ويذكر ابن إياس فى هذا الصدد أن الغورى تحالف مع إسماعيل الصفوى لأنه أحس بخطر العثمانيين ، وأرسل إليه عدة أفيال « فى الخفية فى خبر سر بينه وبين

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٥٩٢ – ٥٩٣ ب .

الصوفى »[١] .

بدأ الغورى يستعد لملاقاة ابن عثمان فى حلب ، فأخذ يجمع جنوده وعتاده . وفى تلك الأوقات العصيبة لم يتخل المماليك عن عبثهم ولم يقدروا خطورة الموقف الذى أوشك أن يعصف بهم جميعًا ، فثار الجلبان فى القاهرة لتأخر رواتبهم ؛ الأمر الذى أغضب السلطان الغورى ، فترك القلعة واعتزل فى المقياس وقال للأمراء « أنا ما بقيت أعمل سلطانًا ، ولوا عليكم من تختاروه غيرى ! » وقد استغل المماليك الجلبان هذه الفرصة وتكادوا فى العبث ونهبوا الدكاكين فى القاهرة ، واستمروا « يشوشون على الناس ويخطفون العمائم .. وحصل منهم الضرر الشامل » . وأخيرًا استطاع كبراء الأمراء أن يسترضوا السلطان الغورى ، فأنب المماليك قائلاً :« لا تشمتوا العدو فينا ، وابن عثمان متحرك علينا ، ولابد من خروج تجريدة له عن قريب »[٢] .

وفى أوائل صفر سنة ٩٢٢هـ (فبراير ١٥١٦م) طلب الغورى من الخليفة العباسى أبو عبد الله المتوكل على الله الثالث (تولى ٩١٤هـ ، ١٥٠٩م) وقضاة المذهب السنى الأربعة الاستعداد لمصاحبته فى سفره إلى حلب عندما صعدوا إلى القلعة لتهنئته بحلول أول الشهر الهجرى صفر .

يروى لنا حيدر **چلبى** كاتب الديوان المشهور (روزنامه جى) ، الذى عاصر سليمًا وصحبه فى فتح الشام ومصر ، يوميات معارك السلطان العثمانى مع المماليك ، فيقول : « الديوان الهمايونى فى أدرنه فى ١٤ صفر سنة ٩٢٢هـ ، وتقرر فيه التوجه لمحاربة الديار الشرقية [بلاد فارس] . صدرت

---

(١) ابن إياس : المرجع السابق ، ج ٥ص ٣٥.

لم أعثر على وثيقة فى مصر أو فى تركيا تؤيد وتؤكد تحالف الغورى والصفوى ، وعلى الرغم من ذلك فأنا مع ابن إياس فيما قال .

(٢) ابن إياس : المرجع السابق ، جـ٤، ٤٨٤،جـ٥، ص٧

.د . سعيد عاشور : المرجع السابق ص.١٨١

الأوامر بالاستعداد للحرب »[1] .

وعلى الرغم من أن السلطان العثمانى كان ينوى فتح الشام ومصر حقيقة ، إلا أنه أشاع أنه عازم على التوجه إلى بلاد فارس لمحاربة القزلباش ، مما جعل حيدر **چلبى** نفسه يكتب ذلك فى يومياته (روزنامه) ، ولا يكتب الحقيقة . وكان هدف سليم من ذلك ، أولاً : جعل اتفاق المماليك مع الفرس عديم الجدوى ، وثانيًا : تحقيق المباغتة لغريمه .

وبينما كان الغورى يقوم بالاستعداد للقاء العثمانيين ، وصلت إليه وهو لا يزال فى مصر رسالة من خاير بك نائب حلب ، يذكر له فيها أن السلطان العثمانى ينوى محاربة الفرس . ومن الجدير بالذكر أن خاير بك كان على اتصال بالعثمانيين سرًّا منذ وقت مبكر . ويريد من وراء رسالته إلى الغورى أن يثبط همته لكى يتمكن السلطان العثمانى من مباغتته والقضاء عليه . لم يركن الغورى إلى كلام نائبه على حلب رغم أنه لم يشك فى ولائه له واستمر فى استعداداته . لم يكتف خاير بك بهذا ، بل أوعز إلى سيباى نائب الشام لكى يقنع السلطان المملوكى بأن العثمانيين لن يفكروا فى محاربة المماليك . انخدع سيباى بكلام زميله وأرسل إلى الغورى رسالة بهذا بهذا المعنى ، ضمنها شكواه من الغلاء الموجود بالشام وقلة المؤن بها وعدم جدوى سفر السلطان المملوكى إلى الشام حيث قال : « وإن كان العدو متحركًا[2] فنحن له كفاية[3] » . وقد أشار سيباى فى رسالته هذه إلى خيانة خاير بك قائلاً : « والذى يعلم به مولانا السلطان أن خاير بك ملاحى علينا »[4] ، إلا أن الغورى لم يصدقه فيما

---

(١) انظر **روزنامه حيدر چلبى** فى كتاب : سلطان سليمك إيران سفرينه دائرة مخابرات ، ورقة ١٣٥ا - ١٤١ ب ، مخطوط بمكتبة طوبقبو سرايى باستانبول تحت رقم R ١٩٥٥.

(٢) الصحيح لغة : كان العدو متحركًا .

(٣) ابن إياس : المرجع السابق ، ج ٥ ص ٢٢. (تحقيق د .محمد مصطفى) .

(٤) ابن زنبل · المرجع السابق ، ص ٤.

قاله عن خيانة نائب حلب هذا[١] .

وبينما كانت استعدادات الغورى للحرب تسير سيرًا حثيثًا ، أرسل إلى السلطان العثمانى رسالة فى أواخر شهر صفر سنة ٩٢٢هـ يستفسر عن سبب توقف التجارة بعد فتح بلاد ذولقادر . ويخبيره أنه تأكد من أن الدولة العثمانية تعد العدة لفتح الشام ومصر . ويسأله إذا كان لهذا الفعل سبب قوى يدعو لذلك لكى يقوم بمنعه ، ويلتمس منه أن يرسل إليه رده على رسالته بسرعة إذا كان به طمع فى بلاده حقيقة .

وهذه ترجمة للرسالة عن التركية[٢] :

بسم الله الرحمن الرحيم ، فهو حسبى

الحمد لله الذى جعل الإنسان خليفة فى أرضه ، وخص الملوك للإصلاح بين عباده . والصلاة والسلام على رسوله محمد ، الزاجر عن الأفتان أمته . والهادى إلى سداده ، وآله الكرام وأصحابه . وبعد .

فليكن لدى علمكم الشريف أنه منذ أن عدتم إلى استانبول بعد فتح بلاد علاء الدولة ، لم يأت أحد من التجار أو من الرائحين والغادين إلى هذه الديار [بلاد المماليك] ، ومن بين هؤلاء تجارنا أيضًا . فليأمر حضرة ابنى [سليم] بجعل أموالهم أمانة ، ويعطى لكل واحد منهم ضمانة .

---

(١) يقول ابن زنبل فى ص ٥ من كتابه : « ومن صنع الله تعالى أن السلطان الغورى كان له رمالاً حاذقًا فكان كل حين يقول له السلطان انظر إلى من يلى الحكم بعدى فيقول حرف السين فكان السلطان يعتقد أنه سيباى وكان كلما كتب سيباى للسلطان بما يفعله حير بك نائب حلب من المكاتبات للسلطان سليم بأنه معه وأنه ملاحى على أبناء جنسه ويحرضه على المجىء إلى أخذ مصر من **الجراكسة** والسلطان الغورى لايقبل من سيباى نصيحة حتى نفذ قضاء الله تعالى وحكمه وقدرته وكان ما كان » .

(٢) عنوان هذه الوثيقة مكتوب فى ظهرها على النحو التالى : المقام العالى الكبيرى العالمى المجاهدى المؤيدى المثاغرى المرابطى المظفرى المنصورى الملجاى الملاذى الولدى الزمنى ناصر الإسلام والمسلمين مؤيد الدين ملجأ القاصدين كهف الأهلين ملا العارفين قاتل أعداء الله المشركين نظام المصالح بقية السلف الصالح أعز الله تعالى أنصاره صاحب المملكة الرومية .

من المسلم به أنك جمعت العساكر من البر والبحر ، وقد علمنا أنك عزمت على تسييرهم علينا . فتعجبت نفسنا الشريفة غاية التعجب . لأن كلانا والحمد لله من سلاطين أهل الإسلام ، وتحت حكمنا مؤمنون وموحدون ليسوا خارجين كالصوفية [القزلباش] الذين أفتى العلماء بقتلهم .

إذا كان يحدث من جانبنا سبب يدعو للقيام بهذه الأعمال المذكورة ، فأخبرنا نعمل على دفعه ، لئلا تصيب علاقتنا المسلمين بضرر . وإلا فلا داعى لذلك قط .

إذا قلتم إنما بنا طمع فى بلادكم حقيقة ، فإن أمر الله تعالى هو : يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد . وفى هذه الحالة التمس من حضرة ابنى [سليم] أن يرسل رد خطابنا مع رسول بالبر أو البحر على وجه السرعة ، لكى يصل إلينا .

والله تعالى يديم لملككم البقاء والخلود ولدولتكم العز الدائم والصعود بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى .

كتب فى أواخر شهر صفر الخير خيم بالخير والظفر سنة اثنين وعشرين وتسعمائة .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل (١) .

يقول حيدر چلبى : « خرج السلطان فى ٧ ربيع الأول سنة ٩٢٢هـ من أدرنه عاقدًا العزم على محاربة البلاد الشرقية . جاءت الرسل فى الثامن من نفس الشهر من قبل عليّ بن شهسوار حاكم ذولقادر ، تخبر باحتمال مجىء سلطان مصر إلى حلب بنفسه(٢) .

(١) الوثيقة محفوظة فى أرشيف طوپقپو سرايى باستانبول ، تحت رقم E. 12282

(٢) انظر روزنامه حيدر چلبى ، نفس الموضع .

على أن سليمًا قبل أن يشرع فى التحرك لمحاربة المماليك ، فكر فى شرعية فتح مصر ، لأن فتوح العثمانيين السابقة كانت جلها فى بلاد الكفر (أوربا) أو فى بلاد الملاحدة القزلباش (بلاد فارس وما يتبعها فى الأناضول) ، ومصر دولة إسلامية سنية .

عقد السلطان العثمانى مجلسًا خاصًا أوضح فيه خطوط السياسة التى تتبعها مصر وأحوالها الداخلية ونوع الحكم فيها وعداءهم له ومشكلتى قيصرية وألبستان . بعد أن أوضح سليم هذه الأمور كلها ، قال الصدر الأعظم أحمد باشا إبن هرسك : « سلطانى ، ينبغى عليك أن تؤدب سلطان مصر بشن حرب عليه . فعندما أسرت فى مصر ، سمعت من كبار المسئولين الرسميين أنهم لايدخرون وسعًا فى العمل على محو الإمبراطولاية العثمانية كلية » . عقب محمد چلبى بن نشانجى خوجه على هذا الكلام قائلاً : « سلطاننا العظيم ، نحن متفقون معك فى الرأى . إن ولاية الحرمين ومقام الخلافة سيؤولان إلى الأسرة العثمانية ! » وبعد أن سمع « مفتى الأنام » شيخ الإسلام زنبللى على أفندى (ت ١٥٢٦م) كل هذا الكلام فى المجلس الخاص ، قال : « يعتبر ظهور العداء من جانب العدو داعيًا للحرب ، لهذا أفتى بشرعية التحرك إلى مصر وشن حرب عليها ، لأن أهلها قطاع طرق . والحرب والقتال معهم غزو وجهاد ، قاتلهم غازى ومرابط ، والمقتول على أيديهم شهيد ومجاهد » . وقبل أن ينفض المجلس قال السلطان لمحمد چلبى : « إننى معجب برأيك فى مصر »[1] .

وفى ٢٥ ربيع الأول سنة ٩٢٢هـ عبر الصدر الأعظم سنان باشا من استانبول إلى أسكدار متجهًا نحو البلاد الشرقية على حد قول حيدر چلبى [2] . وصل سنان باشا إلى مرعش ثم أخذ القوات المتجمعة فى قيصرية وذهب إلى

(١) Muallim Fuad Gucuyener: op. Cit. vol, 1, pp. 128 - 130 Dr. Adbulkadir Altunsu: Osmanli Seyhulislamlari S. 14 Ankara 1972.

(٢) روزنامه حيدر چلبى ، نفس الموضع .

دياربكر . وأرسل إلى السلطان سليم يخبره بكل تطورات الأحداث أثناء تحركه في جنوب الأناضول ؛ فأصدر السلطان أوامره إلى الصدر الأعظم بالتمركز فى قيصرية ، لحين صدور أوامر أخرى إليه .

أمر الغورى عساكره بالخروج قبله إلى الريدانية ، فخرجت أطلاب المماليك من القاهرة وكانت خمسة عشر طلبًا بعدد الأمراء المقدمين ومن بينهم ابن السلطان محمد ، فضلاً عن الفرق الإضافية التى ألحقت بالجيش ، وتلا ذلك طلب السلطان نفسه ومعه خزائنه مغطاة بأغشية من الحرير الأصفر محملة على ٥٠٠ جمل فيها الذهب والفضة وآلات السلاح . وخلال إقامة السلطان بوطاقه بالعباسية ، جاءته رسالة من خاير بك تنم عن الخديعة التى دبرها سليم العثمانى وعميله خاير بك ، فقد أوضح خاير بك أن قاصدًا جاءه من قبل السلطان العثمانى للتفاوض فى أمر الصلح ، ومع رسالة خاير بك كتاب من السلطان سليم كله ألفاظ رقيقة منمقة ففيه يقول سليم للغورى : « أنت والدى وأسألك الدعاء ، وإنى ما زحفت على بلاد علاء الدولة إلا بإذنك ، وكان قتله عين الصواب ، وأما التجار الذين يجلبون المماليك **الجراكسة** فإنى ما منعتهم وإنما هم تضرروا من معاملتكم (العملة أو النقود) فى الذهب والفضة ، فامتنعوا عن جلب المماليك إليكم ، وأن البلاد التى أخذتها من علاء الدولة أعيدها لكم ، وجميع ما ترونه ويريده السلطان فعلناه »[1] .

تحرك السلطان الغورى من مصر إلى الشام فى ١٥ ربيع الآخر سنة ٩٢٢هـ (١٨ مايو ١٥١٦م) وكان معه الخليفة والقضاة الأربعة ، بعد أن أناب عنه أثناء غيبته الأمير طومان باى . وصل السلطان المملوكى إلى دمشق فى ١٨ جمادى الأولى ٩٢٢هـ (١٩ يونية ١٥١٦م) ، وأخذ يستعد لمواجهة الجيوش العثمانية المرتقبة حيث لم ينخدع برسالة سليم . ثم وصل إلى

---

(١) إبراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك **الجراكسة** ، ص ١٧٧ الخرطوم ١٩٥٩ نقلاً عن : ابن إياس ، المرجع السابق ، ج ٣، ص ٣٠.

حلب فى ١٠ جمادى الثانية من نفس السنة (١١ يوليو ١٥١٦م) ، وهناك اعتدى جيش الممليك على الأهالى بوحشية « وكان ذلك سببًا - فيما بعد - لقيام أهل حلب مع السلطان سليم على **الچراكسة** ، لشدة ما حل بهم من الضرر منهم »[1] .

ولشدة ما حل بأهل حلب من جراء ما ارتكبته جيوش المماليك من منكرات ، أدرك قضاتها وأعيانها وأشرافها أن لا خلاص لهم إلا باللجوء إلى العثمانيين لينقذوهم مما حل بهم على يد المماليك . فأرسلوا إلى السلطان سليم عندما علموا بتحركه نحو حلب يعرضون الطاعة والولاء عن طيب خاطر ، ويطلبون الأمان على أرواحهم وأموالهم وأهلهم وعيالهم ، ويقولون : « إن تخليصنا من يد **الچراكسة** بمثابة خلاص لنا من يد الكفار » ويطمئنون سليمًا على ولائهم إذا دخل حلب ، ويتعهدون بأن يقفوا إلى جانبه إذا هاجم الغورى عينتاب . ويذكرون للسلطان العثمانى أن جنود المماليك طلبوا منهم القسى خشية أن تحدث خيانة من بينهم فلم يطع منهم واحد من كل ثلاثة منازل .

وهذه ترجمة عن التركية للرسالة التى أرسلها أبو البقاء شمس الدين جمال الدين نائبًا عن قضاة المذاهب الأربعة فى حلب وسبعة عشر من أعيانها وأشرافها :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى مولانا السلطان عز نصره :

قصة العبيد[2] أهل حلب ، العبد الفقير سيدى رمضان وسيدى إبراهيم ابنا صاروخان ، والعبد الفقير أبو البقاء بن الشحنة ؛ والعبد الفقير القاضى

---

(١) ابن زنبل : المرجع السابق ، ص ٢٢.

(٢) القصد من ذلك إظهار التواضع .

الشافعى ، والعبد الفقير شمس الدين الجلالى القاضى الحنفى ، والعبد الفقير القاضى جمال الدين يوسف الناذفى الحنبلى ، والقاضى محمد المالكى ؛ والعبد الفقير محمد بن بيرام ، والعبد الفقير على ابن عمه ، والعبد الفقير ابن شينى ، والعبد الفقير ابن قشان ، والعبد الفقير ابن حجه ، والعبد الفقير ابن رجب ، والعبد الفقير ابن صالح ، والعبد الفقير ابن صفاح ، والعبد الفقير ابن بوياجى ، والعبد الفقير ابن خل بك ، والعبد الفقير ابن صانى ، والعبد الفقير جمال الدين ، والعبد الفقير ابن نفسى ، والعبد الفقير ابن قصون ؛ وجميع الأكابر والأعيان والأشراف أهل حلب العبيد . كلهم طائعون مختارون مطيعون منقادون لمولانا السلطان عزه نصره .

كتبت هذه الورقة بإذنهم جميعًا ، وأرسلت إلى الحضرة العلية . طلب جميع عبيدكم فى حلب عهد الأمان من حضرتكم السلطانية . فأمن أرواحهم وأموالهم وأهلهم وعيالهم . لا تشغلوا بالكم بحلب . إن تتفضلوا أسلم لكم الجراكسة يا صاحب دولتى ، أو أتعهد بأن يقف جميع عبيدكم أهل حلب ضد حضرة السلطان [الغورى] عندما يهاجم عينتاب قبل مجىء التركمان[1] . إن تخليصنا من يد **الچراكسة** بمثابة خلاص لنا من يد الكفار .

ليكن معلومًا لدى سلطانى ما يلى : عدم تخطى الشريعة أصلاً ، فكل شيء يسرى على الخواص أيضًا . ولا يؤخذ ظلمًا من أى شخص ما يملكه من مال أو أهل أو عيال على الإطلاق ، فكل فرد سلطان .

طلبوا [جنود **الچراكسة**] منا القسى ، فلم يطع منا واحد من كل ثلاثة منازل . وكان السلطان [الغورى] على حق فى أن يظهر العداوة لنا ، حيث كان تفكيره العظيم فى ألا يسهل علينا الوقوع فى يد التركمان .

نهب أنفسنا للسلطان صاحب الدولة [سليم] فور مجيئه . وليأت الوزير

---

(١) المقصود بالتركمان هنا العثمانيون .

ليمنح أهلنا وعيالنا الأمان . أكرمونا . أرسلنا الرسول الذى تعتمدون عليه . عاد سرًّا ليجتمع معنا بهذا الخصوص . فلتمنحنا عهد الأمان لكى تطمئن قلوب هؤلاء الفقراء . وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين .

العبد القضاء

بحلب أبو البقاء

وشمس الدين جمال الدين[(١)] .

وفى يوم الخميس ٢٨ ربيع الآخر سنة ٩٢٢هـ أخذ سليم التدابير لمغادرة استانبول ، فقرر أن يكون أحب وزرائه الوزير الثالث پيرى محمد باشا نائبًا عنه فى عاصمة السلطنة العثمانية . وعين ابنه الأمير سليمان محافظًا على العرش (تخت محافظى) فى أدرنه ، والصدر الأعظم السابق هرسك زاده أحمد باشا محافظًا على العرش فى بروصه .

تحرك السلطان العثمانى من قصر طوپقپو سرايى فى ، يوم الخميس ٤ جمادى الأولى سنة ٩٢٢هـ (٥ يونيو ١٥١٦م) ، بعد تحرك الصدر الأعظم سنان باشا بثمانية وثلاثين يومًا ، وعبر البحر حيث مقر الجيش فى أسكدار[(٢)] . وفى هذه الأثناء تحرك الأسطول العثمانى إلى شواطىء الشام[(٣)] .

وقبل أن يتحرك سليم من قصره بيوم واحد أرسل فى يوم الأربعاء ٣ جمادى الأولى رسولين هما : ركن الدين بن زيرك قاضى عسكر الروملى وشمس الدين أحمد بن جعفر الشهير بقراجا باشا مرة أخرى ، برسالة إلى الغورى ردًّا على الرسالة السابقة التى أكد فيها الغورى على ما يزمع السلطان

---

(١) الوثيقة محفوظة فى أرشيف طوپقپو سرايى باستانبول ، تحت رقم ج. ١١٦٣٤ وصورتها ضمن لوحات هذا الكتاب برقم . ١٢

(٢) Yilmez Oztuna : op. cit. vol. 5 p33

(٣) Uzuncarsili : op. cit. vol.s p.283

العثمانى القيام به من غزو بلاده .

يقول سليم فى رسالته التى حملها رسولاه مع بعض التحف والهدايا التى كانت عبارة عن أوانى وأقمشة كثيرة : إن الطائفة الطاغية والفئة الباغية (القزلباش) التى اجتمعت فى البلاد الشرقية ، حصلت منها أذية للعباد وتخريب للبلاد وسفك للدماء المحصنة واستباحة للفروج المحرمة المحصنة . عاد كلهم أسوأ من الكفار مآلاً فى الضلالة والخسار . لأن غيرهم من الكفرة كثيرًا ما يؤمن ويذعن لشعائر الإسلام . والباقى على كفره يقنع ببقائه على دينه ، ولا يطمع فى إبطال الإسلام وتوهينه بخلاف هؤلاء الملاحدة . حيث كان داؤهم الإصرار على اعتقادهم الفاسد ، لا ينحرفون عن جادة خسرانهم لو قطعوهم إربًا إربًا ، جل همهم مصروف فى إبطال شعائر الدين .

فلا جرم تضاعفت الأجور فى غزوهم وجهادهم ، واتفقت ألسنة أقلام أرباب الفتوى واجتمعت أقوال أهل الزهد والتقوى ، فى وجوب غزوهم وقتالهم ، ونروم حسمهم واستئصالهم . ولقد كنا نزلنا فى السنة الماضية على رأس رئيسهم (إسماعيل الصفوى) ، لكنه نجا برأسه من حومة الوغى (فى معركة **چالديران**) ، وتشبث بيد الفرار : فلم نحسم فى البلاد مادة شرهم ولم يأمن الناس من بقية شرهم ، بل تدب عقاربهم إلى المسلمين . فلزم لهمتنا أن تثبت قدم الإقدام وتهتم بأمر الانتقام . فجهزنا لهذا المهم عسكرًا جرارًا ، ينقضون على الخصوم عند اللقاء والهجوم .

ويلتمس سليم من الغورى فى نهاية رسالته إمداده بصالح الدعوات فى أطيب الأوقات ، وإرسال الخبر إلى أهل الحرمين المعظمين المبجلين فى أمر السؤال بالتضرع والابتهال ، لإعلاء كلمة الله العليا وتنفيذ أحكام الشريعة الغراء . وقطع أيدى أهل البدع والهوى عن ذيل الإسلام وكشف ظلمة الظلم عن رءوس الأنام .

وهذا هو نص الرسالة بالعربية :

الحمد لله الذى جعل تحالف القلوب سببًا لنظام أمور الأنام . وفتح بمفاتيح حسن معاشرة الأحباب ، إغلاق مشكلات الهام . وجعل قلوب الأوداد جنودًا مجندة فى عالم الأرواح . وأعضادًا متآخية عند البروز فى مبارز القوالب والأشباح حتى ارتقى ذلك التودد إلى درجة الأخوة . وتسلق على ذروة البنوة والأبوة ليحصل بذلك التوافق فى قمع أعداء الدين . وقطع شرك الشرك عن حوزة التوحيد واليقين . وصير إرسال الرسل أسوة حسنة لحصول انتظام الأمور . وسنة مستحسنة لترفيه الجمهور . ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ . ﴿ ومن أصدق من الله قيلًا ﴾ .

والصلاة والسلام على محمد الهمام ، شفيع الأمة ، كاشف الغمة ، صاحب الشريعة البيضاء ، وقامع البدعة العوجاء ، الذى سن سنة الإخاء بين الأصحاب ، وأمرهم بالتودد والتحاب . وعلى آله الأبرار الخيرة ، وأصحابه الأخيار البررة ، ما حذر الحمام وهمر الغمام ، ولمع الآل ، وطلع الهلال .

وبعد ، فقد أصدرنا هذه المفاوضة الشريفة ، والملاطفة اللطيفة – التى سفر محاسن محاويها عن بشرة خلوص النية . وطلع عن مطالع مطاويها ، أحلة صفاء الطوية – إلى الحضرة العلية الزكية ، السنية الأكرمية ، الأعظمية الأورعية الغوثية ، كهف الظلومين ، ملاذ الملهوفين ، الذى حطت المعالى فى سدته رحالها ، وألقت لديه المكرمات عصيها وحبالها . وأنام الأنام فى أيامه بظل الأمان ، ورعى الرعية فى مرامى الرعاية والإحسان ، وبسط على بسيط مملكته بساط النشاط والسرور ، وألبس معاطف زمانه بحيرات المسرة والحبور . فصارت أيامه الكوامل تؤرخ بها السعادات ، ولياليه حوامل الأحبة المبرات . وهو حامى بيت الله الحرام ، والروضة المطهرة والمقدم ناصر الإسلام والمسلمين ، ظهير أمير المؤمنين . لا زالت دعائم سلطنته قائمة ، وعيون الحوادث عنها نايمة . وما برحت بساتين عزته مخضرة ، بديم الديمومة

والأبود . ورياحين دولته ريانة عليها طلاوة التأبد والخلود ، ما تمايلت قدود البان بتضعيف الأنهار ، واهتزت أعطاف الأغصان بأغاريد الأطيار ، وتوردت خدود الأرجوان بملاعبة النسيم ، وافترت ثنايا الأقحوان بملاطفة العنادل كالدر النظيم .

تهدى إليه سلامًا أذكى من فتات مسك فتيق ؛ عجن بعنبر سحيق ؛ وثناء أطيب من أصداع الريحان على وجنات النبات . وتبدى لعلمه الكريم ، أن التعارف الأزلى الكاين فيما بين الأرواح ، مما يستوجب التآلف فى عالم الأشباح . وكثيرًا ما بذلك التعارف يتعرج إلى أقصى بروج الإخلاص وأسمى رتب الخلوص . إلى أن يتبادل التواد بكمال الاتحاد ، فيحصل تناجى الضمائر وتخاطب السراير مع بعد الدار ، وشط المزار وتروح المكان ، وتزحزح الأوطان ، ولا تغيير لقرب المعنوى الضرورى بهذا البعد الصورى ، بل تمهيد مبانى ذلك الوداد .

ويتأكد معاقد هذا الاتحاد ، بواسطة البريد الواسطى المخبر عن السراير ، وسفارت السفر المسفر عن وجه خلوص الضماير ؛ وتردد الرسل والوفود لتجديد المواثيق والعهود .

ولا مرية فى أن أركان المودة بيننا شامخة محكمة ، وقواعد المحبة راسخة مبرمة ، بحيث لا تقبل التبديل والتغيير ولو بأيدى الحيل والتزوير . ومعاقد الاتحاد متأكدة لا تنتهى بمرور الأعصار والمدد ؛ ولا تختل ولو بنفاثات نفاثات العقد . وحياض قلوبنا صافية المشارب عن شوايب المكدورات . ورياض صدورنا حاليت الجوانب بأزهار خلوص النيات .

لكنه قد تموج تلك الحياض بتنسيم نسيم المراسلات . وتزيد تلك الرياض بهجة برياحين سطور المكاتبات . فلتحريات الود القديم وتشييد بنيان الحب القويم ، رسم المولى الأعظم ، والحبر الأفخم ، والبحر الخضم ، والطود الأشم – صدر الأفاضل ، ينبوع الفضايل ، الحايز من فنون المعارف على التليد

والطارف ، قاضى القضاة الموالى ركن الدين القاضى بالعسكر المنصور فى الروم ، حسنت وفادته ، وختم بالخير إعادته . وهو واحد أخصائنا فى العتبة العلية ، وأوحد علمائنا المقيمين فى السدة السنية - قاصدًا من مقامنا الشريف لمقركم المنيف . ومعه الأمير الكبير الأغرى ، ذو المجد والاحتشام ، والقدر والاحترام ، الأمير الأمجد شمس الدين أحمد ، رزقت سلامته . وهو أيضًا من جملة أمرائنا الكرام ، وزمرة كبرائنا الفخام . وحملناه من السلام ، المسكى الختام ، ما تضوع به جيب الصباح والمسا ، ومن التقاء الفايح الشذا ، ما عبوته أردان الشمال والصبا .

فالمرجو من شأنكم الكريم ، وكرمكم العميم ، إذا استسعد الرسل بشرف الوصول إلى بابكم الرفيع ، وجنابكم المنيع ، وشرع فى تبليغ ما تحمله من الرسالات وتسليم ما أودع فيه من الأمانات ، أن يشرفوه بحسن الالتفات إلى ما يلقيه ، وإصغاء السمع الشريف نحن جميع ما يحكيه ، وبيمن إجازة الانصراف بأخبار المصافات وأنباء المواخات .

ثم لا يخفى على علمكم الشريف ما تواتر من رواة الأخبار ، وحكاة الأسمار ، من أن آباءنا الكرام وأجدادنا العظام - أنار الله براهينهم ، ورفع فى بحبوحة الجنان أياديهم - كان دأبهم تشمير ذيل الفراغة عن ساق الاجتهاد ، فى أمور الغزو والجهاد ، وصرف الأعمار ، فى فتح بلاد الكفار ، وأخذ الدمار منهم بالآسار . وبذل المهج فى إعلاء أعلام الدين ، وتنكيس روس الكفرة المتمردين . إلى أن وقعت عنهم غزوات تضيق عن حسبانها بطون دفاتر الأنام ، وامتلأت بمحاسن قصصها كراريس الشهور والأعوام .

ونحن أيضًا وجدنا دأبهم مؤيدًا بنصوص الآيات القديمة ، وأدلة الأحاديث النبوية الكريمة . آثرنا أن نتلو تلوهم ، ونحذو حذوهم ، ونسير أثرهم ، ونجدد ذكرهم . لكنا اخترنا من بين الفرق الضالة للجهاد ، فرقة الملاحدة ﴿ الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد ﴾ . أعنى الطايفة الطاغية والفية الباغية التى

اجتمعت فى البلاد الشرقية . والتحق بها كل ذى نفس شقية ، والتجأ إليها كل من طغى ، ﴿ وآثر الحيوة الدنيا ﴾ فبغى . حتى كاد أن تنفصم عرى الإسلام فى تلك البلاد ، ويرتج بنيان اليقين بزلزلة سوء الاعتقاد ، فحصلت منهم أذية العباد وتخرب البلاد ، وسفك الدماء المحصنة واستباحة الفروج المحرمة المحصنة . وعاد كلهم أقبح حالاً من ساير الكفار ، وأسوأ منهم مآلاً فى الضلالة والخسار ، لأن غيرهم من الكفرة كثيرًا ما يومن ويذعن شعاير الإسلام ، ويؤمن والباقى على كفره يقنع ببقائه على دينه ، ولا يطمع فى إبطال الإسلام وتوهينه بخلاف هؤلاء الملاحدة . حيث كان دأبهم الإصرار على اعتقادهم الفاسد ، والتمادى فى رأيهم الكاسد ، لا ينحرفون عن جادة خسرانهم ، ومطيلة كفرهم وطغيانهم . لو قطعوهم إربًا إربًا ، وخربوهم خربًا خربًا ، جل همتهم مصروف فى إبطال شعاير الدين ، وترويج شبه المبطلين .

فلا جرم تضاعفت الأجور فى غزوتهم وجهادهم ، وتوافرت المثوبات فى طغيانهم وطرادهم . وقد تطابق العقل والنقل ، وتوافق آراء أولى العقد والحل . واتفقت ألسنة أقلام أرباب الفتوى ، واجتمعت أقوال أهل الزهد والتقوى ، فى وجوب غزوهم وقتالهم . ونروم حسمهم واستيصالهم ، فضلاً عن اللزوم بمقتضاه غيرة السلاطين وموجب عصبية أهل القوة والتمكين .

ولقد كنا فى السنة السابقة نزلنا على رأس رئيسهم[1] الذى كان بغاثًا ؛ فاستنسر ثم « أبى واستكبر » ، كالقضاء المبرم ، بجيش جرار عرمرم . فأقمنا بين يديه معركة لم تر مثلها عيون الخلق ، ولم تسمع نظيرها آذان ، وكلّت فى وصفها ألسنة الأسنة ، وأحست بها فى الأرحام الأخبة . فذاق منا بعون الله لطمة أمرت بها قواه ، ووهنت من إقباله عراه ، وأيقظته من غفوة الغرور ونومة الحضور . لكنه لما نجا برأسه من حومة الوغا ، راجى المناص وتشبث بيد الفرار ذيل الخلاص ، لم نحسم فى البلاد مادة شرهم ، ولم يأمن الناس من بوايق

---

(١) إسماعيل الصفوى .

مكرهم ، بل تدب عقاربهم إلى المسلمين آنًا فآنًا ، وتنهش أفاعى شرورهم نفوس الموحدين زمانًا زمانًا فلزم لهمتنا - التى تطأ أقدامها فرق الفرقدين وقمة الشعريين - أن تثبت قدم الإقدام ، ونهتم فى أمر الانتقام ، مستمسكين بحبل الانفصام من الله العزيز العلام .

فجهزنا لهذا المهم عسكرًا جرارًا وجحفلاً كرارًا ، من تراس حراس باسلين ، ولجهم فى سبيل الله باذلين ، متدرعين بدروع ضافيات على خيول صافنات ، تسابق السيول ، وتستردف الجنوب والشمول ، ينقضون على الخصوم عند اللقاء والهجوم ، انقضاض الصقور على سرب العصفور . وصولون عليهم صولة الذئب المقدام ، على ثلة الأغنام ، ورجال بسهام تستخدم الآجال ، وتردم سباق الخيال ، ويمطرون على القد والصواعق عند رمى البنادق . وأمرناهم بالسير على سبيل التواتر والتوالى والتتابع والتتالى ، وبعض آثارهم وشق غبارهم ليدركوهم إدراك الأجل الموعود ، ناشرين بالأعلام والنبود ، ويستقبلوهم بماضى الحراب ، ويحكموا السيوف فى أقضية الرقاب . ويجعلوا نقط الروس لخطوط رماحهم الخطية ، نهايات أو ثمرات ترسم على الأعقاب ، ولا يذروا « على الأرض من الكافرين ديارًا » لأنهم إن يذروهم يضلوا العباد « ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا » .

فغاية ملتمسنا من حضرتكم العلية ؛ إمدادنا بصالح دعواتكم فى أطايب أوقاتكم ، وإرسال الخبر إلى أهل الحرمين المعظمين المبجلين المكرمين ، من كل طايف وزاير ، ومقيم ومجاور ، فى أمر السؤال بالتضرع والابتهال ، من جانب الحق الجواد المطلق ، لإعلاء « كلمة الله هى العليا » ، وتنفيذ أحكام الشريعة الغرا ، وقطع أيدى أهل البدع والأهوا ، عن ذيل الإسلام ، وكشف ظلمة الظلم عن رءوس الأنام إلى قيام الساعة وساعة القيام .

ولقد جهزنا على يد المقاصد المومى إليه ، لتنمية غرس المودة ؛ ونظيرته ريحان المحبة من التحف والهدايا . فالمأمول من جناب العالى كونها مشمولة

بشمول القبول .

والله تعالى يديمكم لآصلاح البلاد وتسلية العباد ويرزقكم عمرًا يستوعب مراتب الأعداد ، ويختتم بيوم التناد بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى . والحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده ، وعلى آله الكرام وأصحابه العظام . حسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير(١) .

كان سليم يريد الاستيلاء على السلطنة المملوكية حقيقة ، وما كان يريد أن يحارب القزلباش كما ذكر . وإن ما قاله السلطان العثمانى فى رسالته السابقة ليطمئن به الغورى ، كان لمجرد التمويه عليه ، ولزيادة التمويه أرسل إليه تحفًا وهدايا مع الرسالة ، كما التمس منه فى نهايتها الدعوات الصالحة له ، لئلا يأخذ حذره ويستعد الاستعداد الملائم لمعركة قد تكون فاصلة . وقد آثر سليم هذه الطريقة ، لأنه كان يخشى المماليك وقوتهم ، ويحسب حساب ذلك . فلا تزال فى ذاكرته انتصاراتهم المتكررة على العثمانيين أيام آبائه وأجداده ، على الرغم من تغير ميزان القوى فى المنطقة لصالح العثمانيين بعد معركة **چالديران** وهزيمة الصفوى وفراره .

أخذ السلطان العثمانى ينتقل من مكان إلى آخر فوصل فى يوم السبت ٦ من جمادى الأولى سنة ٩٢٢هـ (٧ يونية ١٥١٦م) إلى مالتپه ، وفى اليوم التالى وصل إلى مراعى تكور ، وفى يوم الإثنين بلغ ككيويزه ، وفى يوم الثلاثاء وصل إلى هركه ، وفى اليوم التالى بلغ **چنارلو** ؛ وفى يوم الخميس ١١ منه وصل إلى جسر ستاره .

ولما وصل السلطان إلى قازقلو فى يوم الجمعة ١٢ منه ، جاء إليه **اسپناقجى**

---

(١) جلال زاده قوجه نشانجى مصطفى : مآثر سليم خانى طاب ثراه ، مخطوط بمكتبة طوپقپو سرايى ؛ تحت رقم H. 1415؛ ورقة ١٢٥ ا - ١٢٧ ب .

عاش هذا المؤلف شبابه أيام الفتح العثمانى للشام ومصر ، ودون مخطوطه هذا فى عد سليمان القانونى .

ابن چاوش بأسير من الديار الشرقية ، كما عاد جاسوس تركى كان موفدًا للتجسس على العرب وأخبر عن تجمع فرق من الجيش المملوكى . وفى اليوم التالى وصلت جيوش السلطان إلى دكلو طاش التى تقع فى مقابل أزنيق ، وفى يوم الأحد وصلت إلى بكْيشهر ، ثم آق بيق فى اليوم التالى ، وفى يوم الثلاثاء ١٦ منه بلغت زيجيرلى قپو . وفى هذه الأثناء استقرت الجنود المصاحبة للصدر الأعظم سنان باشا فى ألبستان انتظارًا لوصول السلطان العثمانى . وفى يوم الأربعاء ١٧ منه وصل سليم إلى ابن اوكْى ، وفى يوم الخميس١٨ منه بلغ قزبل قيا(١) .

وفى نفس اليوم وصل الغورى إلى دمشق . وفى يوم الجمعة ١٩ منه وصل السلطان العثمانى إلى بادية كوتاهيه .

أراد سليم وهو فى طريقه إلى حدود الشام أن يتعرف على تركات الغورى ، ومدى استعداده للقائه ، ونواياه السابقة على الصدام المرتقب ، ومدى احتمال قيامه بالعدوان على القلاع المجاورة للدولة المملوكية لنقل ميدان المعركة خارج حدود المماليك ومباغتة السلطان العثمانى قبل أن يكمل ترتيب صفوف جيوشه . فأرسل رسالة إلى حاكم الرها (اورفه) پيرى بن بلطه يستفسر عن مصير الجواسيس الذين أمره بإرسالهم للتجسس على المماليك ويسأله عن الأخبار التى وصلت إليه ، ويطلب منه أن يرسل أحدهم إلى حلب لجمع المعلومات عن ماهية الأوضاع هناك ليفضى بها بعد عودته إلى السلطان سليم .

وهذه ترجمة للرسالة عن التركية :

جناب حضرة سلطانى نائل السعادة والمنى ، أيد الله تعالى قواعد سلطنته إلى يوم الحساب .

---

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٦٢٩ ب - ١٦٤١ .
روزنامه حيدر چلبى ؛ ورقة ١٣٥ ا - ١٤١ ب

يمرغ الوجه فى التراب ، ويعرض العبودية بطيب خاطر على عتبة الملك ، وينهى إليكم ما يلى : فى ذلك الوقت الذى ورد فيه كتاب شريف واجب الطاعة من سعادة سلطانى – فى مضمونه الميمون الأمر بإرسال الرجل الذى يصل من الشام فى أقرب وقت ممكن لكى يفضى بما عنده من خبر ، وإرسال شخص آخر إلى حلب أيضًا ليخبر عن ماهية الأوضاع هناك – أصبح كل ما أدلى به معلومًا لدينا ومفهومًا .

وأخبار هذه النواحى هى : أن رجلاً على سبيل رسول من قبل حاكم البيرة[1] جاء لعبدكم ، وصدق على الأخبار التى وردت عن مجىء سلطان مصر إلى دمشق ، وقرر أنه سيذهب إلى عكا . ومنذ ذلك اليوم الذى أتى فيه ذلك القاصد المذكور إلينا ثم ذهب والأخبار كما يلى : إن الرسول الذى أرسله حضرتكم العالية إلى سلطان مصر[2] لم يسمح له بمقابلة السلطان بسرعة ، فقد استوقف فى حلب بحجة أن السلطان [الغورى] قادم .

جاء إلى عبدكم أيضًا رجل كردى يدعى الشيخ أحمد من قبل حاكم البيره ، .. وحلف اليمين سرًا ثم قال : « أن الجماعة التى فى قلعة روها لا يريدون الانفصال عن الحكم العثمانى . وأن القزلباش سيعاونون السلطان المملوكى فى الاستيلاء على القلعة[3] . ويعتقد أهالى هذه القلعة أن السلطان المملوكى سيأتى إلى حلب . ثم يبعث برجل إلى القلعة . وفى هذه الحالة يسلمونها له » ويجيب الشيخ أحمد على ذلك قائلاً : « إنى أرى – فى هذه الحالة – أنه من الواجب القبض على الرجل بسرعة واحتجازه فى القلعة » .

(١) البيره أو بيره جك : مدينة بالقرب من حدود سوريا تقع بين عينتاب والرها « الرها وحديثًا اورفه » .

(٢) ربما يقصد ركن الدين بن ريرك وقراجا باشا اللذين مر ذكرهما فى ص ١٣٦ – ١٣٧.

(٣) تلقى هذه الجملة الضوء على الشائعات التى ترددت عن تحالف الغورى مع إسماعيل الصفوى ، والتى أكد صحتها ابن إياس فى ص ١١٩ من هذا الكتاب . كما أشار ابن الحنبلى إلى أن الشاه إسماعيل أرسل إلى الغورى رسولاً . [ابن الحنبلى (ت ٩٧١هـ) : در الحبب فى تاريخ أعين حلب ، الجزء الثانى من الجزء الأول (تحقيق محمود الفاحورى) ، ص ٢٣٣، ٢٣٤ دمشق ١٩٧٣] .

أرسلت إلى عتبتكم السعيدة الشيخ أحمد المذكور . كما أرسلت إلى حلب عدة رجال ثقاة للتأكد من صحة هذه الأخبار ، ولم يأت أحد منهم حتى الآن . إذا جاء أحد منهم بمشيئة الله سأرسله إليكم ، لكى يفضى بما عنده من أخبار . ولن أتوقف عن إرسال مثل هؤلاء الرجال باستمرار كما أمرتم .

باق الفرمان معلق على باب جنابكم .

العبد الفقير

پيرى الحقير[1] .

واصل سليم سيره فبلغ آلتون تاش فى يوم السبت ٢٠ جمادى الأولى سنة ٩٢٢هـ ، وفى اليوم التالى وصل إلى قرية ايرت ، ثم وصل إلى قره حصار صاحب ، وفى يوم الثلاثاء بلغ قورى جاى ، وفى يوم الخميس ٢٥ منه وصل إلى آقشهر ، ثم بلغ ارقت فى اليوم التالى ، وفى يوم السبت ٢٧ منه وصل إلى ايلغون ، ثم وصل إلى زنكى وبلغ قونيه فى يوم الثلاثاء ٣٠ منه[2] .

مكث السلطان العثمانى أربعة أيام فى قونيه ، زار خلالها قبر مولانا جلال الدين الرومى ، ثم أرسل إلى الغورى رده على الرسالة التى كان قد أرسلها إليه مع جمال الدين يوسف القيطان فى العام الماضى ٩٢١هـ ومعها فيل هدية .

يخاطب سليم الأول الغورى فى رده إليه الذى حمله القيطان ، قائلاً : « حامى الحرمين المكرمين المبجلين المعظمين نصير الإسلام والمسلمين ظهير أمير المؤمنين أبوى سلطان غورى أعز الله تعالى أنصاره ... نبدى لعلمه الوريف أن كتابه الشريف ورد على يد الصدر الأجل جمال الدين يوسف القيطان ، فأطلعنا على ما فيه من سؤال المطالب ، فبادرنا قبولها وسارعنا حصولها .

(١) الوثيقة محفوظة فى أرشيف طوپقپو سرايى ، تحت رقم E. 8552

(٢) أحمد فريدون : المرجع السابق ٦٢٩ ب - ٦٤١ ا .

روزنامه حيدر چلبى ورقة ١٣٥ ا - ١٤١ ب .

صدرت أوامرنا العالية للخشب الباقية من السنة الماضية التى لم يسع حملها جفانكم أن يقبض كلها قيطانكم . وأما بخصوص صناع الخشب ، فاحتجب هذا المطلب لعذر قوى ، وهو أن آرائنا الصائبة اقتضت أن نعمر مائة مركب كبير لتخريب بيوت من قالوا « اتخذ الله ولدا » وإبراز التوحيد على التثليث . وكان أهل المواضع التى تقطع منها الأخشاب وخلق الأراضى التى تؤخذ منها الجذوع لتهيئة الأسباب موسومين بإحضار حوايج الفلك المأمور ، فلا يستطيعون مباشرة غير تلك الأمور .

والمقام العالى ينبغى ألا يحمل ذلك على التقصير والفتور وغور ماء الحب الموفور وخمود جمر الود المبرور .

وأما ما أشرتم إليه من أن صاحب البلاد الهندية أرسل إلى جنابكم العالى على طريقة الهدية أربعة أفيال فما وصل منها إلا إثنان إلى أبوابكم العلية ، فقسمتم كما يقسم الأخوان المتحابان وجهزتم واحدًا منها نحو سدتنا السنية ، فصادفت محل الارتضاء والقبول » .

وهذا هو نص الرسالة بالعربية :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى سد ثغرة الإسلام بسطوتنا السديدة ، وشد أزر الأنام بقوتنا الشديدة . فتوجه وفود الاقتراح نحو مقامنا الكريم لفوز النجاح من كل فج عميق . وجعلنا خلف الماضين ، وشرف الباقين . ومنحنا قدوة وافية بإنجاح مناجح المؤمنين ، وإصلاح مصالح المسلمين ، ووفقنا بهذه الكرامة الكافية إنه ولى التوفيق . والصلاة على رسوله الأمى والنبى الهاشمى محمد ، مثل شرعه القويم مثل سفينة نوح ، من ركب فيها نجا ومن تخلف عنها غرق ، وهو الأمين الصديق الشفيع المشفع الشفيق . وعلى آله وأصحابه الذين أجرين سفاين نفوسهم الطاهرة ، برخاء هدايته الباهرة ، من سواحل التقليد ، إلى لجة

التحقيق .

وبعد ، فإنا أصدرنا هذه المفاوضة اللطيفة ، إلى الحضرة العلية الأعلمية ، الأعملية الأكفلية ، الأكملية الأعدلية ، الأورعية الأكرمية ، الأفخمية الأعظمية ، العونية الغوثية وهو الذى جمع المحاسن كلها ، وجرت عليه المفاخر ذيلها ، وألقت لديه المعالى مقاليدها ، وأرجعت إليه أخبار المكارم أسانيدها . حامى الحرمين المكرمين المبجلين المعظمين ، نصير الإسلام والمسلمين ، ظهير أمير المؤمنين ، أبوى سلطان غورى ، أعز الله تعالى أنصاره ، وضاعف اقتداره ، ولا زالت الأيام مطابقة لهواه ، والأقدار موافقة لرضاه ، وساعاته مقرونة بالسرور ، وأوقاته مضمونة بالحبور ، وأحواله ترابط بالحسنى ، وأفعاله تقارن باليمنى ، وما برح وليه فى ظهور وغلب ، وعدوه فى ثبور وعطب ، ماكر الأجدان واتفق الفرقدان ، وضاء القمران ولاح الدبران ، وقرت الأرض قراها ، وألفت الأفلاك مدارها . تهدى إليه سلامًا يتموج قمقام الألفة الأزلية بنسماته ، وتقر أغربة الأفئدة فى مرسى الخلوص بمرساته . وثناء لو ورد البحر الأجاج لأصبح عذبًا فراتًا ، وصادف العظام البالية لأحياها بعد أن كانت رفاتًا .

وتبدى لعلمه الوريف ، أن كتابه الشريف - كأن صفحته سفينة الدرر ، وسطوره حبايل الطرر على الغرر ، على يد الصدر الأجل المحترم ، المقرب المؤتمن المكرم ، جمال الدين يوسف القيطان ، رزقت سلامته - وصل إلينا وفتح لدينا ، وتلا ما تضمنه بين يدينا .

فأطلعنا على ما فيه من سؤل المطالب وطلب المباغى والمأرب ، فبادرنا قبولها وسارعنا حصولها على قدر ما قدر الله ويسر ، وهيأ له الأسباب فيما تيسر ، فإن جرى الأمور تابع للتقدير ، ومفاتيح أغلاقها رهينة بيد التيسير ، وكيف لا نهتم بها فإن المساعفة فى إتمام المهام من محاسن الشيم ، والمسارعة إلى قضاء الوطر من مواجب الكرم . ومن شيمنا المشهورة وخصايصنا المأثورة ،

إفاضة ما يؤمل وإجازة ما يسئل .

فصدرت أوامرنا العالية للخشب الباقية من السنة الماضية ، التى لم يسع حملها جفانكم أن يقيض كلها قيطانكم . وأما خصوص صنيعة الخشب ، فاحتجب هذا المطلب لسبب سنى مهم المبانى والأصول ، وعذر قوى والعذر عند كرام الناس مقبول ، وهو أن آرائنا الصائبة اقتضت قبل هذا أن نعمر مائة مراكب كبيرة لا صغيرة ، تذب سواريها وتناطح مناكب الجوزاء مناكبها . فأمرنا أن تكمل عددًا وعددًا ، لتخريب بيوت من قال « اتخذ الله ولدا » ، وإبراز التوحيد على التثليث ، وإنهاض الطيب لإدحاض الخبيث . ونرجو من الله تعالى أن يتم بالخير ، فنجهزها برجال أكفهم قوابض القرضاب ، ونجعلها مضايا ممتلئة بذياب شغاب وأسود غضاب ، وترفض بحجارة مسومة شبحها ، وتنقض على شياطين الكفر شهبها . وكان أهل المواضع التى يقطع منها الأخشاب ، وخلق الأراضى التى تؤخذ منها الجذوع لتهيئة الأسباب ، مسومين بإحضار حوايج الفلك المأمور ، فلا يستطيعون مباشرة غير تلك الأمور .

فالمقام العالى ينبغى أن لايحمل ذلك على التقصير والفتور ، وغور ماء الحب الموفور ، وخمود جمر الود المبرور ، إذ ليس بغايب على علومه الكريمة ولا غارب ، أن المرحوم المغفور حامد ، كلما جاء العتبة العلية العثمانية فى أيام دولة السلطان الأعظم السعيد الماجد ، أنار الله برهانه ، راغبًا فى بغيته وطالبًا نيل حاجته ، عاد بنجح طلبته وبلوغ همته ولقاء أمنيته ، وحصول منيته ، بناء على المحبة المنشعبة من تعارف الأرواح ، والمودة المنبعثة من الألفة الثابتة قبل تشاهد الأشباح . ونحن نريد أن يزيد لهذه المحبة الموروثة والمودة المبثوثة انتشار جناح ، وامتداد غرر وأوضاح . وليس فى خواطرنا الشريفة إلا الاستمرار على جادتها ، والاستكثار من مادتها . فلا يهمل فيما تيسر ، ولا يمهل إلا فيما تعذر . والطلبات الباقيات اقترنت بالنجاح والإسعاف فى كلها ترتب على الاقتراح ، وأحكامنا النافذة وردت على الحكام ومباشرى الأعمال ، لفرط الاهتمام بحولها على أتم وجه وأحسن حال .

وأما ما أشرتم إليه أن صاحب البلاد الهندية أرسل إلى جنابكم العالى على طريقة الهدية أربعة أفيال ذوى جثث ضخيم ، فما وصل منها إلا الاثنان إلى أبوابكم العلية ، فقسمتم كما يقسم الأخوان المتحابات وجهزتم واحدًا منهما نحو سدتنا السنية ، فصادفت محل الارتضاء والقبول ، ترهب النواظر فى خلقتها العجيبة عند الوصول ، فكبرنا الخلاق ذو القوة المتين ، كيف درأه وبرأه ، وفطره وقدره ، وخلقه وعدله ، فسواه وأنشأه وصوره وأحياه « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

والآن أعدنا القيطان المومى إليه مصحوبًا بالسلامة ، محفوفًا بالكرامة . وآتينا هذه الكتاب بيمينه لينقلب مسرورًا ، وأفضنا عليه خلع الإحسان والإنعام ، فكان سعيه مشكورًا . فحملناه لمكانكم العالى من السلام ، ما هو أزكى من عرف الورد ونشر الخزام .

والله تعالى يخصكم من نعمائه الجليلة وآلائه الجزيلة ، بالقسم الأجزل الأوفى والسهم الأكمل الأكفى ، بأسمائه الحسنى وصفاته العلا ، ويمد ظلالكم ويؤيد إقبالكم ويمهد جلالكم ويؤتى سؤلكم ، ويزيد فضلكم بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى . تحريرًا فى أوائل جمادى الآخرة الشريفة سنة اثنى وعشرين وتسعمائة .

بيورت قونيه(١)

رد الغورى على رسالة سليم ، قائلاً : « وردت رسالتكم واطلعنا على ما فيها من التحية والسلام ، فوجدنا مضمونها منبئًا عن توجهكم العالى إلى البلاد الشرقية لدفع الملاحدة القزلباشية ، فشاورنا أمراء ديواننا فى القاهرة فاتفقوا بالآراء الصائبة على أن نتوجه إلى تلك الحدود بالعساكر والجنود لنصلح بينكم . فعزمنا بالمسير والراحلة نحو الحلب والشام . فالمرجو من خصالكم

---

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٥٨٨ ب . ٥٩٠ ب .

الحميدة ألا تسارعوا إلى التوجه إلى تلك الولاية لأن أكثر أهلها أهل السنة والجماعة وأغلبهم خيار علماء هذه الأمة . وقد سمعنا من أكثر الواردين من هذه الديار إلى الحرمين الشريفين أن إسماعيل [الصفوى] المخذول لما هرب عن محاربتكم الشديدة قرر بنفسه اللئيمة ألا يتقابل معكم قط . فإذن لا تظهر الفائدة فى توجهكم إلى دفع حيله غير مضرة الرعايا .

والمناسب لنا أن نصلح بينكم لرفاهية الأنام ، على أن لكم مهمات كثيرة غير هذه مثل فتح رودس وأمثالها . وقد أرسلنا قدوة الأماجد محمد البيغا إلى سدتكم السنية لتمهيد أسباب المصالحة » .

وهذا هو نص الرد بالعربية :

مد الله تعالى ظلال سعادة الأميرى الكبيرى ، الأكملى الأشرفى ، الأعظمى الأكرمى ، الأمجدى الأوحدى ، العونى الغوثى ، الممهدى الممجدى ، عون الإسلام والمسلمين ، عضد الغزاة والمجاهدين ، قهرمان الماء والطين ، الذى جعل أموره كاسمه سليما ، وأعد لأعدائه عذابًا أليمًا إلى يوم الدين . بحق محمد وآله وصحبه أجمعين .

وبعد ، فقد ورد مفاوضتكم الغرا ومخاطبتكم البيضا ، من يد رسولنا قدوة الأكارم والأعيان يوسف القيطان ، فى أشرف الزمان وألطف الأوان . مشحونة باللطف والإحسان ، ومقرونة بأنواع البلاغة ومحاسن التبيان . فابتهجنا من ورودها وفرحنا عن صدورها .

فقلنا لها أهلاً وسهلاً ومرحبًا بخير كتاب جاء من خير مرسل

فطالعناها بالإعزاز التام واطلعنا على ما فيها من التحية والسلام . فوجدنا مضمونها منبئًا عن توجهكم العالى إلى البلاد الشرقية ودفع الملاحدة القزلباشي.

فشاورنا أمراء ديواننا فى القاهرة ، فاتفقوا بالآراء الصايبة والأفكار الثاقبة ، على أن نتوجه إلى تلك الحدود بالعساكر والجنود لأن نصلح بينكم . كيف لا

وقد قال الله تبارك وتعالى فى كتابه العظيم إلى رسوله الكريم ﴿ والصلح خير ﴾ ، فإن فيه منافع كثيرة : منها دفع الفتن والفساد ، وعمارة النواحى والبلاد ، واستراحة العساكر والعباد العباد ، فعزمنا بالمسير والراحلة نحو الحلب والشام ، حماهما الله تعالى عن الآفات والآلام ، مع ساير بلاد الإسلام .

فالمرجو من خصالكم الحميدة وألطافكم العميمة ، أن لا تسارعوا فى التوجه إلى تلك الولاية لأن أكثر أهلها أهل السنة والجماعة وأغلبهم خيار علماء هذه الأمة . وقد طرى عليهم حوادث كثيرة فى الأزمنة السابقة ، مثل ظهور الأولاد الجنكيزية والتيمورية الملعونية ، وطوايف الملاحدة السابقة ، وغى ذلك من الأحزاب الظلمة . وهذا القوم من أفراد تلك الأحزاب ، لعنهم الله إلى يوم السؤال والجواب ، وسمعنا من أكثر الواردين عن هذه الديار إلى الحرمين الشريفين . زادهما الله شرفًا وتعظيمًا . أن إسمعيل المخدول ، لما هرب عن محاربتكم الشديدة . قرر بنفسه اللئيمة أن لايقابل معكم قطعًا ؛ بل يسير بشمله المتفرقة كقطاع الطريق فى البوادى والجبال ، ويعمل بكم كما عمل حسن الطويل مع أبى سعيد كوركان[1] . والله لا يجعل فى رأيه وعمره وأمره خيرًا ولا بركة . فإذًا لا تظهر الفائدة فى توجهكم إلى دفع هذه الحيل غير مضرة الرعايا وتلف أموالهم وأنفسهم حيث قال عز من قائل : ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ . والحمد لله تعالى قد شربوا سموم أفاعى سيوفكم مرارًا ، وهربوا عن قتالكم ليلاً ونهارًا ، وأخذتم أكثر

(١) أبو سعيد كوركان : هو سلطان ميرزا بن محمد ميران شاه بن تيمور بك ، سلطان مغولى (و ٨٣٠هـ ، ١٤٢٧م) وقتل عام ٨٧٣هـ (١٤٦٩م) .

فى عام ٨٧١هـ (١٤٦٦-١٤٦٧م) قتل حهانشاه زعيم طائفة التركمان المسماة القطيع الأسود فى حربه مع أوزون حسن زعيم القطيع الأبيض ، فطلب ولده من أبى سعيد أن يمده بمعونته ليثأر لأبيه ، فسار أبو سعيد عام (٨٧٢هـ) قاصدًا قراباغ التى كانت المقر الصيفى المأثور لأورون حسن ، وفى طريقه إلى هذه المدينة خوطب فى أمر الصلح مرارًا ، ولكنه لم يحفل بذلك ، واستمر فى سيره إلى أن وصل أرضًا يعرفها أوزون حسن معرفة سهلت عليه قطع المؤونة عن جيش أبى سعيد ، فأصابته المجاعة وفر الجنود طلبًا للنجاة بأنفسهم ، كما فر أبو سعيد نفسه فى نفر من أتباعه ، فأسره أبناء أوزون حسن وحملوه إلى معسكر التركمان حيث قتل .

[دائرة المعارف الإسلامية ، م ١، ص ٤٩٢] .

بلادهم وقلاعهم ، وخربتم أشرف دؤرهم وبقاعهم ، فتهتك عرضهم وخرج من أيديهم حصونهم وأرضهم ، وما بقى فيهم من الشجاعة أثر ، ولا الرؤية فى البصر . ونحن اليوم من خدام الحرمين المكرمين ونظار الصفا والمروتين .

فالمناسب لنا أن نصلح بينكم لرفاهية الأنام ، على أن لكم مهمات كثيرة غير هذه ، مثل فتح رودس وأمثالها . حتى سمعنا أنكم هيأتم مائة سفاين كالجوار المنشئات فى البحر بالعز والنصر لأمر الغزاة . فالعزيمة إلى تسخير تلك القلعة الشديدة أوجب منها وأهم ، والله تعالى أعلم وأحكم .

وأرسلنا قدوة الأماجد محمد البيغا ، رزقت سلامته إلى سدتكم السنية لتمهيد أسباب المصالحة . فالمتضرع منكم الإصغاء بالقبول ، فهو أقصى المأمول ، والسلام والإكرام[١] .

يبدأ سليم الرسالة السابقة باستعراض لقوته وتسخيرها فى سبيل الله ونصرة دينه على غير العادة فى الرسائل التى سبقتها ، عدا واحدة بدأها بالبشرى التى استخرجها ابن كمال من كتاب الله الكريم متفائلاً ومفاخرًا بأنه من الأخيار وصالحى عباده[٢] .

وهذه الرسالة تعتبر رسالة تمويه وتضليل كالرسالة السابقة عليها ، فلهجتها رقيقة يصف فيها السلطان العثمانى الغورى بأنه أب له كالعادة . ويخبره بأنه سارع إلى قبول طلبه الخاص بالخشب على قدر ما قدر الله ويسر . ويعتذر له بعذر قوى – « والعذر عند كرام الناس مقبول » – عن إرسال صناع الخشب إليه ، لأنه يبنى مراكب كبيرة لتخريب بيوت الكفار . ويشكر سليم الغورى على الفيل الذى أرسله إليه هدية ، ويصفه بالأخ لأنه أرسل واحدًا من اثنين كان ملك الهند قد أرسلهما إليه على سبيل الهدية ، فقسم كما يقسم الأخوان

---

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٥٩٠ ب – ٥٩٢ ا .

(٢) راجع ص ١٢٣.

المتحابان .

أرسل سليم هذه الرسالة إلى الغورى من مدينة « قونية » بعد أن تأكد له أن السلطان المملوكى لن يشك فى نواياه نحوه ، حيث إن السلطان العثمانى مر بنفس المكان وهو فى طريقه إلى بلاد فارس منذ عامين تقريبًا لقتال إسماعيل الصفوى ، ولا يمكن الجزم من هذا المكان بالاتجاه الذى يريد السلطان العثمانى أن يسلكه . هل يريد التوجه إلى الغورى أم إلى الصفوى ؟!

ومن المحتمل أن يكون تأخر سليم فى رده على الغورى - حيث كان خطاب الغورى إليه منذ ثمانية أشهر - مقصودًا ، لتأخير إرسال الأخشاب التى طلبت لكى لا تبنى بها سفن على عجل وتستعمل ضد العثمانيين إن هم شنوا على المماليك حربًا .

بعد أن تحرك سليم لمحاربة الفرس بوقت قصير ، أرسل للشاه إسماعيل الصفوى أربع رسائل متوالية ، كانت كلها عبارة عن تهديد له ووعيد بيوم اللقاء . وقد اختلفت هذه الرسائل كثيرًا فى لهجة التهديد التى أخذت تزداد حدتها كلما اقترب يوم الصدام بين الطرفين . وعلى هذا لم يُباغَت الشاه إسماعيل أو يفاجأ أو يتشكك فى نوايا ابن عثمان .

وعندما أراد السلطان العثمانى التوجه لمحاربة الغورى نشر الأخبار الكاذبة عن وجهته الحقيقية مدعيًا أنه عازم على محاربة الفرس ، كما أرسل إلى الغورى رسائل مليئة بالألفاظ المعسولة مصحوبة بالتحف والهدايا ، للتمويه عليه وتضليله والتأكيد له على عزمه على التوجه إلى البلاد الشرقية لمحاربة القزلباش .

رد الغورى على رسالة سليم برسالة تدل على مكر شديد وعدم انخداع بالتمويه الذى قام به السلطان العثمانى . فذكر له أنه شاور أمراء ديوانه فى القاهرة بخصوص ما جاء فى رسالة سليم الأول ، علمًا بأنه كان فى ذلك الوقت فى الشام وليس فى مصر يعد العدة ويرتب الصفوف للقاء مرتقب مع

جيوش العثمانيين . أخبر السلطان المملوكي سلطان العثمانيين بأن آراء الأمراء اقتضت التوجه بالعساكر إلى الشام وحلب لكي يصلح بين العثمانيين والصفويين لرفاهية الأنام . ولا شك أن الغوري قصد من هذا أن يموه هو أيضًا على سليم ، ولا يخبره بنواياه الدفاعية عن بلاده واستعداداته لاحتمال نشوب الحرب بينهما ، فما لزوم العساكر إذا كان قصد الغوري العمل على عقد صلح بين سليم والصفوي ؟! أوهم السلطان المملوكي سلطان العثمانيين في رده بأنه صدق ما جاء في رسالته إليه من أنه ينوي محاربة الفرس لا المماليك حيث قال : « وردت رسالتكم واطلعنا على ما فيها من التحية والسلام ، فوجدنا مضمونها منبئًا عن توجهكم العالي إلى البلاد الشرقية ودفع الملاحدة القزلباشية » . ويزيد الغوري في إيهام سليم ، فيقول له : « أرسلنا قدوة الأماجد محمد البيغا ، رزقت سلامته إلى سدتكم السنية ، لتمهيد أسباب المصالحة ، فالمتضرع منكم الإصغاء بالقبول ، فهو أقصى المأمول » .

وأثناء تحرك السلطان العثماني في الأناضول أحس بأهمية المناطق المتاخمة للدولة المملوكية من ناحية إمارة بني رمضان ، فأرسل فرمانًا إلى محمود بك حاكم الإمارة لكي يتخذ التدابير اللازمة على وجه السرعة لتحصين قلاع **چقور أوه** – القريبة من الحدود المملوكية الشمالية – بالجنود والعتاد .

وهذه ترجمة للفرمان عن التركية :

صورة الحكم الذي كتب إلى محمود بك :

كنت قد أرسلت إليك من قبل حكمًا شريفًا لإرسال ذخيرة إلى قلاع **چقور أوه** . فأرسلت إلي ردًا تخبرني فيه بعلمك . أما والحالة هذه فإن هذه القلاع بحاجة ماسة إلى الذخيرة ، ويعتمد عليك في هذا الشأن . ولهذا السبب صدر أمري الخاص بذلك ، وعليك أن ترسل تلك الذخيرة بعناية الله . وبعد أن يصل الحكم الشريف إليك ، شاور بكوات « بوى » وكل الأشخاص الذين تعتمد عليهم وتخير النصيحة . واقسم على مهاجمة ابن طورغود عند

مجيئه . وعملاً بهذه النصيحة اجمع سبعة سناجق من الأناضول وألفى جندى من عساكر العزب[١] وقرامان وحميد .

تصرف كما ينبغى ومن أى مكان كان وبأى طريقة ، واحضر الذخيرة بأى وسيلة أيضًا . وحد الرأى واتفق واتحد واعزم وتوجه ، ولتكتمل [الأمور] بالخيرات إن شاء الله تعالى .

إننى أعتمد عليك ، تدبر الأمور بأى وسيلة فى هذا المضمار ، لكيلا تحدث مضرة لأفراد العساكر بعون الله أو يتزعزع شرفهم . ولتصل الذخيرة أيضًا ، وإذا لم يتيسر وصولها لجميع القلاع ، ينقل ما فى قلعة « سيس » أولاً ويرسل إلى سائر القلاع .

وبعد إتمام المصالح بعون الله ، اكتب إلىّ تخبرنى عما قمت بعمله والطريقة التى سلكتها فى ذلك ومقدار الذخيرة التى نقلتها وأى القلاع وضعتها فيها وطريقة التوزيع[٢] .

وفى يوم الجمعة ٣ جمادى الآخرة سنة ٩٢٢هـ (٤ يوليو ١٥١٦م) أثناء مقام سليم فى قونية وصلت الجواسيس من بلاد العرب تخبر عن قدوم سلطان المماليك ، وعن إرساله علماء مكة والمدينة وساداتها منشورًا لأمير ملطية لكى لا يترك أحدًا يمر من أراضيه ولا يسمح لأى شخص بأن يسلك طريق العرب ، بينما هم فى طريقهم للتفاوض على الصلح مع السلطان العثمانى .

ويذكر حيدر **چلبى** فى « روزنامه » أن خاير بك أمير أمراء حلب جاء لمقابلة سليم . ولا يذكر **چلبى** أى تفصيلات عن هذه المقابلة الهامة التى

---

(١) العزب : نوع من العساكر العثمانية حرم عليه الزواج ، وكان ميدان عمله فى البحر أو فى القلاع . سبق تشكيله نشأة الانكشارية ، وظل يمارس عمله إلى أن قضى عليه السلطان محمود الثانى سنة ١٢٤١هـ ، (١٨٢٦م) .

(٢) الوثيقة محفوظة فى أرشيف طوپقپو سرايى ، تحت رقم E. 6072 وصورتها ضمن لوحات هذا الكتاب برقم ١٣.

حدثت سرًا دون علم الغورى .

ويقال فى بعض كتب التاريخ العربية الحديثة أن خاير بك سلم خطة الحرب المملوكية إلى السلطان سليم . ولست مع هؤلاء الذين يذهبون إلى هذا القول . فالغورى حتى هذه اللحظة لم يكن قد وصل إلى حلب وأخذ يخطط للحرب . ومن المحتمل أن يكون خاير بك قابل أحد المسئولين العثمانيين عند الحدود المملوكية العثمانية واتفق معه على أن يلعب دورًا كبيرًا فى الخيانة عند نشوب المعارك بين الطرفين . ولم يقابل سليمًا لأنه كان لايزال بعيدًا عن الحدود بين الدولتين(١) .

واصل السلطان العثمانى السير فى الأناضول فوصل إلى قرق بيكار فى يوم السبت ٤ من جمادى الثانية سنة ٩٢٢هـ ، وفى اليوم التالى وصل إلى منبع قوجه طاغ ، ثم بلغ منبع قراجه فى يوم الإثنين ، وفى يوم الثلاثاء وصل إلى جسر خورتى ، وفى اليوم التالى وصل إلى جزيرة نقاره زن ، ثم بلغ نيكده فى يوم الجمعة ، ووصل الغورى فى نفس اليوم إلى حلب

وفى هذه الأثناء وصل الرسولان - اللذان كان سليم قد أرسلهما لمقابلة الغورى - إلى حلب ، فاستقبلهما الغورى استقبالاً حافلاً . « ثم إنهما اجتمعا به وحده ، فألانا له القول مخادعة »(٢) . ومن جملة ما قالوه له : « نحن فوض لنا أستاذنا الأمر ، وقال مهما اختاره السلطان افعلوه ولا تشاورونى » . ويروى ابن إياس أيضًا أنه « من جملة مخادعة ابن عثمان إلى السلطان أنه أرسل يطلب منه سكر وحلوى ، فأرسل إليه السلطان مائة قنطار سكرًا وحلوى فى علب كبار ؛ وكل ذلك حيل منه ! »(٣) .

---

(١) عن اتصالات خاير بك بالعثمانيين ، راجع صفحات ٤٦، ٦٨، ١٠٧ - ١١٠، ١١٤ - ١١٥، ١٣٣، ١٣٤.

(٢) ابن الحنبلى : المرجع السابق ، الجزء الثانى من القسم الأول ، ص ٥٣.

(٣) ابن إياس : المرجع السبق ، ج ٥؛ e ٦٠. د .سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ١٨٣.

طلب قانصوه الغورى من الرسولين التوسط للصلح « بين مرسلهما [سليم] وبين شاه إسماعيل ، فضمنا له ذلك ، وهو لم يدر ما هنالك . ثم جهل فبعث مع رسول له خفية إلى شاه إسماعيل كتابًا يتضمن « إنى معك عليه وممسك قطرى حذرًا من أن يفر إليه » ، فظفر السلطان سليم شاه بكتابه بعد أن رد رسولاه إليه ردًا جميلاً »[١] .

وصل السلطان سليم إلى باصتانه فى يوم السبت ١١ من جمادى الثانية سنة ٩٢٢، وفى اليوم التالى وصل إلى قره حصار دوالو ، ثم بلغ جسر بوغاز فى يوم الاثنين ، وفى يوم الثلاثاء وصل إلى صحراء قيصرية ، وفى اليوم التالى وصل إلى صارمساقلو ، ثم بلغ زاوه بوردى من توابع ضمانتى فى يوم الخميس ، وفى يوم الجمعة وصل إلى عين ضمانتى ، وفى يوم السبت ١٨ منه وصل سليم إلى محاجر شحنه ، وفى اليوم التالى بلغ صادر ، ثم وصل إلى منبع اوتلو فى يوم الإثنين ، وفى يوم الثلاثاء وصل إلى يصى ايوك . وفى اليوم التالى ٢٢ جمادى الثانية (٢٣ يوليو ١٥١٦) التقى السلطان سليم بالصدر الأعظم سنان باشا فى صحراء ألبستان وانضم الجيشان إلى بعضهما . وعندما وصل سليم بجيوشه إلى سكوتلو فى يوم الجمعة ٢٤ من نفس الشهر ، جاءه الرسول - الذى كان يحمل رأس ويراش خان إلى سلطان مصر - مخبرًا عن غضب الغورى ووصوله إلى حلب . وفى اليوم التالى وصل السلطان العثمانى إلى آغاج خان[٢] .

وفى يوم الأحد ٢٦ جمادى الثانية (٢٧ يوليو) بدأ سليم يدخل الأراضى التابعة للمماليك ، فوصل إلى عين سلطان من توابع بلاد العرب . وأصبح بهذا لا يستطيع التمويه على الغورى مرة أخرى ، فقد أصبحت وجهته

---

(١) ابن الحنبلى : نفس المرجع ، نفس الموصع . عن اتصالات العورى وإسماعيل الصموى ، راجع ص ١٢٨ ، ١٤٥.

(٢) روزنامه حيدر چلبى ، ورقة ١٣٥ ا - ١٤١ ب . أحمد فريدون · المرجع السابق ، ورقة ٦٢٩ ب- ١٦٤١ .

واضحة ومعروفة ، ولم يعد هناك مجال للشك فيها . ويمكن الاستدلال على عزم السلطان العثمانى الحقيقى على محاربة المماليك ، بعد أن ترك قونية وسلك طريقًا آخر إلى الشمال الشرقى غير الطريق الذى سار فيه بعد أن وصل إلى قونية فى المرة السابقة عندما أراد أن يحارب إسماعيل الصفوى . صار سليم إلى الشمال الشرقى هذه المرة لكى يتجنب عبور جبال طوروس الشاهقة ، ثم اتجه إلى الجنوب عندما بلغ طرفها الشمالى ، ووصل إلى البستان[1] .

وصل سليم إلى صحراء ملطية فى يوم الإثنين ٢٧ جمادى الثانية (٢٨ يوليو) . وفى يوم الأربعاء بلغ **دوقيمه چابرى** . وهناك عقد الديوان العالى وحضره بكوات الروملى والأناضول وقرامان والروم[2] وأخذ رأيهم فى الهجوم على العرب ، فوافقوا على ذلك وصمموا .

مكث سليم ستة أيام فى **دوقيمه چابرى** للراحة واتخاذ التدابير اللازمة وترتيب الصفوف لمواجهة المماليك . وفى يوم الجمعة ٢ رجب وأثناء مقامه فى هذا المكان وردت إليه الأخبار تنبىء عن تحرك سلطان مصر من حلب إلى برو . وفى اليوم التالى قبض على جواسيس من قبل المماليك واستجوبوا . وفى يوم الأحد ٤ رجب (٣ أغسطس) أفاد جواسيس محمد باشا البيقلى أمير ديار بكر أن سلطان مصر طلب المساعدة من القزلباش . وفى هذه الأثناء انضم بكوات ديار بكر والروم وجنودهم إلى العساكر السلطانية ، وأمر حسن بك – الذى منح حكم سنجق منوغاد بعد عزله من نيابة الأناضول – بالتمركز فى ملطية .

وفى يوم الإثنين ٥ رجب عقد الديوان ودارت فيه المناقشات ، فتقرر أن

---

(١) عندما تحرك سليم لمحاربة الفرس سنة ٩٢٠هـ مر بأسكدار ثم إزميد فقونيه ، واتجه بعد ذلك نحو الشمال الشرقى فمر بسيواس وأرزنجان فأرصروم وطرابزون .

(٢) هم أمراء قلعة الروم بالأناضول ، انظر الخريطة .

الوقت مناسب لمواجهة المماليك . وفى اليوم التالى تحركت جميع العساكر السلطانية من صمانلو بالقرب من ملطية متجهة إلى حلب . وفى يوم الأربعاء وصلت الجنود إلى شاملى ، ثم بلغت زليخا فى اليوم التالى ، وفى يوم الجمعة وصلت إلى سوركه .

وفى يوم الأحد ١٠ رجب من نفس العام وصلت العساكر السلطانية إلى مشارف وادى توجان . وفى هذه الأثناء سلمت قلعة بهسنى ، كما وصل الرسولان ركن الدين بن زيرك وقراجا باشا اللذان كانا قد أرسلا إلى سلطان مصر بالرسالة المؤرخة فى ٣ جمادى الأولى سنة ٩٢٢هـ[١] .

أرسل الغورى كاتم سره (الدوادار) الأمير مغلباى ليؤكد للسلطان سليم رغبته فى الصلح واهتمامه بأمر الوساطة بينه وبين إسماعيل الصفوى . قال الغورى لرسوله : « جهز نفسك واخرج واكشف لنا خبر أهل الروم وما هم عليه واعط هذه المكاتبة إلى ملكهم » . ثم أمر عشرة من خيار العسكر بالتوجه مع مغلباى إلى عسكر السلطان سليم وهم ملبسين بالملابس الفاخرة . كل من رآهم يتعجب فى خلقهم وحسن خيلهم وهندامهم وهم كالعرائس . واصطفوا صفًا واحدًا . فلما دخلوا ووقفوا بين يدى السلطان سليم من غير إطالة ، نظر إليهم مليًا وامتلأ من الغيظ . ثم قال للأمير مغلباى : « يامغلباى . أستاذك ما كان عنده رجل من أهل العلم يرسله لنا ..؟! وإنما أرسلك بهؤلاء العشرة يرعب بهم قلوب عسكرى ويخوفهم برؤية أجناده ، ولكن أنا أكيده بمكيدة أعظم من مكيدته » . ثم أمر برمى رقبة مغلباى وجماعته .. ولكن الوزير يونس باشا توسط فى الأمر ورجا السلطان ألا يضرب عنق أحد منهم[٢] .

بعد أن أرسل الغورى رسوله إلى السلطان سليم ، أوعز إلى أحد القضاة

(١) روزنامه حيدر چلبى ، نفس الموضع .
أحمد فريدون : المرجع السابق ، نفس الموضع .
(٢) ابن زنبل : المرجع السابق ، ص ٢٣ .

أن يجعل موضوع خطبته بالمسجد الكبير بحلب ، حول الأحاديث النبوية التى تحض على عدم النفرة بين المسلمين . على أنه لم يغفل عن أخذ الحيطة التى تقتضيها الوضع القائم ، فجمع أمراءه وحلفهم جميعًا على ألا يخونوه ولا يغدرون به . فحلفوا جميعًا ، واستعرضهم بعد ذلك فى الميدان وهم فى كامل لباسهم وسلاحهم وأدخلهم من تحت سيفين على هيئة قنطرة كما هى العادة ، وهذا معناه القسم العظيم[1] .

علم الأمير كرتباى الذى كان فى طريقه إلى سليم بما وقع لمغلباى فعاد مسرعًا إلى الغورى وأخبره بما حدث ، كما أنهى إليه أن العثمانيين قد تحركوا فعلاً ووصلت أوائل جيوشهم إلى عنتاب واستولت على ملطية وكركر وغيرها من القلاع ، فحلف الغورى أمراءه للمرة الثانية ، ولم يطق الأمير سيباى نائب الشام أن يرى خاير بك والمعركة توشك أن تدور رحاها بعد أن وقف على خيانته ، فهجم عليه وأمسك بتلابيبه صائحًا : « يامولانا السلطان ! إذا أردت أن تنتصر على عدوك بإذن الله ، فاقتل هذا الغادر الخائن فى الحال »[2] . ولكن تدخل الخائن الثانى الغزالى نائب حماه ، أقنع السلطان بعدم الإصغاء لهذه التهم حتى لا يفت ذلك فى عضد سائر الأمراء[3] ؛ وهكذا ترك خاير بك حرًّا طليقًا ليتم الدور الشائن الذى بدأه[4] .

ويبدو أن السلطان العثمانى أحس من رد الغورى على رسالته السابقة ومن المعلومات الواردة إليه من جواسيسه عن تجمعات للجيش المملوكى فى حلب أن السلطان المملوكى يعلم بكل تحركاته ونواياه ، فكان أن هدده فى الرسالة التالية صراحة وأعلنه بالحرب .

---

(١) د . محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ، ص ٢١٧ .

(٢) ابن زنبل : نفس المرجع ، ص ١٣ .

(٣) ابن زنبل : نفس المرجع ، نفس الموضع .

(٤) د . محمد مصطفى زياده : نفس المرجع ، ص ٢١٨.

د . إبراهيم على طرخان : المرجع السابق ، ص ١٧٩، ١٨٠.

أرسل سليم رسالة التهديد هذه وهو عند وادى توجان فى أواسط رجب سنة ٩٢٢هـ . وفيها يلوم الغورى على أفعاله ، ويظهر له عدم خوفه منه مهما فعل . ويذكر له أنه كان متوجهًا أصلاً إلى الديار الشرقية ، ولكنه عدل عن ذلك وتوجه إلى الديار المملوكية نظرًا لما علم به من تحالف الغورى مع إسماعيل الصفوى . ثم يتحدى سليم الغورى ، ويقول له إننا استولينا على بعض ديارك وهى ملطية ولارنده وديوركى وشاركوى وجميع توابعها ، ومتوجهون الآن إليك . ويخاطبه باستفزاز وتحد شديد اللهجة فيه استعراض للقوة وتعبير عن الغيظ ، حيث يقول له : « إن كانت لديك ذرة من الحمية وقدر من الرجولة ونصيب من الفتوة وفى قلبك جرأة وشجاعة خاصة ، فلا تنزو فى زاوية الخوف والرعب . واستعد أنت وجميع أعوانك وأنصارك ، ولا تهرب من جرح السيف والطبر » . ويبلغ التحدى والاستفزاز مداه حين يقول : « إذا ظهرأمامك أى موقف يسهل عليك اتخاذه ، فلا تتأخر فى السعى إليه . وإذاكانت لديك ذرة من الحمية ، فعليك أن تعين الأسلوب الذى تريده والقصد الذى تبغيه ، وأن تحدد المكان الذى تقصد إليه ، لكى تلاقى جنودى الذين تعودوا على النصر » .

وهذه ترجمة للرسالة من التركية :

قانصوه الغورى أصلح الله شأنه ، ليكن معلومًا لديك عندما يصلك هذا الفرمان الرفيع الذى يستوجب على العالم طاعته والأمر الشريف الذى يدعو إلى الانقياد والاتباع ، أنه قد بات واضحًا جليًا بعون الله كل ما قمت به من فتنة وفساد . فقد ارتكبت فى الوقت الحاضر ذنبًا بمكرك وخديعتك وحيلتك وجهالتك ، وتآمرت مع بعض الأشخاص وأرسلتهم إلىّ[1] . وعلى هذا فإن أصل هذه الأعمال غير المعقولة من شيم العجزة والذين هم خلو من العقل ولا

(١) يقصد مغلباى والعساكر العشرة التى صاحبته .

يتصفون بالرجولة . لقد كانت دليلاً على رغبتك فى إظهار الشهامة والعظمة ، ولم تكن أعمالاً لائقة من أعمال العقل للحظة واحدة . وعلى هذا رددت إليك ثانية هؤلاء الأشخاص الذين قبضت عليهم بعد أن وقفت على أحوالهم جميعًا ، لكى يطلعوك على حقيقة الأحوال والأوضاع التى وقفوا على حقيقتها بعد فحص وتدقيق . لأننا لا نخاف مكر أى شخص وخداع بعون الله وتقديره ، ولا نخفى على أحد شيئًا من أحوالنا .

ولما كانت همتنا العالية وعزيمتنا القوية منصرفة إلى الديار الشرقية لإحياء الشريعة الغراء ، اتضحت لنا بعض تصرفاتك التى لا تليق والتى قصدت بها تقوية ذلك الملحد المفسد ذى العادات السيئة الذى لا يدين بدين[1] . فقصدت إليك ذاتنا الهمايونية لأنك أسوأ منه . وصار العالم فى ضيق من زحام النفوس المتكاثرة ، وأصبح الجو خانقًا من صدام السلاح والرماح .

قطعنا المنازل والمراحل قاصدين إليك بجنود لا حصر لها ورايات فتح آياتها النصر . دخلنا ممالك تحت حكمك ، فقد استولينا على ملطية ولارنده وديوركى وشاركوى وجميع توابعها ولواحقها وضواحيها وأراضيها وجبالها وتلالها . وبعد أن ضمت كل هذه المناطق إلى الممالك المحمية ، نزلت سعيدًا اليوم الموافق الحادى عشر من رجب عند مشارف وادى توجان .

وعلى هذا فإن كانت لديك ذرة من الحمية وقدر من الرجولة ونصيب من الفتوة (الشهامة) وفى قلبك جرأة وشجاعة خاصة ، فلا تنزو فى زاوية الخوف والرعب ، واستعد أنت وجميع أعوانك وأنصارك ، ولا تهرب من جرح السهم والطبر . وإذا ظهر أمامك أى موقف يسهل عليك اتخاذه فلا تتوان فى السعى إليه . وإذا كانت لديك ذرة من الحمية فعليك أن تعين الأسلوب الذى تريده والقصد الذى تبغيه وأن تحدد المكان الذى تقصد إليه ،

(١) يقصد إسماعيل الصفوى .

لكى تلاقى جنودى الذين تعودوا على النصر ، حتى يظهر واضحًا جليًا ما هو مقدر تحت أستار الغيب بمشيئة الله تعالى « والسلام على من اتبع الهدى » .
حرر فى أواسط رجب المرجب سنة ٩٢٢هـ .

وادى توجان(١)

وفى هذه الأثناء وصل مغلباى بعد أن أهانه سليم وأساء إليه وأعاده فى حالة يرثى لها كما يقول ابن إياس : « بزنط أقرع على رأسه وعلى بدنه كبر عتيق دنس وهو راكب إكديش هزيل »(٢) وقدم للسلطان الغورى وصفًا لما حدث له ولتحدى سليم حيث قال له : « قل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق »(٣) .

استشاط الغورى غضبًا مما سمعه من رسوله مغلباى ومن رسالة التهديد شديدة اللهجة التى أرسلها إليه سليم ، وتحرك من برو التى كان قد وصلها فى الثانى من رجب سنة ٩٢٢هـ إلى مرج دابق بالقرب من بلدة عزاز وأخذ يعد جيوشه ويرتب الصفوف للقاء دموى مع سليم .

واصلت الجيوش العثمانية بقيادة سليم تحركها فى أرض المماليك . ففى يوم الإثنين (١٢ رجب سنة ٩٢٢هـ) وصلت إلى كوك صو ومكثت فيه أربعة أيام . وفى يوم الجمعة (١٦) رجب وصلت إلى بيش كجيد ، وفى اليوم التالى وصلت إلى عين شار ، ثم بلغت عين العربان فى يوم الأحد . وفى يوم الإثنين (١٩) رجب (١٨ أغسطس ١٥١٦م) وصلت الجيوش السلطانية إلى عين مرزمان . وفى ذلك اليوم جاء إلى سليم يونس بك حاكم عينتاب – الذى كان تابعًا للمماليك – يعرض الطاعة والولاء . وفى اليوم التالى وصلت الجيوش

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٥٩٣ب ، ٥٩٤ا ، ب .
(٢) ابن إياس : المرجع السابق ، ج ٣، ص . ٤٤
(٣) ابن إياس : نفس المرجع ، ج ٣، نفس الموضع ، ابن زنبل : المرجع السابق ، ص . ١٢

السلطانية إلى بدر كندى . وفى يوم الأربعاء (٢١) رجب دخل السلطان عينتاب ، وعقد مجلس حرب للتشاور ، فاتفق أمراء الولايات جميعًا على تكتيك الحرب . وفى يوم الجمعة (٢٣) رجب وصلت العساكر العثمانية إلى سوزقون .

معركة مرج دابق :

وفى يوم السبت (٢٤ رجب سنة ٩٢٢هـ) وصل السلطان العثمانى وجيوشه إلى تل حبش ، ونودى أن الحرب ستنشب غدًا[١] .

جمع سليم قواد جيشه ، وخطب فيهم قائلاً : « سيتضح كل شيء غدًا . إن الله معنا نحن نثق فى عساكرنا . إن الفصائل التى أحرزت لنا النصر فى جالديران سوف ترفع أعلامها هنا أيضًا .

وزرائى وأمرائى وبكوات صناجقى ، إن ما أطلبه منكم هو أن تحاربوا على رأس جنودكم . حثوهم على البطولة والشجاعة .

أما عنى فإنى لن أتأخر عنكم ، والله شهيد »[٢] .

قبل أن يبدأ الطرفان الصدام فى معركة مرج دابق ، يجدر بنا أن نصف ترتيب الجيش المملوكى والعثمانى :

يصور لنا المؤرخان ابن إياس وابن زنبل الرمال اللذان عاصرا المعارك جيش المماليك على النحو التالى : برز الغورى للقتال فى موكبه على صهوة جواده وعلى يمينه الخليفة المتوكل وحول السلطان طائفة من الأشراف يحملون على رءوسهم أربعين مصحفًا فى أكياس من الحرير الأصفر ، منها مصحف بخط

---

(١) أحمد فريدون : المرجع ، ورقة ٦٢٩ب - ١٦٤١ .

روزنامه حيدر چلبى ، ورقة ١١٣٥ - ١٤١ب .

(٢) Cagatay Ulucay : op. cit, p. 25.

الإمام عثمان بن عفان ، ومن ورائهم جماعة من مشايخ الطرق الصوفية تحف بهم أعلامهم الخاصة ، وعلى بعد عشرين ذراعًا خلف الغورى رفرف العلم السلطاني ومشى تحته مقدم المماليك والقضاة الأربعة وأمير زردكاش - رئيس صناع الأسلحة - وعلى رأس الميمنة سيباى الطيب وعلى الميسرة الخائن خاير بك نائب حلب ، وتولى سودون العجمى أتابك العساكر(١) .

ويصف مترقجى نصوح أحد ضباط الاستحكامات فى الجيش العثمانى فى ذلك الوقت تنظيم جيش العثمانيين فى هذه المعركة فى كتابه « فتحنامه ديار عرب » ، كما يصفه حيدر چلبى الذى رافق الجيش العثمانى فى يومياته « روزنامه » : اصطحب الجيش معه ٣٠٠ مدفع ، وكان تنظيمه كالعادة المألوفة ، فكان الجناحان مربوطين من اليمين واليسار بالألوية . قاد الجناح الأيمن الصدر الأعظم سنان باشا ، وكان معه أمير الأناضول زينل باشا وأمير قرامان خسرو باشا وأمير ذولقادر على باشا ومحمود بك أمير بنى رمضان . وقاد الجناح الأيسر الوزير يونس باشا الذى تولى الصدارة العظمى فيما بعد ، وكان معه أمير الروملى يوسف باشا وأمير الروم (آماسيا) محمد باشا ابن اسفنديار وأمير ديار بكر محمد باشا البيقلى وسعادات ومبارك ابنا منكلى كراى . وكان السلطان سليم فى الوسط ومعه سائر البكوات والأغاوات وعساكر الانكشارية والعزب والصوباشية .

ويقدر مترقجى نصوح عدد الجيش العثمانى بحوالى (٦٠٠٠٠) جندى ، وعدد الجيش المملوكى بحوالى (٨٠٠٠٠) جندى معظمهم من الجراكسة وقليل جدًّا منهم من العرب البدو . ويقدر حيدر جلبى جيش المماليك بحوالى

---

(١) ابن إياس : المرجع السابق ، ج ٣، ص ٤٦.

ابن زنبل : المرجع السابق ، ص ١٥، ١٦.

د . محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ، ص ٢١٩.

أربعين أو خمسين ألف مقاتل[1] .

التقى الجيشان المملوكى والعثمانى فى ضحى يوم الأحد ٢٥ رجب ٩٢٢هـ (٢٤ أغسطس ١٥١٦م) فى مراج دابق التى يوجد بصحرائها قبر سيدنا داود عليه السلام .

بدأت المعركة ببروز قائد القلب الأتابكى سودون للقتال ومن بعده سيباى نائب الشام ، واستهلت بهجوم خاطف عنيف زلزل أقدام العثمانيين وأنزل بهم خسارة فادحة ، حتى فكر سليم فى التقهقر وطلب الأمان لكى يعيد ترتيب صفوفه ، ويقال إنه قتل فى هذه الهجمة الكاسحة نحو عشرين ألفًا من جنود العثمانيين . وفى هذه اللحظة الحرجة أشاع خاير بك أن السلطان الغورى أمر جلبانه بعدم القتال حتى يصدر أوامره إليهم ، وحتى يقاتل القرانيص وحدهم ، وهم المماليك القدماء ، وبسبب هذه الإشاعة فترت همة القرانيص إذ رأوا فيها خطة دنيئة من جانب السلطان أراد بها أن يكونوا الطعمة الأولى لنيران العثمانيين ، انتقامًا منهم لما ارتكبوه فى حقه سابقًا ، قال القرانصة بعضهم لبعض : « نحن نقاتل بأنفسنا مع النار ، وأنت - أى السلطان ، واقف تنظر إلينا بالعين الشامتة ، ما تأمر أحدًا من مماليكك يخرج إلى الميدان »[2] . وزاد فى تثبيط عزائم الجنود أن سودون الأتابكى قتل فى ذلك الوقت ، كما قتل سيباى ، وتلا ذلك فرار جنود الميمنة والقلب بعد قتل أميريهما ، وفر خلال ذلك خاير بك بجنود الميسرة . وقبل أن يظهر خاير بك الهزيمة أشاع إشاعة أخرى مؤداها أن السلطان الغورى نفسه قد قتل ؛ قال : « الفرار الفرار ، فإن

(١) مترقجى نصوح : فتحنامه ء ديار عرب ، مخطوط وحيد فى مكتبة نور عثمانية باستانبول ، تحت رقم ٤٠٨٧، ورقة ١١٩ا- ١٢٠ا .

روزنامه حيدر چلبى ، ورقة ١٤١ب - ١٤٣ا .

(٢) ابن زنبل : المرجع السابق ، ص ١٦.

السلطان سليمًا أحاط بكم وقتل الغورى والكسرة علينا »[1] فانهارت قوة المماليك ، مع أن الغورى كان ثابتًا فى مكانه تحت الصنجق السلطانى ، وحوله نفر قليل من مماليكه الخاصكية ، ينادى لوقف تيار الفرار : « يا أغوات ! هذا وقت المروءة ، هذا وقت النجدة ، يا أغوات الشجاعة ، صبر ساعة ! » ؛ ولكن لم يستمع إليه أحد ، وصاروا ينسحبون من حوله وهو يقول للفقراء : « ادعوا الله تبارك وتعالى بالنصر ، فهذا وقت دعائكم » وانطلقت « فى قلبه جمرة نار لا تطفأ » ؛ حينئذ خشى الأمير تمراز الزردكاش على السلطان ، فشق طريقه إليه وأخذ العلم السلطانى فطواه وأخفاه خشية أن يستولى عليه العثمانيون أو يعلموا مكان السلطان ، وقال للغورى : « يامولانا السلطان » إن عسكر ابن عثمان أدركنا ، فانج بنفسك وادخل إلى حلب » ، فوقعت هذه العبارة فى قلبه وقع الصاعقة ، وأصيب فى الحال بفالج أبطل شقه وأرخى حنكه على حد قول ابن إياس[2] ، وطلب شربة ماء ، فأتوه بكأس ذهبية شرب منها ولوى عنان فرسه ليهرب ، ولكنه سقط عن فرسه بعد خطوات جثة هامدة من هول الهزيمة[3] .

---

(١) ابن زنبل : نفس المرجع ، ص . ١٧

(٢) ابن إياس : المرجع السابق ، ج ٣، ص . ٤٧

(٣) د . محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ، ص ٢٢٠-. ٢١٩

د . إبراهيم على طرخان : المرجع السابق ، ص ١٨٤-. ١٨١

يقول من عاصروا معركة مرج دابق من مؤرخى العرب عن مقتل الغورى : لم يعثر على جثة الغورى « فكأن الأرض انشقت وابتلعته فى الحال » . (ابن إياس ، ج ٥، ص ٧٠، تحقيق د . محمد مصطفى) .

يقال إن الأمير علان رأس القرانصة ومعه الأمير أقباى الطويل اتفقا على قطع رأس الغورى وإلقائه فى جب حتى لايقطعه العثمانيون ويشهروا به ، وفعلاً نفذا ما اعتزما عليه ، وأرسل علان عبدًا من عبيده قطع رأس العورى ودفنه فى جب (ابن زنبل ، ص ١٨) .

وفى وقت الظهر اشتغل عسكره [الغورى] بالنهب فرجع عليهم ملك الروم بالبندق الرصاص فكسرهم ، فلما رأى سلطاننا ذلك دعى بماء فشرب وأعمى عليه ثم سقط ميتًا بالقولنج وهو يستغيث بالأغوات . (إعلام الورى لابن طولون (ت ٩٥٣هـ ، ١٥٤٦م) . تحقيق عبد العظيم خطاب ،

ولما عثر على جثته[1] ، قطعت رأسه وقدمت إلى السلطان

ص ٢٤١ بالقاهرة ١٩٧٣. ورقة ١٧٣ ب في الأصل المخطوط) . ويذكر أن ابن طولون فى ص ٢٤ من مفاكهة الخلان أن رأس الغورى قطعت وأرسلت إلى استانبول ، أما جثته فيرجح أحد احتمالين فى مصيرها : فإما أن تكون قد دفنت عند الشيخ داود بأرض دابق أو دفنت فى حلب .

ويقول من عاصروا معركة مرج دابق من مؤرخى الترك عن موت العورى : حرح الغورى فى المعركة ، فسقط مريضًا ثم مات

(جلال راده قوچه نشانجى : المرجع السابق ، ورقة ١٢٨ ب) .

عندما علم الغورى بمقتل سيباى انتلى بمرض الخفقان ، وهرب خلاصًا بنمسه ، ثم مات وهو ينزل من على صهوة جواده . ويقال إن أحد مشاهير العاملين فى السراجة بالاصطبل السلطانى ويدعى آلاكور بك رأى جثة الغورى خلف حطوط عساكر المماليك الهاربة وبعد أن تحقق منه قطع رأسه وقدمها إلى سليم ليعلمه بخبر موت سلطان المماليك . وفى قول أن السلطان جازاه على ذلك .

(مخطوط مجهول المؤلف برقم ع. ١٠٩٩ فى مكتبة طوپقپو سرايى باستانبول بعنوان : تاريخ آل عثمان ، ورقة ١٢٩ب) .

ويقول مؤرخ تركى بالعربية :

اتفق أن بندقة مدفع كبير مرت بقلب المحالف وسقطت عند قانصوه الغورى ، فعرضه اصطراب من هولها ؛ وعلم مآل الحال فخرج من العسكر بيهانة تجديد الضوء مع أحد من غلمانه . ولم يقدر على الهرب والمسير ؛ فنزل عند نهر وبسط له العلام فراشًا فاضطجع عليه وتوفى .

أقام السلطان [سليم] فى موضع المعركة يومين لرجوع المعقبين . وأمر بتتبع قانصوه العورى إذ كان قد بلغه خروجه من معسكره ، فوجدوا غلامه الذى كان معه ، فأحضروه عند السلطان ، وقرر كيفية ارتحاله . فأرسل السلطان معه أحدًا من الجاووشية لاستعلام صدق الخبر ، فسار جاووش المذكور ووحد الغورى ميتًا على سجادته ، وقطع رأسه وحمله إلى الركاب العالى بأمنية الإحسان من السلطان ، فغضب عليه السلطان لقطعه رأس الميت ، وتركه الأدب مع الملوك . فأراد قتله ، ثم شفع فيه الوزراء ، فقطعت وظيفته وطرد من الخدمة .(منجم باشى أحمد دده : المرجع السابق ح ٢، ورقة ٣٨١١ ب) .

ويقول آخر بالتركية ما معناه .

عرض الأمير المملوكى سودون العجمى على سليم أن يقوم بدفن جثة العورى ، فقبل السلطان دلك قام الأمير بعسل الجثة [وتكفينها] والصلاة عليها ، ثم دفنها فى زاوية الشيخ أبو النور القارى .

(سهيلى افندى : تاريخ مصر الجديد ، ورقة ٦١ ب القسطنطينية ١٢٤١هـ)

ملحوطة : يقول حيدر چلبى فى المتن إن سودون العحمى كان من بين قتلى المماليك فى المعركة.

وعلى أى ما يكون اختلاف الأقوال ، فإن الرحل مات فى ساحة القتال بعد أن أبلى بلاء حسنًا كما تدكر كتب التاريخ المعاصرة للفترة .

(١) انظر رسالة الفتوح السلطانية التى يقص فيها سليم على ابنه سليمان ما حدث للغورى ، ص١٩٨-٢٠٤

سليم[١] .

لاحت بشائر النصر العثمانى فى عصر اليوم نفسه بعد ثمانى ساعات من بدء القتال تقريبًا .

سرى خبر وفاة الغورى بسرعة بين العثمانيين ، فأصدقوا القتال ونهبوا المعسكر المملوكى ، وأقام سليم فى وطاق الغورى واستولى على ما فيه من سلاح ومال وتحف وأرزاق ، ونزل كل قائد من قواده فى وطاق أمير مملوكى ، وكانت مغانمهم لا حصر لها[٢] .

قتل فى هذه المعركة بعض أتباع الغورى ، وهم : من الأمراء العظام : سودون العجمى وسيباى نائب الشام وجان بردى نائب طرابلس وطرباى نائب صفد وأرسلان بك ابن بربوداق نائب حمص . ومن مقدمى الألوف : بيبرس وسودون وقانصوه بن جركس وأمير آخور الثانى أقباى الطويل والحاجب الثانى طومان باى . ومن أمراء الأربعينات : الأمير سدود والأمير قورقماس وقايتى وجانى بك وأقباى ومماى وجان بردى وطاس تيمور والخازندار طوماى باى أحمديه وطراباى اليوسفى وأوركماس السيفى وبرسباى .

ومن أمراء العشرات : الأمير قانصو والأمير براش ومغلباى وأرديش وسيباى

(١) توجد صورتا بلطتى الغورى ضمن لوحات هذا الكتاب تحت رقمى ٣، ٤. وهما مصورتان من متحف طوبقبو سرابى باستانبول ، حيث تحفظان برقمى 1.2347 1.2357.

لم يوافق السيد Turgay Tuncay مدير المقتنيات بمتحف طوبقبو سرابى على إعطائى صورتى سيفى الغورى وطومان باى على الرغم من أنه أعطانى صور سيفى قايتباى وبلطتى الغورى ، وعندما سألته عن السبب ، قال لى : « هكذا نريد ، فلا تسأل عن السبب ! » .

ومن الجدير بالذكر أن صورتى سيفى الغورى وطومان باى موجودتان فى كتاب عبد الرحمن زكى : السيف فى الإسلام ، ص ٢٧١-٢٧٠ القاهرة . ١٩٥٧

(٢) إبراهيم طرخان : المرجع السابق ، ص ١٨٤. نقلاً عن ابن زنبل : المرجع السابق ، ص . ١٩

يذكر هامر Hammer فى ص ٢٧٨ من الجزء الرابع من تاريخه أن ما وجده سليم فى وطاق الغورى من النقود الذهبية يقدر بـ ١٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ليرة تركية ، ومن النقود الفضية ما يقدر بـ ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ ليرة تركية .

ومصرباى وبرديك وكاشف السرقية ، وغيرهم من الأربعينات والعشروات ، ومن الخاصكية نحو خمسين أو ستين . وقد تناثرت أشلاء القتلى والجرحى فى أماكن عديدة [(١)] . وبلغ عدد الأسرى أكثر من ألفين جمعوا وقطعت رقابهم بالسيوف فى حضرة السلطان سليم[(٢)] . وأبقى على الخليفة العباسى وعلى قضاة المذهب الشافعى والحنبلى والمالكى الذين وقعوا فى الأسر ، واصطحبهم معه أثناء فتح مصر . ومن الجدير بالذكر أن قاضى المذهب الحنفى تمكن من الفرار إلى مصر[(٣)] .

وفى اليوم التالى للمعركة أى الإثنين (٢٦ رجب سنة ٩٢٢هـ - ٢٥ أغسطس سنة ١٥١٦م) أطلق السلطان العثمانى حوالى ألفين من المساجين فى سجن بالقرب من قبر سيدنا داود عليه السلام وحز رءوسهم جميعًا . وفى يوم الثلاثاء وصلت الجيوش العثمانية إلى جيلان ، ثم وصلت بالقرب من حلب فى يوم الخميس[(٤)] .

قابل أعيان حلب ومشايخ قبائلها السلطان سليم وعرضوا عليه الطاعة والولاء وسلموه مفاتيح القلعة ، فسلمت جميع توابع المدينة أيضًا[(٥)] . دخل السلطان المدينة فى يوم الجمعة غرة شعبان (٢٩ أغسطس) ، وأقام صلاة الجمعة فى جامع الملك الظاهر . قرئت الخطبة باسم السلطان العثمانى ، وقد وصفه الخطيب فى خطبته بأنه « مالك الحرمين الشريفين » ، فنهض سليم من مكانه واقفًا : وقال : « من أنا حتى أكون مالكًا للحرمين ، إننى أفتخر بأنى

---

(١) **روزنامه حيدر چلبى** ، ورقة ١٤١ب - ١٤٣ا .

(٢) جلال زاده قوجه نشانجى مصطفى : المرجع السابق ، ورقة ١٣٢ا .

(٣) ابن إياس : المرجع السابق ، ح ٥، ص ١٤٧، ١٦٥.

يذكر ابن طولون فى ورقة ١٧٤ ا من كتابه إعلام الورى : أن قاضى المذهب الحنفى ابن الشحنه وقاضى المذهب المالكى الدميرى لم يقعا فى الأسر بل فرا إلى دمشق .

(٤) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٦٢٩ ب - ٦٤١ا .

(٥) جلال زاده قوجه نشانجى مصطفى : المرجع السابق ، نفس الموضع .

خادم الحرمين لا مالكهما »[1] .

توقف سليم فى حلب ١٧ يومًا لاتخاذ التدابير اللازمة قبل الرحيل عنها : فأعطى حكم السنجق إلى قراجا باشا ، وقضاءه إلى كمال حلبى ، وأمر عبد الكريم بك دفتردار الروملى بالبقاء فى المدينة لجمع المال .

لجأت فلول المماليك الهاربة بعد هزيمة مرج دابق إلى حلب فلم يضيفهم أهلها ، وطردوهم انتقامًا لما فعلوه معهم فى السابق عندما حلوا بحلب قبل المعركة فتوجهوا إلى دمشق . « دخل محمد بن قانصوه الغورى دمشق فى يوم الإثنين ٤ شعبان (أول سبتمبر) ومعه جان بردى الغزالى نائب حماه وأركماس أمير السلاح وسودون الدواداری وعلان ، وتقدمهم المباشرون كاتب السر ابن أجا ونائبه أحمد بن الجيعان ولبن الإمام ناظر الخاص وتاج الدين بن الديوان بقلعة دمشق والمحبى ناظر جيش دمشق .

وفى يوم الثلاثاء خامسه نودى لجان بردى الغزالى بدمشق بنيابة الشام ، باتفاق جماعة الأمراء الراجعين مع ولد السلطان إلى دمشق فى اصطبل دار السعادة ، واتفقوا أيضًا على أن ولوا طرابلس وصفد لشخصين آخرين .

وفى يوم الجمعة ثانى عشرية خرج ابن سلطاننا من دمشق إلى مصر ، ومعه جميع العسكر المنهزمين والمباشرين ، وامرأة النائب سيباى [المقتول] وبنتها ؛ وهى زوجة ابن السلطان المذكور ، لكنه لم يدخل بها إلى الآن .

وفى يوم السبت ثالث عشريه تبعهم النائب جان بردى الغزالى بجماعته ملبسين هاربين »[2] .

---

(١) أحمد راسم : عثمانلى تاريخى ، حاشية ص ٢٩٧-٢٩٦ استانبول . ١٣٢٩

ضرب هذا اللقب بادىء ذى بدء على السكة فى مدينة الحلة فى العراق ، (نفس المرجع ، حاشية ص ٢٩٧)

(٢) إعلام الورى لابن طولون ، ورقة ١٧٣ب ، ١٧٤ا (تحقيق عبد العظيم خطاب) ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢.

وصلت الجنود المملوكية الهاربة إلى القاهرة فى رمضان ٩٢٢هـ (أكتوبر ١٥١٦م) بعد أن تعرضوا فى الطريق لهجمات العربات عليهم .

عندما تأكد أهل القاهرة من خبر الهزيمة بعد أن رأوا بأعينهم فلول المماليك ، وقد عادوا فى حالة سيئة من الكسرة والهزيمة ، سرت فيهم موجة من الرعب والخوف ، ولم تكن هناك فسحة من الوقت للبحث والنقاش ، فأسرع الأمراء فى مصر باختيار طومان باى سلطانًا خلفًا للغورى . فتمنع طومان باى فى أول الأمر غاية الامتناع حتى قال له الأمراء « ما عندنا نسلطن إلا أنت طوعًا أو كرهًا »[(١)] . ومن الواضح أن منصب السلطنة فى تلك الظروف كان غير مرغوب فيه ، مما جعل كبار الأمراء يزهدون فيه . هذا إلى أن طومان باى - وهو أحد أمراء المماليك - كان يعرف ما اعترى أخلاق المماليك فى ذلك الدور من تدهور وفساد ، فلم يقبل السلطنة إلا بعد أن أحضر مصحفًا شريفًا وحلَّف الأمراء « بأنهم إذا سلطنوه لا يخونوه ولا يغدرونه ولا يخامرون عليه ويرضون بقوله وفعله »[(٢)] . تسلطن طومان باى فى (١٤ رمضان ٩٢٢هـ ١١ أكتوبر ١٥١٦م) ، ولقب بالملك الصالح .

قرر السلطان العثمانى التحرك من حلب إلى دمشق فى يوم الأحد ١٧ شعبان ٩٢٢هـ (١٤ سبتمبر ١٥١٦م) . وصل سليم إلى تومان فى اليوم التالى ثم بلغ مشهد فى يوم الخميس ، وفى يوم الجمعة ٢٢ شعبان وصل إلى حماه وتسلمها بالأمان وفوض حكمها إلى كوزلجه قاسم بك أحد خدام أبيه .

وفى هذه الأثناء انضم خاير بك إلى العثمانيين ، بعد أن ثمرت خيانته فى مرج دابق[(٣)] . وتجدر الإشارة هنا إلى أن خيانة خاير بك كان مبعثها - فى

(١) ابن إياس : المرجع السابق ، ج ٥، ص ٨٥.

(٢) ابن إياس : المرجع السابق ، ج ٥، ص ٨٦.

د . سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ١٨٦- ١٨٥.

(٣) يروى ضابط الاستحكامات العثمانى مترقجى نصوح الذى اشترك فى فتح الشام ومصر كيفية =

نظرى - خوفه على حياته . فقد أخذ الغورى منذ أو ولى العرش « يتتبع القرانصة وذوى الشوكة والقوة من أمراء الجراكسة فيقتلهم شيئًا فشيئًا . ومَن يَعُد منهم عنه كخير بك كافل حلب ، صار يخشى منه أن يدس إليه سمًّا فيقتله به ، كما قتل أخاه قانصوه بن مال باى بن عبد الله - الشهير بقانصوه البرج بن عبد الله - من قبل وأخذ ماله ظلمًا[1] .

وفى اليوم التالى للاستيلاء على حماه بلغ السلطان العثمانى رصطان ، ثم وصل إلى حمص فى يوم الأحد وتسلمها دون مقاومة وعين عليها ابن حتمان واليًا . وفى يوم الإثنين ٢٥ شعبان وصل سليم إلى عين القصب ، ثم بلغ قرالر فى اليوم التالى ، وفى يوم الأربعاء وصل إلى قرية نبك ، وفى يوم الخميس وصل إلى القطيف ، ثم بلغ قصيره فى اليوم التالى . وفى يوم السبت ٣٠ شعبان (٢٧ سبتمبر) وصل السلطان إلى دمشق ، وظل خارجها ١٢ يومًا يعد العدة لفتحها ، ثم دخلها فى يوم الخميس ١١ رمضان (٨أكتوبر)[2] . وعين لحكمها شهاب الدين أحمد بن يخشى العثمانى .

ومن الملاحظ أن بلاد الشام أخذت تتساقط الواحدة تلو الأخرى فى أيدى السلطان العثمانى دون مقاومة حتى وصل إلى دمشق ، ومكث فيها ٦٧ يومًا تقريبًا[3] .

وفى يوم الإثنين ١٥ شوال من نفس العام (١٠ نوفمبر سنة ١٥١٦م) وأثناء مقام سليم فى دمشق أرسل إلى طومان باى رسالة يطلب إليه أن يجىء

= لجوء خاير بك للعثمانيين فى كتابه ، بقوله : عندما كان الوزير يونس باشا فى حماه فى شعبان ٩٢٢هـ (سبتمبر ١٥١٦م) بعد أن استولى عليها العثمانيون صادف خاير بك يتجول مع بعض جنوده فى الأنحاء المجاورة - وقد كان قائدًا للجناح الأيسر فى الجيش المملوكى فى معركة مرج دابق - فدعاه لعقد صداقة بينهما . وافق خاير بك ودخل فى طاعة العثمانيين . (فتحنامهء ديار عرب ، ورقة ١٢٣) . وانظر أيضًا القصيدة ص ٢١٥ - ٢١٨.

(١) ابن الحنبلى : المرجع السابق الجزء الثانى من القسم الأول ، ص ٤٧، ٤٤٩، . ٤٥٠

(٢) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ١٦٣٠ - ١٦٤١ .

(٣) قام سليم أثناء مقامه فى دمشق بزيارة المعالم التارخية وقبر صلاح الدين الأيوبى ، وأمر سناء ضريح للمتصوف الكبير محى الدين بن عربى . (لايزال قائمًا حتى اليوم) . =

هو ومن معه إلى عتبته السنية ليعرضوا الطاعة والولاء ، فيقول : « شيدت ودعمت بوجودنا الشريف أركان الأمة الغراء وقواعد الشريعة الزهراء ، وتعمرت بجدنا واجتهادنا بيضة الإسلام وحوزة الإيمان . فلتستظل بظل حمايتنا الظليلة فى حومة حكومتنا أمصار المسلمين وبلاد الموحدين ، حتى تدوم وتثبت جميع الممالك إجراءات الشرائع النبوية وظهور النواميس الإلهية بترويج الشرائع الأحمدية وتنفيذ الأحكام المحمدية . يشتمل ذلك خاصة على ديار العرب حيث تنطوى على الأماكن المطهرة والأراضى المقدسة والحرمين الشريفين مكان قبلة آدم وموطن سجود خلق العالم . وعلى هذا فتصميم عزمنا حاليًا على العمل بموجب الآية ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلًا ﴾ . وإن شاء الله الأعز سنقوم خاصة بزيارة الحرمين الشريفين شرفهما الله ، لنكون من زمرة ﴿ من دخله كان آمنًا ﴾ . أما والحالة هذه فإن الواجب يقتضى منك أن تعمل بالحجة القائلة ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ لأنك بعثت على نشر الفتنة والفساد بين العباد » .

ويطمئن سلطان العثمانيين طومان باى ومن معه على مستقبلهم ، حيث يقول : « عندما يصلكم حكمى الشريف واجب الاتباع فلا يتطرق الخوف أو الخشية لخاطركم على أى وجه من الوجوه سواء أنت أو من يتبعك من الأمراء أو من عبيدك الخواص أو من خدمك أو من الأشخاص النافعين أو من بكوات العرب أو من الأشخاص الذين تحبهم . فلتتوجهوا إلى عتبتى السعيدة موطن الفلك دون توقف فالدولة والمستقبل فيهما خلوص للنية وصفاء للطوية وحسن العقيدة .

وفى أواخر الرسالة يهدد سليم طومان باى ويحمله مسئولية خروجه عن الطاعة وخروج تبعته ، ويذكره بالقول المشهور « جولة الباطل ساعة وجولة الحق إلى قيام الساعة » . ويؤكد له أن جنوده طلاب الدين والدولة لن يفلت

= وكان يجالس الصلحاء والمشايخ سيما الشيخ محمد البدخشى المعتكف فى جامع بنى أمية ، إذ كان السلطان قد سار لزيارته مرة بعد أخرى واستجلب دعاءه .

(Yilmaz Ostuna : op. cit, p.41)

(منجم باشى أحمد دده : المرجع السبق ، ج ٢، ورقة ١١٨٤ا) .

من قبضتهم شخص سواء كان فى مصر أو فى الحجاز أو فى اليمن .

وفى نهاية الرسالة يذكر سليم لطومان باى أنه سمع بوجود **چركسى** يدعى جان بردى الغزالى فى غزة اعتاد الفساد والإفساد ، فأرسل إليه رسالة بنفس الخصوص ، وأمر الصدر الأعظم سنان باشا بالاستعداد للتحرك لمحاربته إذا أرسل رده متضمنًا إعلان العصيان وعدم الولاء .

وهذه ترجمة للرسالة المرسلة إلى طومان باى عن التركية :

جناب صاحب الإمارة صاحب الأَيالة صاحب الدولة طومان باى ، ليكن معلومًا لديك عندما يصلك التوقيع الرفيع الذى يستوجب على العالم طاعته وينبغى اتباعه ، أن مهندس معمورة الفطرة ومقرنس مقصورة الخلقة دعم أساس نشأة آدم بحكمه ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ . ومهد أول قواعد النبوة بـ « كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين » . وأرسى أسس مبانى الشريعة المحمدية وشيد أركان الأمة الأحمدية التى اضطرب أساسها المتين من جراء هزة زلازل حوادث الأيام وآفة تصريف الليل والنهار . فلا تختل أطرافها وأكنافها ، وليزد تماسكها وقوة أحكامها مع تعاقب الشهور والأعوام وتناوب الدهور والأيام . ولينتشر ما يبعث على استمرار الدين الإسلامى حتى يوم النشور ، وتنتصر أعلام شريعة سيد الأنام حتى ينفخ فى الصور ، ﴿ وهو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ . وقد وافق على هذا المعنى ونطق بالتصديق عليه حديث سيد المرسلين عليه من الصلوات أزكاها ومن التحيات أنباها ، « لا يزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة » . ارتسمت طغراء « نصر من الله وفتح قريب » على منشور « وكذلك يجتبيك ربك » فى صدر عتبة حاكم الديوان يفعل الله ما يشاء ويحكم مايريد ويتم نعمته عليك . فى عالم فتاح ومفتح الأبواب ﴿ وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ﴾ مطبوع على أكمام فاتح العالم صيغة الاعتزاز بالسلطنة .

شيدت ودعمت بوجودنا الشريف أركان الأمة الغراء وقواعد الشريعة الزهراء ، وتعمرت بجدنا واجتهادنا بيضة الإسلام وحوزة الإيمان . فلتستظل بظل حمايتنا الظليلة فى حومة حكومتنا أمصار المسلمين وبلاد الموحدين ، حتى تدوم وتثبت فى جميع الممالك إجراءات الشرائع النبوية وظهور النواميس الإلهية بترويج الشرائع الأحمدية وتنفيذ الأحكام المحمدية . يشتمل ذلك بخاصة على ديار العرب حيث تنطوى على الأماكن المطهرة والأراضى المقدسة والحرمين الشريفين مكان قبلة آدم وموطن سجود خلق العالم . وعلى هذا صممنا عزمنا حاليًا على العمل بموجب الآية ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلًا ﴾ وإن شاء الله الأعز سنقوم خاصة بزيارة الحرمين الشريفين شرفهما الله ، لنكون من زمرة ﴿ من دخله كان آمنًا ﴾ . أما والحالة هذه فإن الواجب يقتضى منك أن تعمل بالحجة القائلة ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾، لأنك بعثت على نشر الفتنة والفساد بين العباد .

عندما يصلكم حكمى الشريف واجب الاتباع فلا يتطرق الخوف أو الخشية لخاطركم على أى وجه من الوجوه سواء أنت أو من يتبعك من الأمراء أو من عبيدك الخواص أو من خدمك أو من الأشخاص النافعين أو من بكوات العرب أو من الأشخاص الذين تحبهم . فلتتوجهوا إلى عتبتى السنية موطن الفلك دون توقف ، فالدولة والمستقبل فيهما خلوص للنية وصفاء للطوية وحسن العقيدة . عندما تصلوا تسموا سرادقات إقبالكم اعتمادًا على دعائم العنايات العلية لسلطاننا . ستكونين ملحوظين بنظر عنايتنا الشاهانية ومحظوظين بسهام رعايتنا السلطانية . فلتكن محسود الأماثل والأقران ومغبوط الأكابر والأركان . وليظهر الطاعة والانقياد كل من يأتى معك وسنيرعى كل واحد منهم على قدر مرتبته بأضعاف الرعايات المضاعفة ليشكر ويذكر جيدًا .

إذا لم تطع الحكم الهمايونى ، فلا تغفل عن الخبر القائل « جولة الباطل ساعة وجولة الحق إلى قيام الساعة » . وإذا تمسكت بسلوك جادة الطغيان ، فإن مظالمك ومظالم تبعتك معلقة فى رقبتك [ملقاة على عاتقك] . عزيمتى

السلطانية مصممة على أنه إذا جاءت من البحر سفن كثيرة ومراكب كبيرة أو أتت من البر مواكب عديدة وجنود مجندة فبمشيئة الله العزيز الكريم لن يفلت شخص من قبضة طلاب الدين والدولة سواء كنتم فى مصر أو فى الحجاز أو فى اليمن . فليكن رجالكم طعامًا للسهام أو علفًا للسيوف ، ولتكن نساؤكم وأولادكم فى الحبس مقيدين بالأغلال . والباعث على صدور هذا الخطاب المستطاب هو الشفقة والرحمة السلطانية المحضة واقتداء بالنص الكريم الفرقانى فى الآية ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا ﴾ .

ولما سمعنا ما يقال عن شخص چركسى يدعى جان بردى فى ولاية غزة القريبة من مصر القاهرة اعتاد إفساد أشخاص كثيرين ، صدر الفرمان إلى الوزير الأعظم سنان باشا بالاستعداد للتحرك بعدد من العساكر المنصورة . كذلك صدر حكم عالى الشأن بهذا الخصوص من العتبة العليا وأرسل إلى جان بردى المذكور(١) .

تبدو فى هذه الرسالة لهجة المنتصر الذى يملى شروطه ومطالبه ، ويحث خصمه على التسليم حقنًا للدماء ، ويؤكد له على نجاحه فى المستقبل مهما أعد له منازله من قوة سواء كانت فى مصر أو فى الحجاز أو فى اليمن ، فهو تحت طائلته لا محالة .

ويبين سليم لطومان باى أنه أرسل إليه رسالته هذه بدافع الشفقة اقتداء بقول الله عز وجل : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا ﴾ .

أرسل بعض الوزراء العثمانيين بدورهم عدة رسائل إلى جان بردى الغزالى وبعض الأمراء الچراكسة يحثونهم على تقديم الطاعة والولاء للعثمانيين ، وكان هذا المسلك تنفيذًا للأوامر الصادرة من السلطان سليم وبإيعاز من خاير بك ومحمد أغا ابن قورقماس أمير حماه السابق . ومن الجدير بالذكر أن خاير

---

(١) جلال زاده قوجه نشانجى مصطفى : المرجع السابق ،ورقة ١٣٣ا - ١٣٤ب .

بك أرسل بنفسه عدة رسائل إلى بعض أمراء الجراكسة يطلب إليه أن يحذو حذوه « ويرغبهم فى الدخول تحت طاعة ابن عثمان ويطنب فى محاسنه وعدله فى الرعية »[1] .

لم يرد جان بردى الغزالى على هذه الرسائل جميعها ولم يكترث . ولما رأى سليم منه هذا الصمت آثر أن يرسل إليه رسالة هذه المرة لكى تكون الأخيرة ، فإن أطاع فيها وإن رفض دارت عليه الدوائر هو ومن تحت إمرته من الأمراء .

يذكر سليم لجان بردى فى هذه الرسالة أنه سمع مدحًا كثيرًا فيه من خاير بك ومن محمد أغا ابن قورقماس أمير حماه (السابق) ، لهذا يدعوه لتسليم نفسه ومن معه ولاء له ، فيقول : « ليكن معلومًا لديكم عندما يصلكم التوقيع الرفيع الهمايونى أنه سبق أن أحاط علمنا الشريف بالإفهام والإعلام - افتخار الأمراء والأكابر مختار الكبراء والأفاخر ذو الدولة الراسخة والعزة البازخة - أخوكم خير بك لا زال كاسمه خيرًا وخيرًا وأمير حماه (السابق) محمد أغا ابن قورقماس بعرضهما عن خلوص عقيدتكم وصفاء طويتكم وتمام صداقتكم وتدينكم وكمال استقامتكم وأمانتكم وفرط إخلاص مودتكم وكثرة ميلكم ومحبتكم . وعلى كل حال أنتم تستحقون عنايتنا ورعايتنا ... عندما يصل فى هذه المرة حكمى الشريف واجب الطاعة عجلوا بالمجىء نظرًا لما سمعناه عنكم من كمال إخلاصكم وتمام اختصاصكم ، ومرغوا الوجه عند موطىء سرير مصير العالم عندى . ولتسعوا سعيًا جميلاً وتجدوا جدًّا جزيلاً لكى تتشرفوا بتقبيل أناملى الكريمة » .

وهذه ترجمة للرسالة عن التركية :

فخر الأمراء الكرام مرجع الكبراء الفخام ذو القدر والاحترام والمجد

---

(١) ابن إياس : المرجع السابق ، ج ٥، ص ١٢٥.

والاحتشام المختص بمزيد عواطف الملك المتعال جانبرد الغزالى بك دام إقباله . ليكن معلومًا لديكم عندما يصلكم التوقيع الرفيع الهمايونى أنه سبق أن أحاط علمنا الشريف بالإفهام والإعلام - افتخار الأمراء والأكابر مختار الكبراء والأفاخر ذو الدولة الراسخة والعزة البازخة - أخوكم خير بك لا زال كاسمه خيرًا وخيرًا وأمير حماه (السابق) محمد أغا ابن قورقماس بعرضهما عن خلوص عقيدتكم وصفاء طويتكم وتمام صداقتكم وتدينكم وكما استقامتكم وأمانتكم وفرط إخلاص مودتكم وكثرة ميلكم ومحبتكم وعلى كل حال أنتم تستحقون عنايتنا ورعايتنا .

كتب الوزراء عظيمو القدر رسائل مرارًا متضمنة أحكامى الشريفة واجبة الاتباع وأرسلوها لدعوتكم إلى سدتى السنية المتصفة بالسعادة . مضت فترة طويلة منذ ذلك الوقت ولم يلح خبر منيف أو يسنح أثر لطيف منكم .

أما والحالة هذه فعندما يصلكم فى هذه المرة حكمى الشريف واجب الطاعة عجلوا بالمجىء نظرًا لما سمعناه عنكم من كمال إخلاصكم وتمام اختصاصكم ، ومرغوا الوجه عند موطىء سرير مصير العالم عندى . ولتسعوا سعيًا جميلاً وتجدوا جدًّا جزيلا لكى تتشرفوا بتقبيل أناملى الكريمة . إذا جئتم إن شاء الله الكريم فعند لقائكم تشملكم رعايتنا ويتم قبولكم بأنواع العناية السلطانية الجميلة وأصناف الرعاية العلية الشاهانية أكثر مما فى تصوركم . ولأنك رجل عظيم النفع وموف للمصالح وجسور من أهل التدبير خليق بالرعاية ومستحق للعناية ، سنلتفت إليك من فرط المكارم العلية الملكية والمراحم الجميلة الخسروانية . لقد أرسلت الأحكام الشريفة مرة بعد أخرى من أجل دعوتكم . وعلى أى حال فإن واجبنا أن ننظر إلى الأمور التى توجب عزتكم وتستوجب رفعتكم ، ولا نلقى على الأرض عزتكم وعظمتكم . وبمقتضى القول القائل « إذا دعيتم فأجيبوا » ، وبموجب القول القائل ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ فقد بسطت رداء اختصاصى على إخلاصكم فى الصداقة ، وعقدت حزام رضاى على وسط طاعتكم . تعالوا بسرعة أولاك وقبل

كل شيء ، وعند وصولكم مرغوا الوجه عند عتبتى المتصفة بالاقتدار والسعادة .

تعالوا وامتثلوا لأمرى جليل القدر على الوجه الذى تؤمرون به . إنكم ستمنحون أمان الله تعالى وأمان الرسول المجتبى وأمانى الشريف من كل الأضرار والبلايا وكافة الخسارة والنكبات من أجل أرواح آبائى الكرام وأجدادى العظام أنار الله براهينهم ، ستمنح الأمان أنت ومن يأتى معك من البكوات ومقدمى الألوف وأمراء الأربعينات والخمسينات والخاصكية والأغوات والذين يتبعونك ويبايعونك من القادمين معك . وعدًا أنكم ستمنحون الأمان وتوهبون السلامة ، فإننى سأعتنى بكل واحد منكم . وأبذل همتى ، لكى تكونوا مغبوطى الأكابر والأعيان ومحسودى الأماثل والأقران .

وإذا أصررتم على العناد وفكرتم فى الباطل وأشعلتم شرر الفتنة والقتال ، وأعلنتم العداوة والعصيان وأظهرتم البغى والطغيان ؛ فإن مظالمكم معلقة فى رقابكم [ستنقلب عليكم] ، ولن ينفع الندم فى النهاية .

بعد فتحنا بلدة مصر بعناية الله ومعجزات رسول الله بقوة قاهرة ، فإنكم ستهلكون على أى حال من جراء عقابى وجزائى ، لكى يكون ما يحدث لكم موجبًا للعبرة لأمراء الأطراف والأكناف . تداركوا الأمور ما دام الأمر كذلك . ولتلاحظوا أن الامتثال لأمرى واجب الطاعة والاتباع سبب للعزة والراحة وباعث لسعادة العالمين . عجلوا بالمجيء بأى طريقة ممكنة ومتصورة ، وسيحدث ساعة اللقاء كل الاهتمام والإقدام . لا تفوتوا دقيقة من الجد والسعى(١) ».

من الملاحظ أن هذه الرسالة تختلف لهجتها عن الرسالة التى أرسلت إلى طومان باى ، فهى رقيقة التعبير يخاطب فيها جان بردى الغزالى بضمير المخاطبين على الدوام ، على الرغم من أن مرسلها هو السلطان العثمانى ومتلقيها هو أمير غزة جان بردى .

---

(١) جلال زاده قوجه نشانجى مصطفى : المرجع السابق ، ورقة ١٣٤ب - ١٣٥ب .

تؤكد المصادر العربية المعاصرة لهذه الفترة على خيانة الغزالى منذ زمن طويل . يقول البعض : إن خيانته بدأت فى معركة مرج دابق ، ويقول البعض الآخر : إنها بدأت بعد معركة مرج دابق مباشرة . لكن هذه الوثيقة تظهر أن الخيانة لم تكن قد حدثت بعد ، حيث يقول سليم لجان بردى فى رسالته : « كتب الوزراء عظيمو القدر رسائل مرارًا متضمنة أحكامى الشريفة واجبة الاتباع وأرسلوها لدعوتكم إلى سدتى السنية المتصفة بالسعادة . مضت فترة طويلة منذ ذلك الوقت ولم يلح خبر منيف أو يسنح أثر لطيف منكم . أما والحالة هذه فعندما يصل فى هذه المرة حكمى الشريف واجب الطاعة عجلوا بالمجىء » .

لم أعثر على رد لطومان باى على رسالة سليم إليه ، وكذلك الحال بالنسبة للرسالة التى أرسلها السلطان العثمانى إلى الغزالى . ويبدو أن طومان باى رفض ما جاء فى الرسالة وصمم على ملاقاة العساكر العثمانية .

الزحف إلى مصر :

لم يجد سليم مفرًا من إكمال مهمته بعد رفض طوماى باى لمطالبه الخاصة بإعلان الطاعة والولاء حقنًا للدماء ، فأمر الصدر الأعظم سنان باشا فى يوم الخميس ٣ ذى القعدة (٢٧ نوفمبر) بالتحرك على رأس جيش قوامه أربعة آلاف جندى لفتح غزة .

وفى يوم الثلاثاء ٨ ذى القعدة (٢ديسمبر) عقد الديوان فى دمشق ، وتقرر فيه التحرك لفتح مصر .

ويذكر ابن زنبل أن السلطان سليمًا لم يكن ينوى فتح مصر ، فبعد أن استولى على دمشق ، فكر فى العودة إلى بلاده ، لولا تحريض خاير بك ، حيث قال للسلطان : « نركب إلى مصر نأخذها ، ونقطع هذه الطائفة **الچراكسة** من أرض مصر جملة واحدة ؛ وأنا ضامن لك هذا الأمر بعناية

الله »[1] .

يبدو أن السلطان سليمًا لم يكن فى هذه الأثناء مهتمًا جدًّا بفتح مصر حقيقة ، نظرًا لأن حملته عليها ستعرضه لمخاطر اجتياز صحراء سيناء بما فى ذلك خطر هجوم البدو عليه وامتداد خطوط مواصلاته . وأن سهولة فتح بلاد الشام يجب ألا تؤخذ مقياسًا فى فتح مصر . فالمماليك فى بلاد الشام كانوا قلة إذا ما قورنوا بأعدادهم فى مصر . كما أن كراهية الشعب فى بلاد الشام للمماليك ونقمته على ظلمهم وتعسفهم وخاصة منهم الأجلاب بسبب اعتقادهم برعاية السلاطين المباشرة لهم ، سهلت الفتح العثمانى الذى لم يلق أيضًا ترحيبًا حارًّا لأن السكان العرب المحليين إنما كانوا يستبدلون حاكمًا تركى اللغة بحاكم آخر تركى اللغة . وكان السلطان سليم يتوقع أن تكون المقاومة المملوكية أكثر عنفًا فى مصر ، نظرًا لتمركز المماليك فيها ، واعتبارهم مصر آخر معقل لهم . ويضاف إلى هذه الاعتبارات أن توغل العثمانيين فى مصر من شأنه أن يشجع الصفويين على استجماع قوتهم وإعادة تهديد المناطق العثمانية[2] .

ولهذه الأسباب مجتمعة فاوض العثمانيون سلطان المماليك وأمراءه على الخضوع لهم . فأرسل بعض الوزراء رسائل إلى الغزالى وأمراء المماليك فى مصر يطلبون منهم إعلان الطاعة والولاء . كما أرسل سليم رسالة إلى طومان باى مع مراد **الچراكسة** وهو فى القنيطرة فى يوم الخميس (٢٤ ذى القعدة سنة ٩٢٢هـ (١٨ ديسمبر سنة ١٥١٦م) بعد أن ترك دمشق فى يوم الإثنين ٢١ ذى القعدة (١٥ ديسمبر) ومر ببروج خالى فى يوم الثلاثاء ٢٢ ذى القعدة (١٦ ديسمبر) وشعشعة فى اليوم التالى . ومما جاء فى الرسالة شديدة اللهجة ما يأتى :

---

(١) ابن زنبل : المرجع السابق ، ص ٤٢.

(٢) عبد الكريم رافق : بلاد الشام ومصر ، من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون ، ط ٢، ص ١٠٣-١٠٤ دمشق ١٩٦٨.

« من مقامنا السعيد إلى الأمير طومان باى ، أما بعد فإن الله تعالى قد أوحى إليّ بأن أملك الأرض والبلاد من الشرق إلى الغرب كما ملكها الإسكندر ذو القرنين » ومن جملة المطالعة وعد ووعيد وتشديد وتهديد ومن جملة ذلك : « إنك مملوك منباع ومشترى ولا تصلح لك ولاية ، وأنا ملك ابن ملك إلى عشرين جدًّا ، وقد توليت الملك بعهد من الخليفة ومن قضاة الشرع » . وذكر فى مطالعته أشياء كثيرة من هذا النمط : « وأنى أخذت المملكة بالسيف بحكم الوفاة عن السلطان الغورى فاحمل لى خراج مصر فى كل سنة كما كان يحمل لخلفاء بغداد » حتى قال : « أنا خليفة الله فى أرضه وأنا أولى منك بخدمة الحرمين الشريفين » . ثم ذكر فى أثناء المطالعة « وإن أردت أن تنجو من سطوة بأسنا فاضرب السكة فى مصر باسمنا وكذلك الخطبة وتكون نائبًا عنا بمصر ، ولك من غزة إلى مصر ولنا من الشام إلى الفرات . وإن لم تدخل تحت طاعتنا أدخل إلى مصر وأقتل جميع من بها من الأتراك (**الچراكسة**) حتى أشق بطون الحوامل وأقتل الجنين فى بطنها من الأتراك (**الچراكسة**) » . وفى آخر مطالعته قال : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا ﴾[1] .

يبدو من هذه الرسالة حقيقة أن سليمًا كان يؤثر التوقف عند دمشق وعدم خوض غمار حرب لا تؤمن عواقبها مع المماليك فى مصر ، بشرط أن تكون مصر تابعة له تحت حكم طومان باى .

استشاط طومان باى غضبًا مما جاء فى تلك الرسالة من إهانة بالغة مست كرامته وعزته « وبكى وحصل له غاية الرعب » وأمر بقتل الرسول الذى جاء بالكتاب . ولما علم سليم بما آل إليه حال رسوله استمر فى تحركه قاصدًا مصر . فعبر فى يوم الجمعة ٢٥ ذى القعدة (١٩ ديسمبر) جسر يعقوب عليه السلام الواقع فى وادى كنعان . وصادف بئر يوسف عليه السلام . وفى يوم

(١) ابن إياس : المرجع السابق ، (تحقيق محمد مصطفى) ، ص ١٢٥-. ١٢٤

السبت ٢٦ ذى القعدة (٢٠ ديسمبر) وصل السلطان العثمانى إلى قبرشعيب عليه السلام المقابل لصفد ، ثم استولى على البلدة وعين لحكمها ابن المستنصر . وفى اليوم التالى تحرك سنان باشا على رأس أربعة آلاف جندى إلى غزة . وفى يوم الإثنين ٢٨ ذى القعدة (٢٢ ديسمبر) وصل السلطان إلى عيون تجار . وفى اليوم التالى بلغ خان لجون . ثم وصل إلى قاقون فى يوم الخميس غرة ذى الحجة (٢٥ ديسمبر) .

وفى يوم الجمعة ٢ ذى الحجة (٢٦ ديسبمر) تلاقى سنان باشا ومعه محمد بك ابن عيسى باشا اوزكور مع جيش جان بردى الغزالى فى جلجوليه بالقرب من غزة ، ودارت بينهما معركة حامية بدأت من الصباح وانتهت ساعة العصر بانتصار سنان باشا وهزيمة الغزالى . قتل فى المعركة من جانب المماليك دولت باى نائب غزة وخدا وردى نائب الاسكندرية وعشرون من أمراء الأربعينات والخاصكية . وبعد المعركة عين السلطان سليم محمد بك ابن عيسى حاكمًا على غزة بعد فتحها .

تذكر المصادر التركية المعاصرة للفترة أن الغزالى هرب بعد هزيمته فى غزة[١] . وتذكر المصادر العربية التى عاصرت الفترة نفسها أن الغزالى أسر ولكنه تمكن من الفرار فيما يبدو أو بالأحرى سهل له الفرار كما يبدو ، نظرًا لثبات تواطئه مع العثمانيين . وقد أطلع الغزالى خاير بك على خطة طومان باى العسكرية وعلى الطرق التى يجب على السلطان سليم اتباعها لقهر المماليك ، وذلك قبل المعركة الحاسمة فى الريدانية[٢] . وهذا الكلام موافق للحقيقة فى

(١) **مترقچى** نصوح : المرجع السابق ، ورقة ١٢٦ .

روزنامه حيدر چلبى ، ورقة ١٤٣أ - ١٦٠ب .

جلال زاده قوجه نشانجى مصطفى : المرحع السابق ، ورقة ١٣٦أ ، ب .

(٢) ابن زنبل : المرجع السابق ، ص ٤٦-. ٤٥

ابن إياس : المرجع السابق ، ج ٥، ص ١١٨، ١٢٨، . ١٢٩

ابن طولون : المرجع السابق ، ص ٢١. نقلاً عن استخلاص لعبد الكريم رافق فى كتابه السابق .

رأيي رغم عدم وجود وثيقة تثبت ذلك .

يقول السلطان سليم فى رسالة الفتوح التى أرسلها إلى ابنه الأمير سليمان فى معرض حديثه عن معركة غزة : « أبدى جان بردى المذكور بعض مظاهر الإخلاص فى هذه النواحى [غزة] ، ثم تراجع وهرب إلى مصر ، والتقى بطومان باى »[٢] .

يبدو من كلام سليم أن الغزالى ساعد على انتصار العثمانيين فى غزة ، ثم تراجع بعد أن تحقق النصر للعساكر العثمانية وهرب إلى مصر . وربما رجع إلى مصر ليعمل من وراء خطوط المماليك لصالح الجيش العثمانى . ولو لم تحدث من جان بردى خيانة لما كرمه السلطان العثمانى وأخلع عليه عندما ذهب إليه يعرض الطاعة والولاء بعد دخوله القاهرة ، ولما أعطاه بعض الأمراء هدايا ثمينة بعد انتصار سليم على طومان باى فى المعارك التى دارت فى الريدانية وفى داخل مدينة القاهرة [٣] .

وبعد أن استولى يونس بك على القدس فى يوم الأحد ٤ ذى الحجة (٢٨ ديسمبر) ، عين السلطان سليم اسكندر بك ابن اورنوس لحكمها . وفى يوم الثلاثاء ٦ من ذى الحجة (٣٠ديسمبر) توجه سليم من الرملة التى قضى فيها خمسة أيام إلى القدس بعد الاستيلاء عليها لزيارتها[٤] . وفى اليوم التالى ترك القدس ، ووصل فى يوم الخميس إلى قرية سدود . وفى يوم الجمعة ٩ من ذى الحجة سنة ٩٢٢ (٢ يناير ١٥١٧م) وصل سليم إلى غزة وانضمت

---

(١) انظر الوثيقة ص . ١٩٩

(٢) انظر ص . ١٢٩

(٣) صلى سليم ركعتين للضراعة فى المسجد الأقصى ثم أقام صلاة المغرب ، وصلى العشاء فى قبة الصخرة

مترقجى نصوح : المرجع السابق ، ورقة ٣٣ب .

روزنامه حيدر حلبى ، ورقة ١١٤٣ - ١٦٠ب

الجنود التى تحت إمرته إلى الفرق التى كانت بقيادة الصدر الأعظم سنان باشا وفى اليوم التالى وهو السبت ١٠ ذى الحجة (٣يناير) احتفل سليم بعيد الأضحى المبارك . ومكث فى غزة ستة أيام يرتب الجنود ليتحرك مباشرة إلى مصر .

بعد أن تلقى طومان باى رسالة سليم السابقة ، أخذ يعد العدة ويجهز الجنود للقائه . ومن المؤسف أن المماليك فى ذلك الظرف العصيب أظهروا الكثير من الاستهتار والاستهانة بالموقف ، فردوا النفقة التى تسلموها من السلطان حتى ملأه الأسى ، فطلب إليهم أن يولوا سلطانًا غيره . وبلغ السفه والحمق ببعض المماليك أن قالوا على مسمع منه : « إن كنت تعمل سلطانًا فامش على طريقة من تقدمك من الملوك . وإن رحت لعنة الله عليك ، غيرك يجىء يعمل سلطانًا »[١] . أسر طومان باى ما سمعه ، ولم يستطع أن يعمل شيئًا سوى تأنيبهم على هذا الموقف المتخاذل وترضيتهم ؛ وأخيرًا خرج إلى الريدانية وأخذ يلوم رجاله على تقاعدهم وانشغالهم بالنفقة والفتن حتى اقتحم العثمانيون الحدود المصرية . وفى الريدانية أبى الأمراء والعسكر إلا الوقوف عندها وعدم التحرك ، وعبثًا يحاول السلطان إقناعهم بالسفر إلى الصالحية ، فكانت إجابتهم « ما يقع بيننا وبينه قتال إلا فى الريدانية » .

لم يسع طومان باى إلا أن يحصن الريدانية – قرب العباسية بظاهر القاهرة – فحفر خندقًا على طول الخطوط الأمامية ، وأعد أسلحته . ورغم هذه الاستعدادات الضخمة فقد جبن المماليك حتى كان منهم من لايقيم بالريدانية إلا خلال النهار كى يراهم السلطان ، ثم يعودون إلى القاهرة حيث يبيتون فى منازلهم . وهذا يفسر مدى ما لقيه طومان باى من عنت فى سبيل إعداد جيشه لحرب العثمانيين . ولما علم طومان باى وهو فى الريدانية ، بتوغل العثمانيين فى

---

(١) ابن إياس : المرجع السابق ، ج ٣، ص ٨٤.

البلاد المصرية ، حاول أن يقنع أمراءه بمباغتة العدو عند الصالحية ، وهو فى حالة إعياء بعد عبور الصحراء ، ولكن الأمراء غلبوه على أمره مرة أخرى ظنًّا منهم أن الخندق الذى أعدوه بالريدانية كفيل بحمايتهم[1] .

واصل السلطان العثمانى سيره نحو مصر فوصل فى يوم الجمعة ١٦ من ذى الحجة سنة ٩٢٢ (٩ يناير ١٥١٧) إلى خان يونس التى فتحها سنان باشا من قبل بمساعدة بدو سيناء . وفى اليوم التالى وصل إلى رعده ، وبعده وصل إلى العريش . وفى يوم الإثنين ١٩ من ذى الحجة (١٢ يناير) وصل إلى قبر المساعى وكان وقت المغرب ، فأقام الصلاة ، وقام جنوده بنهب أغنام الأعراب لأنهم كانوا جائعين ، ثم وزع السلطان عليهم **الآقچه**[2] . وفى اليوم التالى وصل سليم إلى بئر العبد ، ثم إلى قرية قطية فحبو عقوله . وفى يوم الجمعة ٢٣ ذى الحجة (١٦ يناير) وصل إلى الصالحية ، وفى اليوم التالى وصل إلى قرية خطارة ثم إلى بلبيس فى يوم الأحد ٢٥ ذى الحجة (١٨ يناير) .

مكث السلطان يومين فى بلبيس[3] ، قدم له خلالهما بدو بنى بقر المسيطرون على الشرقيــة الطاعـة . وقد كان ولاء البدو عاملاً هامًا فى نجاح العثمانيين ، لأنه لو لم يكن الأمر كذلك لكان بإمكانهم إشغال قسم كبير من الجيش العثمانى فى قتالهم ، فى منطقة هم أدرى بجغرافيتها ، عدا عن تهديدهم لقواف المؤن[4] .

---

(١) د . ابراهيم على طرخان : المرجع السابق ، ص ١٨٨.

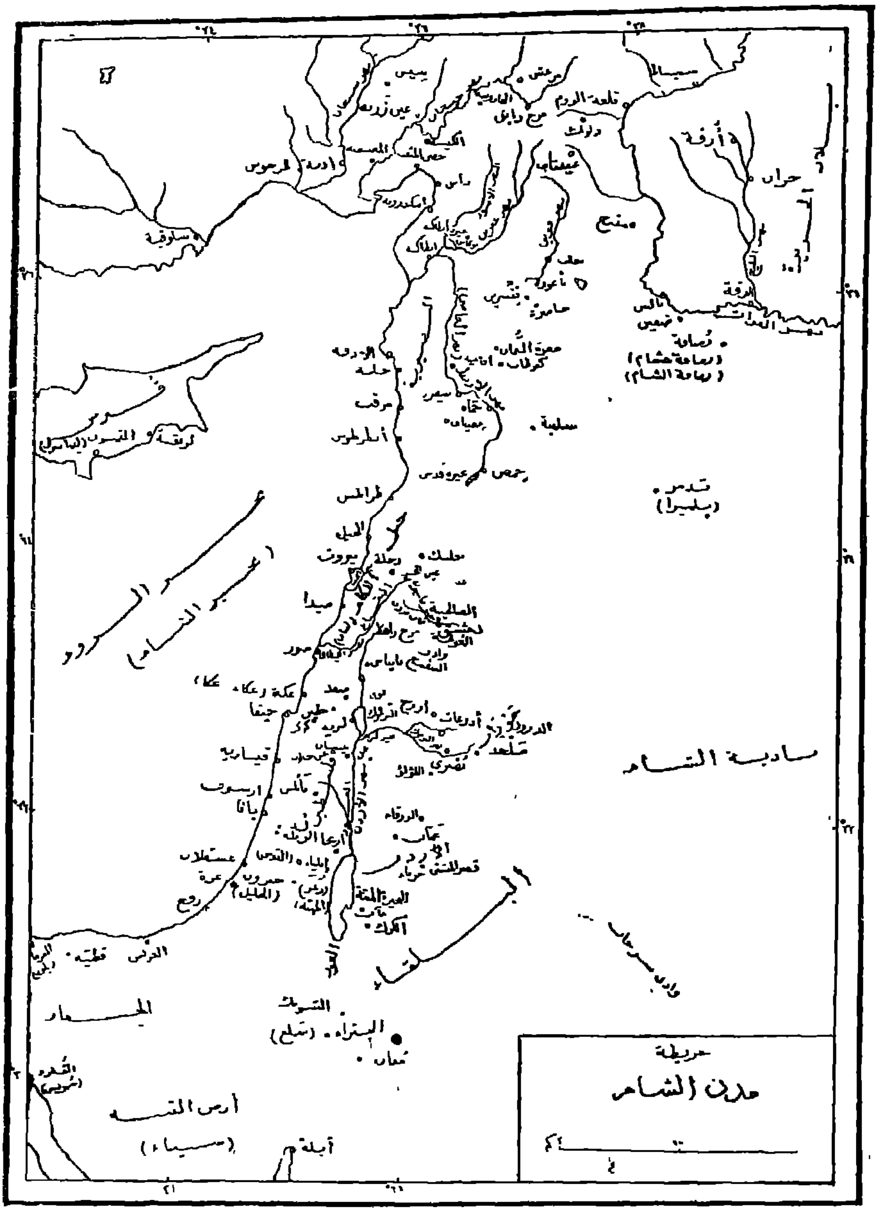
(٢) **الآقچه** : نقد عثمانى فضى زنته قيراطان .

(٣) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٦٤١- ٦٣٠.

روزنامه حيدر جلبى ، ورقة ١٦٠- ١٤٣.

جلال زاده قوجه نشانجى مصطفى : المرجع السابق ، ورقة ١٣٧ب

(٤) د . عبد الكريم رافق : المرجع السابق ، ص ١٠٦.



خريطة مدن الشام

تحرك سليم إلى الخانكة حيث وصلها في يوم الثلاثاء ٢٧ ذى الحجة (٢٠ يناير) . وهناك فكر خاير بك في حيلة للإيقاع ببعض العرب ، فتخفى فى خندق هو وسنان باشا وعلى بك أمير ذولقادر ومحمد بك حاكم بنى رمضان وفاجأوا بعض العرب وأسروهم ثم استجوبوهم وقتلوهم . وقد أنعم سليم على خاير بك بهذه المناسبة .

ذكر الأسرى فى استجوابهم : « أن المماليك أحضروا رجال مدفعية أشداء ، وحفروا خندقًا طويلاً وعريضًا أمام عمارة تسمى العادلية ، وبالغوا فى تعميقه ؛ وعملوا من التراب الذى استخرج منه المتاريس ، وأقاموا فى بعض المواضع حول الفيلق مائتين من المجانيق »[1] .

معركة الريدانية وسقوط القاهرة :

وصلت الجيوش العثمانية إلى بركة الحاج فى يوم الأربعاء ٢٨ ذى الحجة ٩٢٢هـ (٢١ يناير ١٥١٧م) ، وهناك حاصر جنود **الچراكسة** والعرب عساكر العثمانيين الذين أصابهم العطش وضيقوا عليهم الخناق لكى يحرموهم من ورود الماء ، لكن سنان باشا صوب نحوهم المدافع فتفرقوا . وفى اليوم التالى وهو الخميس ٢٩ ذى الحجة (٢٢ يناير) تلاقى الجيشان المملوكى والعثمانى فى الريدانية أمام قبر السلطان قايتباى قرب العباسية .

كان السلطان العثمانى فى وسط جيشه ، وكان الجناح الأيمن تحت قيادة الصدر الأعظم سنان باشا ويضم أمير الأناضول مصطفى باشا وأمير ذولقادر على باشا وفرحشاد أحد أمراء الآق قيونلية ومحمد بك أخا حاكم سنجق طرابلس وخاير بك ، وكان الجناح الأيسر تحت قيادة الوزير الثانى يونس باشا ويضم أمير الروملى **كوچك** سنان باشا ومحمود بك أمير بنى رمضان ومبارك

---

(١) انظر الوثيقة ص ١٩٩.

كراى وسعادات كراى من أمراء القرم ويونس بك الحاكم السابق لعينتاب .

تحصن جيش المماليك فى الخندق الذى أقامه فى الريدانية انتظارًا لقدوم الجيش العثمانى . لكن العثمانيين أدركوا ذلك وفهموا طبيعة المدافع المملوكية التى لاتتحرك إلى الخلف بسهولة بعكس المدافع العثمانية(١) . حرك سليم بعض الفيالق فى مواجهة الجيش المملوكى لخداعه ، ووجه أكبر عدد من جنوده جنوب الموقع الذى تحصن فيه المماليك ، وبدأت العساكر العثمانية تهاجم الجنود المملوكية من جبل المقطم بعد مشاورة الذين يعلمون أحوال تلك البلاد . تصارع الجيشان وتبادلا الهجمات تلو الهجمات ، وحمى وطيس المعركة ، فهى معركة البقاء التى سيتقرر فيها مصير مصر ومستقبل **الچراكسة** . مالت كفة الحرب فى صالح **الچراكسة** مرات ، ومالت مرات أخرى فى صالح العثمانيين .

سقط فى المعركة من العثمانيين الصدر الأعظم سنان باشا الخادم (٢)

---

(١) استعمل سليم المدافع المملوءة بالشظايا Yivli Toplar لأول مرة أثناء فتح مصر . وقد أظهر هذا النوع من المدافع الذى يقذف بمعدل ٥، ١٠ قذائف متوالية نتائج رائعة فى معركة الريدانية . وتوجد بعض مدافع من هذا النوع فى المتحف الحربى ا Askeri Muze باستانبول حاليًا .

Yilmaz Oztuna : op. Cit. vol. 5, p.44

يذكر ابن زنبل وابن إياس أن خيانة الغزالى لعبت دورًا هامًا فى هذه المعركة إذ أعلم هذا الخائن جان بردى خاير بك بخطة طومان باى فى الدفاع ، وقام بإخفاء الطوارق والمكاحل بناء على طلب خاير بك ، مما جعل الجيش العثمانى يتجنب تحصينات المماليك فى الريدانية ويهاجمهم من الخلف .

(٢) يذكر ابن زنبل فى ص ٣٢ من كتابه أن طومان باى ظن الصدر الأعظم سنان باشا هو السلطان سليم فى المعركة ، فتقدم منه وقال له : « ياسليم أنت غير سالم ، ثم جذبه من على سرجه بيده اليسرى ورفعه إلى أعلى رأسه وألقاه على الأرض بعنف ، فطبق أضلاعه بين جنبيه . وكان بجانب طومان باى الأمير علان فحز رأس سنان » .

ويقول منجم باشا أحمد دده فى الورقة ١١٨٤ من ج٢, من كتابه أن سنان باشا مات متأثرًا بجراحه .

ويقول يلماز اوزطونه فى ص ٤٥ من متابه : وكل طومان باى أمر قتل سليم للفارسين قورت =

ومحمود بك أمير بنى رمضان ويونس بك أمير عينتاب السابق . ويقال أن سليمًا حزن على فقد الصدر الأعظم وبكى عليه وقال فيه بعد الفتح « استولينا على مصر ، لكننا فقدنا سنان باشا ، خسارتنا فيه لا يمكن أن تعدلها دولة » (برمملكت آكا بدل أوله ماز)[1] .

شدد العثمانيون هجماتهم بعد فقد هؤلاء القواد ، وتمكنوا من هزيمة الجيش المملوكى وتشتيته . وقد اضطر طومان باى الذى حارب فى شجاعة نادرة إلى الفرار عندما وجد نفسه وقد انفض جنوده من حوله . هرب طومان باى إلى طره ، وعندما أحس بالجنود العثمانيين يتعقبونه ، اتجه شرقًا لينجو بنفسه .

دخلت العساكر العثمانية القاهرة فى اليوم التالى للمعركة وهو يوم الجمعة ٣٠ ذى الحجة (٢٣ يناير) . ودخل الخليفة المتوكل المدينة فى صحبة وزراء سليم وخاير بك وقضاة الشافعية والمالكية والحنبلية الذين كانوا أسروا فى مرج دابق ، وشق هذا الموكب المدينة وأمامه المشاعلية تنادى لتهدئة العسكر ، كما نادوا بأن من كان عنده مملوك **چركسى** (ولا يغمز عليه) ثم ظهر عنده يشنق على الفور ، نودى كذلك بالدعاء للملك المظفر سليم شاه بالنصر ، فضج الناس بالدعاء له . غير أن الجنود العثمانيين لم يلتفتوا إلى هذا النداء واستمروا فى نهبهم حتى كانوا يخطفون الصبيان المرد والعبيد السود بحجة البحث عن الجراكسة ، وظل النهب ثلاثة أيام[2] . ويصف المؤرخ التركى جلال زاده قوجه نشانجى مصطفى المعاصر لفترة دخول العثمانيين القاهرة بقوله : دخل الجيش العثمانى مصر وكان يوم الحساب والزلزال والانتقام للمعركة السابقة

= باى وآلان باى . قاد جان بردى الغزالى المعركة ضد الجناح الأيمن العثمانى ، وقتل سنان باشا الذى كان على رأسه ، وانتقم بهذا من القائد الذى هزمه فى غفزة وخان يونس .

لكننى لا أوافق اوزطونه فى هذا ، إذ لو قتل سنان باشا قد حدث بهذه الطريقة ، لما قبل سليم فيما بعد إعلان جان بردى الطاعة والولاء له وأمنه على حياته وماله .

(١) أحمد راسم : المرجع السابق ، ص . ٢٤٠

(٢) إبراهيم طرخان : المرجع السابق ، ص . ١٩٠

[الريدانية] وما حاق بالعثمانيين فيها من خسائر فادحة ، وكان يوم القيامة حقًّا يوم يفر المرء من أخيه[1] .

وفى نفس اليوم أقيمت صلاة الجمعة فى المساجد ، ودعا الخطباء للسلطان سليم قائلين : « انصر اللهم السلطان ابن السلطان ملك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين ، وخادم الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه . اللهم انصره نصرًا عزيزًا ، وافتح له فتحًا مبينًا يامالك الدنيا والآخرة يارب العالمين[2] .

وفى يوم الأحد ٢ محرم (٢٥ يناير) عرض محمد بن قانصوه الغورى الطاعة على السلطان سليم ، فقبلها سليم وأمنه على حياته وماله . وفى اليوم التالى أى بعد انقضاء أربعة أيام فى الريدانية ، انتقل السلطان منها إلى معسكر آخر فى جزيرة بولاق (الجزيرة الوسطانية)[3] .

وفى يوم الثلاثاء ٤ محرم سنة ٩٢٣ (٢٧ يناير ١٥١٧م) غافل أحد جنود المماليك ويدعى غوربغا وزميل له حرس معسكرهما ، وجاءا إلى العثمانيين وأخبراهم بعزم المماليك على القيام بهجوم مفاجىء عليهم . تحقق صدق كلام هذين الخائنين ، فقد دخل طومان باى ومعه حوالى ٧٠٠٠ جندى من المماليك مدينة القاهرة فى ليلة الأربعاء ٥ محرم سنة ٩٢٣(٢٨ يناير سنة ١٥١٧م) ، وسدوا مداخل الطرق ومخارجها بالمتاريس وحفروا الخنادق ، وقاموا بقتل كثير من الجنود العثمانيين الذين صادفوهم[4] . ولما وصل الخبر إلى السلطان [سليم] عين الوزير الأعظم يونس باشا وميرميران

---

(١) جلال زاده قوجه نشانجى مصطفى : المرجع السابق ، ورقة ١١٤٠ .

(٢) ابن إياس : المرحع السبق ، ج ٣، ص . ٩٨

دفن سنان باشا فى اليوم نفسه فى راوية الشيخ تيمور طاش خليفة بمصر (روزنامه حيدر چلبى ، ورقة ١٦٠- ١٤٣) .

(٣) هى التى يقع فيها حى الزمالك حاليًا .

(٤) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٦٤١- ٦٣٠، روزنامه حيدر چلى ، ورقة ١٦٠-١٤٣

مصطفى باشا وأغا **اليكيچريه** أياس أغا وأمير العلم فرهاد أغا فى نخبة العسكر لقتال طومان باى ، وأرسلهم إليه ، وشرعوا القتال والضراب من وراء السدود التى على روس المحال والأسواق ، فاشتد القتال نحو ثلاثة أيام ، فقتل من الطرفين خلق كثير . فركب السلطان بنفسه فى اليوم الثالث وبين يديه **اليكيچريه**، فوجد طريقًا فى جهة عمارتى السلطان حسن والشيخونية . وجميع العسكر الذى بين يديه كانوا مشاة **اليكيچريه**، يرمون المقاتلين من سطوح البيوت وشقوقها بالتفنك [البنادق] . ثم جروا المدافع الصغار ، فهدموا بها البيوت والأبنية التى كانت **الچراكسة** قد تحصنوا بها ، ويقاتلون من ورائها . وامتد القتال إلى آخر النهار ثم إلى آخر الليل ولم ينقطع ساعة(١) .

نجح طومان باى نجاحًا مؤقتًا فى قتاله داخل مدينة القاهرة ، ولم يستطع أن يستمر فى القتال رغم ما أحرزه نظرًا لانفضاض **الچراكسة** من حوله فى يوم الجمعة ٧ محرم (٣٠ يناير) ، فولى هاربًا إلى مصر القديمة .

وكان رد الفعل للمقاومة العنيدة فى داخل مدينة القاهرة شديدًا لدى سليم وجيشه . « وقد قتل فى هذه المعركة من **الچراكسة** وأهل مصر عالم عظيم ، وأسر من **الچراكسة** ثمانمائة رجل ، فأحضروا عند السلطان برميله [ميدان الرميلة فى قرب القلعة] ، فأمر بهم وضربت أعناقهم عن آخرهم . وامتلأت أسواق مصر وزقاقاتها بالجثث والجيف ، بحيث كان لا يمكن العبور منها . ويحكى أن عدد القتلى فى المعركة الثانية كان قد بلغ إلى ستين ألفًا . وأمر السلطان بإحراق البيوت التى تحصن فيها **الچراكسة** ، فاحترق جمع كثير بهذا الطريق(٢) . ثم عين السلطان جمعًا من العسكر المنصور لمحافظة مصر ،

(١) منجم باشى أحمد دده : المرجع السابق ، ج ٢، ورقة ١١٨٥ا .

(٢) لا أدل على ما فعله العثمانيون داخل القاهرة بعد هزيمتهم لطومان باى ، من الرسالة التالية التى أرسلها سليم إلى أمير مدينة دمشق وقاضى القضاة بها ، وذكر فيها التخريب والسلب والنهب وإشعال الحرائق والقتل الذى قام به عساكره .

(انظر الوثيقة التالية ، وخاصة الفقرتين قبل الأخيرتين) .

فرجع إلى أوطاغه (وطاقه) فى الجزيرة الوسطانية . وأمر بإلقاء الجيف فى النيل لئلا يفسد الهواء[١] .

استبشر سليم بما تم له من نصر حتى هذه اللحظة ، فأرسل رسالة إلى كافل مدينة الشام[٢] (أمير مدينة دمشق) وقاضى القضاة بها بعد أن تمركز فى بولاق ، وقبل أن يتم له النصر الكامل بالقضاء على طومان باى .

يذكر السلطان العثمانى فى رسالته[٣] انتصار الصدر الأعظم سنان باشا على جان بردى عند غزة . ثم يتحدث عن توجه العساكر العثمانية إلى مصر ، والاستعدادات المملوكية عند الريدانية لملاقاة العثمانيين . ويصف بعد ذلك معركة الريدانية وجرح الصدر الأعظم ، والانتصار على المماليك وهروبهم ، وانتقاله إلى جزيرة بولاق (الجزيرة الوسطانية) بعد أن قضى أربعة أيام فى الريدانية . ثم يبين دخول طومان باى إلى القاهرة خفية مع بعض جنوده والتحامه مع العساكر العثمانية داخل المدينة لمدة ثلاثة أيام ابتداء من ٥ محرم وهزيمة طومان باى فى النهاية وعدم معرفة حقيقة مصيره ، والانتقام من جنود الجراكسة فى نهاية هذه المعركة .

وهذا هو نص الرسالة بالعربية :

قدوة الأمراء الكرام ، وعمدة الكبراء الفخام ، ذو القدر والاحترام ، كافل مدينة الشام دام عزه ، وأقضى قضاة المسلمين ، أولى ولاة الموحدين ، معدن

(١) منجم باشى أحمد دده : المرجع السابق ، ح ٢، ورقة ١١٨٥ا .

(٢) تذكر مدينة دمشق فى الكتابات التركية بلفظ (شام) ، وفي بعض الكتابات العربية التى يكتبها الترك والعرب فى ذلك الوقت بكلمة (الشام) . وقد يقصد بها أحيانًا إقليم الشام . وهى فى الوثيقة التالية تعنى دمشق حيث سبقها لفظ مدينة .

(٣) وصلت الرسالة فى يوم الحمعة ٦ صفر على يد أربعة من الهجانة ، وقد قام شمس الدين الحلبى دوادار السلطان بترجمتها عن التركية ، ثم قرأها على الناس . (ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ص ٤٣) .

الفضل واليقين ، حجة الحق على الخلق أجمعين ، مولانا قاضى القضاة بالشام المحروس ، أبدت فضائله مرسومنا هذا ، يوضح لعلمهما الكريم ، أننا توكلنا على الله سبحانه ، وتوسلنا بسيد الكائنات ، محمد ﷺ .

وتوجهنا بعساكرنا وصناجقنا وأعلامنا وجيوشنا وخيولنا السابقات الصافنات وقسينا الصائبات ، ورجالنا المرصدين لصيد أعدائنا ، مع هدية الله تعالى ، من الشام مع السعد والظفر إلى جهة مصر فوجدنا طومان باى ، الذى تولى سلطنة مصر وأقام جان بردى الغزالى كافلاً للشام ، وجهزه إلى غزة وصحبته فرقة من العساكر المصرية .

وكان فى تقدمنا قدوة الوزراء العظام ، وعمدة الكبراء الفخام ، الغازى فى سبيل الله ، المجاهد لوجه الله الوزير الأعظم سنان باشا ، إلى جهة غزة ، فوقع بهم والتحم بينه وبينهم القتال العظيم ، فبعون الله تعالى وسعادتنا الشريفة ، حصل له النصر والظفر ، وقتل منهم من قتل ، وأسر منهم من أسر ، ومن سلم من سيفه فر منهزمًا صحبة الغزالى المذكور إلى مدينة مصر .

ثم إن ركابنا الشريف جد فى السير ، فى السعد والإقبال ، بعساكرنا وجنودنا ، واجتمع بنا سنان باشا المشار إليه وصرنا نرحل من مرحلة إلى مرحلة مثل السهام .

فلما وصل إليهم خبر توجه ركابنا الشريف على هذا النحو أرادوا أن يتداركوا بقاء نفوسهم وأوررواحهم فجمعوا عساكرهم السيفية ، والجلبان ، ومماليك الأمراء ، والعربان نحو الثلاثين ألفًا .

وجمعوا ما فى القلعة المصرية ، وبيوت الأمراء وثغر إسكندرية ، وسائر البلاد والقلاع من المكاحل ، والكفيات ، والسبقيات ، والبندقيات ، واللبوس ، والسلاح .

وحفروا خندقًا فى الريدانية ، من بحر النيل إلى الجبل ، وجمعوا أخشابًا

جعلوها تساتير على الخندق ، وأحضروا رماة من الفرنج وغيرهم وسائر آلات الحرب وهيئوها للقائنا .

فوصل ركابنا الشريف ، بعساكرنا المنصورة ، إلى الريدانية ، فى يوم الخميس التاسع والعشرين من ذى الحجة الحرام سنة اثنين وعشرين وتسعمائة ، وقت الغداة ، فوجدناهم قد لبسوا السلاح ، وتكملوا العدد ، وتقلدوا بالمدد ، وهم غارقون فى الدروع والزرد ، وأرادوا مقابلة عساكرنا المنصورة التى هى أعداد الرمال ، وأمثال الجبال ، ولها قلوب الأسود ، وشخوص الرجال .

فلما وقف الصفان ماج عسكرنا كموج بحر عمان ، فبقى يغلى ويضطرب ، فرتبنا ووزيرنا الأعظم سنان باشا فى ميمنة العسكر ودستورنا المكرم ومشيرنا المفخم نمر وهزبر اللهبجاء وزيرنا يونس فى الميسرة .

واصطف الجيشان ، وزحف العسكر المصرى على سنان باشا فى الميمنة ، ورموا عليه بالمكاحل والسبقيات والكفيات والبندقيات ، وجاء أعداؤه للقتال ، فما روعة ذلك ، وأزعجه ، بل جال فيهم وصال ، وقطع منهم الأوصال ، ورمى منهم الرءوس عن الجثث ، وغنى فيهم السيف ، إلى أن خاضت خيولهم فى الدماء والقتلى .

ثم ولوا منه منهزمين إلى الميسرة ، فتلقاهم يونس باشا المشار إليه ، وجال فيهم بطعن وضرب ، فأرادوا الفرار ، فناداهم لن ينفعكم الفرار ، إن فررتم من الموت أو القتل ، فكم من فارس تجندل صريعًا ، وكم من أمير أحضروه إلينا أسيرًا .

وأما غالب العسكر المخذول ، فداسه عسكرنا تحت حوافر الخيول ، واستمر الحرب من أول النهار إلى بين الصلاتين ، وصار حرب عظيم ، وجرح سنان باشا .

وآخر الأمر بإرادة الله تعالى ، ﴿ ألا إن حزب الله هم الغالبون ﴾ ،

وصارت عساكرنا غالبة ومنصورة ، والعساكر المصرية مغلوبة مقهورة وقالوا : أين المفر ؟ والذى سلم من سيوفنا منهم من رمى بنفسه عن فرسه فقبضوا عليه ، ومنهم من قطعوا رأسه وأحضروه إلينا ، والمأسورون منهم عملناهم أشارات لنبلنا وغذاء لسيوفنا ، وصارت أبدانهم ورءوسهم وخيولهم كيمانا .

وأقمنا بعد هذه المعركة فى الريدانية أربعة أيام بالسعد والإقبال ثم انتقل ركابنا الشريف من الريدانية إلى جزيرة بولاق .

وكان قد فضل بقية سيوفنا من العساكر المصرية ، فهربوا واجتمعوا هم والسطان طومان باى ، وجمعوا العربان ، والتموا نحو العشرة آلاف ، ليلاً من نهار الثلاثاء خامس شهر المحرم الحرام[1] سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة خفية ، ودخلوا البيوت الحصينة ، وحفروا حولها الخنادق ، وستروا التساتير ، واجتمعوا فى الحارات وأظهروا الفساد ، وأبرزوا العناد ، فعلمت عساكرنا المنصورة بهم ، فربطوا الخيالة لهم الطرقات ، لئلا ينهزم منهم أحد ، وصارت عليهم مماليكنا الينكشارية والتفكجية ، وحملت عليهم حملة رجل واحد ، ودخلوا عليهم إلى البيوت التى تحصنوا فيها ، ونقبوا عليهم البيوت يمينًا وشمالاً ، وطلعوا على أسطحة تلك البيوت التى تحصنوا فيها ، ورموا عليهم بالبنادق والكفيات ، واستمر الحرب بين عساكرنا المنصورة وبينهم ثلاثة أيام .

وفى يوم الجمعة ركب مقامنا الشريف ، واشتد الحرب ، وصار مثل ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ ، ومثل ﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴾ فخربنا ما عملوه من التساتير والخنادق ، فالتجئوا إلى بعض البيوت الحصينة ، فحرقنا عليهم تلك البيوت التى التجئوا إليها وبقوا فى العذاب الأليم ، وأرادوا الهروب فما لقوا لهم طريقًا إلا بحر النيل ، فأرموا أنفسهم فيه وغرقوا كيوم فرعون .

---

(١) هذا معناه أن طومان باى دخل مدينة القاهرة فى أواخر نهار الثلاثاء وأوائل ليل الأربعاء الموافق ٥ محرم . وهذا التاريخ يتفق مع ما أورده حيدر چلبى وأحمد فريدون ، راجع ص ١٨٧.

وفى هذه الثلاثة أيام يستمر القتال من الصبح إلى العشاء ، وبعون الله تعالى قتلنا جميع الجراكسة ، ومن انضم إليهم من العربان ، وجعلنا دماءهم مسفوحة وأبدانهم مطروحة ، ونهب عساكرنا قماشهم وأثاثهم وديارهم وأموالهم وبركهم وبرقهم ثم صارت أبدانهم للهوام .

وأما طومان باى سلطانهم ، فما عرفنا هل هو مات أم بالحياة ، وأطاعتنا بعون الله تعالى جميع العربان والمشايخ والأكابر بمصر وأعمالها ، والحمد لله الذى هدانا لهذا ، والمسئول من الله سبحانه أن يكون عدونا دائمًا مقهورًا ، وعسكرنا منصورًا ، والداعى بدوام دولتنا مسرورًا ، إلى يوم النشور ، آمين يامعين .

وبعد هذه الفتوحات العظمى ، أردنا أن نعلم جميع رعايانا ، سكان ممالكنا الشريفة بذلك ليأخذوا حظوظهم من هذه البشرى ، ويبتهلوا إلى الله تعالى بالأدعية الصالحة بدوام دولتنا الشريفة ، ويدقوا البشائر ويعلنوا التهانى ، ويرموا بالبارود فى القلعة المنصورة ،، ويعلموا بذلك أطراف البلاد ومقدميها ليكونون مسرورين بهذه البشرى وكتب فى أوائل المحرم ، بمنزلة جزيرة بولاق[1] .

وفى يوم الثلاثاء ١١ محرم (٣ فبراير) عين « **كوچك سنان باشا** » صدرًا أعظم ، بدلاً من « خادم سنان باشا » الذى سقط فى معركة الريدانية .

بعد أن انتهت معارك القاهرة اختفى طومان باى ، ولم يكن لدى السلطان العثمانى معلومات مؤكدة عن مصيره : هل هو على قيد الحياة أم أنه مات ؟ هل يجهز للدخول فى معركة أخرى إذا كان على قيد الحياة أم أنه ولى هاربًا ؟ وبعد فترة من الزمن علم من بعض الأسرى أن طومان باى لايزال على قيد الحياة . وفى هذه الأثناء قبض على أحد رجال **الچراكسة** المشاهير ويدعى

---

(١) محمد بن طولون : مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ، القسم الثانى نشر محمد مصطفى ، ص ٤٤-٤٧ القاهرة . ١٩٦٤

يشبك (الدوادار الثانى) . منح سليم هذا الأسير الأمان ولم يأمر بقتله ، نظرًا لما يمكن أن يدلى به من معلومات هامة عن نوايا طومان باى وعن حالته وتجهيزاته العسكرية بحكم وظيفته فى الدولة المملوكية .

قام أحد العثمانيين باستجواب يشبك ، وكتب تقريرًا بأقواله ورأيه . أكد يشبك فى حديثه إلى سائله على أن طومان باى سيهرب إذا هاجمه سليم فى البر الآخر من النيل . ورجح أحد طريقين يسلكهما ساعة هروبه . فإما أن يذهب إلى شاطىء النيل وإما أن يسلك الطريق المؤدية إلى مشايخ بعض الأعراب كابن عمر وابن واصل الأحطب . ونبه يشبك إلى إحكام الحصار وعدم الغفلة فى نهاية حديثه .

وهذه ترجمة للتقرير عن التركية (١):

وبسؤال يشبك مرة أخرى ، أفاد قائلاً : جئنا وحاربنا عساكر السلطان صاحب الدولة [سليم] ضعاف ، وقعوا فى الحصار ، لايستطيعون الخروج من المدينة ، أحوالهم بائسة . سألته : تعالوا وحاربوا . أين انتهى عاركم وغيرتكم ؟ وهل يرسل أحد من المصريين عداك بالخبر أيضا ؟ قال : سمعت من الخدم - باستثناء الذين يقومون بالخدمة على المأكل والملبس للأمراء المحبوسين فى هذا [السجن] - أنهم يرسلون الخبر إلى طومان باى بطريقة ما . سمعت أنهم كانوا يرسلون الخبر إليه عما يقع لهم فى هذا [السجن] . سألته : من أى خادم من خدم هؤلاء الأمراء سمعت ؟ قال : رأينا قانصو ، وسمعت من خادمه .

سألته : هل يتوقف طومان باى أم يهرب ، عندما يعبر السلطان صاحب الدولة إلى الشاطىء الآخر [للنيل] ؟ قال : إنه لن يتوقف ، بل سيهرب حسبما سمعت . سألته : إلى أين سيهرب ؟ قال : سيهرب إما إلى البر وإما

(١) الوثيقة ركيكة فى نصها التركى وبها أخطاء لغوية ، وقد حرصت على أن أكون ملتزمًا بالنص مع نقل روحه فى ترجمتى إياه إلى العربية .

إلى شاطىء النيل ، وليس له طريق غير هذا

إذا قصدوا سلوك طريق ابن عمر وابن واصل الأحطب ؛ فإنه سيهرب من مكان معين ، ولن يجد وسيلة للخلاص ؛ وإلا فإنه سيعبر إلى شاطىء النيل . قوموا بعمل حصار محكم . ينبغي اليقظة[1] .

فى قول يشبك هذا ما يؤكد أن طومان باى أصبح ضعيفًا لا يستطيع الصمود والمقاومة .

هرب طومان باى إلى البهنسا فى صعيد مصر وظل يكافح بما تيسر له من وسائل ، من ذلك أنه منع وصول الغلال إلى القاهرة فوقع فيها الغلاء ؛ والتف حوله كثير من أبناء الصعيد حتى قويت شوكته ، غير أنه أدرك استحالة النصر النهائى . ولما استبد به الحزن والأسى لكثرة ما لقى من متاعب ، أرسل إلى سليم فى يوم الإثنين ١٧ محرم (٩ فبراير) يفاوضه فى الصلح ، وهذا كتابه إليه بعثه مع عبد السلام قاضى البهنسا[2] :

إن كنت تروم أن أجعل الخطبة والسكة باسمك وأكون نائبًا عنك بمصر وأحمل إليك خراج مصر حسبما يقع عليه الاتفاق بيننا من المال الذى أحمله إليك فى كل سنة ، فارحل عن مصر أنت وعسكرك إلى الصالحية وصن دماء المسلمين بيننا ، ولا تدخل فى خطيئة أهل مصر من كبار وصغار وشيوخ ونساء ، وإن كنت ما ترضى بذلك ، أخرج ولاقينى فى بر الجيزة ويعطى الله النصر لمن يشاء .. ولا تحسب أنى أرسلت إليك أسألك فى أمر الصلح عن عجز ، فإن معى (٣٠) أميرًا ما بين مقدمى ألوف وأربعينات وعشراوات ، ومعى المماليك السلطانية والعربان نحو عشرين ألف ، وما أنا بعاجز عن قتالك

(١) الوثيقة محفوظة فى أرشيف طوبقبو سرايى ، تحت رقم E. ٦٥٨٧

(٢) إبراهيم طرخان : المرجع السابق ، ص ١٩٢.

ولكن الصلح أصلح لصون دماء المسلمين[1] .

وفى يوم الثلاثاء ١٨ محرم (١٠ فبراير) جاء جان بردى الغزالى ومن معه من الأمراء ومقدمى الجنود والخدم ليعرضوا الطاعة والولاء ، فأمنه السلطان سليم على حياته وماله « وعفا عنه وأكرمه بخلع فاخرة »[2] ، كما أنعم عليه خواجه مصلح الدين فى (٢٩) من نفس الشهر بألف فيلورى وخلعتين [3] ، وهذا ما يدل على أن الغزالى كان ضالعًا فى الخيانة من قبل .

سلم جان بردى نفسه ومن معه للسلطان العثمانى فى هذا اليوم بالذات لأن طومان باى أرسل فى طلب الصلح من سليم فى اليوم السابق . وبهذا يكون دوره فى الخيانة قد انتهى عند هذا الحد ، فقد أدرك بعد طلب طومان باى أن السلطان المملوكى لم يعد يتمتع بقوة تؤهله لمقاومة العثمانيين مرة أخرى . وربما لجأ إلى العثمانيين فى ذلك الوقت بالذات وقبل استقرار الأمور لهم تمامًا ، خشية افتضاح أمره ووقوعه تحت طائلة العقاب من قبل المماليك ، فربما غمز عليه أحدهم وأوقعه فى شر أعماله .

قدم مع الغزالى ٧٧٢ فردًا : سجناء القلعة من بين مقدمى الألوف وأمراء الأربعينات والعشرات والخاصكية والجنود ، بالإضافة إلى اثنين من العرب من بين أمراء العشرات . ويبلغ عدد هؤلاء جميعًا ٦٠٧ فردًا . وقدم أتباع جان بردى أيضًا ، وهم نائبه وجمع من البكوات وخدم السلطان . ويصل عددهم جميعًا إلى ١٦٥ فردًا[4] .

---

(١) ابن إياس : المرجع السابق ، ج ٣، ص ١٠٩.

(٢) جلال زاده قوجه نشانجى مصطفى : المرجع السابق ، ورقة ١٤١ أ .

منجم باشى أحمد دده : المرجع السابق ، ج ٢، ورقة ١١٨٥ أ .

(٣) روزنامه حيدر چلبى ، ورقة ١١٥٠ أ .

(٤) انظر ترجمتى للوثائق الثلاث التى تضم قوائم بأعداد وأسماء الأمراء ومقدمى العساكر والخدم الذين جاءوا مع الغزالى لتقديم الولاء للسلطان سليم فى الملحق رقم ٢٩ .

(أصل هذه الوثائق محفوظ فى أرشيف طوپقپو سرايى ، تحت رقم D. 9682) .

ويذكر حيدر چلبى أن رجال جان بردى الذين قدموا معه لطلب الأمان أودعوا السجن ، أما هو فقد منح علم الصوفية .

وفى يوم الجمعة ٢١ محرم (١٣ فبراير) أمر السلطان سليم بكتابة « رسائل تبشير بالفتح والأمان مع فرمانات » إلى مكة والمدينة وينبوع وجدة[١] .

دخل سليم القاهرة فى يوم ٢٣ محرم ٩٢٣هـ (١٥ فبراير ١٥١٧م)[٢] فى احتفال رسمى ، بعد قيام جنوده بتطهيرها من جثث قتلى المعارك ، وبعد أن تأكد له هدوء العاصمة وخلوها من المقاومة بعد هروب مليكها إلى الصعيد وطلبه الصلح . صلى الجمعة تيمنًا بالفتح فى ٢٨ محرم (٢٠ فبراير) فى جامع المؤيد ، « ولما لقبه الخطيب بخادم الحرمين الشريفين ، نزع السلطان عمامته وقلب سجادته ، فسجد على الأرض شكرًا لله تعالى على هذه النعمة الجليلة ، وبكى إلى أن نزل الخطيب من المنبر . وأعطى الخطيب بعد الفراغ من الصلاة مائتى دينار وألبسه ثلاث خلع »[٣] .

بعد أن استتبت الأمور لسليم فى القاهرة ، وأرسل شريف مكة زين الدين بركات (حكم من ١٥٢٥- ١٤٩٧م) ابنه أبا الحسنى للتهنئة بالفتح وعرض الطاعة والولاء ؛ كتب لابنه الأمير سليمان رسالة الفتوح فى أواخر شهر محرم يخبره فيها بما حدث فى المعارك التى دارت بينه وبين الغورى فى مرج دابق وبينه وبين طومان باى فى الريدانية وفى داخل مدينة القاهرة . ويذكر له كيف هرب طومان باى إلى الصعيد ثم إلى الإسكندرية ، وكيف تم القبض عليه وصلبه . ويبشر السلطان ابنه بتمام الفتح فى نهاية رسالته ، وبما استطاع أن يضمه إلى أملاك الإمبراطورية العثمانية .

---

(١) روزنامه حيدر چلبى ، ورقة ١٥٠ا .

(٢) اتفق تاريخ فتح مصر « فاتح ممالیك العرب » ، قاله ابن كمال وكان قاضى عسكر المنصور فى هذا السفر [الحرب] . (منجم باشى أحمد دده : المرجع السابق ، ج ٢، ورقة ١١٨٥ا) .

(٣) منجم باشى أحمد دده : المرجع السابق ، ج ٢، ورقة ١١٨٥ا ، ب .

وهذه ترجمة للرسالة عن التركية :

ولدى العزيز سليمان شاه طال بقاه ونال مناه ، صاحب الدولة والسعادة ، حدقة باصرة الدين الدولة ، وحديقة بهجة الملك والأمة ذاتها ، الإكليل السلطانى ، در الفلك المتوج ، المختص بأنواع مواهب الملك الإلهى .

ليكن معلومًا لديك عندما يصلك هذا الفرمان السلطانى ، أن الغورى قد خذل وقهر وهزم فى الحرب فى مكان يدعى مرج دابق بالقرب من حلب فى أواخر رجب من العام الماضى ٩٢٢هـ . وانتصر جيش الإسلام بعناية الله تعالى ، وهزمت طائفة المماليك ، وقطعت رأس الغورى . وبعد أن ألقيت تحت سنبك حصانى السلطانى ، قصد طومان باى سيء الحظ مصر ومعه بقية السيوف[1] ، واعتلى عرش مصر .

توجهت من حلب إلى دمشق ، وهناك استسلمت للراحة عدة أيام . وفى الربيع تداركنا الأمر ، وعزمنا على ملاقاته . توكلت على الله سبحانه وتعالى فى كل يوم ، وتوسلت طلبًا لمعجزات سيد الكائنات عليه أفضل الصلوات . واستلهمت القوة من الأرواح الطيبة للصحابة الأربعة العظام وأولياء الله الكرام ، رضوان الله عليهم إلى يوم القيام . نهضت من محمية دمشق بأعلام النصر وألوية السعادة ، والجنود المتعطشة للحرب والتى تشبه الصاعقة ، وشجعان المماليك المفتوحة الأقوياء ، والخيالة المبارزين من القناصة ؛ وقطعت المنازل قطعًا وطويت المراحل طيًّا .

ذكر طومان باى أنه أعطى إيالة الشام لجان بردى الغزالى المهزوم . ولما علمنا أنه أرسله إلى غزة ، بعثت إليه بوزيرى سنان باشا ، عمدة الوزراء العظام ، قدوة الكبراء الفخام ، الغازى فى سبيل الله ، المجاهد لوجه الله ، على رأس الجيوش لكى يلاقيه . دارت المعارك وانتصر الوزير المشار إليه بعناية الله

(١) لم يشترك طومان باى فى معركة مرج دابق ، ولم يبارح القاهرة حيث كان نائب الغيبة بها .

تعالى ، وهزمت الطائفة المذكورة وتشتتت . أبدى جان بردى المذكور بعض مظاهر الإخلاص فى هذه النواحى ، ثم تراجع وهرب إلى مصر ، والتقى بطومان باى .

وبينما كان مشغولاً بتدارك الأمور ، وصلت إلى مصر بجيش كبير فى السابع والعشرين من ذى الحجة من نفس العام ، واستقريت فى مكان يسمى الخانكة فى ضواحى مصر . وفى اليوم التالى حاولت دخول نفس المدينة [القاهرة] من ناحية بركة الحاج وجبل المقطم . علم من الأشخاص المأسورين أن الكفار الأذلاء المقهورين سالفى الذكر أحضروا رجال مدفعية أشداء ، حفروا خندقًا طويلاً وعريضًا أمام عمارة تسمى العادلية ، وبالغوا فى تعميقه ؛ وعملوا من التراب الذى استخرج منه المتاريس ، وأقاموا فى بعض المواضع حول الفيلق مائتين من المجانيق وملأوها بالغدر .

وفى اليوم التالى وهو الخميس التاسع والعشرين من الشهر المذكور ، عهدت إلى وزيرى الأقدم سنان باشا الهزبر خواض الوغى مع البكوات والأمراء والسباهى (الفرسان) بالجناح الأيمن للجيش . و تولى وزيرى الأكرم يونس باشا النمر رأس الهيجاء وسائر البكوات والأمراء الجناح الأيسر . وكلفت على بك ابن شهسوار حاكم ذولقادر وخاير بك والى حلب [السابق] برئاسة الميمنة الموصوفة باليمن . وأشرت على محمود بك ابن رمضان ويونس بك الجركسى حاكم عينتاب بالميسرة التى تجلب السرور . وعهدت إلى ابنى أورنوس وميخال من أمراء الروملى بالجناحين المنصورين ، وقامت ذاتى السلطانية بإدارة القلب المنصور ، وتنظيم عساكر « قپوخلقى »(1) وأغوات الفرق فيه . واتخذ عبيدى من الانكشارية أماكنهم فى ذلك الميدان وقوفًا أمام السلطان المترجل . شرعت عساكر الدورية وعساكر الاستطلاع فى ممارسة عملها من الجانبين ، وقامت ببعض المناوشات ، فاشتعلت نار الحرب . أظهر الرجال من كل جانب براعة فى ميدان القتال ، وتقدموا وأطلقوا المدافع والبنادق من كل اتجاه . فامتلأ الفضاء بالصواعق والرعود من شرر الفتنة

والنزاع ، وصارت ساحة القتال فى ظلام حالك من غبار سنابك المطايا . تحول نهار الأعداء الساطع إلى ظلام وبؤس ، والتهبت الشمس فى الأفق ، وانعكست أشعتها على الرءوس المشئومة التى تشبه الطاس وأمطرتها بوابل من الشرر ؛ فتراجعت مخذولة فى كل اتجاه . هاجم المشار إليه سنان باشا(١) الجناح الأيسر للعدو بمدافع جناحه الأيمن ببسالة ودمره : فهزم جيش الضلال وانكسر ، وجرح ذراع طومان باى جرحًا بالغًا بمشيئة الله تعالى أثناء تقدمه . شن وزيرى يونس باشا الذى يشبه الكركى من جناح الأيسر حملة عليهم جميعًا ، فتشتت الخصم عديم الأصل من طعنات السيوف ، وفى النهاية أدار وجهه وولى هاربًا . عندما وصل إلى مسامع أهل الإيمان قول الله : ﴿ ألا إن حزب الله هم الغالبون ﴾ تمسك جنود الجراكسة بأذيال الفرار ﴿ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ﴾ . هربوا من أسواق القاهرة وحاراتها مكرهين ، ولكن « أين المفر » من هذا الوعيد ؟ ولما توجهوا نحو ولاية الصعيد ، تعقبتهم عساكرنا المنصورة يومًا وليلة وهاجمتهم . قبض على أكثر من أمرائهم ومشاهير رجالهم ، وزج بهم فى السجون ، ثم مثلوا أمام حضرتنا لامعة الأنوار مع ألويتهم المنكسة ، وجعلوا هدفًا للسهام وغذاء للسيوف . وتلطخ وجه الأرض بدماء الأعداء ، وكوم القتلى على شكل تلال . لقد أخطأ رؤساؤهم غير المحنكين فى مجال السياسة ، فاتخذت أرواحهم الهائمة – التى لم توفق فى فتح – من النيران المضطرمة مكانًا وسكنى .

أقمنا أربعة أيام فى المنزل المبارك المذكور ، وفى اليوم الخامس تحركت بالإمدادات مصحوبًا بمداد السعادة ، واستقريت بعز وإجلال فى المكان المعروف بجزيرة بولاق التى تتصل بمصر عن طريق شاطىء النيل . و بينما

---

(١) راجع حاشية ص ١٠٣.

(٢) لم يذكر السلطان شيئًا فى رسالته عن مقتل سنان باشا فى معركة الريدانية ، خوفًا على الروح المعنوية لشعبه على ما يبدو .

كنت أبذل همتى العلية السلطانية ، وأنفق طاقتى السنية الملوكية ، فى تطهير تلك الأراضى الطيبة من وجود **الچراكسة** الخبيث ، الذين يرتبط طالعهم بنجم السها ؛ دخل طومان باى القاهرة فجأة ، فى ليلة الأربعاء السابع من محرم الحرام[١] سنة (٩٢٣) من ركن خفى مع أنصاره المكروهين الذين يشكلون البقية الباقية من سيوفه المقهورة . وقام بحفر الخنادق فى الأسواق والساحات ، ونصب المتاريس ، وحاصر المدينة مرة أخرى ؛ فعزمنا على إضرام نار الحرب . تقدمت العساكر المنصورة من هذا المكان فى الصباح ومارست الحرب والقتال من الشروق حتى الغروب . ومع أن جماعة الأعداء خذلت ونكبت فى كل مكان ، إلا أن بعض الموانع حالت دون دفعهم كلية . توقفت الحرب مع اليقظة التامة إلى أن لاح الصباح . ولما طار غراب البين الذى يشبه حظ العدو فى الليلة الظلماء إلى قضائه المحتوم ، لاح طاووس الفلك فى الأفق من بيضة الصبح الصادق ؛ فسعت ذاتى السلطانية إلى دفع الأعداء . اهتدت أعلام النصر والألوية المقرونة بالظفر بظلى الفرقدانى ، واعتمد الجميع عليّ من فرط سعادتهم . اليمين يمن النصر واليسار يسر الفرصة . شن الانكشارية وعساكر « قپو خلقى » وعبيدى من المشاة والفرسان حملة على العدو ، وتخطوا المتاريس وعبروا الخنادق ، وتحصنوا بأسطح المنازل التى وضعوا عليها السلالم ، وحاصروا منافذ الطرق مع عساكر الأناضول ، ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ . وعندما رأوا الحال على هذا النحو فروا مع أولادهم وأتباعهم ، ﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ﴾ ، واضطربت أحوالهم . وهدمت بيوت أكثرهم على رءوسهم ، ﴿ وجعلنا عاليها سافلها ﴾ . ورجموا بحجارة الحوائط التى بنوها بالظلم . وانهارت أبنيتهم كبيت العنكبوت مرة واحدة .

خرج طومان باى فى زى النساء ثم اختفى . ولما استقصينا أخباره ، وجدناه قد دخل ولاية الصعيد ، وأرسل إلينا رسالة يتضرع فيها . ولما عفوت

---

(١) راجع ص . ١٩٨

عنه ، تحركت فى نفسه الخبيثة التى جبلت على النفاق وساوس شيطانية ، فتعلل أنه آت يلوذ بحمى دولتنا ، وعبر النيل بالقرب من مصر واتجه نحو الإسكندرية على حد قول الأسرى الذين حاولوا الهرب إلى الشام وبلاد الشرق . تحققنا فى هذه الأثناء من مصطفى باشا أمير الرملى السابق ومن **الچراكسة** ، أن جان بردى الغزالى جاء فى ذلك الوقت ، وأدى فروض الطاعة وأظهر العبودية والخضوع بإخلاص ، فأرسلناه مع على بك ابن شهسوار لكى يتعقباه [طومان باى] ويهاجماه ، كما توجهت كذلك إليه مرارًا . وبينما ك ِا مشغولين بالحرب معه ، لاح الهلال على أعلام النصر ، وكأنما لمع فى ، الإسكندر . ارتحل طومان باى ومن معه إلى الشرق هاربين من العظمة والأبهة السلطانية ، ﴿ كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ﴾ ثم اتجه نجم أعمارهم ناحية الغرب مرة أخرى ، واضطربوا وتفرقوا . لم يتوان المشار إليه مصطفى باشا وجان بردى الغزالى عن تعقبه يومًا ، ﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ﴾ . لحقا بالمذكور طومان باى ، وأبلغاه رسالة . ثم أمسكه أكثر من ثلاثمائة جندى من عنانه(١)، وقطعوا رأس الأمراء الذين لا دولة لهم ، ووثقوا يديه هو ورجليه . لقد قبض على الأسير الذى تهاوت دولته ، وعندما أحضر ذليلاً محقرًا إلى ركابنا السلطانى ، عملنا بالقول الشريف ، « ارحموا عزيز قوم ذل » . ولما أظهرت له كل أنواع الرعاية السلطانية « واستكبر هو » . ولما جبل عليه من حقد فإنه لم ينتصح استكبارًا وعنادًا ، فأصبح عبرة لأولى الأبصار . وعوقب وصلب ، ثم أرسل إلى دار البوار ، ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ .

وعلى هذا ضمت إلى الممالك العثمانية جميع ممالك مصر وملطية وحلب والشام الشريف والقاهرة نفسها وديار الصعيد والحبشة(٢) واليمن حتى حدود

---

(١) المعروف تاريخيًا أنه قبض على طومان باى بدلالة حسن بن مرعى كما مر ذكره .

(٢) كان العثمانيون فى دلك الوقت يعرفون الحبشة بتلك المنطقة التى تقع بين شمال السودان وزنزبار . يذكر سليم فى رسالة التبشير بالفتح التى أرسلها إلى والى حلب - قراجا باشا - وقاضيها ، أنه ضم لملكه زنزبار (انظر الرسالة فى . تاريخ سلطان سليم لإسحق بن إبراهيم مخطوط فى دار الكتب المصرية ، تحت رقم ٧١ تاريخ تركى م ، تاريخ نسخة ١١٧٣هـ) .

القيروان[1] فى الغرب طولاً ، والحجاز ومكة ويثرب والمدينة والقدس الشريف زاده الله شرفًا وتعظيمًا بالتمام والكمال عرضًا .

ولما أصبح العالم تحت تصرفى جاء سيدى أبو الحسنى ابن الشريف أبى البركات ابن الشريف محمد رفعت درجاته ، ومعه مشايخ طوائف الأعراب جملة مطيعين وخاضعين . أخلعت عليه وأحسنت إليهم جميعًا ، فعادوا فرحين مسرورين ، ﴿ وينقلب إلى أهله مسرورًا ﴾ . وأقاموا الدعوات للدولة لكى تدوم إلى الأبد ، ﴿ فقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾ .

هذا وعندما تصلك رسالة الفتوح هذه على يد قدوة الأماجد والأعيان ذواقتنا « رضوان » رزقت سلامته ، عليك بإعلان خبر هذه البشرى فى كل مكان بعد الاستفتاح بالشكر والمدح ، ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ ، وامتثل لهذا الأمر العالى . ووزع الهبات على الخواص والعوام أكثر من الأيام السابقة المعتادة ، لكى يعم الفرح والسرور والبهجة بينهم . وأطلق المدافع والبنادق من الأبراج والقلاع للتعبير عن الفرح والسرور ، ومر بتزيين أسواق البلاد . واطلب من الصلحاء والعباد والعبيد والمعتقين الدعوات الصالحة لزيادة عزى وجاهى . ولا تتوان لحظة عن تقديم الصدقات ، وكن واقفًا على هذه الأحوال ، وراقب قدومنا الهمايونى . وليكن هذا كله معلومًا لديك .

تحريرًا فى أواخر شهر محرم الحرام سنة ٩٢٣ بمدينة مصر القاهرة [2]

---

(١) تقع القيروان فى جمهورية تونس الحالية .

تبعت أرتريا والصومال وزنزبار واليمن والجزائر للإمبراطورية العثمانية تبعية إسمية فى عهد سليم الأول (انظر الخاتمة) .

(٢) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٥٩٤ب - ٥٩٨ب .

آخر مقاومة طومان باى :

رأى السلطان سليم ألا يرفض الدخول فى الصلح بحسب القواعد التى ذكرها طومان باى ، وكتب صورة معاهدة إليه فى يوم الخميس ١٢ صفر (٥ مارس) ووقع عليها على أن يقوم الخليفة المتوكل وقضاة المذاهب الأربعة بحملها إلى طومان باى ، ولكن الخليفة اعتذر وأناب عنه دواداره الخاص بردبك[١] .

خرج الوفد مكونًا من أقضى القضاة أبى بكر بن عبد البر بن محمد وأخيه قاضى القضاة محمود بن عبد البر بن محمد الشهير بحسام الدين[٢] وبرديك ومصطفى **چلبى** دفتردار الأناضول السابق وبعض جنود السباهية قاصدًا البهنسا . وفى الطريق هاجم بعض **الچراكسة** الرسل ، وتمكنوا من قتل القاضيين والمندوب العثمانى فهرب بقية الرسل .

وفى يوم الأربعاء ١٨ صفر (١١ مارس) جاء شيخ الصعيد الأمير على بن عمر إلى السلطان العثمانى يعرض الطاعة ، فقبلت ، وعين حاكمًا وسردارًا على الصعيد ؛ أما أخوه عمر بك فقد زج به فى السجن .

عندما علم سليم فى ١٩ صفر (١٢ مارس) بما آل إليه حال الوفد الذى أرسله إلى طومان باى ، أيقن أن خصمه لايريد إلا الحرب. جمع السلطان العثمانى جنده عند بركة الحبش استعدادًا لعبور النيل إلى بر الجيزة . بدأت بعض الفرق تعبر الماء ، لكن طومان باى تمكن من إغراق المعادى العابرة ، مما دفع سليمًا إلى وقف عملية العبور إلى أن يهيىء لها الوقت المناسب .

نشبت فى هذه الآونة معركة بين الطرفين على ضفتى النيل ، ترامى فيها

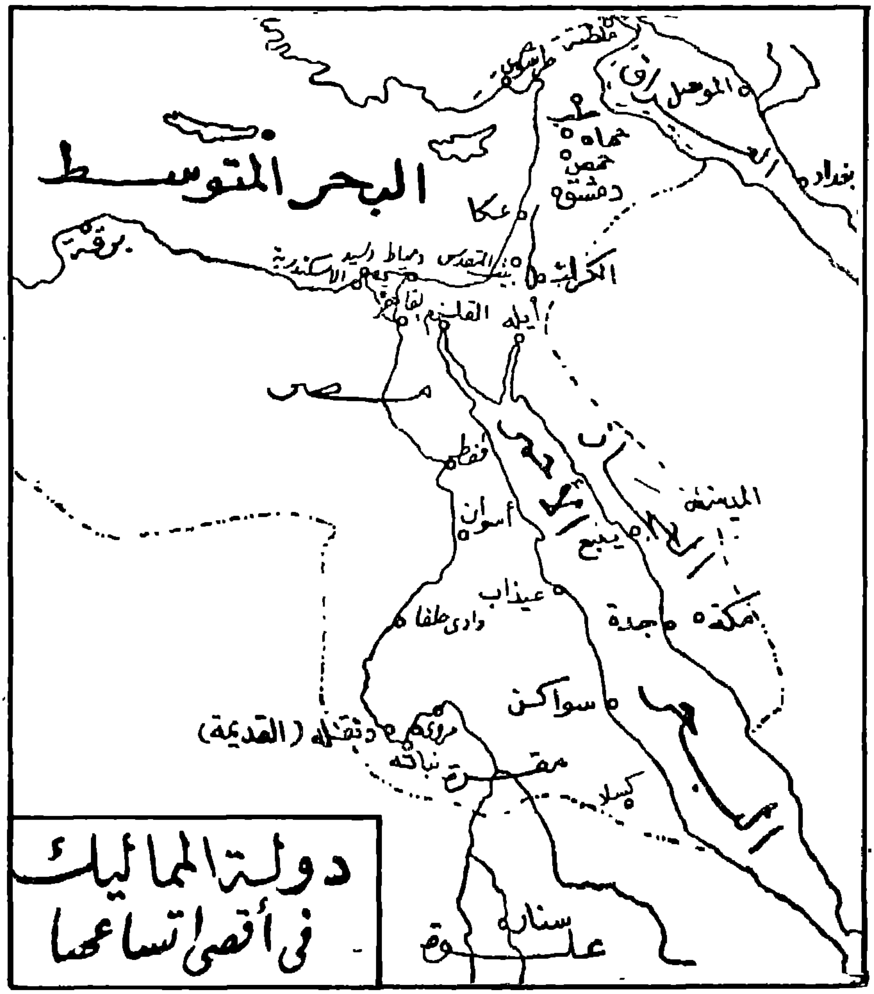
---

(١) إبراهيم طرخان : المرجع السابق ، ص ١٩٣.

(٢) ابن الحنبلى : المرجع السابق ، الجزء الأول من القسم الأول ص ٣٨٦، ٣٨٧ دمشق ١٩٧٢، والجزء الثانى من القسم الأول ص ٤٤٥- ٤٤٤.

يذكر ابن الحنبلى أن هذين القاضيين حلبيا الأصل مصريا المولد .

الفريقان بالسهام والرصاص . وأثناء تبادل التراشق ، تمكن بعض الجراكسة من أن يستقلوا قوارب العثمانيين ويلتجئوا إلى السلطان العثمانى ، وكان من بينهم خادم الأمير « عَلاَّن » مقدم القرانصة . قبض العثمانيون على هذا الخادم وقاموا باستجوابه ، للوقوف على آخر تطورات الموقف على الجانب الآخر من النيل تحسبًا للأيام القادمة . يحكى الأسير طريقة هروبه ، وما آل إليه حال طومان باى وأعوانه . ويؤكد على أن هدف طومان باى وأتباعه من جمع العرب هو عدم السماح بمرور مراكب العثمانيين من النيل أو نزول قواربهم إلى الماء ، ومنع عبور أى جندى من الجيش العثمانى إلى الشاطىء الآخر للنيل . ويقول إن عدد العرب الذين التفوا حول طومان باى يقدر بألفين أو يزيد .



خريطة دولة المماليك فى أقصى اتساعها

وهذه ترجمة للتقرير عن التركية[1] :

القضية هى أنه بسؤال **الچركسى الأسير** : من الذى أرسلك ، ولأى مهمة قدمت ؟ قال : أرسلنى طومان باى . منذ أن دخلنا بين العرب ونحن ننتقل من قرية إلى أخرى جوعى وعرايا ، بعضنا من الفرسان وبعضنا الآخر من المشاة . ومع انقضاء الليالى صرنا عاجزين وحالنا سيء للغاية ، ولأننا أصبحنا أذلاء فقد تفرق كل منا إلى ناحية . عندما رأينا نحن أيضًا مراكب السلطان صاحب الدولة [سليم] ركبتها وهربت .

سألته : عندما رأى كور شادى وكيل **الچراكسة** مراكب السلطان صاحب الدولة ، كيف كان تفكيرهم وتدبيرهم ؟ قال : جاءوا إلى شاطىء النيل أولاً ، ثم أطلقوا بعض السهام المتقطعة ، ولا حيلة لهم غير التصايح ومراد طومان باى وتابعيه من جمع العرب هو كما يقولون : عدم السماح بمرور مراكب من النيل أو بإنزال قوارب أو بعبور جندى من العساكر إلى الشاطىء الآخر للنيل .

عبرت النهر . كنت خادمًا لـ « علان » . أصيب فخذه برصاصة بندقية . تقيح فخذه ، ومنذ ذلك الوقت نقلناه بعيدًا ليشفى . مرت ثمانية أيام ثم توفى .

سألته : من كان موجودًا من مشايخ العرب ؟ قال : كان هناك شيوخ مشاهير محاربون ومقاتلون لا يقر لهم قرار . ألفان من العرب على وجه التخمين أو يزيد على الألفين . ومن بعدى أصبح عرفًا ثابتًا :

ولم يزد على هذا جوابًا[2] .

---

(١) وهذه الوثيقة أصلها التركى ركيك وبها أخطاء لغوية ، وقد حرصت على أن أكون ملتزمًا بالنص مع نقل روحه فى ترجمتى إياها إلى العربية .

(٢) الوثيقة محفوظة فى أرشيف طوبقبو سرايى باستانبول ، تحت E. 6587

فكر سليم فى تلك الآونة فى غلق الحدود فى وجه المماليك الذين يحاولون الهروب خشية بطش العثمانيين . فأمر بكتابة رسائل إلى أمراء الأطراف كى يسدوا الطريق أمام جنود المماليك الهاربين الذين لم يلقوا السلاح ويحاولوا القبض عليهم وإعدامهم(١) .

وأثناء ترامى الطرفين عبر النيل ، فوجىء طومان باى بهجوم شديد من قبل البدو على مؤخرته ، فاضطر إلى التقهقر حزينًا يائسًا إلى أهرام الجيزة خشية أن يقع فى « كمين » يطبق عليه من الجانبين . وعند ذلك عبرت قوات العثمانيين فى أمان فى يوم الثلاثاء غرة ربيع الأول (٢٤ مارس) .

احتمى طومان باى بجبال أهرامات الجيزة ، وأخذ ينشد من ذاكرته قصيدة

---

(١) كان من بين هذه الرسائل رسالة بعث بها إلى ناصر الدين بن الحنش أحد مشايخ شمال سوريا لكى يعمل بالسيف فيمن يقبض عليه من المماليك الفارين للاحتماء فى أدنه .

وهذه ترجمة عن الصورة التركية للترجمة عن الأصل العربى المفقود الذى أرسله ابن الحنش ردًا على خطاب السلطان سليم .

بعد تقبيل الأرض ، ينهى إلى مقام الصدقات الشريفة أنه وصلت المراسيم الشريفة إلى هذا المملوك [ابن الحنش] ، تتضمن أن الله تعالى أنعم بالنصر على **الجراكسة** الظلمة ، وبتملك عرش يوسف الصديق عليه السلام . وتتضمن أيضًا حث المملوك ومن معه على اليقظة التامة للقبض على بقية السيوف من طائفة **الجراكسة** الهاربين إلى هذه الناحية وقتلهم .

وبناء عليه تقبل هذا المملوك المراسيم الشريفة بالسمع والطاعة . وأمر بقراءة المراسيم الشريفة على رءوس الأشهاد . والله تعالى ورسوله شاهد على أنه قد حصل للمملوك فرح شديد ، وسجد لله تعالى سجدة الشكر ؛ فهذه النعمة خصت الإسلام والمسلمين . وكتب المملوك فى الحال رسائل إلى سائر الأنحاء وإلى الأماكن التى يعتمد عليها . وأوصى كثيرًا بدوام اليقظة لئلا تهرب بقية السيوف ويجد الأعداء مجالاً ، وحث على قتلهم أينما وجدوا .

لا يتطرق إلى هذا المملوك الشك أصلاً ، فهو يعمل بالمفهوم الشريف لما تتضمنه المراسيم الشريفة ، لأنه يعتبر نفسه أحد عبيد تلك الآستانة ، ويعترف بفضل صدقاتها .

ومنذ توجه الركاب الشريف إلى محروسة مصر ، والمملوك يعمل على توطيد الأمن فى المملكة ، ويحرس الطرق ..

تاريخ الثامن والعشرين من شهر صفر سنة ٩٢٣ .

(الوثيقة محفوظة في أرشيف طوبقبو سرايى باستانبول ، تحت رقم E. ٦٣٤١ ا. وصورتها ضمن لوحات هذا الكتاب ، تحت رقم ١٤) .

سطرها له شاد بك بقلمه(١) .

(١) تبين هذه القصيدة بصدق الأحداث التى وقعت بين المماليك والعثمانيين ، ابتداء من معركة مرج دابق وانتهاء بهروب طومان باى ولجوئه إلى الأهرامات ، وتصور ما آل إليه حال طومان باى **والجراكسة** ، وقد آثرت أن أذكرها لهذا السبب :

دموع العين فاضت من مآق — وقلبى ذاب من كثر احتراقى
فلا نارى طفاها دمع عينى — ولا دمعى يغيض من اختناق
وبى أسف على أسف وحزن — وهم فوق هم واشتياق
على زمن تقضى فى نعيم — بمصر والعلا والعز راق
وشمس السعد فى شرف المعالى — وبدر الضد فى درج المحاق
فلما أن أراد الله هذا — أتانا الروم من جهة العراق
وسلطان الجميع سليم شاه — عظيم الملتقى مر المذاق
وكان الماجد الغورى منا — مليكًا شبه بحر فى اندفاق
وكان الحرب يوم الحد لكن — تولى جيشنا والحرب باق
وسلطان لنا أضحى قتيلاً — طريحًا والدماء لفى انهراق
وكان الخائن الكلب الغزالى — وخيره بك المبطن فى النفاق
هما أصل الهزيمة عن حقيق — لدى حلب كخيل فى سباق
وسار الجيش من حلب لمصر — يهم ذا الكرب مع ضيق الخناق
وعند حماة خيره بك المخامر — رجع لعدونا يبغى شقاقى
وساروا بعدها سيرًا حثيثًا — لغزة ثم مصر فى لحاقى
ولما استجمعوا فى مصر قالوا — يسلطن أيكم للضد واقى
وقالوا أنت يا ذا أهل هذا — برأى القيل علان المواقى
وسيرنا لشر عظيم جيش — عشرة آلاف فرسان السباق
وقدمنا على الكل الغزالى — ولم نعلم بسوء الاختلاق
فاختار الهزيمت(١) وهو سال — سلاح الحرب خوفًا من زهاق=

(١) هكذا كتبت بالتاء المفتوحة .

= وجاءتنـا رجال الروم مصرا | وقد حازوا البلاد مع الآفاق
وأخرجت الجمـــوع لنلتقيهم | وكان الشر يوم الحرب راقى
وفى خط المدافـــع قام قومى | وزادوا فى الخصام وفى الشقاق
وقد جاءت علينـا الروم حقا | كبحر مائج فى الاندفاق
وزاد الـــروم بالبـارود حتى | حسبت الرعد محلول الطلاق
وأطبـق كـل ناحيـة وفـج | وأشغل بالمثقفة الدقاق
وقلت لكرتباى ترى الأعادى | علينا كالسحاب على الشراقى
فقـال اليـوم نصليهـا بطعن | تموت الناس والتذكار باق
وقمنـا بعد ذاك وقـد حملنا | كأسد لا تخاف ولا تواقى
قتلنـا مـن ملوكهـم ثلاثا(١) | وأسقيناهم كأس الدهاق
ولمـا قـد رأوا ذا الفعل منى | أتوا كالجبال بانطباق
وأسقيناهـم كـأس المنايـــا | فخروا للثرى مذ كمت ساقى
وبـددت الفوارس فى مجالى | بطعن فى الصدور وفى المآقى
وعـدنا عـــودة الآسـاد لمـا | أتوا بالصيد من قلب الأطاق
رجعنــا والغزالـى قـد تولـى | واختار الهزيمة بالنفاق
وفى علان(٢) جاءت ضربزانه(٣) | وكان بها المنية للفراق
فـوا أسفـا عليـه وقـد تولى | وودعنى وداع الافتراق
تظـل العيـــون باكيـة عليـه | بدمع كالعيون وكالسواقى
وجـاءت كرتبـاى بمثـل هذا | فصار العجز منه وكالنطاق
كذلك جان بلاط غدا طريحًا | أبو الترسين فى الشجعان راق
وكـم رمت المليك سليم شاه | فلم يبرز إلى ولم يلاق =

---

(١) يقصد ثلاثًا من كبار قواد المعركة الريدانية من العثمانيين ، وهم : الصدر الأعظم سنان باشا ومحمود بك أمير بنى رمضان ويونس بك أمير عينتاب السابق .

(٢) ذكر اسمه ص . ٢١٣

(٣) طلقة .

= وكم قلت يا سلطـــان روم ... تـبـارزنـى وحـر الحرب بـاق
وأقســـم لـــو أراه غدًا قتيلاً ... بسيفى لؤ رَقى سبع الطباق
ولما أن رأيـــت الحرب دارت ... عـلـى ولم تـتـابعـنـى رفـاقـى
فوليـــت الجـــواد لنحو مصر ... وأيـقـنـت الـفـنـا والله بـاق
وعند طرا[1] أتانا الجيش جمعًا ... وسرنا الشرق يا بئس الشراقى
وعدنا نحو مصر لأجل حرب ... كبسنا الروح والديجور باق
قتلنـــا منهـــم جمعًا غزيـــرًا ... بـضـربـاة[2] المهـنـدة الـرقـاق
ثلاثـــة أيام كـــان القتل فيهم ... وعينا الـعـسـاكـر فـى محـاق
وقومـــى قد أرادوا يغدرونـــى ... ويـرمـونـى أسـيـرًا فـى وثـاق
وشاد بك احتمى عنى بنفس ... وكـان بسيفه لى خير واق
جـــزاه الله عنا كـــل خيـــر ... وكان له رحيق المسك ساقى
ورحنـــا قرشنـــدا[3] ثم عدنا ... وصرت أجد من عظم اشتياقى
وجـــدنا جاءنـــا أسماء قتلا ... تفوق آلاف نفس فى زهاق
فقلت لشاد بك اذهب سليمًا ... واحـذر مـن طـبـعـات الحـمـاق
وبعـــد الظهر جاءتنـــا جيوش ... عداد الرمل جمعًا فى انطباق
وزلزلـــت البلاد بهـــم إلى أن ... حسبت الحشر قام مع التلاقى
فقلـــت لرفقتى خلـــوا وفلوا ... وولـيـنـا جـمـيـعًـا بـافـتـراق
فعـــادت وهى ناويـــة بقهـــر ... تـضـج ضـجـيـج ذواق الـفـراق
وقالـــت يا طومانبـــاى المفدا ... فـراقـك عـنـدنـا مـر المذاق
فسافـــر فى أمـــان الله إنـــى ... ودعـتـك لـلـذى رفـع الـطـبـاق
فرديت الجواب ودمـــع عينى ... كسيل سال من مجرى المآق =

(١) هى ما تعرف الآن بمدينة طره.

(٢) هكذا كتبت بتاء مربوطة.

(١) لعلها قرقشنده ، وتنطق أحيانًا قلقشنده . وهى البلدة التى نشأ فيها القلقشندى صاحب صبح الأعشى ، وتتبع مركز طوخ بمحافظة القليوبية حاليًا

بعد أن أدلى خادم الأمير « علان » بمعلومات هامة عن طومان باى واستعداداته ، استجوب العثمانيون يشبك مرة أخرى ، لكى يتحققوا من كلام ذلك الأسير ، ويقفوا على آخر التطورات على الجانب الآخر إن كانت هناك أخبار جديدة وردت إليه فى رسائل أو ما شابه ذلك . قال يشبك عندما استجوب : إن أولمز بك كاشف الغربية السابق وصل إلى قرية شبراخيت ، وأرسل إليّ يستفسر عن حالى وأحوال مصر . فأرسلت إليه أدعوه ليقدم الطاعة للخليفة (يقصد سليمًا) لكى يمنحه الأمان كما سبق أن منحنى . وذكر يشبك أن أولمز انضم إلى طومان باى وأرسل إليه رسالة أخرى ، فرد عليها يشبك برسالة شفوية - خشية أن تقع فى يد طومان باى ، فيعلم أنه يعمل ضده - يحثه فيها على التسليم إلى سليم .

= وسافرت الصعيد وحث حيثًا	كما قالوه راقا فوق راق
وجانم قد أتى وبدا بحرب	وولى هاربًا دون الرفاق
وسرت نحو مصر فى جيوش	تقاد مع الحمولة والنياق
وزرمك قد لقينى فى طريق	فيالك ماجد أطلق طلاق
وصبحنا جيوش الروم صبحًا	على الجرد المضمرة العتاق
وزدت القتل حتى كَلَّ سيفى	وأشكل نيل مصر بانهراق
وقد رمنا نعدى البحر لكن	غزالة قد أتونا فى السباق
وراموا حربنا وبغوا علينا	وإن البغى شوم الاختلاق
وعدنا عن قتال الروم قهرًا	لقينا « قيت رحبى » من بلاق
وعلقنا على الأهرام شعرًا	كنظم الدر فى حسن السياق
لمن يقرأه معتبرًا ليدرى	بأن الله بعد الخلق باق
وتجزى كل نفس يوم عرض	بما فعلته فى يوم التلاقى

(ابن زنبل : المرجع السابق ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ص ٨١-٧٧ سهيلى أفندى : المرجع السابق ، ورقة ٣١أ - ٣٢ ب) .

وردت هذه القصيدة فقط عند ابن رنبل ، وقد نقلها عنه سهيلى ، ولم أعثر على ذكر لها فى مصدر آخر ، ويرجح أن أحد كتاب الإنشاء المرافقين لطومان باى قد أنشأها على لسانه حيث ذكر أن شاد بك قد سطرها بقلمه لطومان باى .

وبعد أن وصل أخو يشبك إلى طومان باى أرسل إليه رسالة يخبره فيها بأن عدد أنصار طومان باى بلغ ألفًا وخمسمائة رجل ، ويحيطه علمًا بأن شيوخ العرب الذين انضموا إليه أقسموا اليمين على الولاء . ثم يسأله عن أحوال عساكر السلطان سليم . فيجيب يشبك عليه قائلاً : لا تتعجلوا الأمور واصبروا ، فربما يتوجه السلطان لمحاربة القزلباش ويترك نائبًا مكانه فى مصر ، ووقتها تكون الأحوال مشجعة على مجيئكم .

وهذه ترجمة للتقرير عن التركية :

القضية هى أنه بسؤال يشبك **الجركسى** المشهور ، قال : أرسل إلى أولمز بك الذى كان كاشفًا على الغربية كتابًا بينما كان يسير مع أخى ، مؤداه : أرسلت إليك ورقة مع جماعة جديدة من جماعاتى ، عندما تصل أكون فى قرية مشهورة تسمى شبراخيت . وفى هذه الحالة عليك أن تخبرنى عن حالك وعن أحوال مصر . أرسلت بدورى الخبر ، قائلاً : السلطان صاحب الدولة [سليم] يستقر فى مصر ، ومنحنى الأمان . سر وأقدم إلى الخليفة أنت أيضًا ، وسيمنحك الأمان كذلك .

وبعد ذلك سمعت أن الكاشف المذكور وصل إلى طومان باى . وقبل هذا جاء إلىّ خادم أخى وأرسل معه رسالة إلىّ . أرسلت بدورى خبرًا شفويًا ، فقد خفت أن أبعث رسالة مكتوبة ، فتقع فى يده ، فيقول إننى ضده .

بعد أن وصل أخى إلى طومان باى ، أرسل إلىّ رسوله ، قائلاً : هاأنذا وصلت إلى طومان باى . رجاله يبلغون ألفًا وخمسمائة رجل ، نصفهم من الفرسان والنصف الآخر من المشاة . انضم إلى طومان باى من شيوخ العرب محاربون ومقاتلون وحواريون ، وأقسموا اليمين ، قائلين : نحن تابعون لك فى كل الحالات . ما هى أحوال عساكر السلطان صاحب الدولة ؟ هل هى قليلة أم كثيرة ، ضعيفة أم قوية ؟

أرسلت الخبر أنا أيضًا ، قائلاً : لا تتعجلوا ، واصبروا . إذا توجه السلطان صاحب الدولة إلى القزلباش ، فإنه سيترك نائبًا مكانه ، وفى ذلك الوقت أقدموا[١] .

لجأ طومان باى وبعض الجنود والأعراب الذين كانوا برفقته إلى دهشور بعد أن أحسوا بالعساكر العثمانية تتعقبهم . وأمر أتباعه بأن يعلنوا على الناس فى المناطق المجاورة أن الخراج مرفوع عن مصر لمدة ثلاث سنوات ، وأن من ينضم إلى صفوف طومان باى ليعاونه على النصر فإنه سينعم عليه . انضم إلى طومان باى بعض العربان فأرسلهم تحت قيادة شاد بك الأعور لملاقاة جنود سليم . وانتقل هو إلى أطفيح[٢] ، فأطاعه أكثر العربان الموجودين فيها .

استطاع طومان باى فى مناوشاته المتقطعة أن ينزل بعض الخسائر بالجيوش العثمانية ، مما جعل سليمًا يستشيط غضبًا من خاير بك ويعتقد أنه يضلله كلما استشاره فى الطريقة المثلى التى ينبغى اتباعها للوقيعة بطومان باى وجنده وأتباعه . وقال له : « أنت أغررتنى وطمعتنى فى أخذ هذا الإقليم ، فانظر كيف تصنع ودبر نفسك كيف تعرف ، وإلا فهيا برأسك »[٣] .

أمر سليم بتكوين فرقة من عدة آلاف فارس لتعقب طومان باى ، وعين جان بردى قائدًا عليها ، وأرسل معه خمسمائة من الأمراء و **الچراكسة** الذين قدموا له فروض الطاعة من قبل . أرسل الغزالى قبل تحركه رسالة إلى طومان باى ينصحه فيها بالتسليم ، ولكنه رفض رفضًا قاطعًا . فأمر سليم جان بردى بأن يرسل وفودًا برسائل إلى مشايخ قبائل الأعراب الذين يساعدون طومان باى يؤمنهم فيها على حياتهم وحياة نسلهم أجمعين ، قائلاً : « والله العلى العلام إننى لن أتوانى عن خدمتكم إلى انقراض الأيام ، وسوف أرعى حقوق أتباعكم

(١) الوثيقة محفوظة فى أرشيف طوبقبو سرايى ، تحت رقم E . . ٦٥٨٧

(٢) من قرى مركز الصف بمحافظة الجيزة .

(٣) ابن زنبل : المرجع السابق ، ص . ٧٠

وأنسابكم نسلاً بعد نسل » . وصلت الرسل إلى مشايخ القبائل ، فقابلهم ابن حماد وسلامة ، وقالا لهم بعد أن عرض عليهم الأمر : « معاذ الله أن تزول الدول المتآلف أهلها »(١) .

أيقن سليم أن لا مناص من الالتحام مع طومان باى وجنوده فى معركة كبيرة ، فعبر النيل من ناحية بركة الحبش ببولاق فى يوم الأربعاء ٢ ربيع الأول (٢٥ مارس) . وأخذ يجهز جنده ويستعد لمعركة فاصلة بينه وبين طومان باى . أمر السلطان العثمانى جنود الروملى بالتحرك لملاقاة طومان باى . التقى الفريقان المتحاربان عند دهشور فى يوم الخميس ٣ ربيع الأول (٢٦ مارس) ودارت بينهما معركة حامية ، تغلب فيها العثمانيون على طومان باى .

هروب طومان باى وإلقاء القبض عليه وإعدامه :

تفرقت جنود طومان باى وانفضت من حوله بعد هزيمته للمرة الثالثة ، فقرر فى يوم الجمعة ٤ ربيع الأول (٢٧ مارس) الهرب بعيدًا فى الدلتا فى مكان أمين ، بعد يأسه من الصمود فى معركة غير متكافئة العدد والعدة . وقال لأتباعه الذين كانوا برفقته : « لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . اعلموا يا أغوات أن دولتنا قد دالت وآجالنا قد مالت ، وما بقى لنا فى هذه الديار نصيب »(٢) .

توجه طومان باى إلى مدينة سخا بالغربية حيث الشيخ حسن بن مرعى ، وقال لمن معه : « لا بقى لنا رأى إلا أن أذهب إلى حسن بن مرعى وابن عمه شاكر شيوخ عرب محارب فإنى قد وليتهم عليهم ، وأطلقت حسن بن مرعى من الحبس ، بعد أن كان المرحوم السلطان الغورى كتب على قيده (مخلد) . وقد أطلقته لما أن صار الأمر لى ، وأخذت عليه العهود والمواثيق

---

(١) سهيلى أفندى : المرجع السابق ، ورقة ٣٣أ ، ب ، ٣٤ ب ، ٣٦أ .

(٢) ابن زنبل : المرجع السابق ، ص . ١٢٢

والأيمان المغلظة أن يكون معى ظاهرًا وباطنًا ، ويكون معى بالقلب والقالب إذا احتاج الأمر لذلك . وما أحسن من سيرنا إليه ، ونكون نحن وهو على قلب رجل واحد . ثم ندبر بعد ذلك أمرنا ، وننظر ما يكون من جانب الله تعالى ، وهو يعلم أنهم (يقصد العثمانيين) باغون علينا »(١) . وعند إتروجه لقيهم أبناء مرعى وعزموا على السلطان بالضيافة بعد أن قبلوا يده ؛ فقال لهم السلطان : « ما نحن فاضون للضيافة ولا لغيرها والعدو فى أثرنا وقامت علينا العربان ... وما جئت لك إلا لتنظر لنا محلاً نحتمى فيه ثم ندبر أمرنا بما فيه الصلاح لنا » (٢) . رحب آل مرعى بقدوم السلطان وركن السلطان إلى ولائهم ، وأحضر لهم مصحفًا وحلف ابنى مرعى على ألا يخوناه ولا يغدران به ولا يدلسان عليه بشيء من الأشياء ولا لسبب من أسباب المسك ولا يدلان عليه . حلفا له على المصحف سبع مرات ، فطاب قلبه إلى ذلك واستقر عندهما .

وبعد أن اطمأن حسن بن مرعى على استقرار طومان باى ومن معه ، خرج عنهم ليستطلع الأخبار ، وقد حدثته نفسه بالخيانة . ويقال إن مجادلة حادة وقعت بينه وبين أمه فى أمر الخيانة ، وحذرته الأم من هذا العمل ، وأخذت تذكره بما للسلطان طومان باى عليه من أياد بيضاء ، وجهدت فى نصحه فلم ينتصح إذ كان يطمع فى المكافأة ، وشجعه شاكر ابن عمه بقوله : « وهل عاقل يبيع عاجله بآجله ، لا تمل إلى الكفة الخاسرة فيحصل لك الخسران »(٣) .

---

(١) ابن زنبل : نفس المرجع ، ص ١٢١.

(٢) ابن زنبل : نفس المرجع ، ١٢٢.

(٣) ابن زنبل : المرجع السابق ، ص ١٢٤ - ١٢٨

نقلاً عن د . إبراهيم على طرخان : المرجع السابق ، ص ١٩٤ - ١٩٥

أبلغ حسن بن مرعى سليمًا بوجود طومان باى مختبئًا عنده[١] ، فبعث إليه سليم بفرقة من جنده كان على رأسها أمير الروملى مصطفى باشا وعلى بك ابن شهسوار وجان بردى الغزالى . قبضت الجنود على طومان باى فى يوم الإثنين ٧ ربيع الأول (٣٠ مارس) ، وأحضرته مقيدًا إلى مكان يدعى أم الدينار ثم نقلته إلى الجيزة ، ومنها عبرت به إلى بولاق حيث مقر السلطان العثمانى .

مَثُل طومان باى أمام سليم فى اليوم التالى ، فقام له السلطان وأخذ يتأمله معجبًا بشجاعته وجسارته ، وأجلسه على العرش الذى أعده له بجواره . وأخذ يتحدث معه بأسلوب رقيق راغبًا فى الاستفادة من ضمه للعمل مع العثمانيين[٢] .

دار بين آخر سلاطين المماليك وتاسع السلاطين العثمانيين حوار طويل . أظهر فيه طومان باى رباطة جأش وشجاعة مدافعًا عن شرفه وشرف بلاده ومبديًا له أن ما حدث من هزيمة إنما هو من ترتيب المقادير . فلولا أن « دولتنا زالت وأدبرت ودولتكم جاءت وأقبلت ... ما قدرت أنت ولا غيرك على أخذ بلادنا ، فإنه لو كان بالقوة والشجاعة ما كنت أقوى منا ولا أشجع ، وها أنتم رأيتم كيف فعلنا مع عسكركم وكسرتهم كذا وكذا مرة ...» . اهتم سليم

(١) لا تقر المصادر التركية المعاصرة للفترة بالقبض على طومان باى بدلالة حسن بن مرعى ، ولكنها تذكر أن الجنود العثمانيين أدركوه فى مسخور بالقرب من البحيرة ، فألقى بنفسه فى النيل هناك خوفًا من بطش الجنود ، فأنقذوه من الغرق وقبضوا عليه . (روزنامه حيدر چلبى ، ورقة ١٤٣أ - ١٦٠ب) .

ويذكر جلال زاده قوجه نشانجى مصطفى فى الورقة ١٤٢ من كتابه ، أن مصطفى باشا وجنود الروملى قبضوا على طومان باى بعد هزيمته أمامهم فى معركة لم يحدد مكانها ، لعلها الجيزة .

ويقول مؤلف تاريخ آل عثمان » فى الورقة ١٣٥أ : جاء شيخ الأعراب جوانبك وعرض الطاعة على السلطان سليم ، وأخبر عن مكان طومان باى ، وساعد الجنود فى القبض عليه حيًا .

أما المصادر العربية المعاصرة للفترة فقد اعتمدت عليها فى المتن فى هذه النقطة بالذات لقربها من الواقع . ويتفق قليل من المصادر التركية التى كتبت بعد تلك الفترة بزمن قصير مع رأى المصادر العربية فى أن حسن بن مرعى سلم طومان باى للجنود العثمانيين بعد أن أخبرهم باختفائه عنده .

(٢) Yilmaz Oztuna : Op. Cit. b. 47

بكلام طومان باى وأبدى إعجابًا بالغًا بحديثه ، وقال له : « والله ما كان قصدى أذيتك ، ونويت الرجوع من حلب . ولو أطعتنى من الأول وجعلت السكة والخطبة باسمى ما جئت لك ولا دست أرضك » . رد طومان باى ، قائلاً : « الأنفس التى تربت فى العز لا تقبل الذل . هل لو أرسلت لك أنا وأمرتك أن تكون تحت أمرى ، هل كنت ترضى ؟ وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب ؟ لا أنتم أفرس منا ولا أشجع منا ، وليس فى عسكرك من يقايسنى فى حومة الميدان ... ولكن أنا أعرف أن ما عليك أضر من هذين الشياطنين - وأشار إلى خاير بك والغزالى - فإنهما لو كان فيهما خير لكان لنا » .

امتلأ سليم إعجابًا بكلام غريمه وشجاعته ، وقال : « والله مثل هذا الرجل لا يقتل ، ولكن أخروه فى الترسيم حتى ننظر فى أمره »[١] . وفى الأيام التالية قام الصدر الأعظم على رأس وزرائه بعمل حفلات فاخرة لطومان باى[٢] .

شاع بين الناس عند ذلك أن السلطان سليمًا سوف يبقى على طومان باى ويأخذه معه إلى القسطنطينية أو يرسله منفيا إلى مكة مدة حياته . غير أن خاير بك وجان بردى الغزالى قد اضطرب أمرهما ، فأخذا يدبران الأمر لتحريض السلطان سليم على قتله بحجة أنه لا بقاء للملكه ما دام طومان باى على قيد الحياة . اقتضت الوقيعة أن يكتبا ورقة إلى السلطان سليم من غير أن يعلم بها وزراؤه ، إذ كان أغلب وزرائه غير راضين عن معظم الخطط التى دبرها ونفذها خاير بك ، ومما جاء فى هذه الورقة[٣] « فليعلم مولانا السلطان أن أهل مصر الذين تشتتوا من **الچراكسة** ، لم يصدقوا أن سلطانهم عجز وسلم نفسه وقبض عليه ، وكذلك أهل الأقاليم العربان . وأيضًا ليعلم مولانا الخنكار ، أنك

(١) ابن زنبل : المرجع السابق ، ص ١٣٦- ١٣٣.

(٢) Yilmaz Ozluna : Op. Cit., Loc. Cit

(٣) د .إبراهيم على طرخان . المرجع السابق ، ص ١٩٧.

متى أبقيت عليه فقد ضيعت تعبك وسفرك وهلاك عسكرك وأموالك . فإنه بمجرد ما تسافر من هذه البلاد ، لو كان تحت الأرض خرج منها وأفسد عسكرك بالعطاء ... فإن أردت أن تطيعك الممالك والبلاد وتحتوى على جميع البلاد من غير مانع يمنعك ولا دافع يدفعك عنها ، فعجل بهلاكه ، وارسل واصلبه على باب زويلة ليراه الخاص والعام ، وتيأس الناس من بقائه »[(١)] .

استطاع هذان الخائنان التأثير على سليم الذى استرجع محادثاته مع طومان باى عندما لاقاه لأول مرة ، فوجد أن غريمه كان يتحدث معه كإمبراطور وليس كأسير ، محطًا من قيمة النصر الذى أحرزه سليم بقوله : إن هزيمته لم تكن إلا لاستعمال العثمانيين للأسلحة النارية كالمدافع والبنادق وليس لبطولة سليم أو شجاعة جيشه[(٢)] . وقد كان الشغب الذى أحدثه **الچراكسة** والعربان وأهالى مدينة القاهرة عندما علموا بالقبض على طومان باى ، عاملاً مساعدًا على التعجيل بقتل طومان باى .

وافق سليم على إعدام طومان باى بعد ١٤ يومًا من القبض عليه . أخرج آخر سلاطين المماليك من سجنه فى إمبابه فى يوم الإثنين ٢١ ربيع الأول ٩٢٣هـ (١٣ أبريل ١٥١٧م)[(٣)] ، وسار وسط حرس عدته ٤٠٠ جندى حتى وصل إلى بولاق ومنها إلى باب زويلة . وقد أخبره أحد الجنود صبيحة ذلك اليوم بقرار السلطان سليم ، فلم يتهدم أو يظهر أى خوف أو اضطراب ،

(١) ابن زنبل : المرجع السابق ، ص . ١١١

(٢) Yilmaz Ozluna : Op. Cit., Loc. Cit

(٣) يقول مؤرخو الترك الذين عاصروا الفترة :

ولكثرة فتنة طومان باى وتصرفاته السيئة ، قضى مرتين على رسل سليم وقضاته الذين أرسلهم إليه ، فوجب لهذا القصاص شرعًا وعرفًا . تقرر صلبه فى مكان متوسط بمصر يدعى باب زويلة لكى يراه من أنكروا القبض عليه . (**روزنامه حيدر چلبى** ، نفس الموضع السابق) .

ظهرت على سليم أمارات الشفقة على طومان باى عندما مثل أمامه ، وبدا أنه سيطلق سراحه . لكن بعض العربان وأهالى مدينة مصر لم يصدقوا أن سلطانهم قبض عليه ، فأصدر سليم الأمر العالى بصلبه على باب زويله حتى يراه الخاصة والعامة مصلوبًا .(جلال زاده قوجه نشانجى مصطفى : المرجع السابق ، ورقة ١٤٢أ) . =

وظل سائرًا وسط حراسه رافع الرأس وهو يسلم على الناس طوال الطريق ، حتى إذا وصل إلى باب زويلة ، أنزل عن فرسه ، وأرخى له المشاعلى حبل المشنقة . وهنا دعا طومان باى الملأ الذى اجتمع حوله أن يقرأ له الفاتحة ثلاث مرات ، وبسط يده إلى السماء وقرأ الفاتحة عن نفسه فى صوت مسموع ، وقرأ الناس معه . ثم التفت إلى المشاعلى ، وقال له : « اعمل شغلك » ، فوضعت الخية فى عنقه وشد الحبل ولكنه انقطع ، فسقط آخر سلاطين مصر والشام ميتًا على عتبة باب زويلة ، وصرخ الناس صرخة مدوية تفيض حزنًا وأسفًا . وظلت جثة طومان باى معلقة ثلاثة أيام ، ثم دفنت بحوش المدرسة التى بناها السلطان الغورى[1] .

= لم يكن سليم ينوى قتل طومان باى ، ولكنه كان يريد إلقاءه فى السجن . لم تصدق قبائل الأعراب فى الشرقية والعربية أن السلطان المذكور قبض عليه ، ولهذا لم يقدموا إلى سليم لعرض الطاعة والولاء ، وطافوا فى جميع أنحاء مدينة مصر لنشر الفتنة والفساد فى أرجائها . ولما رأى السلطان سليم ذلك أيقن أن لا صلاح فى هذا العالم فقرر إزالة طومان باى من الوجود . صلب طومان باى على باب زويلة على ملأ من الناس ، ودام مصلوبًا ثلاثة أيام حتى تأكد السلطان من أن أهل مدينة مصر جميعًا شاهدوه .

(تاريخ آل عثمان ، ورقة ١٣٥أ ، ب) .

طاف بعض الأشقياء بشوارع القاهرة عندما علموا بالقبض على طومان باى وهم يرددون الدعاء له ، قائلين : « الله ينصر السلطان طومانباى » ، ويصيحون منادين « الحمد لله بالسلامة » . فأيقن السلطان سليم أن وجود طومان باى على قيد الحياة ، سيكون مدعاة للفتنة وعاملاً على الفساد ، فعجل بقتله على باب زويلة .

(عبد الله رضوان : تاريخ مصر ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٩٤٠تا ، ورقة ١٠٣أ) .

ويقول أحد مؤرخى الترك المشاهير بالعربية :

حملوه [أى طومان باى] إلى السلطان فقتل أصحابه ، وجلسه أيامًا ، وقيل أطلقه وأكرمه ، فكان يظر فى أوضاعه ، واستشعر منه الغدر . وكذا بلغه أن جماعة من **الجراكسة** المستورين ، كانوا يحركون العرب على الفتنة ويقولون « الله ينصر السلطان طومانباى » ويترقبون خلاصه وخروجه . فعلم أن فى إطلاقه فسادًا عظيمًا ، فأمر به فشهر معتقلاً فيما بين أسواق مصر ومحلاته ؛ ثم صلب على باب زويلة . وكان يباشر صلبه على بيك بن شهسوار أخذًا بثأر والده الذى صلبه **الجراكسة** فى ذلك المحل . وبقى طومانباى مصلوبًا نحو ثلاثة أيام حتى علمه القريب والبعيد .

(منجم باشى أحمد دده : المرجع السابق ، ج ٢؛ ورقة ١١٨٥ب) .

(١) د . إبراهيم على طرخان : المرجع السابق ، ص . ١٩٨

أشرف على عملية الشنق هذه على بك ابن شهسوار حاكم ذولقادر ، لأن أباه شنق فى نفس المكان بأمر من السلطان المملوكى قايتباى فى أغسطس ١٤٧٢م (٨٧٧هـ) منذ ٤٥ سنة تقريبًا بسبب دخوله فى طاعة العثمانيين بعد أن كان مشمولاً بحماية المماليك(1) .

وقبل إعدام طومان باى بيومين اثنين قرر السلطان سليم تولية يونس باشا حكم مصر . وفى نفس اليوم كتبت رسائل التبشير بالفتح بالفارسية وأرسلت إلى خراسان وشيروان وكيلان ومازندران وملوك رستمدار ، كما كتبت رسائل أخرى إلى الدول الصديقة تبشيرًا بالنصر .

وصول الأسطول العثمانى إلى الإسكندرية وقيام السلطان سليم بزيارته :

وبعد ستة وثلاثين يومًا من إعدام طومان باى ، وصل الأسطول العثمانى الذى كان مقررًا أن يشترك فى فتح مصر إلى شواطىء الإسكندرية فى يوم الثلاثاء ٢٨ ربيع الثانى ٩٢٣هـ (١٩ مايو ١٥١٧م) ، وكان مكونًا من ٣٠١ قطعة بحرية . توجه السلطان سليم قاصدًا الإسكندرية عبر النيل فى يوم الخميس ٧ جمادى الأولى (٢٨ مايو) للتفتيش على الأسطول هناك ، وكان برفقته الوزير محمد باشا وكاتب الديوان حيدر چلبى وأغا الإنكشارية أياس باشا وخمسمائة من عساكره وأمير آخور أحمد أغا ومعلمه (سليم) حليمى چلبى . وفى اليوم التالى وصل الركاب السلطانى إلى نقله ، ثم إلى فوه فى اليوم الذى يليه . وعندما وصل إلى رشيد فى يوم الأحد ١٠ جمادى الأول (٣١ مايو) ، أطلقت المدافع من برجها تحية لمقدمه .

وصل السلطان إلى الإسكندرية فى ضحوة يوم الثلاثاء ١٢ جمادى الأولى (٢ يونيو) راكبًا حصانه . وفى اليوم التالى قام بتفقد أحوال الأسطول فى

(1) روزنامه حيدر چلبى ؛ ورقة ١٦٠-. ١٤٣

مياه الإسكندرية وبرفقته أمير الأسطول قوجى بك . وقد أطلقت المدافع من السفن ومن الأبراج ابتهاجًا بمقدمه .

وفى يوم الجمعة ١٥ جمادى الأول (٥ يونيو) أدى السلطان صلاة الجمعة بالمسجد الغربى ، ثم زار بعض الآثار النبوية الشريفة الموجودة فى مدينة الإسكندرية ومقام أبى العباس وياقوت الشاذلى .

قضى السلطان أربعة أيام فى الإسكندرية ثم تحرك عائدًا إلى القاهرة بعد عصر يوم السبت ١٦ جمادى الأول (٦ يونيو) ، فوصلها عصر يوم الجمعة ٢٢ جمادى الأولى (١٢ يونيو) ، واستقر فى حى الروضة[١] ، ثم أمر ببناء قصر فى أم المقياس لكى يكون قصرًا للحكم فى مصر[٢] .

ظل الأسطول فى شواطىء الإسكندرية ٥٧ يومًا ، ثم تحرك عائدًا إلى استانبول فى يوم الأربعاء ٢٥ جمادى الثانية (١٥ يوليو) ، وعليه بعض العساكر ممن قدموا للاشتراك فى فتح الشام ومصر . وقد اصطحب الأسطول العثمانى عند عودته المراكب المملوكية التى وجدها فى شواطىء الإسكندرية .

---

(١) روزنامه حيدر چلبى ، ورقة ١٦٠-. ١٤٣

(٢) وكتب إلى جداره بيتين عربيين لنفسه :

الملك لله من يظفر بنيـــل غنى | يزوده قسرًا ويضمن لنفسه الدركا
لو كانت لى أو لعيرى قيد أنملة | فوق التراب لكان الأمر مشتركا

وأمر بحكهما على مرمر أبيض وكتب تحتهما « حادم الفقرا سليم » .

(منجم باشى أحمد دده : المرجع السابق ، ج ٢، ورقة ١١٨٦أ)

انضمام الحجاز إلى الإمبراطورية العثمانية ، وتسليم الآثار النبوية الشريفة :

بعد أن قبل السلطان سليم طاعة شريف مكة زين الدين بركات التى قدمها ابنه كما مر[1] ، أرسل إليه الشريفُ ابن الأكبر محمد أبا نمى يطلب خلعته وإبقاءه فى حكم بلاده . وعندما علم سليم بقدوم محمد أبى نمى إلى القاهرة فى يوم الجمعة ١٣ جمادى الثانية (٣ يوليو) ، أمر بإرسال الأغوات لاستقباله . وفى يوم الإثنين ١٦ جمادى الثانية (٦ يوليو) استقبل السلطان ابن شريف مكة استقبالاً حافلاً . وبعد ستة أيام قدم محمد أبو نمى الطاعة والولاء وبعض الهدايا للسلطان سليم[2] ، ثم سلمه مفاتيح الأماكن المقدسة والآثار النبوية الشريفة الموجودة فى مكة والمدينة[3] . وهكذا أصبحت الحجاز

---

(١) راجع ص ٢٠٩.

(٢) روزنامه حيدر چلبى ، ورقة ١٦٠- ١٤٣.

(٣) مترقجى نصوح : المرجع السابق ، ورقة ٦٦أ ، ب .

بعض الآثار النبوية الشريفة التى حملها ابن شريف مكة وسلمها إلى السلطان سليم فى القاهرة :

البردة النبوية الشريفة « خرقه ء سعادت » .نعلا النبى ﷺ . مقبض سيف النبى ﷺ . سهم النبى ﷺ . بيرق السعادة النبوى ومحفظته . سجادة النبى ﷺ . مرجل سيدنا إبراهيم عليه السلام وغطاء فضى لمقامه . قدر سيدنا نوح عليه السلام . سيف سيدنا داود عليه السلام . قميص سيدنا يوسف عليه السلام عصاتا سيدنا شعيب عليه السلام . سجادة أبى بكر الصديق رضى الله عنه . عمامات الصحابة رضوان الله عليهم . سيوف الصحابة رضوان الله عليهم . ألوية الصحابة رضوان الله عليهم . مسابح الصحابة رضوان الله عليهم . لواءا الحسن والحسين رضوان الله عليهما .

نسخة من القرآن الكريم بخط الإمام على رضى الله عنه .

نسخة من القرآن الكريم بخط زين العابدين رضى الله عنه . سيف جعفر الطيار رضى الله عنه . سيف خالد بن زيد رضى الله عنه . سيف شرحبيل بن حسن رضى الله عنه . تاج أويس القرنى رضى الله عنه . مقبض السيوف الستة الخاصة بالعشرة المبشرين بالجنة .

مفتاح مكة المكرمة . قبيعة سيف .

(أحمد راسم : المرجع السابق ، حاشية ص ٢٣١- ٢٢٩)

لاتزال بعض هذه الآثار النبوية الشريفة التى جاء بها السلطان سليم والتى أتى بها آخرون من سلاطين العثمانيين بعده ، محفوظة حتى اليوم فى جناح الأمانات المقدسة « أمانات مقدسه دائرة سى » بمتحف طوبقپو سرايى باستانبول ، وهى : =

تابعة للإمبراطورية العثمانية .

= سيفا النبى ﷺ وقوساه ، وسيوف الصحابة رضوان الله عليهم . (سيوف الصحابة حسب كبر حجمها : سيف سيدنا على ، فسيف سيدنا عمر ، ثم سيف سيدنا أبو بكر ، فسيف سيدنا عثمان) .

البيرق الشريف : يعتبر البيرق الشريف من أهم الأمانات المقدسة ، ويطلق عليه العثمانيون « سنحق شريف » . كان السلاطين العثمانيون وقوادهم يحملون هذا البيرق عندما كانوا يخرجون على رأس جيوشهم للحرب .

رسالة محمد ﷺ التى بعث بها إلى المقوقس عظيم القبط : (عثر الفرنسى بارتلمى Barthlemy الرسالة التى كتبت سنة ٦٢٧م بين صفحات إنجيل قديم فى أحد الأديرة بمصر سنة ١٨٥٠م ، وعندما علم بحقيقتها قدمها إلى السلطان عبد المجيد) .

أثر قدم النبى ﷺ على المرمر : (عثر أحد قواد الجيش العثمانى ويدعى أحمد بك على هذا الأثر فى طرابلس العرب ، وقدمه إلى السلطان عبد المجيد فى استانبول سنة ١٨٤٧م ، فكافأه السلطان بمائة وأربعة عشر قرشًا) .

سنة النبى ﷺ : (عبارة عن جزء من إحدى أسنان النبى كسرت أثناء معركة أحد) .

شعرة من لحية محمد ﷺ .

البردة النبوية الشريفة : (أحضرها السلطان سليم الأول بعد فتح مصر) .

ختم محمد ﷺ .

تراب من قبر محمد ﷺ .

محفظة الحجر الأسود من الذهب ، وأخرى من الفضة : (لايعرف أى السلاطين العثمانيين أمر بصنعهما ولا أيهم أتى بهما إلى استانبول) .

مصراع باب التوبة : (أحضره السلطان مراد الثالث إلى استانبول سنة ١٥٩٢م بعد أن وضع آخر مكانه) .

= نسخة من القرآن الكريم بخط سيدنا عثمان بن عفان . (مكتوبة على ورق غزال وعليها قطرات من الدم من أثر طعنة السيف التى تلقاها سيدنا عثمان عندما كان يقرأ فيها . وهذه النسخة أهداها السلطان جقمق المملوكى إلى السلطان مراد الثانى فى ٢٠ ذى الحجة سنة ٨٤٣هـ . » راجع ص ٢٨، والملحق رقم ٩» .

أقفال كثيرة للكعبة ، بعضها كان من إهداء السلطان بايزيد الثانى .

ثلاثة مزاريب : (أحدها من الفضة أمر بصنعه سليمان القانونى ، وآخر من الذهب أمر بعمله أحمد الثالث ، والثالث من الفضة صنع فى عهد مراد الرابع . ولا يعرف من أتى بها إلى استانبول بعد أن أهديت إلى الحجاز) .

Kemal Cig : Topkapi Muzesi Mukaddes Emanetler Resimli Rehberi, pp. 3 - 45

أقر سليم حكم الحرمين الشريفين على ما هو عليه ، وبعث مع محمد أبى نمى رسالة بالعربية إلى أبيه ، تتضمن الموافقة على أن يكون حكم مكة فى الشريف بركات وابنه الأكبر محمد من بعده[1] .

الترتيبات التى اتخذها سليم بعد فتح مصر :

شرع السلطان سليم فى اتخاذ بعض التدابير قبل مغادرته الديار المصرية والعودة إلى استانبول : أحسن السلطان على خاير بك بحكم مصر فى يوم الإثنين ١٣ شعبان ٩٢٣هـ (٣١ أغسطس ١٥١٧م) ، وترك له حامية عثمانية مكونة من أربعة آلاف جندى مأخوذة بالتساوى من قوات الروملى والأناضول و « قپو خلقى » والإنكشارية . عين فايق بك قائدًا لعساكر الأناضول ، وسنان بك أمير ترحالة على رأس جنود الروملى ، والذواقة « مصطفى بك » آمرًا لقوات قبو خلقى ، وأغا الإنكشارية خير الدين باشا نائبًا على القلعة .

عقد الديوان فى اليوم التالى لتدارس أحوال مصر قبل الشروع فى العودة . وفى يوم السبت ١٨ شعبان (٥ سبتمبر) تم تحديد أسماء الأمراء الذين سيبقون فى مصر لمعاونة خاير بك فى الحكم[2] .

أراد السلطان سليم من كل هذه الترتيبات التى اتخذها قبل مغادرته القاهرة أن يضمن ولاء مصر للحكم العثمانى . فقد ترك فيها حامية عثمانية تحت إمرة بعض قواده ، وشكل مجلسًا من أمرائه لمعاونة خاير بك فى إدارة البلاد حتى يضمن بقاء السيادة العثمانية . وبهذا حد من سلطة خاير بك على الرغم من ثقته به التى جعلته يعزل الصدر الأعظم يونس باشا ، وينصبه مكانه فى حكم

---

(١) نص الرسالة بالعربية ضمن ملاحق هذا الكتاب ، تحت رقم ٣٠. وهو مأخوذ عن جلال زاده قوجه نشانجى مصطفى : المرجع السابق ، ورقة ١٤٣ ب ، ١٤٤أ .

(٢) روزنامه حيدر چلبى ، ورقة ١٦٠-. ١٤٣

أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة . ٦٤١,٦٣٠

مصـــــر(١) .

---

(١) لايذكر حيدر چلبي في روزنامه (ورقة ١٥٩أ) شيئًا عن سبب عزل يونس باشا من حكم مصر وتولية خاير بك مكانه ، كما لايذكر سبب غضب السلطان عليه وقتله أثناء عودته إلى استانبول .

يقول حيدر : « وصل السلطان إلى بلبيس في ٦ شعبان سنة ٩٢٣هـ ، وبعد أن تحرك من بلبيس بقليل غضب على يونس باشا ، فأمر كتخدا الصولاقية بضرب عنقه ، ثم طلب من أحد الحجاب فصل رأسه عن جسده وإحضارها . ظلت الجثة ملقاة على الأرض ، ثم أمر السلطان بدفنها في « قطية » بعد ثلاثة أيام .

ويذكر جلال راده قوجه نشانجى مصطفى في ورقة ١٤٥أ من كتابه أن قتل يونس باشا كان بسبب مطالبته بحكم مصر .

ويقول ابن زنبل : بعد أن منح سليم الأمير قانصوه العادلى الأمان ، « كان السلطان سليم في كل حين يأمره بأن يلعب بين يديه بالرمح والسيف وأنداب الحرب ، ويعجبه ذلك ويقول لعسكره :

– انظروا هل فيكم من أحد يعرف يعمل شيئًا من ذلك ؟

فقامت نفس يونس باشا الذى هو الوزير الأعظم ، وأغلظ في الكلام على السلطان ، وقال له من بعض قوله :

– ما الذى فعلته ؟ أخذت البلاد من الچراكسة ، ثم أعطيتها لهم ثانية وعاديتهم وقاتلتهم ثم صافيتهم ، فما هذا الرأى ؟ فلو عرفنا ذلك ما جئنا معك ولا أطعناك في شيء من ذلك . فقامت نفس السلطان من هذا الكلام . فأمر بضرب عنقه في الحال وقتل غالب أحصانه تبعًا له » .

[ابن زنبل : المرجع السابق ، ص ١٥٣]

ويورد منجم باشى أحمد دده في ج ٢ من كتابه (ورقة ١١٨٥أ) سبب عزل يونس باشا ولا يذكر سبب قتله ، فيقول : « ولما أتم [سليم] تطهير مصر وتخليصها من أيدى الجراكسة ، كان متفكرًا في أمر من يوليه أمرها ويفوض إليه حكومتها . فاختبر في ذلك الوزير الأعظم يونس باشا ، فولاه إياها ، فتجسس أحواله في الضبط والربط وترك الغرض والطمع في أموال الناس ، فلم يجده أهلاً لذلك . إذ بلغه أنه قد صادر حريم الأمراء الچركسية المقتولين بالأموال ، وكذلك طالب مشايخ العربان بالأموال تهمة أنهم أمدوا الچراكسة وفيهم ودايع لهم .

فعلم السلطان يقينًا أن هذه الحركة قد تثير فتنة تصير سببًا لخروج مصر من يده ، فعزله عن حكومة مصر ؛ وفوضها إلى خير باى الچركسى الذى كان أمير حلب ، ثم أطاع السلطان بعد وقعة الغورى كما سبق

ونصحه بالعدل والخلوص وترك الطمع ، فأصاب في هذا الأمر ...

ولما وصل [السلطان] إلى منزل خطارة بقرب صالحية [عائدًا] في سادس رمضان ، أمر الوزير الأعظم يونس باشا بأن يرافقه على الفرس للمصاحبة . فصدر من الوزير المذكور عند المكالمة كلام حرك غضب السلطان وتهوره ، بحيث أمر الصولاقية التى يمشون بين يديه بقتل الوزير . فضرب أحدهم عنقه وألقى جسده ورأسه في البرية وصارت طعمة للوحوش .. ولم يعلم أحد سببه .

ويقول المؤرخ التركى المعاصر لنا « اوزون چارشيلى » في ص ٢٩٤ من المجلد الثانى من كتابه =

أمر سليم بإرسال بعض الحرفيين من مصر إلى استانبول بطريق البحر كالمهندسين والبنائين والنجارين والحجارين والحدادين والمبلطين والمرخمين وغيرهم[١] . وقد ضم الوفد المرسل إلى الآستانة بعض الذين تمردوا على الحكم العثمانى من بين الأمراء والعلماء وعائلاتهم ، بلغ عددهم ١٨٠٠ شخص أو ٦٠٠ عائلة[٢] . ويبدو أن هذا الإجراء يتفق مع عادة مألوفة فى الدولة العثمانية بإجراء تنقلات بين السكان ، إثر الفتح ، لنقل الخبرات ، أو لترسيخ الصبغة العثمانية فى البلد المفتتح [٣] .

قام السلطان بقطع طريق التجارة القادم من بلاد فارس إلى الشام ومصر واستولى على أموال التجار . وقبض على تجار الحرير المصريين والشاميين ونفاهم إلى استانبول حيث زج بهم فى السجن[٤] .

وبعد أن تولى السلطان سليمان القانونى العرش أعاد هؤلاء المبعدين والمنفيين إلى ديارهم وأرجع إليهم أموالهم التى أخذت منهم[٥] .

قام سليم باتخاذ بعض الإجراءات العاجلة المتعلقة بالضرائب والأموال الأميرية والرزق ، ولم يتسع وقته لكى يدرس باستفاضة أحوال مصر أثناء مقامه بها ، فقد شغل بالخطر الصفوى الذى كان يهدد شرق الأناضول .

= « التاريخ العثمانى » . غضب يونس باشا لتولى خاير بك حكم مصر بدلاً منه . وبينما كان الصدر الأعظم مرافقًا للركاب الهمايونى أثناء العودة إلى استانبول ، قال له السلطان : « لقد تركنا مصر لجركسى مرة أخرى بعد أن فرنا بها ، فضاع بهذا تعبنا ونصبنا » .

استشاط سليم غضبًا من هذا الرد ، وأمر كتخدا الصولاقية بقطع رقبة الصدر الأعظم على الفور ، ثم طلب إلى الحاجب فصل رقبته عن جسده . ظلت الجثة ثلاثة أيام ثم دفنت فى قطية .

(١) ابن إياس : المرجع السابق ، ح ٥، ص . ١٨٣

(٢) Ismail Hami Danismend : Lzahli Osmanli Tarihi Koronolojiai, vol. 2, p. 61 Istanbul 1950

(٣) عبد الكريم رافق : المرجع السابق ، ص . ١١٠

(٤) Danismend : op. cit., Loc. Cit.

(٥) ابن إياس : المرجع السابق ، ج ٣، ص ٢٦٢-. ٢٣٧

بدأ السلطان سليم رحلة العودة إلى استانبول فى يوم الخميس ٢٣ شعبان (١٠ سبتمبر) ، بعد أن قضى فى مصر سبعة أشهر وثلاثة وعشرين يومًا . وعندما وصل إلى غزة فى يوم الجمعة ٩ رمضان (٢٥ سبتمبر) ، منح جان بردى حكم ولايات صفد والقدس وغزة والكدك ونابلس . وفى يوم الإثنين ٢٦ من نفس الشهر (١٢ أكتوبر) أنعم على اسكندر بك اورنوس بحكم سنجق الإسكندرية .

دخل السلطان العثمانى دمشق فى يوم الخميس ٦ شوال (٢٢ أكتوبر) ، وبدأ يفكر فى القضاء على المناوئين للحكم العثمانى فى الشام . فتوجه فى يوم الجمعة ٢٦ ذى الحجة سنة ٩٢٣ (٨ يناير ١٥١٨) إلى الأمير ناصر الدين بن الحنش للقبض عليه ، ولكنه لم يتمكن من ذلك فقفل راجعًا إلى دمشق ، وأمر بعزل ابن الحنش حاكم البقاع وحماه وصيدا فى اليوم التالى وتولية محمد أغا ابن قورقماس **الچركسى** مكانه .

تكونت تجريدة مؤلفة من الإنكشارية والسباهية لمحاربة ابن الحنش ، جعل على رأسها زينل باشا وجان بردى الغزالى ومحمد أغا . ثم تواترت الأخبار فى يوم السبت ١١ محرم سنة ٩٢٤ (٢٣ يناير ١٥١٨) عن هروب ابن الحنش إلى الجولان (١) .

لم يقبل سليم عقد صلح مع الشاه إسماعيل الصفوى بعد معركة **چالديران** ، لأنه كان يريد أن يعود إلى الحرب معه مرة أخرى بعد فتح مصر على حد قول اوزون **چارشيلى** . عندما وصل السلطان العثمانى - أثناء عودته - إلى دمشق ، جاءته رسالة من الشاه مصحوبة ببعض الهدايا ، مؤداها : « ملكت كثيرًا من البلاد والتبعة . استوليت على مصر خاصة ، وأصبحت

(١) روزنامه حيدر **چلبى** ، ورقة ١٦٠-. ١٤٣

ابن طولون : المرجع السابق ، ص . ٢٥٢

أحمد فريدون · المرجع السابق ، ورقة ٦٤١-. ٦٣٠

« خادم الحرمين الشريفين » . والآن أرضك أرض الإسكندر . لقد زال ما كان بيننا ، ولن يعود مرة أخرى . عد إلى مملكتك ، وأعود أنا إلى مملكتى . فلنصن دماء المسلمين سويًا . إننى سأحقق رغبتك ومنيتك أيًا كانت » .

لكن السلطان العثمانى لم يطمئن إلى هذه الرسالة المعسولة ، ولأن جنوده تعبوا لطول معركتهم مع الجراكسة فإنه لم يتوجه بهم إلى بلاد فارس ، واكتفى وهو عند مرج دابق بإرسال الصدر الأعظم پيرى محمد باشا على رأس ألفى جندى إلى ديار بكر لمراقبة تحركات الشاه عن قرب .

وصل الصدر الأعظم إلى الفرات الأعلى ، واطمأن على استقرار الأحوال هناك عند الحدود مع الصفويين ، ثم عاد ولحق بالسلطان سليم فى الأناضول [(١)] .

ترك سليم دمشق فى يوم الإثنين ٢٧ محرم (٨ فبراير) بعد أن قضى فيها ثلاثة أشهر وعشرين يومًا . وفى يوم الثلاثاء ٤ صفر (١٥ فبراير) منح جان بردى الغزالى حكم الشام بعد أن آنس فيه الإخلاص والولاء .

وصل السلطان العثمانى إلى حلب فى يوم الجمعة ٢٢ صفر (٥ مارس) . وفى يوم الأحد ٩ ربيع الأول (٢١ مارس) قدم إليه بعض أمراء **الچراكسة** ومنهم رزمك وتموز بك لإعلان الطاعة والولاء[(٢)] .

تمكن الغزالى من الفوز بابن الحنش وابن خرقوش بجوار دمشق فى يوم الأربعاء ٢٦ ربيع الأول (٧أبريل) ، وقطع رأسيهما ، وأرسل بهما إلى السلطان فى حلب . وفى يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الآخر (٤ مايو) طلب أولاد

---

(١) Uzuncaraili : op cit vol 2, p 295,296

(٢) يذكر أحمد فريدون فى روزنامه (ورقة ٦٤١) ، أن قانصوه العادلى كان من بين الأمراء **الچراكسة** الذين قدموا لإعلان الطاعة فى ٩ ربيع الأول سنة ٩٢٤هـ . راجع ما قاله ابن زنبل عنه فى حاشية ص ٢٣٢ من هذا الكتاب .

ابن الحنش وهم أحمد ومنصور ومحمد الأمان ، فأمنهم السلطان .

ترك سليم حلب في يوم الخميس ٢٥ ربيع الآخر (٦مايو) بعد أن قضى فيها شهرين وثلاثة أيام ، وتوجه إلى استانبول حيث وصلها في يوم الأحد ١٧ رجب سنة ٩٢٤ (٢٥ يوليو سنة ١٥١٨)[١] .

مسألة الخلافة :

أرسل السلطان سليم الخليفة العباسي المتوكل على الله وأبناء عمه خليل إلى استانبول ، بعد أن تم له فتح مصر سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م) . عاش الخليفة في عاصمة الإمبراطورية العثمانية حياة ملؤها الإسراف والبذخ ، وكان دائم الخلاف مع أولاد عمه ، مما جلب عليه غضب السلطان سليم ، فأمر بإبعاده خارج العاصمة ولما ولى سليمان عرش العثمانيين أعاده إلى استانبول ، ثم أذن له فيما بعد بالعودة إلى القاهرة . عاش المتوكل في القاهرة وكان لا يزال يحمل لقب الخلافة إلى أن مات في سنة ٩٤٥هـ (١٥٣٨م) .

وبموت المتوكل انتهت الخلافة العباسية في مصر . وتسكت المصادر التركية والعربية التي عاصرت فتح الشام ومصر عن ذكر شيء عن الخلافة . أما المصادر التي لم تعاصر الفتح ، فمنها ما يقول بتنازل الخليفة العباسي عنها إلى السلطان سليم الثاني ، ومنها ما ينفي هذا التنازل ويؤكد على عدم انتقال الخلافة إلى العثمانيين .

لا يوجد لدينا دليل يؤكد انتقال الخلافة إلى السلطان سليم . فكُتاب التاريخ من الأتراك الذين واكبوا الحملة على مصر أو عاصروا الفتح أمثال ابن كمال وحيدر جلبي ومترقجي نصوح وجلال زاده قوجه نشانجي مصطفى لم يذكروا شيئًا عن الخلافة . ولو كانت انتقلت إلى السلطان سليم ، لذكرها

(١) روزنامه حيدر چلبي ، ورقة ١٤٣ - ١٦٠

أحمد فريدون : نفس المرجع ، ورقة ٦٣٠ - ٦٤١

هؤلاء فى كتبهم ، فهى من المسائل الهامة التى لا تغفل . وقد ذكر حيدر چلبى فى روزنامه ، يوميات المعارك ، وما فعله السلطان يومًا بيوم ، منذ ترك استانبول إلى أن عاد إليها ، مع وجود تفاصيل وافية عن الأيام التى قضاها سليم فى مصر . وعلى الرغم من ذلك لاتوجد إشارة واحدة فى هذه اليوميات عن انتقال الخلافة .

ولم يذكر مؤرخا العرب وهما ابن إياس وابن زنبل شيئًا عن انتقال الخلافة على الرغم من أن ابن إياس ذكر سفر الخليفة العباس إلى القسطنطينية وحزن على فراقه ، كما ذكر أخباره فى استانبول فى مختلف المناسبات . وكان ابن إياس فى كل مرة يلقب المتوكل بالخليفة ويسمى سليمًا وسليمان باسم السلطان . ولو كانت الخلافة انتقلت إلى السلطان سليم لأفرد لها المؤرخان المذكوران الصفحات الطوال ، نظرًا لأهمية هذا الموضوع عند العرب والمسلمين قاطبة .

أرسل السلطان سليم لابنه الأمير سليمان رسالة تبشير بالفتح ذكر فيها ما تم له فى الشام ومصر ، وما تحقق على يديه . ولو كانت الخلافة انتقلت إليه كما ذكرها فى كتابه إلى ولده ، فهى من الأمور الهامة التى تدعو إلى الفخر بها والاعتزاز[١] . كما أن رد ابنه عليه ، لم يتضمن أية إشارة إلى لقب الخلافة .

خطب للسلطان سليم على منابر الجوامع فى مصر بعد فتحها وفى دمشق وحلب أثناء عودته إلى بلاده ، ولم يذكر بلقب خليفة ولكن ذكر بخادم الحرمين الشريفين . ولم يضرب لقب الخلافة على العملة التى سكت باسمه .

ويورد منجم باشى أحمد دده روايتين عن مؤرخين تناولا الخليفة العباسى

(١) راجع الوثيقة ص ٢٠٤ - ٢٠٩ .

بالبحث فى كتابيهما ، فيقول : « قال الجنابي[١] : لما استولى السلطان سليم خان على البلاد المصرية فى سنة ٩٢٣هـ قبض على المتوكل هذا وعاد به إلى الروم وحبسه فى سبع قلال ولم يزل محبوسًا إلى أن قرب السلطان المزبور إلى الوفاة فى سنة ٩٢٦هـ فأمر بإطلاقه وعين له كل يوم ستين درهمًا عثمانيًّا فسار المتوكل إلى مصر وسكن بها إلى أن مات وخلف ثلاثة أولاد عمر وعثمان ويحيى وكانوا موظفين فى الخزانة العامرة العثمانية مدة حياتهم ثم اندرجوا لم يعرف أحوال أعقابهم . وقال « صاحب النخبة »[٢] ردّه السلطان سليمان خان إلى مصر مكرمًا عند بلوغ موت أبيه المستمسك فى سنة ٩٢٧هـ واستمر خليفة بمصر ٢٣ سنة ثم مات فانقرضت الخلافة بموته »[٣] .

وتفيض بعض المصادر العربية المعاصرة لنا ، فى ذكر العديد من الحكام والسلاطين المسلمين من الترك وغيرهم ، الذين كانوا ينعتون أنفسهم بلقب الخلافة فى مراسلاتهم أو عملاتهم ، أو يلقبون سواهم بهذا اللقب فى مراسلاتهم . ولكن هذا كان على نطاق محلى فى نظرى ، لم يتعد حدود أرض الحاكم أو السلطان . فلا يعنى أن يلقب أحدهم نفسه أو غيره بهذا اللقب أن يصبح فعلاً خليفة على المسلمين قاطبة ، لكنه كان من قبيل الفخر وإظهار العظمة والأبهة لا غير .

ويصور بعض المؤرخين المحدثين والمعاصرين لنا عزوف العثمانيين عن الخلافة

---

(١) هو مصطفى جنابى صاحب كتاب « علم الزاخر فى أحوال الأوائل والأواخر » على حد قول محمد طاهر البروسه لى . ويورد كاتب چلبى اسمًا آخر للكتاب فى كشف الظنون ، فيقول عنه « البحر الزخار والعلم التيار » ، يتناول الكتاب التاريخ العام باللغة العربية ، ويقع فى مجلدين يحتويان على اثنين وثمانين بابًا . ولد الجنابى بأماسيا وعاش فى بروسه ومات فى حلب ٩٩٩هـ [بروسه لى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلرى ، ج ٣، ص ٣٩ استانبول ١٣٤٢هـ] .

(٢) هو محمد بن أحمد أدرنوى أحد كتاب السلطان عثمان الثانى ١٠٣٢- ١٠٢٧هـ (١٦٢٢- ١٦١٨م) ، توفى سنة ١٠٥٠هـ . كتب بالتركية « نخبة التواريخ والأخبار » وهو كتاب مطبوع يبدأ بظهور الإسلام وينتهى بالحديث عن خلفاء المسلمين وملوكهم الذين عاصرهم المؤلف . [بروسه لى محمد طاهر : المرجع السابق ، ج ٣، ص ١١] .

(٢) منجم باشى أحمد دده : المرجع السابق ، م ١، ورقة ٣١٩أ .

الإِسلامية بعد فتح مصر وعدم اهتمام سليم أو حرصه على التلقب بها ، نظرًا لما أصاب منصب الخلافة فى أواخر أيامها من هوان وفساد . لكن لا أوافقهم حيث يتنافى رأيهم مع نظرة الشخصية العثمانية للأمور الإِسلامية . لقد كانت فتوحات العثمانيين قائمة على أساس أنها جهاد فى سبيل الله ونصرة دينه ، وتعصبهم الشديد للدين الإِسلامى وحدبهم عليه مسطر فى الكتب . « وقد بلغت القومية الإِسلامية مداها عند السلطان سليم الأول حتى لقد حاول أن يجعل اللغة الإِسلامية الأولى وهى اللغة العربية لغة قومية للترك ، ولم يمنعه من تحقيق هذا المشروع إلا المفتى »[1] .

أما لماذا لم يتلقب من فتح مصر بلقب الخلافة ، فيعزى ذلك فى نظرى إلى أنه اعتبر مقام الخلافة لا يكون إلا فى الدرجة النبوية أو فى بنى قريش . وأمامه دليل قوى من عدم تلقب المماليك بهذا اللقب .

وقعت الدول العثمانية معاهدة « **كوچك** قاينارجه » سنة ١٧٧٤م بينها وبين روسيا ، فى عهد السلطان عبد الحميد الأول ١٧٨٩- ١٧٧٤م (١٢٠٣- ١١٨٧هـ) . وفى هذه المعاهدة نعت السلطان نفسه بلقب الخلافة ، وهذه أول مرة يحدث فيها ذلك رسميًا . ويقال فى سبب ذلك أن قيصر روسيا اعترض على السلطان أثناء كلامه باسم العرب ، فاستاء عبد الحميد من ذلك وصمم على إدراج هذا اللقب قرين اسمه فى المعاهدة . وقد أحيى السلطان عبد الحميد الثانى ١٩٠٩- ١٨٧٦م (١٣٢٧- ١٢٩٣هـ) الخلافة الإِسلامية بصورة رسمية فى دستور سنة ١٨٧٦م ، واستمر لقب الخلافة يستعمل من بعد فى المناسبات الرسمية . ويعزى سبب هذا فى ظنى إلى بروز أهمية الدول العربية لدى العثمانيين والعمل على لم شملها بعد أن بدأت الأطماع الأوربية تركز نظرها عليها وتستعمر بعضًا من بقاعها . كما كان ذلك ردًا على دعاة الإِصلاح الذين نادوا بنشر الإِصلاحات

---

(١) د أحمد السعيد سليمان : المرجع السابق ، ص ١٧ .

الأوربية فى الدولة العثمانية .

لم يكن مصطفى كمال ينكر الجامعة الإسلامية ولا دور الخلافة فى ربط قلوب المسلمين ، بل كان يتحدث إلى المجلس الوطنى عن هذه (الأمانة المباركة) وعما يمكن أن تؤديه من خير للبلاد الإسلامية عامة . ولم يطالب المجلس بأكثر من أن يوافق على أن تكون الخلافة والسلطنة مقامين متغايرين أحدهما إلى جانب الآخر ، كما كانت الحال فى مصر قبل الغزو العثمانى ، مع فرق واحد هو أن السلطان كان فى مصر شخصًا أما فى تركيا فإن السلطان هو المجلس الوطنى نفسه .

وفى نفس اليوم استنكر أن يضاف لقب أفندى وهو كلمة رومية إلى الخليفة لأن ذلك لايناسب عظمة المنصب فالخليفة هو (خادم المسلمين وخادم الحرمين) وفى نفس الجلسة أيضًا تكونت هيئة لعرض مقام الخلافة على عبد المجيد (كان وحيد الدين قد هرب على طراد بريطانى) .

ولكن النية كانت متجهة إلى إلغاء الخلافة أيضًا . وكان المسلمون يتوقعون هذا الإلغاء ، حتى كتب أمير على وأغا خان نداءيطالبان فيه الشعب التركى بالمحافظة على الخلافة .

وانتهز مصطفى كمال الفرصة فاعتبر هذا تدخلاً فى الشئون التركية واعتبر الخليفة مركزًا للمؤامرات ؛ وفى ٣ مارس سنة ١٩٢٤ وافق المجلس الوطنى على إلغاء الخلافة . وعرضها بعض الأتراك على مصطفى كمال فأبى أن يحملها وأعلن أن أنصار الخلافة هم أعداء الإسلام والمسلمين[١] .

---

(١) د . أحمد السعيد سليمان : المرجع السابق ، ص ٦١، ٦٢ .

الأحداث التى أعقبت فتح الشام ومصر :

(أ) تمرد حسن بن مرعى :

بعد القبض على طومان باى بدلالة حسن بن مرعى ، ظهرت من الشيخ حسن « بعض التصرفات المشبوهة »[1] ، فأمر السلطان سليم بإيداعه سجن القلعة التابعة لأغا الانكشارية . سنحت الفرص لابن مرعى ذات ليلة ، فهرب من السجن « حسب التقدير الإلهى » ، وقام بتحريض جماعته على القتال ، وهم الذين كانوا قد أعلنوا الطاعة لطومان باى قبل القبض عليه .

تكونت تجريدة مؤلفة من ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف جندى بقيادة فايق بك ، ضمت عساكر الأناضول والانكشارية **والچراكسة** الموالين للحكم العثمانى وبكوات العرب ومقدميهم وأبناء بقر وغيرهم للقضاء على ابن مرعى . تفرقت جموع الشيخ حسن فى المناطق المجاورة للولاية التى كان حاكمًا عليها وتشتتت ، ولم يجد أمامه غير اللجوء إلى ابن أخيه . أرسل ابن مرعى رسالة إلى ابن أخيه فى الغربية الشيخ شاكر ، ثم بعث إليه رسولاً من قبله للتفاوض معه فى هذا الشأن . فأبى الشيخ شاكر أن يأوى عمه . وقال لقاصده : « إن الشيخ حسن هارب من السجن ، وأنا أصون نعمة السلطان صاحب الدولة وحقه ، ولا أستطيع إيواءه عندى » .

لجأ ابن مرعى أخيرًا إلى والى مصر خاير بك ، فآنس فيه الإخلاص والخضوع ، فأمنه على حياته ، وأرسله إلى مكانه الأصلى . ثم بعث خاير بك إلى السلطان يخبره بما حدث ، ويطلب منه العفو عن الشيخ حسن[2] .

---

(١) لم تفسر الوثيقة التى جاءت بها هذه المعلومات « التصرفات المشبوهة » التى قام بها حسن بن مرعى ، ويبدو فى ظنى أنه كان يريد مقابلاً لما قام به نحو تسليم طومان باى للعثمانيين ، فلم يجبه سليم إلى مطلبه ، أو هو لم يقنع بما قدم إليه فأعلن العصيان .

(٢) نص الوثيقة محفوظ فى أرشيف طوپقپو سرايى ، تحت رقم E. ٥٨٥٠-٢ وصورتها ضمن لوحات هذا الكتاب رقم ١٥.

عفا السلطان سليم عن ابن مرعى بناء على طلب خاير بك ، لكن المنية لاحقت الشيخ وابن عمه فيما بعد ، فقد اقتص منهما إينال السيفى كاشف الغربية وجانم السيفى كاشف البهنسا والفيوم فى ٢٠ ربيع الأول (١٣ مارس ١٥١٩) ، لقاء إفشائهما مكان اختفاء طومان باى لعساكر السلطان سليم من قبل ، مما أدى إلى القبض عليه وشنقه .

(ب) إعطاء الأمان للچراكسة :

هرب كثير من المماليك إلى الصحراء بعد فتح مصر ، وقبض على بعضهم وزج بهم فى السجون ، وعفا سليم عن البعض الآخر كقانصو العادلى وزرمك وجانم السيفى وإينال السيفى . وعين بعضهم فى مناصب هامة ، فأنعم على إينال السيفى بكشوفية الغربية وعلى جانم السيفى بكشوفية البهنسا والفيوم .

وبعد أن تولى خاير بك حكم مصر ، بعث برسالة إلى الوزير زينل باشا يتمنى فيها لو أن السلطان سليمًا أعطى الأمان **للچراكسة** الهاربين فى الصحراء وعفا عن المحبوسين منهم فى السجون فى مصر . ويضمن والى مصر ولاء هؤلاء **الچراكسة** إذا أطلق سراحهم أو عفى عنهم . ويضرب لذلك مثلاً بقانصو العادلى وزرمك اللذين قدما الولاء والطاعة للسلطان ، وثبت بعد ذلك ولاؤهم للحكم العثمانى .

وهذه ترجمة للرسالة عن التركية :

جناب صاحب العزة حضرة الباشا نائل المنى ، أدام الله تعالى معاليه إلى يوم النصب والحساب .

دعوات صالحات مسكية الفوحات وتسليمات زاكيات وردية النسمات تفوح وتلوح من الإخلاص المحض ومن فرط نسبتها إليك .

بعد إهداء قوافل التعظيم ورواحل التكريم وإتحافها ، ينهى الضمير المنير ما يأتى : ... إذا صدر أمان بخصوص قضية الجراكسة الذين [هربوا] إلى

الصحراء ، بينما السلطان صاحب الدولة عزه نصره فيها [مصر] ، فسيرى خيرًا وقد نفذت أوامره الشريفة . وإذا سمعت بعض طوائف الجند التى كانت محبوسة فيها [مصر] أنه أطلق سراحهم ، فإنهم سيمرغون الوجوه جميعًا عند مجيئهم . وقد أتى قانصو العادلى المعروف وزرمك مقدم الألف المشهور وبعض الجنود ، وأعلنوا عبوديتهم خالصين مخلصين لسلطاننا صاحب الدولة . وقالوا : « الحمد لله ، فبينما كنا نستحق القتل ، خلص سلطاننا صاحب الدولة المحبوسين من السيف نظرًا لهذا القدر البين من خيره ، وأعطى الأمان لمن كان منا بالصحراء . وانتشلنا من تحت الأرض ، وأتى بنا إلى وجه الأرض . إننا نعلن عبوديتنا للسلطان صاحب الدولة من قلوبنا وأرواحنا . رءوسنا على الأرض فداء فى طريق السلطان صاحب الدولة » . ودعوا لكم وأثنوا عليكم ...

أضعف العباد

خاير بك الفقير(١)

لا يُعرف رد زينل باشا على هذه الرسالة ، ولكن ابن زنبل يذكر أن سليمًا أوصى خاير بك بإعطاء الأمان **للچركسة** (٢) . ويبدو أن سليمًا منح الأمان **للچركسة** بعد أن علم برسالة خاير بك هذه .

(جـ) عصيان جان بردى الغزالى وقتله :

بعد أن عاد سليم إلى بلاده ، قام الغزالى بالقضاء على مشايخ الأعراب المناوئة للحكم العثمانى فى الشام ، إظهار الولاء للعثمانيين لكى يموه على تحركاته فى المناطق المحيطة التى كان القصد منها التحالف مع البلاد المجاورة

---

(١) الوثيقة محفوظة فى أرشيف طوبقبو سرايى ، تحت رقم ج. ٥٥٩٤ وصورتها ضمن لوحات هذا الكتاب ، برقم ١٦.

(٢) ابن زنبل ، المرجع السابق ، ص ١٠٥.

للمساعدة فى طرد العثمانيين .

استيقظت فى نفس جان بردى أحلام إقامة دولة مستقلة تحت قيادته بعيدة عن السيادة العثمانية . فقام بعدة محاولات للاستقلال بالشام عن الحكم العثمانى فى أواخر عهد السلطان سليم وأوائل عهد ابنه سليمان . وقد قويت هذه المحاولات فى السنة التى مات فيها السلطان سليم (٩٢٦هـ ، ١٥٢٠م) . ومن الجدير بالذكر أن الشاه إسماعيل الصفوى كان على أتم استعداد لأن يمد هذه المحاولات بالجنود ، لكى يرى اليوم الذى يُطرد فيه العثمانيون من الشام ومصر ، فيشفى غليله .

ويبدو من استقراء الأحداث التى وردت فى بعض الوثائق ، أن والى مصر خاير بك كان على علم بتطور الأحداث فى الشام منذ أن بدأت ، وكان يود لو أن الحكم العثمانى انحسر عن الشام ومصر . وقد اتفق سرًّا مع الغزالى شريكه فى الخيانة السابقة .

ويظهر أن الخوف من انتكاس ثورة جان بردى قد ثبط عزيمة خاير بك ، فهو يخشى أن تدور الدائرة عليه لو فشل الغزالى فى مسعاه .

وتشير الوثيقة التالية إلى أن موقف خاير بك السرى غير المعلن كان التضامن مع الغزالى ، حيث كان يود لو أنه نجح فيقوم بثورة فى مصر هو أيضًا . وقد انتظر ما تسفر عنه الأحداث حتى يجرؤ على الثورة ، لأن حامية عثمانية قوية تحت إمرة قواد أشداء تمسك بزمام مصر وتربطها بالتبعية العثمانية .

ولكن موقف خاير بك المعلن – فى نظرى – لتبرئة ذمته أمام الدولة العثمانية مما يحدث فى الشام وإظهار عدم رضاه عنه ، جعله يرسل إلى جان بردى على حد قول ابن زنبل ينصحه من مغبة العمل الذى يقوم به ويذكره بقوة بأس السلطان العثماني(١) . ويعد الجنود – كما قال ابن اياس – للتحرك

---

(١) ابن زنبل : المرجع السابق ، ص ١٥٤، . ١٥٥

إلى الشام للقضاء على ثورة الغزالى إذا أمره السلطان بذلك[1] .

قبض أحد رجال السلطان سليم العاملين فى قلعة تكريت سنة ٩٢٥هـ على جاسوس من القزلباش فى مكان يسمى « خالص » بالقرب من بغداد . وقام شخص آخر بسؤاله[2] عن تحركات جان بردى بعد فتح مصر ، وعن اتفاقه مع الشاه على أوباش حاكم بغداد ومع ابن أردبيل « الشاه إسماعيل الصفوى » للعمل ضد السلطان سليم .

وهذه ترجمة للاستجواب عن التركية :

لا زالت العتبة شبيهة الفلك عاليةٌ . يفضى العبد الحقير بما يأتى : وصل حديثًا رجل من رجالنا الذين يعملون فى قلعة تكريت . قبض على أسير من عند القزلباش المخذول فى موضع يسمى خالص بالقرب من بغداد . كان الأسير المقبوض عليه يتجسس عن طريق التجارة .

عند استجواب المذكور عن الأخبار ، أفاد بأنه أسر فى مصر أيضًا ، عندما فتحها حضرة السلطان حامى العالم أعز الله أنصاره باليمن والإقبال . ومنها جاء إلى كاشان[3] وكان بها ابن أردبيل . جاء رسول من قبل جان برد[4] الغزالى إلى ابن أردبيل فى كاشان . رأى المذكور [الأسير] الرسول هناك . وجاء من هناك إلى بغداد ، واستقر بها خمسة أشهر تقريبًا قدم قاصد من عند ابن أردبيل إلى حاكم بغداد الشاه على أوباش . وكذلك بعث برسول إلى جان برد الغزالى .

---

(١) ابن إياس : المرجع السابق ، ج ٥، ص . ٣٧٥

(٢) لعله محمد باشا ابن بالى البيقلى والى ديار بكر .

(٣) لا يعرف كيف وصل هذا الجاسوس إلى كاشان بعد أن وقع فى الأسر أثناء تجسسه على مصر . ربما سهل له الهرب من قبل والى مصر خاير بك أو أحد رجاله ، وربما استطاع الهروب بنفسه دون عون من أحد . وهو جاسوس على جانب كبير من الأهمية كما يبدو من الوثيقة .

(٤) هكذا كتبت فى الوثيقة كلها دون ذكر حرف الياء .

ومن واقع الأخبار التى أدلى بها الرسول المذكور ، فإن [المسألة] تتعلق بنا حقيقة . أرسل الشاه على أوباش قاصدًا أيضًا ، وصل وقابل جان برد الغزالى . وبعد رؤية القاصد المذكور رأى العيان ، جاء إلى بغداد رسول من قبل جان برد الغزالى أيضًا ، ثم توجه إلى ابن أردبيل .

تقابل الشخص الأسير مع القاصد المذكور . وأخبار الرسول ، هى [الكلام على لسان الغزالى إلى ابن أردبيل] : « تعال يا ابن أردبيل بنفسك أو ارسل إلينا عسكرًا ، إننا نفتح هذه الولاية [الشام] . ولتعلم أن من بمصر اتفقوا معنا أيضًا » .

كان ابن أردبيل فى ذلك الوقت فى مكان يسمى ييلاق بجوار سلطانية ، فأرسل يخبر أنه جمع منها حوالى اثنى عشر ألفًا من العساكر .

عرض ما حدث على الآستانة ملاذ العالم . والأسير المذكور عالم بأحوال العرب والعجم جميعها . باق الفرمان منوط بالعتبة العالية .

العبد محمد(١)

يذكر جاسوس القزلباش أن إسماعيل الصفوى أخبر الغزالى بأنه جمع حوالى اثنى عشر ألف جندى لمساعدته .

ولا تذكر المصادر التاريخية المعاصرة للفترة شيئًا عن رد الفعل لدى الشاه إسماعيل الصفوى إزاء ما كان يحدث فى الشام على يد الغزالى . ومن المحتمل أن يكون الشاه قد جمع كل هذا العدد الكبير من الجنود انتظارًا لتأكده الراسخ من نجاح جان بردى حتى يدخل المعركة مناصرًا له ضد العثمانيين ، لأنه يعلم جيدًا منذ أن كسر فى جالديران قوة بأس الجنود العثمانيين ويخشى جانبهم .

---

(١) الوثيقة محفوظة فى أرشيف طوبقبو سراى ، تحت رقم ج. ٥٤٦٩-٢ وصورتها ضمن لوحات هذا الكتاب ، برقم . ١٧

علم السلطان سليم بتحركات الغزالى المشبوهة فى المنطقة من جواسيسه ومن أمراء بعض المدن الشامية من العثمانيين ، ولكن المنية لم تمهله حتى يقضى على الغزالى المتمرد ، فقد وافاه أجله فى ليلة السبت ٩ شوال سنة ٩٢٦هـ (٢٢ سبتمبر ١٥٢٠م) .

وفى ١٥ ذى القعدة من نفس العام جاء رسول من استانبول يخبر الغزالى بموت سليم وتولى ابنه سليمان عرش العثمانيين .

وبموت سليم « أقامت المماليك **الچراكسة** صدورها » على حد قول ابن إياس(١) . ووجد جان بردى الفرصة سانحة أمامه لكى ينفذ ما يصبو إليه : عزل الأمير سنان من بلاد البقاع وولى أحمد بن الحنش مكانه . وفى ليلة الإثنين ١٧ ذى القعدة من نفس العام حاصر قلعة دمشق ، وعند ضحوة النهار ملكها ، وقبض أعيان الموجودين بالقلعة ومعهم نائبها العثمانى ونهب أموالهم ، ثم جهز نائب القلعة وسنان العثمانى إلى القدس منفيين .

أمر الغزالى أحد أنصاره وهو قانصوه المقرقع بتولى حكم مدينة حماه . ومنع الخطباء فى سائر الجوامع من أن يخطبوا باسم السلطان سليمان . استطاع المقرقع أن يستولى على حماه بالقوة ، ويطرد نائبها العثمانى ، فهرب إلى حلب فى (١٣) ذى القعدة ، كما هرب إليها أيضًا نائب طرابلس فى نهار الإثنين ٢٢ ذى الحجة .

لم يبق فى الشام من الحصون القوية أمام جان برد سوى قلعة حلب . فجهز نائب صفد ونائب القدس ودواداره الكبير أصلان بقوة كبيرة لفتح حلب . وفى يوم الأربعاء ١٤ ذى الحجة توجه الغزالى بنفسه من دمشق للاستيلاء على حلب(٢) .

---

(١) ابن إياس : المرجع السابق ، ح ٥، ص . ٣٦٧

(٢) ابن طولون : المرجع السابق ، ص ٢٦١- ٢٥٩.

وفى هذه الأثناء أرسل الغزالى قاصده خشقدم التحتاوى برسالة إلى والى مصر خاير بك ، لكى يخبره بما حدث فى قلاع الشام ويبشره بالنصر التام فى القريب العاجل وعودة الحكم المملوكى إلى سابق عهده .

يذكر جان بردى كيفية استيلائه على قلعة دمشق ، فيقول : تجمع أهل قلعة دمشق داخلها ، وغلقوا بابها ، ووضعوا الحجارة خلفه ، ونصبوا المكاحل والحراب ، وركبوا الأسوار . وقد علمنا بأن عددهم كان يبلغ ثلاثمائة مقاتل تقريبًا . شرع أهل القلعة فى إطلاق المدافع على الأهالى ، وبعد ذلك خرجت جماعة منهم من القلعة ، فأرسلت إليها رسولاً من قبلى يؤمنها ويطمئنها ، ولكنها لم توافق وأغلظت فى الكلام .

وفى صباح اليوم التالى ركب جنودى الأسوار ، فتشتتت جنودهم ، ووقع بيننا قتال شديد بالبارود والنبال ، فلم يصمد من بها طويلاً . وتحقق لنا النصر بالقوة والقهر « وتسلمها المملوك (جان بردى) ، وصارت حوزة مولانا المخدوم (خاير بك) محسوبة وإلى دولته السعيدة منسوبة) .

وعلى الرغم من عدد الجنود الذين كانوا صحبة السلطان سليم أيام الفتح العثمانى ، فإنه لم يستطع أن يستولى عليها بالقوة . ولو كانت الإمدادات قد وصلت إلى المدينة فى حينها لما استطاع أخذها على ذلك الوجه .

ولكن ستعود دولتنا إلى سابق عهدها بمشيئة الله وسعادة الصدقات السمية ، ويكفى ما صار وشبعنا ذلاً .

قام المملوك بالاستيلاء على دمشق لأنه مملوكها وولى خدمتها وهى أحق بطواعه من السلطان سليم . ولو جاءت من عند العثمانيين مئات الألوف من العساكر ، فإن المملوك لهم كفاية بعون الله ، فكل الرعايا من كبير وصغير وأمير وحقير وهبوا أرواحهم لى ؛ لأنهم خافوا من تمويه الدولة العثمانية كما أنهم تذكروا أيام دولتنا السابقة وتمنوا عودتها .

والرجاء أن يمدنا مولانا المخدوم (خاير بك) بما عنده من مدد ، والمملوك (الغزالى) عليه أن يعيد الحكم المملوكى إلى هذه البلاد بسيف مولانا ومدده .

بلغنى الاستيلاء على حماه ، وأصبحت تابعة لنا . ومن المحتمل أن تنضم إلينا طرابلس ، وتصبح كل الجنود فى البلاد تابعة لى ، وفى هذه الحالة يسهل الاستيلاء على حلب .

ويختتم الغزالى رسالته بالتأكيد على الولاء الكامل لخاير بك ، وعدم التفكير فى الخروج عليه .

وهذا هو نص الرسالة بالعربية(١) :

بسم الله الرحمن الرحيم

السيفي

يقبل الأرض وينهى إلى العلوم سميه محيطه بما تقدم عرضه عليه رسول

حامل الموصى

المتوكل على الله خشقدم التحتاوى بما يغنى عن الإِعادة ولم تتجدد بعد

---

(١) عنوان هذه الرسالة مكتوب فى ورقتين مرفقتين بدبوس ، ونصه :

رسالة ثانية إلى خاير بك

السيفي

صاحب الديار المصرية المحروسة

مطالعه

رسول

جان بردى

ملحوظة : الرسالة الأولى غير موجودة فى أرشيف طوبقبو سرايى .

من سور إلا جماعة القلعة[1] التموا داخلها وغلقوا بابها ووضعوا حجارة وراه ونصبوا المكاحل والحبوبات وركبوا الأسوار وعما بلغ المملوك أنه صار بها نحو الثلاثمايه نفر وشرعوا يرموا على الناس وخرجوا جماعة مجهزة للمملوك تطلب خواطرهم فلم يقبلوا القول وأغلظوا فى الكلام وفى صبحة من النهار ركب سور وينهر عسكره على القلعة فخيموا لها ودفع بينهم وبين جماعته شديد القتال بالبارود والنبال فلم يحتمل من بها من باكر النهار إلى وقت السماط إلا وأذن الله وله الحمد بحصول الظفر بها والنصر واخذنا بالقوة والقهر وتسلمها المملوك وصارت حوزه مولانا المخدوم محسوبة وإلى دولته السعيدة منسوبة وذلك بعون الله وسعاده الصدقات الكريمة وبركة الخواطر سمية قد تيسر وغير خاف عن العلوم سمية ما كان صحبه السلطان سليم شاه من العساكر ولم يأخذها قهرًا ولو ترد الصدقات سمية تتوجه إلى منزلها مرارًا لما حصل أخذها على هذا الوجه ولكن إن شاء الله وسعاده الصدقات سمية تعود دولتنا على سباقها ويكفى ما صار وشعبنا ذل وما فعل المملوك ذلك إلا للخدمة سميه فإنه مملوكها ولى خدمتها وهى أحق بطواعية المملوك لها كما كان من خدمه الشهيد سليم شاه وسعى المملوك بالناموس لا غير ويصير سياجًا للمخدوم فى هذه البلاد ولو حضر ما عسى أن يحضر ولو ميت ألوف فبحمد الله سبحانه المملوك لله كفاية لهم بعنايته وكل الرعايا من كبير وصغير وأمير وحقير إلى المملوك مناولين أرواحهم قدامه فانه خاف ما الموه الدولة العثمانية ويذكروا أيام دولتنا ويتمنوها فمولانا المخدوم يمتد فيمن عنده والمملوك عليه بهذه البلاد بسيف مولانا ومدده وقد بلغه نيته نايب حماه وحمد الله بتسلماتها

والاحتمال الوارد أن يتبع نايب طرابلس المملوك فيتبعه جميع عساكره

---

(١) هذه الجملة مقلوبة وأصلها : ولم تتجدد من سور القلعة إلا جماعة .

وسهل أمر حلب ونايبها[1]

ليكن معلومًا لدى المسامع الكريمة لسعادة مولانا المخدوم أن سؤال هذا العبد من البركات العميمة ، أن تتحققوا من شيمه الزكية ، ومن أنه يعمل على إقامة الدولة وصون الشرف . ويقسم بالله ورسوله ، على ألا يتخلى عن خدمته الكريمة ، ولا يرجع عن طاعته . ومن أجل صدقة ذاته المباركة ، لا ينضوى تحت خاطر غير خاطره الكريم . سطر هذه الرسالة وينتظر الأمر .

إن تقبل الصدقات الكريمة كلام هذا المملوك ، فإن هذا المملوك ملك يديه وتحت تصرفه . وإذا صدرت إليه إشارة ، فإنه مستمر على خدمته كما هو الواجب وإذا لم يرض عنه ، فإن المملوك يعتذر عن خطئه[2] ...

وبعد أن ظفر جان بردى بدمشق ، حاول أن يستولى على قلعة حلب التى كان يتولى حكمها قراجا باشا العثمانى الأصل . هاجم جيش الغزالى القلعة فى ٢٣ ذى الحجة سنة ٩٢٦هـ ، وتمكن من إحراز بعض النصر ؛ لكنه لم يتمكن من فتحها ، على الرغم من أنه قطع القناة التى كانت تدخل الماء إلى المدينة فى ٢ محرم سنة ٩٢٧. وفى ٩ محرم رفع الغزالى الحصار عن حلب ، وتوجه بعساكره إلى حاكم غزة المملوكى الذى أعلن عليه العصيان[3] .

مر جان بردى بمدينة صيدا وهو فى طريقه إلى غزة . وهناك رآه محمد بن الحنش ، فأرسل كتابًا إلى قاضى العسكر العثمانى باستانبول ، يخبره فيه

---

(١) قام العثمانيون بترجمة هذه الوثيقة ، ولصقوا الجزء المترجم أعلى الأصل العربى ، ثم أكملوا الترجمة فى الهامش الأيمن للوثيقة العربية .

وإلى هنا تنتهى الوثيقة المكتوبة بالعربية وبقيتها متآكلة والكتابة فيها ناقصة لهذا السبب ، ولكن هذا النص غير هام . وهذا ظاهر من المعلومات التى وردت فى الجزء المترجم الذى نقلته إلى العربية فيما يلى الجزء المكتوب بالعربية لزيادته عليه ، وهو ناقص بدوره أيضًا كما يبدو من الوثيقة .

(٢) الوثيقة محفوظة فى أرشيف طوبقبو سرايى ، تحت رقم E. ٦٣٦٢ وصورتها ضمن لوحات هذا الكتاب ، برقم ١٨.

(٣) ابن طولون · المرجع السابق ، ص ٢٦٥- ٢٦١.

بوجود الغزالي في صيدا على رأس جنوده ، وعدم وضوح الدوافع التي جعلته يذهب إلى ذلك المكان ، ويذكر له أن الغزالي لا يقيم في بلاده إلا بالمراسيم والتشريفات .

وهذا هو نص الكتاب بالعربية[١] :

بسم الله الرحمن الرحيم

القضاى الملكى المظفري

يقبل الأرض وينهى أن الموجب عرضها على المسامع الكريمة حماها الله تعالى أنه ليس بخاف على العلوم الكريمة ما أنعمت به الصدقات الشريفة الخندكارية ضاعف الله شرفها على الأمير محمد بن قرقماس[٢] ببلاد المملوك وتوجه الركاب الكافلي ملك الأمرا جان بردى الغزالي ومن صحبته من العساكر المنصورة إلى بلاد صيدا ولم يعلم المملوك سبب ذلك والذى ينهى به إليكم إنه ما كان هذه المدة يقيم في بلاده إلا بالمراسيم والتشريف الشريف[٣] ..

عاد الغزالي إلى دمشق في (٨) صفر . وفي يوم الجمعة (٢٢) من نفس الشهر خطب بالجامع الأموى له وهو حاضر بمقصورته بأنه : سلطان الحرمين

---

(١) عنوان هذه الوثيقة مكتوب في الظهر من أعلى ، كمايلى :

القضاى	مطالعه
مولانا وسيدنا قاضى العساكر المنصورة	المملوك
	محمد الحنش

(٢) أنعم السلطان على « محمد بن قرقماس » ببلاد ابن الحنش كما مر .

(٣) الوثيقة محفوظة في أرشيف طوبقبو سرايى باستانبول ، تحت رقم E. . ١٠٧٣٤

لم أذكر بقية الوثيقة لوجود مسح كثير بها ، وعدم وجود معلومات هامة في الجزء الباقى منها .

الشريفين » ، ولقب بالأشرف ، وخرج من الجامع فى موكب حافل .

وفى (٢٦) صفر خرج السلطان جان بردى الغزالى لملاقاة العساكر العثمانية ، عندما علم بقدومها إلى دمشق تحت قيادة فرهاد باشا . تلاقى الفريقان بأرض النمور شرق قرية برزة فى ضواحى دمشق ، ودارت بينهما معركة قصيرة ، هزم فيها الغزالى وقطعت رأسه وأرسلت إلى العتبة السنية[١] .

أسباب سقوط المماليك :

تعتبر الخيانة أقوى سبب فى هزيمة المماليك أمام العثمانيين ، خاصة وقد صدرت من أناس عهدت إلى بعضهم مسئولية قيادة أجنحة هامة من أجنحة الجيش المملوكى أو كانوا يتولون حكم بعض المناطق عند الحدود العثمانية المملوكية أو بقربها . بدأت الخيانة مع بداية المعارك بين الطرفين ، وظلت تؤدى دورها إلى أن شنق طومان باى على باب زويلة . تتمثل الخيانة التى نشأت فى صفوف المماليك فى خاير بك أولاً ، ومن بعده جان بردى . ولاشك أن هذه الخيانة أثمرت بمعاضدة بعض الأمراء والعربان وانضمامهم إلى صفوفها أيضًا .

وعلى الرغم من ضراوة المدافع العثمانية ، فقد أذاق طومان باى عساكر سليم ويلات العذاب فى الريدانية وفى داخل القاهرة فى مقاومة شعبية عنيدة . وتفيد المصادر التركية المعاصرة للفترة فى ذكر عدد الضحايا من العثمانيين فى كلتا المعركتين ، مما يؤكد على صلابة نضال طومان باى وشجاعته ، رغم تفكك الجيش المملوكى فى أواخر عهد الدولة المملوكية وتناحره ، وانهيار اقتصاد البلاد بسبب تحول طرق التجارة .

وقد أعجب سليم بطومان باى وشجاعته عندما مثل أمامه بعد القبض عليه ، على الرغم من خلو قلب السلطان العثمانى من الرحمة والشفقة ، وعلى هذا أدلة كثيرة من قتله لعديد من كبار رجاله وخاصة الوزراء منهم لأهون

(١) ابن طولون : المرجع السابق ، ص ٢٦٧- ٢٦٦

الأسباب أحيانًا (١) . وفكر فى العفو عنه ، لولا تحريض الخائنين . فقد كان طومان باى عنيدًا فى دفاعه عن مصر القاهرة ، وأبلى فى معاركها بلاءً حسنًا استولى على إعجاب غريمه . ولولا الخيانة وانفضاض الجنود من حوله لكان ردع العثمانيين وردهم على أعقابهم محتملاً .

والسبب الثانى فى هزيمة المماليك هو قوة المدافع العثمانية وقدرتها على المناورة والحركة . حيث إنها رجحت كفة العثمانيين بعد أن أنزل المماليك بهم خسائر فادحة وكاد النصر يحالفهم فى الريدانية خاصة .

والسبب الثالث هو تفكك الجيش المملوكى فى أواخر أيامه وانشغاله بالمنازعات الداخلية ، وقيامه على نظام الجلبان والقرانص الذى أدى إلى تفكك صفوف المماليك وضعفها . ولم تُجد الشجاعة والفروسية المملوكية كثيرًا أمام تطور أساليب القتال العثمانية وتفوقها .

ولا يفوتنا أن ننوه بأن الدولة العثمانية كانت دولة فتية آخذة فى النمو ، والمملوكية دولة هرمة متفككة آخذة فى الضعف والانهيار ، أنهك اقتصادها تحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، مما كان له أثر كبير على الإعداد للمعارك وخاصة معركة مرج دابق .

لم يستفد المماليك من أمرين اثنين ، وهما : استعمال العثمانيين للمدافع بمهارة فى حربهم مع اوزون حسن سنة ١٤٧٣م ومع الصفويين سنة ١٥١٤م ، ونتائجها الحاسمة . وكان لديهم من الوقت ما يتيح لهم تطوير جيوشهم وتنظيمها . وحل المشاكل الداخلية التى تتمثل فى الصراع بين الأمراء . وقد كان يلوح فى الأفق من آن لآخر أن صدامًا كبيرًا على وشك

---

(١) صارت هذه القسوة مضرب الأمثال فى الدولة العثمانية فيما بعد ، حيث يقال « سلطان سليمه وزير اولسون » : جعلك الله وزيرًا للسلطان سليم ، بمعنى أهلكك الله .

ربما تعود هذه القسوة إلى المعاملة السيئة التى لقيها سليم أيام أن كان أميرًا من الوزراء والصدور العظام على عهد أبيه . ولولا إصرار الانكشارية على اعتلاء سليم عرش العثمانيين ، لما أمكن ذلك نظرًا لعدم رغبة الصدر الأعظم والوزراء .

الوقوع نظرًا لتأزم العلاقات بين الطرفين فى بعض الأوقات واشتداد حدة الخلاف أحيانًا .

وقد أضاع المماليك الفرصة التى كانت مواتية أمامهم لكى ينضموا إلى جانب الصفويين فى حربهم مع سليم ١٥١٤م حيث كان من الصعب على العثمانيين تشتيت قواتهم وتوزيعها على جبهتين عريضتين ذاتى عمق بعيد .

الخاتمـــــة

كانت فتوحات الدولة العثمانية قبل عهد سليم الأول تتجه نحو البلقان وأوربا ، ثم بدأت فى عهد سليم تتحول تحولاً جديًّا نحو الشرق لأول مرة فى تاريخها . فقد كان شاغل « الأمير سليم » أيام كان واليًا فى طرابزون على عهد أبيه ، هو الخطر الصفوى الزاحف إلى وسط الأناضول فى صميم أملاك الدولة العثمانية ؛ لهذا بذل كل ما فى وسعه بعد أن اعتلى العرش خلفًا لأبيه ، لكى يوقف هذا الزحف الذى كان خطرًا يهدد الدولة العثمانية من جهة الشرق .

أدت دعوة الصفويين إلى المذهب الشيعى فى شرق الأناضول إلى نمو روح العصيان بين الناس فى تلك المناطق وانتشار المذاهب والمشارب المخالفة بينهم . وهدد المذهب الشيعى الأسرة العثمانية نفسها ، فقد وقع تحت تأثير الدعاية لهذا المذهب الأميران شهنشاه ومران ابنا الأمير أحمد أخى السلطان سليم . وهذا معناه تهديد الدولة العثمانية من الداخل فضلاً عن تهديدها من الخارج ، هو تهديد سياسى لها من داخلها فضلاً عن أنه تهديد دينى لها من خارجها .

كان الوضع إذن يستوجب من سليم أن يتخذ خطوة حاسمة لردع الصفويين الذى استشرى خطرهم .

وأول شيء قام به السلطان سليم هو إحكام الحصار حول القزلباش فى الأناضول ، ثم أعمل فيها القتل الجماعى فى سنة ١٥١٤م فقضى على ما يقرب من ٥٠٠٠ فرد كما يقال ، وذلك بعد أن استصدر فتوى من المفتى حمزة أفندى بوجوب قتل الشيعة لأنهم خارجون على الدين الإسلامى .

توجه السلطان العثمانى لقتال الصفويين فى بلاد فارس[١] ، وقد تمكن من دحرهم فى موقعة جالديران ، ثم تقدم بعدها حتى استولى على عاصمة ملكهم تبريز . وبعدها ، اضطر إلى الرجوع إلى بلاده بسبب تمرد الانكشارية عليه عدة مرات لتمسكه بتتبع الشاه إسماعيل الذى لم يثبت أمامهم وهرب بعيدًا فى الجبال وفى المناطق الوعرة . وهناك سبب آخر يسوقه « أحمد أسرار » عن سبب تخلى سليم عن بلاد فارس وهو خوفه من هجوم مملوكى مرتقب[٢] .

وهكذا لم يضع النصر فى جالديران نهاية للأسرة الصفوية ، ولكنه أضعفها وأوقع عليها الجزاء ، وقضى على الخطر الشيعى فى الأناضول وجعله ينحسر عن هذه المنطقة ويعود إلى موطنه الأصلى بلاد فارس .

ويقال : إنه لولا ظهور قوة الدولة الصفوية وانتشار خطرها فى شرق الأناضول ووسطه واستمرار زحفه ، لكان هلال الإسلام يرفرف الآن على ربوع أوربا . فقد شغل انتشار المذهب الشيعى الدولة العثمانية بما يوخزها فى ظهرها وأوقف مدها فى أوربا إلى حد بعيد . وهذا الرأى فيه كثير من المبالغة فى ظنى .

بدأ سليم بعد ذلك يتدخل فى شئون الإمارت التابعة للمماليك فى الأناضول ويعين عليها حكامًا موالين للعثمانيين ويقتل من يتمرد منهم عليه . وقد تمكن من ضم بعض القلاع التابعة للصفويين فى الأناضول كقلعة ماردين وقلعة حصن كيفا إلى ملكه ، كما ضم الإمارات التابعة للمماليك فى الأناضول .

---

(١) أصدر حمزة أفندى فتوى بوجوب قتل إسماعيل الصفوى وأتباعه ، لأنهم « استخفوا بالشريعة والسنة والدين الإسلامى والعلوم الدينية والقرآن » . (الفتوى ضمن وثائق طوبقبو سرايى ، برقم E. ٥٩٦٠ .

(٢) Ahmet Asrar : Osmanli Devletinin Dini Siyaseti ve Islam Alemi Iatanbul 1972

وإذا كان سليم قد حارب إسماعيل الصفوى المسلم ، فإن العثمانيين يعتبرون الشيعة ملاحدة ينبغى قتالهم وتدميرهم .

والسؤال الذى يدور فى الأذهان هو : لماذا اتجه سليم ولأول مرة فى تاريخ الدولة العثمانية لفتح دولة إسلامية سنية كدولة المماليك ؟

لقد كانت دواعى الفتح كثيرة ذكرتها فى الفصل الخاص بأسباب الفتح

ويعتبر فتح الشام ومصر أطول معركة حربية خاضتها الدولة العثمانية ، فقد استغرقت أكثر من عامين .

بلغت مساحة الإمبراطورية العثمانية فى عهد سليم قرابة ثلاثة أمثال مساحتها فى عهد أبيه ، فقد كانت مساحتها فى عهد أبيه تبلغ (٢٣٧٣٠٠٠) كم٢ ، وبلغت فى عهده (٦٥٥٧٠٠٠) كم ٢. تحقق لسليم كل هذا التوسع خلال أربعة أعوام فقط من حكمه تمتد من (١٥١٨- ١٥١٤م) (١) . وقد ضمت الإمبراطورية بلاد الشام ومصر والنوبة (٢) والحجاز وبنى غازى وشمال السودان حتى كسلا .

وبعد أن استولى سليم على شمال السودان حتى كسلا ، أرسل إلى « عمارة دُنقس » ملك سنار يدعوه للطاعة فأجابه بما مفاده « إنى لا أعلم ما الذى يحملك على حربى وامتلاك بلادى فإن كان لأجل تأييد دين الإسلام فإنى أنا وأهل مملكتى عرب مسلمون ندين بدين رسول الله وإن كان لغرض مادى فاعلم أن أكثر أهل مملكتى عرب بادية وقد هاجروا إلى هذه البلاد فى

(١) بلغت مساحة الأراضى التى شملتها الإمبراطورية العثمانية حتى عصر سليم ١٧٠٢٠٠٠ كم٢ فى أوربا ، ١٩٠٥٠٠٠ كم٢ فى آسيا ، ٢٩٥٠٠٠٠ كم٢ فى إفريقيا . وقد كانت مساحة ولاية مصر وحدها سنة ١٥٢٠ تبلغ ٢٧٥٠٠٠٠ كم. ٢

ومن الجدير بالذكر أنه لم يدخل ضمن هذه المساحة البلاد التى تبعت الإمبراطورية العثمانية تبعية إسمية (Yılmaz Oztuna : Op. Cit, vol 5, p. 67)

(٢) وطن سليم فى بلاد النوبة بعض القبائل التركية ، وهى ما تعرف الآن هناك بقبائل البرابرة . وقد تزوج أبناء هذه القبائل من بنات النوبة (يلماز أورطونه ، م ٥، ص ٦٧. نقلاً عن Hillelson

طلب الرزق ولا شيء عندهم تجمع منه جزية سنوية » . وأرسل له مع الكتاب كتاب أنساب قبائل العرب الذى فى مملكته جمعه له الإمام السمرقندى أحد علماء سنار[1] .

أما أرتريا وزنزبار واليمن فقد دخلت ضمن التبعية الإسمية وكذلك الحال بالنسبة للجزائر التى تبعت الدولة العثمانية بفصل يعقوب بن عروج وأخيه خير الدين برباروس .

ويروى البعض أن الفتح العثمانى أنقذ الشرق العربى من توغل النفوذ البرتغالى فى المياه العربية بعد أن فشل المماليك فى إبعاد خطره عن المنطقة . فبعد فتح مصر ركز العثمانيون اهتمامهم على بناء قاعدة بحرية فى السويس تكون مرتكزًا لهم لضرب البرتغاليين فى البحر الأحمر .

وبعد أن سقطت مصر فى يد العثمانيين وتقوضت دولة المماليك ، شرعوا فى السيطرة على بقية البلاد العربية لأن قلب العالم العربى أصبح فى قبضتهم .

(١) نعوم بك شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، ج ٢، ص ٧٤-٧٣ مصر . ١٩٠٣

المـــلاحـق

نقلت الوثائق والمراسلات التالية كما هى دون تدخل منى فى تصحيح شيء من أغلاطها الإملائية أو النحوية ، فربما كانت هذه الأخطاء التى ننظر إليها بمقاييس عصرنا صحيحة فى زمنها .

(١)

الجـواب

[ورقة ٢٤٧ ظهر]

أدام الله تعالى نعم المقرِ العالى الأميرُ الخطيرُ العادلُ المؤيد المظفر الباذل معدن المآثِرِ والمكارم مستخدمُ الصناديد والأعاظم قاموس بحر الكرم ناشر أردية الألطاف على الأمم محيط دايرة الجلال مجدد جهاتِ الأفضال افتخار الغزاة والمجاهدين شمس الملة والدين [ورقة ٢٤٨ وجه] ناصر الإِسلام والمسلمين رافع رايات الدين برأيه إلى ذروة الكمال خافضُ أعداء الله إلى حضيض القهر والإِذلال ولو زادت الألقاب فخرًا لزدتُها ولا زال فى نعمة لاينهدم دارها ولا ينفصم آثارُها منصور الأولياء مخذولُ الأعداء الذى منشور عزه مكتوب على جبهة الشمس وجماجمُ أعدائه كان لم تَغْنَ بالأمس وغودُ الأمل يغْرِقُ أسافِلَه ويورقُ أعالِيَه بالنبى النبيه وآله وذويه بيدى للعلم الكريم لازال محيطًا بما تيسر أن الكتاب الشريف والخطاب المنيف الباهر المتحلى بحلية الكمال الذى أرسل على يد افتخار الأماثل إبراهيم حاجى خليل بيك قد ورد فى أحسن الأوقات وتلقيناه بالاجلال التام وطالعناه بالإِعزاز والإِكرام ووقع الاطلاع على مضمونه المشتمل على فنون الألطاف والشكاية من إحاطة أعداء الله تعالى على المجاهدين فحصل من ذلك انفعال لا يكتنه كنهه واحترق القلب بحيث لو كان سبيل الوصول إلى بلد قِزناط نتوجه إليه بالجنود لنيل درجة الجهاد مع هؤلاء الكفرة الفجرة الطاغين وتخليص المظلومين من الظالمين لكن الوصول ممتنع ولا يكلف

الله نفسًا إلا وسعها واكتفينا بنية دفعهم وقهرهم إن اتفق المجالُ ونية المؤمن خير من عمله وبإرسال كتاب إلى الأمير بابوس وهو من أهل الصداقة والإخلاص لنا وأمرنا بالسعى فى دفع الأعداء المذكورين والقتال معهم والاتفاق بكم بالصداقة والاختصاص فإن امتثل فقد حَصَلَ المرام وإلا فنبهوا حتى نكرر الأمر ونؤكد القول ليكون ساعيًا فى دفع هؤلاء المخذولين ثم همتنا وهمم أصحابنا المجاهدين فى سبيل الله تعالى حق جهاده الباذلين مهجهم مثل آبائهم وأجدادهم [ورقة ٢٤٨ ظهر] فى إعلاء كلمة الله تعالى مَصْرُوفَةٌ إلى طلب النصر لكن من الله عز وجل الناصر بجنده حيث قال وإن جندنا لهم الغالبون وقد قيل همم الرجال تقلع الجبال والجناب الشريف يواصل بعد اليوم بمشرّفاته الشريفة على يد من يبلغها إلينا ويرفعُ سوانحَ حالاته إلى علمنا ليحصُلَ اطمينان الخاطر والاطلاعُ بأموره والمرجوُّ من فضل الله ولطفه أن يعينه فى الأفعال والأقوال وينصره ببركات حبيبه محمد المصطفى ﷺ فى جميع الأحوال ويجعله آمنًا من آفات الزمان وطوارق الحدثان حسبما قال : فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا ولايزال أولياءُ الدين منصورةً وأعداؤه مخذولةً مقهورةً فى كل الحال بمحمد والآلِ .

وحرر فى سابع عشرين صفر سنة أربع وعشرين وثمانمائة(١)

(٢)

[ورقة ٢٨٥ وجه]

أدام الله تعالى عز الجناب المنيف العالى الملكى الأشرفى العالمى ، العاملى العادلى الكبيرى [ورقة ٢٨٥ طهر] النصيرى الظهيرى ، العونى الغوثى

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٢٤٧ ب - ٢٤٨ ب

الغياثى ، النظامى القوامى ، الهمامى المشيرى المنعمى المفضلى المجاهدى ، المرابطى المظفرى ، الأمجدى الأوحدى ، الأكملى حافظ بلاد الله ناصر عباد الله ، معين أولياء الله مذل أعداء الله نصرة الغزاة والمجاهدين ظل الله فى الأرضين كهف الثقلين إمام الحرمين سلطان الإسلام والمسلمين أمير المؤمنين الذى أصبحت به أمور الخلافة منتظمة وقوانين السلطنة ملتئمة ورايات الجهل والعدوان منتكسة وسبل الظلم والبغى مندرسة وألوية الأمن والأمان مرفوعة منشورة وجماجم الأعداء مخفوضة مكسورة مجرورة مقطوعة وبمعدلته تمكن عباد الله بإقامة النفل والفرض المشرف بتشريف هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض لازالت رايات سلطنته فى الخافقين خافقة وآيات سيفه وسنانه بالفتح والنصر ناطقة وسحايب أفضاله على رءوس الخلايق بالنبى النبيه وآله وذويه المحب المخلص بعد تقديم تحية أشرقت كالشمس منورة بأنوار الوفاء والإخلاص وأضحت كالبدر محجلة بصفاء الولاء والاختصاص وأزهرت بدق الطوية رياضها وامتلأت من زلال المحبة حياضها ورفع أدعية صالحة مستجابة وإهداء أثنية فايحة مستطابة يبدى إلى العلم الكريم لازال محفوفًا بما يسر من المطالب العلية البهية والمقاصد الرفيعة السنية أن الكتاب اللطيف والمشرف الحاوى لفنون الألطاف المشتمل على أصناف المآثر وحسن [وورقة ٢٨٦ وجه] الأوصاف بدايع ألفاظه درر متلألئة حكت عن جزاله بحار البيان ولطايف معانيه جواهر زاهرة فاضت من غرر سحايب التبيان (شعر) أكتاب أم شمس الضحى أم صورة اللاهوت . أم نسخة منقولة من عالم الملكوت . ورد فى أحسن الأوقات وأطيب الحالات إلى المحب المشتاق بمجلس الأمير الأمجد الكبير الخطير الممجد فجمع المحامد والمآثر منبع المعالى والمفاخر المجاهد الغازى سيف الدين عمدة الملوك والسلاطين تغرى وردى الحجازى الأشرفى أعزه الله تعالى وأعلاه فشرح صدره بورود ذلك المثال العديم المثال وتلقاه بالقبول والإقبال ووقف عليه فاطلع على ما تضمنه من فنون التودد والتلطف وصنوف التفضل والتعطف لاغرو من الشمس أو تلوح ومن المسك أن يفوح والتفقد عن أحوال عساكر المسلمين وجنود الموحدين جعلهم الله تعالى أبدًا وسرمدًا غالبين وصير أعداءهم هاربين

والاستخبار عن قصة مشركى انكروس ومن تابعهم من أعداء الدين خذلهم الله تعالى إلى يوم البعث واليقين فلا يخفى على علمه العالى أن ملكهم قيرال اللعين جمع جميع الكفرة من أقصى بلاد الكفر وأحزاب الشياطين فقصدوا أن يهجموا على أهل الإسلام عوذًا بالله تعالى فتوجه المحب متوكلاً على الله مع عسكره الموحدين المجاهدين إلى الجهاد لإعلاء كلمة الحق ونصرة الدين ورغبة فيما قال رسول الله ﷺ ما جميع أعمال العباد عند المجاهدين فى سبيل الله تعالى إلا كمثل خطاف أخذ بمنقاره من ماء البحر [ورقة ٢٨٦ ظهر] صدق رسول الله ولما سار العساكر المحمدية وانتهوا إلى جزيرتهم الجانية وهى جزيرة فى وسط ماء طونه وفى طرفيها حصنان حصينان ركبوا فى السفن وحاصروها وبنصر من الله وفتح قريب فتحوها وجميع سفنهم وآلاتهم التى كان قيرال اللعين يهيئها على طول الأيام ومرور الأعوام لإضرار بعض أهل الإسلام أخذوها وما ذلك على الله بعزيز وفيئوا المغانم الجمة وأسروا ذراريهم وإناثهم وقتلوا كبارهم وذكورهم وخربوا دؤرهم وصورهم كلما لجَوا فى طلب قيرال اللعين ومحاربة أحزاب المشركين ما نجحوا وما وجدوا وقذف فى قلوبهم الرعب فإنهم فروا إلى أقصى بلادهم فتشتت شملهم وتفرق جمعهم من الخوف والحذر كما أن الشيطان يفر من ظل عمر رضى الله عنه ثم لما تهيأنا وتشمرنا مع جنودنا لطلبهم حيث كانوا وأين وجدوا إذا اتصل النبأ بالمسامع وتواتر بأن ملك الممالك اللازية توسبات بن لان لما سمع خبر جهاد عساكر المسلمين وإعلاء كلمة الحق واليقين مات فجأة ببركة معجزة محمدية وهيبة صيتة إسلامية فحمدنا الله بذلك حمدًا مشعرًا بمعذرة لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك جل شأنك وعظم برهانك ولا إله غيرك أهلكت عدونا وعدوك بسخط قهرك وتوجهنا تلقاء تلك المملكة لكونها أولى المطالب وأهم المأرب ففتحنا أكثر بلادهم وقلاعهم بحول الله تعالى وقوته بعضها بالعنوة والمحاصرة مثل قلعة **كوكر چنلك** [ورقة ٢٨٧ وجه] الحصينة المتينة وبعضها بالرغبة والاطاعة والبعض مغلوقة ونحن عليها قايمين بالمحاربة والبعض قريب الفتح انشاء الله تعالى فجهزنا مجلس أمير سيف الدين المشار إليه بهذه المفاوضة

بالعجلة والسرعة ليملأ مسامع سلطان الإسلام والمسلمين وأخواننا الموحدين من سكان القاهرة لا بل من أصحاب المكة المعظمة والمدينة المنورة زادها الله شرفًا وتعظيمًا وعلى ساكنها السلام والتحية مسرة وابتهاجًا وتقر نواظرهم وتسر خواطرهم وينصرون لنا بالدعوات المستجابة فى تلك المقامات والأماكن الشريفة لتيسير الفتوحات الكثيرة وتيسر المهام العسيرة بمنه ويمنه ويبلغ التحية ويصف الأشواق لدى الجناب المنيف العالى لا زال سميًا وبعد ذلك يتواصل الرسل والرسائل بتوفيق الله عز وجل والمأمول من جناب المستطاب أن ينبه بسوانح الحالات ورجوع المطالب والمهمات ؛ ليكون سببًا لا نشراح الخواطر وطيب الأوقات والله يؤيده وينصره بملائكته السموات ويديمه على بساط السلطنة إلى قيام المرصات كتب فى العاشر من ذى الحجة سنة إحدى وثلثين وثمانمائة (١) .

(٣)

الجـواب

الحمد الله الجواد بأفضل أنواع النعماء المنان بأشرف أصناف لعطاء المحمود فى أعادى ذوى العزة والكبرياء والمعبود بأحسن أجناس العبادات فى أعماق الأرض وأطباق السماء ذى العظمة والجبروت والبهأ والجلال والملكوت والثناء [ورقة ٢٨٧ ظهر] والصلوة والسلام على نبيه محمد أرسله بالهدى ودين الحق إلى كافة الخلق وعلى آله وصحبه ما نطق ناطق وما أومض بارق وبعد فغب تقديم التسليمات الوافيات الشافيات والتحيات الناميات الساميات المعنبرة بعنبر الولاء والوداد والمعبهرة بعبهر الصفاء والاتحاد وإهداء هدايا التحايا بيد الصبا والعشايا ينهى إلى المقر الكريم العالى العاملى العالمى المؤيدى المظفرى

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٢٨٥أ - ٢٨٧أ .

المنصورى المجاهدى الأمجدى الأشرفى معدن المآثر والمكارم مستخدم الصناديد والأعاظم رافع رايات الدين برأيه إلى ذروة الكمال خافض أعداء الله إلى حضيض القهر والإذلال نور الإسلام والمسلمين جمال الدولة والدين لا زال منشور نصره مكتوبًا على جبهة الشمس وجماجم أعدائه كان لم تغن بالأمس ويبدى لعلمه الكريم أن كريم كتابه وشريف خطابه من أوج برج الإقبال وذروة شامخ الجلال ورد فى أطيب الحالات وأشرف الأزمان وأسعد الساعات وأحسن الأوان على يد مفخر الصدور والأكابر منبع المعالى والمفاخر ذخر أرباب القلم مجمع محاسن الشيم الخواجه جمال الدين ابن حسن دام علوه مملوا بأنواع الولاء والموالات مشحونًا بأصناف الصفاء والمصافات محلى بحلية كلّ فى وصفها الألسن ومزين بزينة وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين فتلقيناه بالإجلال والتجليل وطالعناه بالإعزاز والتبجيل فوجدنا ذلك مستبشرًا بنبأ قمع أهل الظلم والفساد وقضية مقابلة المخذول [ورقة ٢٨٨ وجه] توسبات بن لان وانهزام عساكره ذوى البغى والطغيان وسعى جميل الجناب العالى فى سبيل الله تعالى لتخليص الإخوان المسلمين من أيدى الظالمين الباغين وهم المحبوسون فى القلاع المفتوحة كلها الآن من الممالك اللازية سيما **كوكر چنلك** وموت قيرالهم ببركة معجزة نبينا محمد ﷺ وتكميل أمر الجهاد بتوفيق رب العباد وحصول النصر والظفر على أهل العناد وإن هذا لرزقنا ماله من نفاذ فالمحب المخلص حمد الله تعالى وكرر سجدات الشكر على حصول تلك النعمة العظيمة وتيسير تيك المنحة الجسيمة وابتهج غاية الابتهاج وصارت تلك الأخبار السارة سببًا لتضاعف الفرح والسرور وانشراح الصدر وطيب الوقت وازدياد الحبور فصار ورود ذلك الكتاب موجبًا لتزايد المصادقة والموالاة وإحكام أحكام الود والموافاة فالمحب المخلص الصادق الوداد والراسخ الاعتقاد مستقيم الحركة فى دايرة الوفاء مستديم السكون فى مركز الصفاء فالمرجو من محاسن أخلاق الجناب العالى أن يوثر هذه الخليقة ويسلك هذه الطريقة بأن يشرف أحيانًا بمكاتباته الكريمة ومراسلاته الشريفة ليكون مؤكدًا لتضاعف المحبة والمودة وحمل بواقى الأخبار على الأجل الأعز جُمال الدين المشار إليه ليعرضها إلى مسامعه

العلية عند الوصول بالخير والسلامة ويقررها بعد التلاق وأرسل معه إلى الجناب العالى برسم الهدية مملوك ومملوكة چنكية ليكون رسم المراسلات غير مهجور والله تعالى [ورقة ٢٨٨ ظهر] يعزه وينصره ويعلى قدره ويبلغه مراده ويجعله من الذين أحسنوا بالحسنى وزيادة ما دارت الخضرا أدوارها وقرت الغبرا قرارها بمنه وجوده وكرمه (١) .

(٤)

[ورقة ٢٨٨ ظهر]

الحمد لله الذى أعلا الدين بإعلاء كلمة الحق المبين ورفع لواء أهل الإيمان بلمعان بارقة سيوفهم على ظلمات كفر المشركين وفتح علينا أبواب النصر والظفر بكسر أحزاب الشياطين وتخريب بلاد الكفار والملاعين نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين وبسرور هذه البشرى أزال الأحزان عن قلوب عباده المخلصين بعد أن يبلوهم بنقص من الأولاد بقوله تعالى وبشر الصابرين الآية والصلاة على خاتم المرسلين محمد المصطفى الأمين وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوا شرايع الدين وسلكوا مناهج اليقين أدام الله تعالى بقاء عز المقر المنيف الأشرفى الأجلى ، الكبيرى العالمى العاملى ، العادلى النصيرى الظهيرى ، العونى الغوثى الغياثى ، القوامى الهمامى ، المنعمى المفضلى المجاهدى ، المرابطى المشيدى الممهدى ، الأمجدى الأوحدى الأكملى ، أعنى حضرة من خصه القادر بالعدل الوافر والبذل الباهر والعون الظاهر والغوث الزاهر والشوكة العالية الغالية والصولة القاهرة السالبة قاموس بحر الكرم ناشر أردية الألطاف على الأمم محيط دايرة الجلال محدد جهات الأفضال [ورقة ٢٨٩ وجه] رافع رايات الدين برأيه إلى ذروة الكمال خافض أعداء الله إلى حضيض القهر والإذلال ناصر شريعة رب العالمين سلطان الإسلام والمسلمين لازالت قواعد

---

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٢٨٧أ – ٢٨٨ ب .

الإسلام مشيدة بمكانه وأركان الدين ممهدة بدوام أيامه وزمانه وكلمة الله العليا معمورة بمحاسنه وإحسانه ولا برحت موارد نعمه وسوابغ كرمه عمن ينتمى إلى ولائه فايضة على أوليائه وهمم كافة المؤمنين مصروفة إلى الابتهال بمزيد بقائه ما لمع لامع أو خطر معنى ببال محمد سيد الرسل ومرشد السبل وآله وأصحابه نجوم الهدى ورجوم العدى فالمحب المباهى بإخلاص المصافاة والصفاء والمناجى باختصاص الموالاة والوفاء بعد تقديم التسليمات الوافيات الصافيات والتحيات الساميات الناميات المعنبرة بنسيم عنبر الوداد والمعطرة بشميم عبهر الاتحاد وأداء كرايم محامد كنفحات روايح فوايح النسيم فروح وريحان وجنة نعيم (شعر) سلام قد حكى قطر الغمام . ويشبه فى الصفا صفر المدام . يغرد فاقدًا طير الجنان . يهنى أجره دار السلام . يبدى لعلمه الكريم لا زال محيطًا بما يسران هذه المكاتبة صدرت إلى جناب الأعلى أعلاه الله تعالى أبدًا وسرمدًا مشتملة على معنيين أحدهما التبشير بنصر رايات الإسلام ببركة الآيات العظام وبفتح الممالك الكثيرة من صعاب القلاع وإبكار البقاع بفيض عناية الرب الكريم وتأييد هدايا الصمد العليم وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم (شعر) بشرى لنا معشر الإسلام أن لنا . [ظهر ورقة ٢٨٩] من العناية ركنًا غير منهدم ، وثانيهما إقامة شرايط التعزية لغروب شمس مشرق السلطنة فى مغرب الزوال وتوارى بدر نظام المملكة تحت برقع سحاب الآجال يعنى وفات ذلك الغصن الرطب فى دوحة السلطنة والورد الطرى الطيب من حديقة المملكة المرحوم المغفور له السعيد الشهيد الدارج إلى رحمة الله تعالى واسطة قلادة أبناء السلاطين فلذة كبد أمير المؤمنين روح الله روحه وأعلا فى غرف الجنان فتوحه فعلم الله تعالى أن المحب المخلص لما سمع نبأ هذه الحادثة ونزول هذه النازلة عرض عليه حالة كهيبة يوم النشور وصدمة كزلزلة يوم ينفخ فى الصور ومقاساة الأحزان والالتهاب فى الضجرة والبكاء والاكتباب بحيث لا ينتهى بتقرير البيان ولا يحتوى بتحرير البنان وامتلأ نداء يا أسفا على يوسف فى أسماع وآذان أداء لمراسم المودة ولوازم المحبة أما أدوار الفلك الدوار فعلى أسلوب هذا القرار وكلما طلع نجم من مطلع الإقبال صارت محجوبة بغمام الادبار (شعر)

حكم المنية فى البرية جار . وما هذه الدنيا بدار القرار . وكلما أقبل قبول صباء الصفأ ادبره وكدره دبور الجور والعنأ (شعر) دار مقيمًا أضحكت من يومها . أبكت غدًا بعدا لها من دار . وكل من تجرع جرعة من شرب الفرح لابد أن يشرب من كأس بأس مسمومة بسموم الترح وأى نعيم لايكدره الدهر فلما كان مجارى الأمور طريان الهموم بعد السرور وجريان الأحوال [ورقة ٢٩٠ وجه] موافق التقدير لا مطابق التدبير والدنيا دار العناء وجميع ما فيها رهاين للفناء قال الله تعالى كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون لابد فى كل الأحوال من الرضاء بقضاء ذى الجلال وتفويض الأمر إلى حكم من لايزال والمرجو من كمال إسلام المقر الكريم أيده الله العلى العظيم فى هذه المصيبة العظمى والرزيئة الكبرى أن يتمسك بالعروة الوثقى والطريقة المثلى وأن يلتجى بالصبر الجميل ليحرز الثواب الجزيل على مقتضى الوعد فى قوله تعالى إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وقوله تعالى : ﴿ وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ وأن يبدل أحزان هذه المصيبة بمسرات خبر ظفر المسلمين وغلبة المجاهدين على أعداء الدين وأحزاب الشياطين لعنة الله عليهم أجمعين ولاسيما بفتح قلعة سلانيك التى هى أحصن القلاع الإفرنجية وأصعب الديار الحربية وهى القسطنطينية توأمان فى كونهما منبعى الكفر والضلالة فى أيد الكفرة الفجرة ومظهرى العدوان والغواية فى تصرف مشركى الفسقة بل هى أشد من القسطنطينية فى إضرار أهل الإسلام بالفتنة والفساد فعزمناها وحاصرناها بخلوص الطوية والاعتقاد فشاهدناها مشيدة البروج والبنيان مرصصة الجدران والأركان وقللها بأوج السماء محاذية ومرهفاتنا من رءوس أهاليها دانية فدعونا أهلها إلى الإسلام والجزية فأبوا عنهما ولم ينفعهم تكرار الدعوة فمحضنا عقايدنا [ورقة ٢٩٠ ظهر] بمجرد إعلاء كلمة الله العليا بقطع النظر عن أغراض الأموال وزخارف الدنيا ففى غدوة اليوم الخامس من شهر رجب سنة اثنتا وثلاثين وثمانمائة بالتكبير والتهليل شرعنا بالحرب فلما نصبت الرايات الإسلامية المنصورة المنسوبة إلى آيات الفتح والظفر على الكفار وجاء نداء نصر من الله وفتح قريب من اليمين واليسار وآية جاء

الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا من الفوق ففتحت بالصولة الأولى قبيل الضحوة الكبرى من ذلك اليوم ، فما ذلك إلا آية من آيات القرآن العظيم وبركة أفيضت علينا من معجزات النبى الكريم حيث قال عليه السلام : « لا يزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين إلى يوم القيمة » صدق رسول الله وفيئوا المجاهدين المغانم الجمة وكسروا أوثانهم وصلبانهم وخربوا دورهم وقصورهم وأسروا إناثهم وذكورهم وجعلوا كنايسهم الجمع والمساجد وأظهرنا فيها شعاير الإسلام فقرأنا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، ثم لما كان فى المملكة الأرنودية تكفور مسمى بايوان متملك بالمملكة الكثيرة من القلاع والبلدان فإنه ما هو خال من مراء وغدر وعدوان ولم يزل يشتكى إلينا من خراب بلاده وضعف رعيته ويقسم أنه فى غاية العجز عن حمل مال القطيعة ويبالغ فى سؤاله من إمهال ماله قليلاً وكنا أولاً نظن الصدق فى مقاله إلى أن كشفنا أخباره وتحققنا بكذبه وفساد نيته وتسويفه [ورقة ٢٩١ وجه] وجمع مال القطيعة وصرفه إياه فيما أرادوا وقد بعث عزمنا بالعساكر المنصورة إلى جهة تخريب بلاده وقمع آثاره وهدم حريمه ودق قلاعه على أرسه حجرًا حجرًا وسرنا نحوها على موجب عزمنا فوجدنا حملتها صعاب الجبال وأبكار الثغور فتشمرنا فى هذا الأمر عن ساعد الاجتهاد ففتحت عنوة بعون الله تعالى على وجه السداد وكان إيوان اللعين متحصنًا بشواهق الجبال فى أقصى مملكته فتيقن بعدم نفع الفرار فجاء مطيعًا ومنقادًا وقطع دابر الكفار وجهزنا مجلس الأمير المكرم خلاصة صناديد العالم مالك ممالك المعالى والمكارم وارث مناقب الأكابر والأعاظم بدر الدين محمود بيك أدام الله معاليه ولازال فضل الله حاميه لينوب عن المحب المخلص بإقامة سنن التعزية وسنن مراسم التسلية وليُملاء مسامع سلطان الإسلام والمسلمين عز نصره مسرة وابتهاجًا بينا على ظهور المؤمنين وخلاص المظلومين من أيدى الظالمين ، الذين يخربون البلاد ويعذبون العباد والحمد لله رب العالمين على حصول تلك النعمة العظيمة وتيسير تلك المنحة الجسيمة ، وقد حملناه من المشافهات ليرفعها إلى العلم الكريم لازال محفوفًا

بالبركات فالإصغاء إليه مأمول من الكرم الباهر واللطف الزاهر وقد جهزنا لصحبته من الهدية ما تضمنته الورقة المعطوفة على ذيل هذا المسطور ليكون رسم المراسلة غير مهجور والمأمول من شيم الجناب العالى أن يشرف هذا المحب أحيانًا بمراسلاته المشرفة ومكاتباته المبجلة مشتملاً على ما يسنح له من المهمات ؛ لنبذل المجهود بالقيام لها على أقصى الغايات وينبه بأخباره بدوام دولته العالية الغالبة لازالت عالية غالبة ليستبشر المحب بذلك غاية الاستبشار ويحصل البهجة والسرور بدوام الدولة ، والبقاء والاستمرار والله تعالى يجعل تلك الرزيئة من السدة السنية السلطانية خاتمة المصايب واخرة المصايب ويخص جناب المقر الكريم بفضله العظيم ولطفه الجسيم ، ويحرسه فى حالاته وينصره بملائكة سمواته إنه على ما يشاء قدير ، وبإجابة رجاء المؤمنين جدير رب اختم بالخير واجعل عاقبة أمورنا بالخير والصواب يا الله يا ناصر يا مسبب الأسباب ويا مفتح الأبواب[١] .

(٥)

[ورقة ٢٩٢ ظهر]

الحمد لله وسلامه على عباده الذين اصطفى أدام الله تعالى علو جناب السلطان عالى الشأن ظاهر الخطر باهر البرهان جميل اللطف جزيل الإحسان أعنى به الكبيرى العالمى العادلى الشاملى الكاملى المؤيدى المشيدى المظفرى الظهيرى العونى الغياثى الأعظمى الأكرمى المولوى الأولوى ظل الله فى أرض الله حافظ بلاد الله ناصر عباد الله معين أولياء الله مذل أعداء الله معلى قواعد المرسم والحرمين حامى مشاهد البقاع الشريفة والمروتين مؤسس مراسم العظمة والجلال مؤكد معاقد المقاصد والأمال مطلع لوامع العز والتمكين مظهر مأثر

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٢٨٨ ب - ٢٩١أ .

الملك والدين ملاذ الغزاة والمجاهدين محض ألطاف رب العالمين [ورقة ٢٩٣ وجه] سلطان ملك المصر منصور اللوا تلك الصفات وصفتها للإشرف لازالت رايات سلطنته على قمة السماك مضروبة وآيات معدلته على جبهة الأفلاك مكتوبة ونمارق جلاله على إيوان الكيوان مرفوعة نعمه كفواكه الجنان لا مقطوعة ولا ممنوعة مشيدة قواعد الإسلام بمكانه ممهدة أركان الدين بدوام أيامه وزمانه رعيه الله للإسلام فخرًا غب تبليغ صحايف التحيات المقرونة بالصدق والصفاء ولطايف الدعوات المشحونة بالعهد والوفاء (شعر) سلام كحب لا يمل كلامه . ويزداد طيبًا بالحديث المكرر . سلام كبدر لاح فى وسط غيهب . سلام كأس فاح فى جيب عبهر . يبدى لعلمه الكريم أن درج البلاغة الفصاحة هو الكتاب الشريف والخطاب المنيف من جناب سلطان السلاطين أعز الله سرير الملك بوجوده وأفاض على كافة الأنام أثار عدله وجوده على يد مجلس الأميرى الكبيرى الأجلى الأوحدى الصدرى الأمجدى مقرب السلاطين مؤتمن أمير المؤمنين علاء الدولة والدين آقبوغا بيك أدام الله تعالى معاليه ولازال فضل الله حاميه ورد إلى المحب المخلص فى أيمن الأوقات وأسعد الساعات فتلقيناه بالقبول والإقبال بأنواع الكرم والإجلال (شعر) بنفسى كتاب جاء منكم مختم . له فى صميم القلب ود محيم نهضت له لما أتانى مبجلاً . وطلت به يومى من البشر ابسم . فناحى ضميرى إذ أتاكم ضميركم . قصرنا على شت النوى نتكلم . وأمعنت طرفى فى رقوم سطورها . فشبهتها بالروض وهو مغمم . وأودعتها فى القلب منا ونحوها . أرى رغبتى من حيث أنوى وأعزم . مدام ولكن المدامة مرة [ورقة ٢٩٣ ظهر] وورد ولكن شمها ليس يزكم . حروف وقرطاس ترأت كأنها . سماء تحليها بدور وأنجم . فوقع الاستيناس بمطالعة ألفاظه من مطالعه واطلاع معانيها الجزيلة إلى مقاطعه من أنواع ألطاف ليس فى وسع الإنسان إحصاؤها وأصناف أعطاف لا يتناهى شكرها واثناؤها لا سيما استبشاره مع العلماء المتقين والصلحاء المهتدين وعساكره الممجدين زين الله يمينه بميمنتهم ويساره بميسرتهم وتكراره سجود الشكر على نصرة عسكر المسلمين والفتح المبين وانهزام أعداء الدين وأحزاب الشياطين مدى دوام

السموات والأرضين فتقاصرت ألسنة البيان عن استيفاء لطفه وإحسانه وفضله وشكرانه (شعر) ولو إن فى كل منبت شعره . لسانًا لما استوفيت واجب حمده . وأما تأسيس بنيان معاقد الصفا وتأكيد أركان موارد الوفاء فبحيث لا يعد ولا يحصى (شعر) وأوصافه بحر من الفضل دره . تبر على الدرى لله دره . ووقعت الإشارة العلية من المواقف المقدسة السلطانية والمقار الممجدة الخاقانية لازالت من سهام النوايب مصونة وبعظام المواهب مقرونة بأن يسقط شروط صدق المحبة أسباب التكليف وينهى الأخبار إلى الجناب الأعلى أعلاه الله تعالى أبدًا وسرمدًا فى كل برهة من الزمن ، فالمحب المخلص راغب هذه المنية وطالب تلك البغية فالقضية الواقعة فى هذه السنة أنه ظهر بنو أصفر من منبع الكفر والضلالة ومظهر العدوان والغواية وحاصروا قلعة **كوكر چنلك** من القلاع المفتوحة من المملكة اللازية فتوجه المحب [ورقة ٢٩٤ وجه] بجنود من المسلمين عليهم ، وعزمنا المجاهدة لله تعالى رغبة فى قوله سبحانه ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ وأمير الأمراء يوسف كان مقدمًا ببعض عساكر المسلمين فتلاقوهم وحاربوهم وبعون الله هزموهم فنبذناهم فى اليم وهو مليم فقتل بعضهم وأسر بعضهم وبعضهم خاف من الحرق رضى بالغرق مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارًا وفر ملكهم قيرال اللعين خايبًا وخاسرًا فصار أكثر المدابير مقيمين فى دركات السعير فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، فلما كانت المواقف المقدسية معدن جميع عظام المواهب والكمالات ومنبع بدايع غرايب المصنوعات فالاتحاف إليه كالإهداء إلى الشمس نورًا وإلى الأرض نورًا أما الهدية المرغوبة لديه والتحفة المطلوبة بين يديه أخبار الفتح والنصرة الدينية وأعلام إعلاء أعلام الملة المحمدية فوجهنا إلى ذلك الصعب باتحاف هذه البشرى خدمة الأمير الآجل علاء الدولة والدين المشار إليه فالمأمول من الحضرة القدسية أدام الله تأييدها وحرس تمهيدها أن يوثر هذه الخليقة ويسلك هذه الطريقة ويكون رسم الوداد ممهدًا وأساس الاتحاد مؤكدًا ويسر لنا فى كل وقت بمطالعاته الكريمة ومراسلاته العظيمة ويعلم يقينًا أن المحب المخلص مستأنس بمساطر تلك الأرقام ومقاطر تلك الأقلام مستبشر بحسن مصافاته

مستظهر بصدق موالاته والله تعالى يؤكد ويوطد أطناب سرادقات حضرته المقدسة إلى يوم التناد بمسامير الخلود والأوتاد بحرمة محمد عليه السلام وعلى آله الكرام وصحبه العظام [ورقة ٢٩٤ ظهر] ما أقيم على كتاب الله نقط وإعجام وتكررت الساعات والأيام[1] .

(٦)

الجـواب

الحمد لله الذى ترادف نعماؤه على المؤمنين وتضاعف آلاؤه على المخلصين الذين تصادقت أفئدتهم لإعلاء أعلام الدين بحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين حمدًا يرتبط به الموجود ويستجلب به مزيد الجود والصلاة على خاتم المرسلين محمد المصطفى الأمين وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوا شرايع الدين وسلكوا مناهج اليقين وبعد فقد خفق قلب القلم واجرى على خد الورق دمعه واطلق اللسان بفصيح البيان شوقًا إلى محامد المقر العالى الأميرى الكبيرى العالمى العاملى العادلى المؤيدى المشيدى المرابطى المشاغرى العضدى الظهيرى العونى الغوثى الغياثى الكاملى الكافلى النصيرى الذخرى المولوى الأولوى الأعلوى الأمجدى الأوحدى الأورعى الأكرمى وهو المباهى بعون الله الغير المتناهى عون الغزاة والمجاهدين خير سلاطين الإسلام وخواقين المسلمين لازال فى دولة لاينهدم دارها ونعمة لا ينفصم آثارها وسعادة لا تصفر أوراقها وسيادة لا تتغير آفاقها ولازالت أسباب محبته مؤكدة وعقود موالاته منتظمة منضدة مدى الدهور والأيام فالمحب المخلص بعد تقديم التسليمات الوافيات

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٢٩٢ ب - ٢٩٤ ب .

والتحيات الناميات الساميات المعنبرة بعنبر الوداد والمعطرة بعبهر الاتحاد يبدى لعلمه الكريم أن الكتاب الكريم الشريف والخطاب المستطاب المنيف أحسن من خدود ذوات الخدور وعقود الدر فى نحور الحور ورد فى أيمن [ورقة ٢٩٥ وجه] الأوقات وأسعد الساعات على يد مفخر الأمراء والأكابر الأمير سعد الدين أغا بالتحف المنيعة والهدايا البديعة وفق ما ينطق المثال الشريف وأطلعنا على مضمونه المنيف من فنون التودد والتلطف وصنوف التفضل والتعطف سيما الاستبشار بمجاهدة أهل الإسلام ونصرتهم على الكفار الملاعين لعاين الله عليهم أجمعين ودفعهم عن قلعة **كوكر چنلك** وانهزام أعداء الدين وغرقهم فى الماء كقوم فرعون وحصول الفتح والنصر للمؤمنين فحمدنا الله بحصول هذه البغية ووصولكم إلى تلك المنية شكرًا جميلاً وحمدًا جزيلاً فصار وروده سببًا للمباهاة وإحكام أحكام الود والموالات وانشراح الخاطر وطيب الأوقات داعين لبقاء دولتكم العلية ومنتظرين إلى استماع فتوحاتكم البهية راجين الإجابة بالسرعة والقبول متضرعين نداء الاستجابة على الوجه المأمول وذلك ليس بعيدًا من ألطاف ربنا الكريم إنه هو الغفور الرحيم حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير والله يديمكم ويبقيكم فى بساط السلطنة العظمى إلى يوم الدين آمين يارب العالمين[١] .

(٧)

[ورقة ٢٩٩ ظهر]

أعز الله تعالى أنصار القرآن الكريم العالى الأميرى الكبيرى العالمى العادلى المؤيدى العونى الغوثى الغياثى الممهدى المشيدى المجاهدى المثاغرى المرابطى الظهيرى الزينى معز الإسلام والمسلمين سيد الأمراء فى العالمين نصرة الغزاة

---

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٢٩٤ ب ، ٢٩٥أ .

والمجاهدين ملجأ الفقراء والمساكين زعيم جيوش الموحدين اتابك العساكر ممهد الدول مشيد الممالك عون الأمة غياث الملة ظهر الملوك والسلاطين عضد أمير المؤمنين ولازال النصر مرقومًا على بنوده مرسومًا بعرر جنوده والتأييد معلومًا بأيامه التى أشرقت أسنتها بطوالع مسعودة ونطقت ألسنتها بما لاتجده السيوف حرجًا فى صدرها من تقاصى وعوده أصدرنا هذه المكاتبة مملوءة الصدور بالاعتقاد فى حسن صنيعه والاعتماد فى الأمر كله على جميل جميعه والوثوق من كرمه بمراد ينعش الناس سيب ربيعه وإحسان أحسن فى تنوين تنويعه وجود زاد على القطر فى عدد مواقعه وتواشية توشيعه تهدى إليه سلامًا لا يخل بإهدائه ولا يمل فى رقايق السحر ساقط أندائه ولا يمد فى غير روانق الضحى مبسوط ردائه وتبدى لعلمه الكريم أنه ربما اتصل بسمعه الكريم ما قدره الله عز وجل من انتقال الملك الأشرف برسباى بالوفاة إلى عفو الله ودار كرامته بعد أن عهد لولده الطفل الصغير العزيز يوسف بالسلطنة وجعل مقامنا الشريف [ورقة ٣٠٠ وجه] ناظرًا ووصيًّا عليه وقايمًا بأعباء أود مملكته ومرشِدًا له فى أقواله وأفعاله إلى أن يأنس رشده فأجلسناه على تخت الملك الشريف والمقام اللطيف تجرى أحوال المملكة على ما كانت عليه فى حياة والده الأشرف المشار إليه واستمر الحال على النظام المذكور برهة من الزمن ففى غضون ذلك لاذ بالطفل المشار إليه زمرة من أحداث مماليك والده وأخذوا فى إضمار أمور تضحك السفهاء منها ، ويبكى من عواقبها اللبيب منها السعى فى تفريق الكلمة المنتظمة ومنها إلقاء الفتن والخلف بين العساكر ومنها سلب خليفة الله أمنًا على أنفسهم وذويهم ومنها استباحه ما حرمه الله عز وجل من أموال المسلمين ودمائهم وما وراء ذلك إلى أن كاد والعياذ بالله تعالى أن يقع الخلل فيما نحن قابضون عليه من زمام المملكة فلما تفاقم الأمر آوى إلينا خليفة الله فى أرضه مولانا أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين وهو المعتضد بالله داود بن المتوكل العباسى ، أعز الله به الدين ومتع ببقائه الإِسلام والمسلمين ، ثم جمعوا المشايخ العظام وعلماء الأنام والقضاة والفضلاء والأئمة والخطباء وجملة أهل الحل والعقد ، وكافة أركان الدولة الشريفة وزمرة العساكر الإِسلامية وطايفة الجنود السلطانية

وعرضوا على سمعنا اللطيف وألحوا فى قبول مرامهم وذلك الشروع فى أمور الخلافة بالاستقلال لئلا يقترن مصالح الدين على الاختلال فوهمنا عن ذلك الغياذ بالله فالتفتنا بجمعية الآراء حيث قال عليه السلام : « لا تجتمع أمتى على الضلالة » فقالوا مرة بعد أخرى وكرة إثر أولى القبول لازم [ورقة ٣٠٠ ظهر] بل واجب إلينا منهم شفقة لخلق الله وتراموا علينا أن نتصدى لاعتماد مصالح الإسلام والمسلمين وأن تكون الكلمة مجموعة فينا وأن نلم شمل العساكر والرعايا بجلوسنا على سرير الملك العظيم وأن نتدارك حسم مادة الفساد قبل وقوعه وتحكمه وتكرر إلحاحهم فى ذلك مقامنا الشريف لا يجنح للموافقة على إجابة قصدهم فتصدى مشايخ الإسلام وأفتوا أن الموافقة واجبة علينا ، وأن تمادى مقامنا الشريف فى ذلك بحيث يطرأ والعياذ بالله تعالى خلل كان متعلقًا بذمتنا ثم نظرنا بعين الحقيقة فاتضح لمرآة فكرنا أننا إذا لم نوافق على إجابة قصد النفير العام يؤل الحال إلى خلل ربما تعسر تداركه فعند ذلك استخرنا الله تعالى وأقبلنا على قصد المشار إليهم وفوض مولانا أمير المؤمنين المشار إليه أعز الله الدين السلطنة المعظمة إلينا وخلع عنها من سوانا وأفاض علينا شعار الملك وأجلسنا على سرير السلطنة المعظمة وكنينا ولقبنا بالملك الظاهر أبى سعيد وبادر أركان دولتنا وعساكرنا إلى تقبيل الأرض لدى مواقفنا المعظمة وكذلك جميع من كان بالممالك الإسلامية وهم على قلب رجل واحد فى طاعتنا وتصدينا لقمع المفسدين وبسط العدل ومحو آثار الجور وإعلاء منار الحق والشرع الشريف وإجراء أمور السلطنة المعظمة على أتم نظام وبدل المسلمون بعد خوفهم أمنًا وقد آثرنا إحاطة علم المقر الكريم بهذا النبأ لتكون على خاطره سببًا للفرح ودفعًا للترح وجهزنا به إلى خدمته مجلس الأمير الآجل الكبير [ورقة ٣٠١ وجه] الأعز الأخص الأكمل المختص نظام الدولة سيف الدين مؤتمن الملوك والسلاطين استدمر الخاصكى الظاهرى وحملناه من رسايل الأشواق والمحبة والأتواق ما يمليه على سمعه الكريم ويمدنا بصالح دعواته ولا ينطع مكاتباته عنا بحيث تكون القصاد مترددة من الطرفين والقفول والمسافرون صادرين واردين بين هاتين المملكتين وكانت مودتكم الكريمة وردت على المرحوم الملك الأشرف

تستدعون منه فيلاً ولم يتهيأ إذ ذلك إرساله بواسطة فصل الشتاء والآن قد جهزناه إلى خدمة المقر الكريم ومن صفاته (شعر) كأنه ليل ضاحك عن نهار . وطرد خرطومه شفير منهار . أو راقص جاء يرقص بكمه وإذا دخل على حضرتكم الكريمة عاجل الأرض بلثمه فيبرز أمره العالى لمن يتسلمه والمقر الكريم لا يدخل فى سمعه الكريم ما طرأ على مخيلة المرحوم الملك الأشرف فى مبادىء توعكه من عتبته الواقع فى غير محله على المقر الكريم ولم نبرح قديمًا وإلى علم كما فى علم الله تعالى ونتعالى فى محبة المقر الكريم ونذكر شيمة الطاهرة وطريقته المثلى وأنه وأسلافه لم يزالوا متحدين مع الملوك السالفة خدام الحرمين الشريفين والمأمول من كرم الله تعالى أن محبتنا ومودتنا للمقر الكريم تفصل على أوليائك الأقدمين وقد برز مرسومنا الشريف بالكتابة إلى نواب سلطنتنا بأطراف البلاد الإسلامية أن يحسنوا للجوار مع الجناب الولدى الشهاب سلطان أحمد بيك نجل المقر الكريم أقر الله به عينيه المقيم بسيواس وتوقات وأماسيه وغيرها ويكونون من تنفيذ [ورقة ٣٠١ ظهر] ما يشير به بالمرصاد والقصد من محبة المقر الكريم أن يتقدم بالاستدعاء بخواجه زين الدين بكيساى تاجر الممالك السلطانية ويسهل طريقه ويأمره بالحضور إلى أبوابنا الشريفة بما عساه بصحبه من الممالك الأجلاب الجنس مع الاتحاف بحوايجه ومهماته ومما نؤثر به إحاطة علمكم الكريم أن الفيل المجهز إلى الخدمة الكريمة ما أمكن إرساله فى البحر الآن لموانع متعددة منها تعذر سلوكه ، فبرز مرسومنا الشريف بوضعه فى مركب وهو واصل عقبها إلى بر التركية بعد فصل الشتاء ومنها إلى مقر حضرة الكريم فى حرز الأمن والسلامة إن شاء الله تعالى وهو يحرسه فى أرضه بملائكة سمواته ويديمكم وينصركم باللطف والكرامة إلى ساعة القيام وقيام الساعة آمين يارب العالمين كتب فى عاشر جمادى الأولى سنة اثنى وأربعين وثمانمائة والحمد لله وحده والصلاة على من لا نبى بعده[١] .

---

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٢٩٩ ب - ٣٠١ ب .

(٨)

[ورقة ٣٠١ ظهر]

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله الآية فنحمده حمدًا يرنبط به العتيد مما أعلاه وأولاه ويستجلب به المزيد مما رزقه وأعطاه والصلاة على سيدنا محمد الذى أرسله واصطفاه وأيده واجتباه بدين تخفق بالنصرة راياته وكتاب تنطق بالحكمة آياته وسلطان لا يضعف قواه وبرهان لايخفى صواه وعلى آله وأصحابه الذين هم أنصار الدين اليقين [ورقة ٣٠٢ وجه] وخزنة العلوم والحكمة وحفظة الجود والكرامة فطوبى لمن صار فى منهاجهم واستنار بسراجهم وتحلى بحيلهم وجانب جانب قليهم ومن اقتدى بهم اهتدى بعناية وسعادة أبدية لا تنقضى خلد الله ملك المقر الكريم السلطانى الأعظمى ، الملكى الطاهرى ، الأعلمى الأعدلى ، الأكملى الأعلوى ، الأرفعى الأجلى الأجملى ، الأعبدى الأورعى ، الأصلحى الهمامى ، النظامى القوامى ، المنعمى المفضلى ، المشيدى الممهدى المجاهدى ، المطاهرى المرابطى ، المثاغرى العونى ، الغوثى الزينى ، الليثى المولوى ، الأولوى الأمجدى ، الأوحدى الأكرمى ، وهو المباهى بعون الله اللامتناهى عن الشرع النبوى عون الدين المصطفوى كهف الثقلين سلطان الحرمين ظل الله على الخافقين حافظ بلاد الله ناصر عباد الله معين أولياء الله مذل أعداء الله مبدع سنة الكرم مفيض سجال النعم المنصور بأوضح الدلايل المستغاث فى الشدايد والعوايل المؤيد من السماء المظفر على الأعداء الذى اتضحت بسواطح فضايله دقايق النعمان وافتضحت بجلنار فواضله شقايق النعمان ونشرت عن جنابه الكمالات العلمية والعملية وطويت إليه المراحل الدينية والدنيوية هو الإمام هو القزم الهمام هو البدر التمام هو الصمصام والعلم ، هو المقيم ، وقد سارت مآثره كان علياه من دنياه ينتظم نصرة الغزاة والمجاهدين مستأصل عداة الدين

عن مسالك المسلمين رافع الرايات الإسلامية برأيه إلى ذروة الكمال ، خافض الأعداء الرحمانية إلى حضيض القهر والإذلال [ورقة ٣٠٢ ظهر] قهرمان الماء والطين مغنى عصاة المسلمين جابر الكسير بأعطافه وواهب الكثير بألطافه (شعر) أنت الجواد ومنك الجود أوله . فى بدء جودك ما جود بموجود . أضحت يمينك من جود مصورة . ومن بنانك يجرى الماء فى العود . باسط أجنحة الأمن على أهل الإيمان المتكىء بمتكأ إن الله يأمر بالعدل والإحسان الآمر لعباد الله بإقامة النفل والفرض المخصوص بتشريف هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض سلطان السلاطين عضد أمير المؤمنين لازالت رايات سلطنته على قمة السماك مضروبة وآيات معدلته على جبهة الأفلاك مكتوبة ونمارق جلاله على أوج السماء مرفوعة ومرافق أفضاله كفواكه الجنان ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وشموس معدلته مشرقة منيرة ، ورياض مكرمته منورة نضيرة ، وكواكب ولاته عن أفق الإقبال طالعة ونجوم عداته منحوسة ساقطة آفلة وأمطار الجود والكرم من سحب سماحته فائضة على الناس وسيوح نيل النوال والنعم على الأمصار من ساحته سايحة بلا مقياس مشيدة قواعد الإسلام بمكانه ممهدة أركان الدين بدوام أيامه وزمانه مادام دارت القباب الدوارة وسارت ثواقب الكواكب سيارة أما بعد فيبدى لعلمه الكريم إن الكتاب الشريف والخطاب المنيف من أوج برج الإقبال وذروة شامخات الجلال قد كان واردًا فى أيمن الأوقات وأسعد السلمات على يد مفخر الأمراء والإقيال معدن المعالى والأفضال مالك ممالك المروة والمكارم منبع مناقب الأعزة والأعاظم الأمجد الأخص [ورقة ٣٠٣ وجه] الأكمل مؤتمن الملوك والسلاطين اسندمر الخاصكى الطاهرى أدام الله معاليه ولازال فضل الله حاميه مع الهدايا اللطيفة والتحف المنيفة أحسن من خدود ذوات الخدور وعقود الدرر فى نحور الحور ، لا زالت مملوة أحياض مزهرة الرياض فصار وروده كأنه نسيم يرد على العظام الرماة أو نعيم الجنات يتنعم بها الأرواح باللذات فرحنا منه رايحة الورد والريحان وفرحنا به فرح العاشق بالوصل بَعد بُعْد الهجران وسررنا به سرور السارى بطلوع القمر المنير والصادى بورود النمير فقبلناه بشفاة التعظيم والإجلال وقابلناه بوجوه التكريم والإقبال وفتحناه بيد

الاستبشار وطالعناه بعين الاعتبار فإذا هو شمس المعارف أظهرت أنوارًا وروض العوارف أزهرت أنوارًا وألفينا ذلك محلى بحلية كلّ فى وصفها الألسن ومزينًا بزينة فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين كجنة تجرى من تحتها الأنهار أو كالمزن المملو عن ساكنى القفار بدايع ألفاظه درر ضاحكة تنطق من جزالة بحار البيان ولطايف معانيه سلسال جارية ينادى من غرر سحايب التبيان بجواهر الحكم الزاهرة ومملو بزواهر المطالح الباهرة ، فسمع من كل عضو من أعضاء المحب المخلص بل كل شعر من شعراته نداء يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم فأطلعنا على مضمونه المنيف من فنون التودد والتلطف ، وصنوف التفضل والتعطف ، ومن انتقال الملك المرحوم برسباى إلى دار الآخرة تغمده الله بغفرانه وعهده لولده الصغير [ورقة ٣٠٣ ظهر] وقضية الإيصاء واتباع المقر الكريم على ما أوصاه من إجلاس ولده الصغير على السرير وإجراء أحوال المملكة على ما كانت عليه فى حياة والده ، وقصد زمرة من الأحداث إلى تفريق الكلمة المنتظمة وإيقاع الفتنة والفساد وإخلال نظام الشريعة والدين العياذ بالله وإيواء أهل الحق كلهم لا سيما أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين ومشايخ الإسلام والعلماء المهتدين وأركان الدولة وأوتاد المملكة واتفاقهم على أن يكون الكلمة مجموعة صونًا للإسلام والمسلمين ومن أفتاهم بوجوب القبول وأمر الاستخارة فى ذلك وقبوله حفظًا لنواميس الدين وعونًا لأهل الحق والحقيقة وحسمًا لمادة الفساد وقمعًا لآثار الجور والعناد فكيف يمكن عدم القبول والحال إن الديانة والتقوى فى نفسه القدسية جبلية وشفقته على خلق الله خليقة برضا الله خليقة ومروته شاكلة لسير الأنبياء مشاكلة وعدله عادة عاقبتها فوز وسعادة فبسبب اتصافه بهذه الصفات الكاملة وبعناية الله الشاملة صارت عقود الإمامة بوجوده الشريف منتظمة وأمور الخلافة بذاته اللطيف ملتئمة وألوية الأمن والأمان منشورة والممالك الإسلامية بعدله وإحسانه معمورة وقد صارت الملة برسمه مخضرة العود وأعواد المنابر باسمة متلألئة الصعود ووضعت سلاطين الآفاق فى عتبته العلية الجباه والنواصى وخضعت لحكمه المطاع أعناق المطيع والعاصى فلما تحقق عند المحب المخلص [ورقة ٣٠٤ وجه] إن سرير السلطنة المتبركة تزينت

بعز جلوس خير خلق الله خلقًا ودينًا أيده الله وثبت فى موضع جلوس لغاية الفرح والسرور فقرأت الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور فكررت سجدات الشكر على هذه النعمة العظمى والمنة الكبرى ، فصار وروده سببًا للمباهات وإحكام أحكام الود والموالاة ، وانشراح الخاطر وطيب الأوقات فاستفدت منه كحل الجواهر ومادة الحيوة فحمدت الله عز وجل بحمد لا عد لإحصائه بقدر قدرة بشرية ووسع طاقة إنسانية راجيًا زيادة لطفه كما قال عز وجل من قائل ولئن شكرتم لأزيدنكم وأما ما أشير إلينا بأن يكون بيننا جميل الموافاة وحسن الجوار والموالاة ونتعالى فى المحبة والوداد وأن المحبة بيننا تتفضل على أولئك الأقدمين فتحير هذا المحب المخلص فى ألطاف المقر الكريم أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره فإن عنايته مع المحب المخلص كاملة ومحبته شاملة ومن عداد الكرام إكرام مخلصيه فلا عجب من أخلاقه الكريمة التى راحت إلى الآفاق روايحه الطيبة أن يحب من يباهى بصدق محبته وولائه ، ويفتخر بالقيام على إقامة مراسم وفائه فإن هذا المحب قد انطلق بنطاق الإخلاص لتلك الحضرة الشريفة وتردى برداء الاختصاص بتلك السدة المنيفة وعقد المحب عقود العهود على نفسه بالوثوق إن شدة اتحاده ورسوخ اعتقاده وخلوص وداده وصدق نيته وصفاء طويته وموافقة قلبه ومصادقة روحه لذلك الجناب العالى الرفيع أعلاه الله تعالى [ورقة ٣٠٤ ظهر] أبدًا وسرمدًا أن تكون فى مبلغ لاينتهى غايته بريدوهم ولا سفير خيال وأن يوالى من والاه ويعادى من عاداه ، ويكون آثار المحبة على التزايد ليلاً ونهارًا وعلى التضاعف سرًّا وجهارًا شامخة البنيان راسخة الأركان ، لا يستنشق مشامها رايحة الخلل ، ولم يختلط مباسمها شابهة الزلل ، على أن يكون نسبة هذا المحب إلى ذاته الشريف لازال عن نوائب الزمان مصونًا وبعظام مواهب الله تعالى مقرونًا نسبة الولد إلى الوالد الكريم أيده الله العلى العظيم ، بل نسبة أطوع الموالى إلى مولى الموالى وقد قصد المحب المخلص بعيد ما ورد المشرفة السلطانية إليه أن يجهز الأمير الكبير مفخر الأمراء والأماجد مستجمع المعالى والمحامد ولد بيك دام إقباله إلى المواقف العلية ، لازالت محفوفة بالعز والجلال واليمن والإقبال ليقوم عن المحب المخلص بإقامة

سنة التهنئة فبينما اقتضت المصلحة الجهادية أن نتوجه على التعجيل بالعساكر الإسلامية إلى جانب بنى الأصفر الملاعين لعاين الله عليهم أجمعين ، فاشتغلنا بأمر الجهاد وفطرة المقر الكريم منصبغة بمحبة إعلاء كلمة الله تعالى وشأنه حقيق بقبول العذر فى تأخيره ولكن التأخير معذور ثم إن استفسر المولى الكريم لازال مسرورًا بما يحب ويرضى عن أحوال المحب المخلص ، واستخبر عن أوضاع المجاهدين مع الكفار فإننا بحمد الله ومنه مشغولون بنشر المعدلة وإصلاح المملكة وتقوية شوكة الشريعة وتكثير أبنية الخيرات وتمهيد مبانى المبرات [ورقة ٣٠٥ وجه] لا سيما أن أوقاتنا مستقرة بديدن آبائنا الكرام وسنن سنن أجدادنا العظام من إعلاء كلمة الله والجهاد فى سبيل الله رغبة فيما قال رسول الله ﷺ حيث سئل أى العمل أفضل قال الإيمان بالله قيل ثم ماذا قال الجهاد فى سبيل الله بل الإيمان والجهاد توأمان حيث قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ فمجارى الأمور التى وقعت فى هذه السنة أن متملك مملكة لاز المسمى بيوركى لم يبرح يصالح معنا ، ويتملق لنا ويظهر الصداقة ويشتكى إلينا من خراب بلاده وضعف رعيته ، وكنا أولاً نظن أنه صادق فى ذلك إلى أن كشفنا أخباره وتحققنا كذبه وفساد نيته لأهل الإيمان ، فإنه ما هو خال من مراء وغدر وعدوان فمصلحة تأييد كلمة الإسلام والمسلمين يقتضى أن يقلع ذلك اللعين من البين حتى يفتح باب الجهاد على بنى الأصفر ، فعزمنا بالعساكر المنصورة عليهم بعد نبذهم رغبة فى قوله تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ ، فلما سرنا عليها على موجب عزمنا رضيت أهاليها أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فقررنا عليها فلهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وأما ملكهم اللعين ففر إلى أقصى بلاد بنى أصفر وأناب ابنه منابه فى القلعة التى بناها على شط نهر طونة المسماة بسمندرة التى هى أحصن القلاع وأصعبها فحاصرناها وتشمرنا فى أمرنا [ورقة ٣٠٥ ظهر] عن ساعد الجد والاجتهاد وبعون الله تعالى فتحناها على وجه السداد ، وعبر المجاهدون النهر خمس مرات بالسفن إلى مملكة انكروس وأغاروا عليه وفيئوا المغانم الجمة

وكسروا أوثانهم وصلبانهم وخربوا دورهم وقصورهم وأحرقوا بلادهم وحصونهم ، وقمعوا رسومهم وآثارهم ودكوا قلاعهم على رءوسهم حجرًا حجرًا ، ومن جملة البلاد التى خربت وأحرقت البلدة المزبورة وبلغراد وبلدة كوهين وبلدة طمشوار ، وبالجملة وقع فى هذه السنة فى جهاد بنى الأصفر من التخريب والتفريق والإحراق والقتل والأسر أمر لا يتنطق بنطاق الوصف والتبيين فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين . فجهزنا بهذه الورقة خدمة الأجل للمبعوث من النعوت بما به يستحق أن يستخدم مثله بهذه الخدمة النسية ولد بيك المشار إليه ، لينوب عن المحب المخلص بإبلاغ التحية والسلام ، وبإقامة رسوم التهنئة كما هو دأب السلاطين والمأمول منكم أن لاتسدوا أبواب المكاتبات وطرق المراسلات حتى يكون المحب المخلص خبيرًا عن مجارى أحوالكم وقهر الأعادى وسرور أوليائكم والله تعالى يديمكم فى نهج السعادة إلى قيام الساعة ويمد ظلكم الظليل على مفارق الأنام بحق فخر آل الخليل عليه الصلاة والسلام وعلى آله الكرام وأصحابه العظام(1) .

(٩)

الجواب بالتحف المنيفة

أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم العالى الأميرى الكبيرى ، العالمى العادلى المؤيدى ، [ورقة ٣٠٦ وجه] العونى الغوثى الغياثى ، الممهدى المشيدى ، الزعيمى الظهيرى ، الزينى معز الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء فى العالمين ناصر الغزاة ذخر المجاهدين ، ملجأ الفقراء والمساكين زعيم جيوش الموحدين أتابك العساكر مجهد الدول مشيد الممالك ، عماد الملة والدين ، غياث الأمة

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٣٠١ ب - ٣٠٥ ب .

ظهير الملوك والسلاطين ، عضد أمير المؤمنين لازالت رجوم نجوم سيوف جنوده وشهب بنوده من أوج الحروب صاعدة ، ونازلة على مفارق الأعداء وأعناقهم ، وما برحت غرر أهلّة جياد فحوله ونعال خيوله طالعة ومشرقة فى ظلام الجدال والقتال (شعر) كان مثار النقع فوق رءوسهم . وأسيافهم ليل تهاوى كواكبه . أصدرنا هذه المفاوضة إلى المقر الكريم نشكر عزايمة الكريمة بأعذبها وتحقق لديه المواظبة على محبته وحسن ولائه ، والاغتباط من قبلنا بما أولاه المقر الكريم الإسلام من الفتح المبين وتشييد بنائه وتبدى لعلمه الكريم إن المكاتبة الكريمة وردت إلى أبوابنا الشريفة ، على يد المجلس السامى الأميرى الكبيرى العضدى ، الذخرى المعزى ، المقربى المؤتمنى ، الأخصى الزينى ولدبيك أدام الله سعادته ويسر بالخير إلى حضرتكم الكريمة إعادته فوقفنا عليها وصرفنا وجه القبول والكرامة إليها وشممنا بروق النصر من عنوانها ، ولمحنا محايل الظفر بأعلامها والإسلام عند عيانها ، وتأملنا ألفاظه البديعة فإذا هى أعذب من الزلال وأجلب للعقول من السحر الحلال ، ونظرنا إلى سطورها فما وشى الزهى وابتهجنا بمنظومها ومنشورها الذى أزرى بالجواهر فى سلكها [ورقة ٣٠٦ ظهر] والدرر وعلمنا مضمونها وفهمنا مكنونها فأما ما ذكره من أمر اللعين الموسوم بيوركى متملك مملكة لاز وما سوأت نفسه وشيطانه وسلوكه سبل العذر التى خلبت به أوطاره ، وخربت أوطانه وغزوه بحيث أمكن الله من فتوح قلعة سمندرة وما حولها من صياصى بنى الأصفر التى أدحرته لمقادير بينان الأيام الكريمة ، وما استعتبه الله على المقر الكريم بإحياء فريضة الجهاد من تواتر نعمه الجسيمة ويسره لذاته الكريمة وسناه ، وهيأ له وهناه من هذا المنن والمنح والنصر والظفر والنجح ، والتضييق على من بها من بنى الأصفر الكفار ، والزحف عليهم بعساكره المنصورة والإحاطة بهم وبصياصيهم معنى وصورة ، وما داخل ذات المقر الكريم من ابتهاج بواسطة علونا على سرير السلطنة المعظمة وارتقائنا على كرسى المملكة الكريمة ، ودخول الناس فى طاعتنا وانتظام الممالك فى خدمتنا شرقًا وغربًا وتجهيز الأمير زين الدين ولدبيك ليشافه مسامعنا عن المقر الكريم بما منّ الله تعالى به من استمرار قواعد الإسلام والمسلمين ، بناء

على أجمل نظام وتوقعه من عيون استثناء أن تصير البلاد كلها دار إسلام وما أتحف المقر الكريم بإرساله على يد قاصده المشار إليه من الهدية والتحف السنية بمقتضى القايمة المعطوفة على مودته الكريمة فقد علمنا ذلك وسلكنا فى الاعتبار بتلقى رسوله المشار إليه أجمل المسالك ولحظت ما أتحف به من ذلك يعنى القبول وأعظم أمنيتنا بقاء ذاته الكريم [ورقة ٣٠٧ وجه] ، إذ هى غاية السؤل ونهاية المأمول وقد أثبتنا ذلك فى صحايف الاعتداد وتأكد به من مودته ما لا يحصل من يد الدهر تطرق إليه والامتداد ، وأذعنا بين عساكرنا وأولياء دولتنا ما منحكم الله تعالى به من تجريدكم لإحياء فريضة الجهاد سيوف الهمم وأن عزمكم المقبول ترك وجوه الخيل باسمة والحرب أقوم من ساق على عدم فعند ذلك أنشد شاعر حضرتنا الشريفة يصف عزمكم المرهف الذى هو للإسلام خير ناصر وسيوفكم التى هى بقوة الله للكفر أقوى حاصر ، وأتيته بأثر ما نصه (شعر) أبشر ففعلك عند الله محمود . وأنت منه بعز النصر موعود . تبارك الله عم النصر واقتربت ساعاته فلحرب الروم تهديد . نهنيك واقعة الفتح المبين ولا قتال من زمن الكفار موجود . شريعة الحق أوهت ركن زخرفهم . حتى غدا لدخان الكفر تخميد . فالبشر فى حجرات الملك متصل . والمؤمنون لهم عز وتأكيد . بمثل نعمة هذا الفتح ما سمعت . إذن ولا مثله من قبل معهود . فتح تفتح أبواب الجنان له . لا باب دونك منها اليوم مسدود . على يديك إله العرش قدره . فقد أجرك لا يحصيه تعديد . كم من ملوك لهذا الأمر قد قصدوا . فكلهم بيد التقصير مردود . وللسعادة أقوام لها خلقوا . وأنت منهم فلا يصيبك مقصود . وقد أنهى أسوة كلهم الأمير زين الدين ولديك على سامعنا الشريفة شفاهًا ما أشار المقر الكريم عليه من المعاودة فى محبتنا ورغبته فى خالص مودتنا ، وابتهاج خاطره بما منّ الله تعالى به من اجتماع الكلمة فينا ونحن كما فى علم الله محققون من المقر الكريم ذلك وأضعافه فإن المحبة بحمد الله تعالى مقرونة من الطرفين [ورقة ٣٠٧ ظهر] ومنزلة المقر الكريم والشفقة عليكم فى ضميرنا الشريف أعظم من والد على ولده إذ الشيم الطاهرة التى تفضل الله على وجودكم الشريف ومنحه بها قاصرة

عليه لم ينلها أحد سواه منها جميل الذات وحميد الصفات وبسط العدل فى رعيته وأهل بلاده وتصديه لأعداء منار الإِسلام وإحياء فريضة الجهاد وغزو أهل الكفر والعناد ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وقد حق لمن هو متصف بهذه الشيم الطاهرة أن يتعالى فى محبته ، ويرغب فى مودته وجل الشريف أن يكون المملكتان كروحين فى جسد أو ساعدين فى عضد والقفول والمسافرون وحجاج بيت الله الحرام يترددون إليهما ، ويصدرون عنهما فى حرز الأمن والأمانة مبتهجين بالدعاء بدوام أيامنا الشريفة وأيام مقركم الكريمة وقد مكث الأمير زين الدين ولدبيك المشار إليه بأبوابنا الرفيعة مدة مترددًا إلى حضرتنا المنيفة وخدمتنا اللطيفة ، نعامله من الإِكرام والتعظيم والاحترام والتفخيم بما يليق بذاتنا المعظمة وشيمكم المكرمة وإعدناه الآن صحبته صفى حضرتنا ومحرم خدمتنا المجلس العالى الأميرى الكبيرى ، المؤيدى الذخرى ، العضدى المقربى ، الأوحدى الشهابى ، أحمد بن الطاهر أدام الله تعالى نعمته ووفر من كل خير قسمته وجهزنا على يده من فايز أنعامنا الشريف وتفقدات برنا المنيف ما يؤكد مواد الوداد ويشاعر بخالص الاعتقاد إحياء لمراسم السلاطين وإشعارًا بمكارم الخواقين وجريًا على مجارى أحوالهم الحسنة ومشيًا على آدابهم وأطوارهم المستحسنة وهو [ورقة ٣٠٨ وجه] .

المصحف	سيوف ملحوريه	عجنات
الشريف الكوفى	اثنان	سقط ذهب
بخط الإِمام عثمان بن عفان	سقط ذهب	سقط فضة واحد
رضى الله عنه	واحد	واحد
خود فولاد	فرفلات	بركصطوان
فضة	محمد كبارى	محمد فلفلى
واحد	سقط ذهب	عمار

	اثنان	خاص
اطبار	خاص	دركاس
فولاد	نقش	بسقط فضة
أربع	مسمار	خاص
	واحد	
شاشاه	ساذج	صمنه قوس
شمسمى	قرمزى	عمل إبراهيم بن عبد الله
عشرة	واحد	
نخ مذهب	كمخا	سرج
أربع	قماش اسكندرية	خمسة عشر
	عشره ماية اقطعه	
نعصله	سرج ذهب	مناديل نخ
شالورى	وعرقيه زركش خاص أربعة	
عمل الذلد	رشته مابهما من الذهب	
عشرة	ستماية مثقال	
مناديل	ساذج	معه
سبع وبهار	أربعة	مذهب
خمسة عشرين		واحد

دهن بلسان	فوطهء	تفاصيل
صمر بطير	كافورى	حرير
	أربعة عشر	سبعة
	افتله	
سعديات	مجهزة فى المراكب	
خاص ستة	على ظهر البحر	
	ثلاثة رؤس	

[ورقة ٣٠٨ ظهر] وقد حملنا كلا من المجلسين الشهابى أحمد بن الطاهر والزينى ولديك من رسايل الأشواق والرغبة فى الاتحاد ، وكثرة الأتواق ما كل منها عليه نهيد وله مبدىء ومعيد فليأمن المقر العالى من تسليم ذلك ويقيقن وفور المحبة وسلوك طرق المودة من مقامنا الشريف أجمل المسالك مع الاستمرار على ما خواطرنا الشريفة تحققته فيه الجوار وجميل الموافاة وخالص الاعتقاد والمصافاة ، ومضاعفة التودد بحجاج بيت الله الحرام زادها شرفًا وتعظيمًا وزوار المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلوات وأكمل التحيات وتردد القفول والرسل والقصاد من الطرفين والتجار من المملكتين وانفتاح باب الصلاح وانكشاف طريق الفلاح والإتحاف بما يعنى له من الاشغال والمهمات والله تعالى يعز نصره ويعلى قدره ويحصل مرامه ، ويرفع مقامه ويعمر بلاده ويبلغ مراده ويجعله من الذين أحسنوا بالحسنى وزيادة بمنه وكرمه ولطفه وإحسانه إن شاء الله تعالى كتب فى العشرين من ذى الحجة سنة ثلاث ، وأربعين وثمانمائة والحمد لله وحده وصلوته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل(١) .

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٣٠٥ ب - ٣٠٨ ب .

(١٠)

[ورقة ٣٧٤ ظهر]

أعز الله أنصار المقر الكريم المولوى المظفرى ، الكبيرى العالمى ، العاملى الباذلى ، العونى الغوثى ، النظامى الهمامى ، المشيدى المنعمى ، المفضلى النصيرى ، المجاهدى المرابطى ، المثاغرى الأوحدى ، الأمجدى الكاملى ، الكافلى الغياثى ، الظهيرى الذخرى ، الأشرفى وهو السلطان الأعظم ، والخاقان المعظم المؤيد من السماء المظفر على الأعداء باسط بساط الأمن ، ناشر شماع المن الليث الهصّار ، والغيث المدرار ، كهف البرايا فايض المزايا ، والهمام والمطعان المطعم الأسد الأسدّ الأرشد الأمجد مصتأصل عداة الدين عن مسالك المسلمين ظل الله فى الأرضين وسكينته على العالمين الذى صارت الأفئدة كفؤاد واحد فى إضمار عزماته وعادت الألسنة كلسان فارد فى إظهار سطواته المشترى مشترى سعادته وعطارد تلميذ افادته والنجم الثاقب عبد دهائه وزكائه وشارق الشمس خادم رايه وروائه وأخلاقه المسك لولا فأرته والورد لولا مرارته والروض لولا حاجته إلى المطر والماء لولا إسراعه إلى الكدر . وكاد يحكى صوب الغيث منسكبا * لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا * والدهر لو لم يحن والشمس إذ نطقت * والصيد لو لم يصد والبحر لو عذبا * رافع رايات الدين إلى ذروة الكمال خافض أعداء [ورقة ٣٧٥ وجه] أمته إلى حضيض القهر والإذلال حامى بيضة الإسلام والمسلمين ناصر شريعة حبيب رب العالمين سلطان السلاطين عضد أمير المؤمنين ، لا زالت رايات سلطنته على قمة السماك مضروبة وآيات معداته فى جبهة الأفلاك مكتوبة وألسنة سيفه وسنانه بالفتح والنصر ناطقة وسحب جوده وإحسانه على رؤس الأنام دافقة ولا برحت همه بالآراء الصايبة علية وعساكره المنصورة بتبليغ المقاصد ملية وغزايمه المؤيدة بالفوز والظفر جلية وقواعد الإسلام مشيدة بمكانه وأركان الدين ممهدة بدوام

أيامه وزمانه ما قرت الأرض قرارها ودارت الأفلاك أدوارها بمحمد خاتم الأنبياء ومبلغ الأنباء وآله الأتقياء وصحبه الأصفياءبعد تقديم تحية أصبحت منورة بأنوار الوفاء والإخلاص ، وأضحت محجلة بصفاء الولاء والاختصاص وأزهرت بصدق الطوية رياضها وامتلأت من زلال المحبة حياضها ورفع أدعية صالحة مستجابة وإهداء أثنية جمة مستطابة ، يوضح لعلمه الكريم لا زال محفوفا بما تيسر أنه اتصل بمسامعنا أن المقر الكريم خلد الله سلطانه مد العساكر إلى البلاد الشرقية بالحشمة العالية الغالبة والشوكة القاهرة السالبة بحيث يعجز عن وصفها اللسان ، ولا يحيط بها نطاق البيان لحسم مادة المفسدين من البين الذين يسعون فى الأرض الفساد بقطعهم طرق المسلمين ونهبهم أموالهم واستباحتهم قتل الأنفس التى [ورقة ٣٧٥ ظهر] حرمها الله تعالى فاستبشر المحب المخلص بذلك غاية الاستبشار ، وحصل به البهجة والسرور فشرعنا فى الاستمداد من العلماء والصلحاء ليشتغلوا بأوراد الأدعية وإمداد الأثنية لدوام نظام عقود السلطنة القاهرة وإعلاء أعلام الدولة الزاهرة وما هى إلا عزيمة عظمى ومجاهدة كبرى وقد جهزنا لخدمتكم العلية مجلس السامى الأميرى الأمجدى المجاهدى السيفى العضدى مفخر الأمراء والأقيال ، منبع المعالى والإقبال جمال الدولة والدين يخشى بيك دام إقباله إلى المواقف المقدسة والمقار المعظمة ليبلغ التحية والسلام ويقوم بوظايف الدعاء حق القيام وبث لواعج الأشواق التى تتكاثر أعدادها وإظهار نتايج الأتواق التى تتواتر إمدادها والأفئدة على وده متطابقة والألسنة بشكره متوافقة لاسيما فى الطريقة الميمونة التى اقتضت العزيمة المسنونة لازالت النصرة طراز لوائها ، والهزيمة من لوازم أعدائها ، وحملناه المشافهات ليرفعها إلى المسامع الكريمة لازالت محفوفة بالسلامة فالمأمول من اللطف العام الاصغاء إليها على عادته البهية وسيرته المرضية ، ويفضل بإنهاء أخباره المبشرة التى هى أسباب المسرات ، وأن يتواصل الرسل والرسائل ليكون سببًا لانشراح الخواطر وطيب الأوقات والله تعالى يخص الجناب العالى بنصر أولياء الله وقهر أعداء الله وباتمام المطالب والحاجات ، وينصره بملائكة السموات إنه مجيب الدعوات [ورقة ٣٧٦ وجه] ورافع الدرجات والحمد لوليه والصلاة على نبيه

وعلى آله وصحبه أجمعين (١) .

(١١)

الجـواب

[ورقة ٣٧٦ وجه]

الحمد لله الواسع الكرم وموجد الأشياء من العدم وسيد الكاينات خير بعثة ومحض مصلحة تفضى إلى نعم زان المدائح أوصاف له كملت فحبذا المدح فيه قيل بالهمم كم مادح واصل إلى المنى عجلا يمدحه صلى الإله مخلدًا أبدًا وآله المدركين السؤال بالشيم . والتابعين له بحسن أسوته . مستكملين هذا حاوين للقسم . وبعد فقد سجد القلم على رأسه المنشق لخدمة هذا المكتوب متقاطر بقطرات يرتقم بها أحوال المحب والمحبوب وهوينا بإحرازه شرف نقش نقوش الفضايل المجلس السلطانى الأعظمى الأعزى ، الأكرمى الأعلمى ، الأعملى الأعدلى ، المولوى الأعلوى ، الأرفعى الأجلى ، الأجملى الأكملى ، الأعبدى الأورعى ، الأصلحى الأسلمى المنصورى المؤيدى المظفرى المجاهدى المرابطى أمير المؤمنين عضد الإسلام والمسلمين المعتصم بحبل الله المتين أعز الله أنصار سلطان السلاطين ورفع لواء ثباته على الملك بفضله المبين ولله در من قال فيه ، وكان دررًا تناثرت من فيه وأنشد عدة أبيات فى وصف الصفات (شعر) به الدين منصور وشرعة أحمد * على نظمها المحفوظ دون تردد * وخصص به أمن الجحيم بعهده * بحفظهم عن سوء صنع المعتدى * فخر سلاطين الزمان مسدد * ثبوت تقى فى الدين كاس ومرتد * [ورقة ٣٧٦ ظهر] فحسبك ياسلطان

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٣٧٤ ب - ٣٧٦ أ .

فضلاً ورفعة * بذلك إذ كل بأمرك يقتدى * كأنك يوسف بمصر وأهلها * أرقاء طوعًا دون كره مندد * ولازال رحى الصواب دايرًا بوجوده الشريف أينما دار وما بَرح مركز السداد متعينًا بمحيط دائرة رتبته يسير بها حيث ما سار وعتبته العلية مطافًا يطوف طواف الأمم وسدته السنية معتكف العاكفين الوافدين إليه من طوائف العرب والعجم أصدره المحب إلى مجلس السلطنة مهديًا إليه من الدعاء أتمه ومن الثناء أهمه ومتحفًا من التحيات ما ينبى عن إخلاص يفوح رباه ومن التسليمات ما ينطق باختصاص يوجب كمال اللذة بذاكراه والمحب مفتخر بما يرد من الكتاب الحكيم ، والخطاب الكريم سيما ما فيها من صنوف التلطفات اللائقة فى ضمن ألفاظه العذبة الرائقة وعباراته الجزيلة السامية الفائقة ويعرض على علمه الكريم أن فطرة المحب منصبغة بالود الخالص الصافى لذلك الجناب جبلة منطبعة على الحب الكامل الوافى الكريم المآب وإن غرس الوداد فى الفؤاد مغروس وحب الحب فى القلب مبذور ومحروث (شعر) طعم المحبة لاينال بوصفه * أحد سوى صب غدا مشتاقا * كالشهد لا يغنى إلينا لدركه * لكن يحيط بعلمه من ذاقا * ومن تتمة حديث المحبة الجارى على ألسن الأحبة أن نسبه الجناب السلطانى الأعظمى لازالت أطناب خيام دولته مشيدة بأوتاد الخلود والدوام وأواخر مقام سلطنته القاهرة مؤكدة بغاية الإحكام والاستحكام إلى [ورقة ٣٧٧ ورقة] هذا المحب نسبة الأب العطوف الرءوف إلى الابن الملطوف المعطوف وإن شئت قلت نسبة مولى الموالى إلى مولى هو أطوع الموالى ولكل دعوى شاهد يقام عليها فى المشاهد وشاهد هذا المحب قلب سلطان السلاطين وهذا المخلص من جملة ما يتعلق بالدين لا بالطين ، قال من القلب إلى القلب طرايق يتواصل بها أصحاب الرقايق ولن يتحقق بعلمها إلا أهل الحقائق والعقايق المتجردين عن التلبس بمحبة العلايق وشمة من شرحه ، إنه والحال ألا يلاقى صورة فى البين ثبوته بسبب ثبوت التناسب الأوصافى والذاتى القاطع للبون ، وذلك من إحكام السر فى الأزلى الروحى ، ومن مقتضيات التؤالف الأبدى الذى لا يضره البون الصورى كما عند قول من قال (شعر) ، ولا خير للأشباح تنائى عن اللقأ * إذا كانت الأرواح فى الغيب

تلتقى * فإذا من الواجب على هذا المحب أن يحمد الله تعالى على هذه النعم العظمى والملايمة المثمرة لثمرات هى من المنن الكبرى الحمد لله تعالى عليها ولازلنا متوجهى الأرواح كل وقت إليها ومن ثمرات هذه المحبة المتينة والمودة الركينة الارشاد إلى المنافع والتنبيه على المداحض والمدافع كما كان حضرته السلطانية أفاض علينا العلم بهذه الفوايد ونبهنا بلطفه الجسيم وخلقه العظيم على مافيها من المرافق والعوايد ، فيما أصدر من مثاله العالى وبعثه من مرقومه الحالى لأنواع المآثر والمعالى ، فمن ذلك تحلى الرجاء بكرم الله تعالى وبركة نبينا ﷺ أن يرد كيد العدو فى نحره [ورقة ٣٧٧ ظهر] ، وأن يجعل الدائرة عليه وفيه تنبيه لكل سديد وتعليم لكل عليم راغب فى علم جديد بجهد شديد وجنان قوى حديد حاو لكل فضل قريب أو بعيد ألا يغتر الإنسان بعدته وعتاده وقوته واستعداده بل يرى النصر من عند الله العزيز وإن عظم جنده وكثر ما فى خزانته من الذهب الإبريزد من ذلك التبرك بالبركات المحمدية والاستمداد بالإمدادات الروحانية الأحمدية عليه من الصلوات أقواها وبها تقوى للنفوس تقواها ، ومن ذلك ما نبهنا عليه من حقيقة قصده المظهر لشيء المخفى فى نفسه لشيء آخر مما هو أعلى منه كما هو شأن الضب الخادع فلابد للعاقل من أخذ الحذر عن أمثال تلك المكايد والمخادع حتى يأمن فى العافية من الوبال ولا يصير البال ممنوا بالبلال ومن ذلك ما أرشدنا لما هو من مقتضيات الاتحاد وموجبات ثبات الوداد فى الفؤاد من أن العدو جغتاى أتى مملكتى المتحابين لله قصد يسير الآخر بجنده وراءه معاضدة له عملاً بالحكم الربانى ، وامتثالاً للأمر السبحانى ، حيث قال تعالى وهو أصدق القائلين ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ ولا ريب أن فى الاسترشاد بهذا الإرشاد العمل بهذه الآية الكريمة والفوز الأكبر بهذه النعمة الجسيمة ومن ذلك ما شك أحكم الله أحكامه من الاطلاع لنا على شنشنة هذه الطايفة الموصوفة بما لهم من هجير أهم المألوفة لهم [ورقة ٣٧٨ وجه] المعروفة من قديم الزمان من تدينهم بدين أسلافهم وانتقال هذا الدين بطريق الإرث منهم إلى أخلافهم ولقد صدق عمر رضى الله عنه فيما قال . ولم يدخر شيئًا من هذا النصح فى ذلك المقال .

فإنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم هذا ولقد كان من جملة ما رسم لنا الحكم المطاع السلطانى والأمر المستطاع البرهانى أنه إذا أتا لنا وصح عندنا من أخبار أولئك الطائفة أن نوصلها إلى المسمع الشريف السلطانى وفيه من الخير الكثير ما يتعلق بالرحمانى وفيه التوقى من شرور ما يتعلق بالشيطانى فالذى صح الآن لنا من أخبارهم وقد كثر الراوون لنا من آثارهم بحيث صار قريبًا من التواتر المعنوى أنهم رجعوا إلى بلادهم ، وعادوا إلى مبدائهم ومعادهم ، ولم يبق فيما كانوا مجتمعين فيه ومن بنى شاهرخ الأمير من قيل فى حقه أنه مات ، وهو محمد الملقب بجوكى ولحق بالأموات فإن صح الخبر وتحقق ثبوت الأثر ، فقد اتسع الخرق على الراقع وتبدل بالسكوت صيحة الديك الصاقع ، ومن هذا ظهر أن الدعوة السلطانية قد كانت مستجابة ومناجاته مع الحق تعالى ما كانت إلا مقبولة مجابة حيث أطال الله بقاه فى كتابه وفصل خطابه . والمرجو من كرم الله عز وجل وبركة سيدنا محمد ﷺ أن يرد الله تعالى كيده فى نحره وأن يجعل الدايرة عليه ، فكان ما كان من وقوع الواقع ليس له من الله دافع فلما حصل الاشتهار لهذا الخبر ، حمدنا الله الكبير المتعال على أن [ورقة ٣٧٨ ظهر] قد كفى المؤمنين القتال فجهزنا بهذه الورقة خدمة الأمير الأجل المنعوت من النعوت بما به يستحق أن يستخدم مثله بهذه الخدمة السنية التى لا يمكن أن يستأهل لها إلا بتلك الخصال المرضية من الصلاح والثقة والاعتماد وكمال القابلية والاستعداد والمحب قد حمله من أنواع الشوق والغرام والتحية والسلام بغاية الإعظام والإكرام لفخر الأنام خلاصة الأيام ما يبديه بلسانه ويقرره ببيانه ، بعد تقبيله الأرض لدى الحضرة العليا قضاء لحق أدب الصغراء مع الكبراء والمحب جرى فى إجراء هذه المراسلة ، ومضى فى إمضاء هذه المعاملة بما ظهر له من أمره الواجب الامتثال على ما ذكره ونص عليه فى مطاوى ذلك المثال العالى من أنه إذا تجدد خبر يليق أن يتسامع به مسامعنا الشريفة لا يتوقف على تعيين قاصد بل يكتب به على يد ساع بحيث يحضر بسرعة ويعود إليه بجوابنا هكذا وقع العمل بحسب تلك الإشارة والجرى على مقتضى تلك العبارة والمحب ينتظر الجواب ، ولا محالة يكون هذا هو

الصواب ، ليتلذذ مسامعنا بالخطاب المستطاب ويتعلق العلم بما يرشدنا إليه فى كل باب وقد كتب ذلك يوم الأربعاء الثانى من شهر صفر ختم بالخير والظفر سنة ست وخمسين وثمانمائة .

بمقام أدرنه(١)

(١٢)

[ورقة ٣٣٨ وجه]

بسم الله الرحمن الرحيم متيمنًا بذكره القديم اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير يحمد الله ويثنى عليه عبده المستبشرُ بالمبشرات المتواردة المتواترة اللائى ينبئن عن استقرار القدم المقَدَّم المقدام على سرير السلطنة السامية الباهرة بالدولة العالية القاهرة ألا وهو السلطان الوالى العالى ، العالمى العاملى ، المؤيدى المظفرى ، الظهيرى النصيرى ، العونى الغوثى الغياثى ، الإمامى الهمامى النظامى الذى أشرقت من أفق التوفيق شمس سلطنته ، وخَفِقَت راية الإقبال من هبوب نسيم خلافته ويطأطأ أعناق الجبابرة نحو سُدته السنية ويتكأكأ أقيال الأكاسرة على عتبته العلية ، وبه أضحت عقود الإمامة منتظمةً وأمور السلطنة ملتئمة ويتفاخر بوصفه المآثِرُ ويختال بذكره المفاخر أعنى المَلِكِيّ السلطانيّ الأشرفى الأبوى الأعطفى ، ضاعف الله تعالى ملكه وسلطانه وأفاض على العالمين بِرَّهُ وإحسانَه ولا بَرِحَ فى دولة لاتنهدم دارها ونعمة لاتنفصم آثارُها وسعادة لاتصفر أوراقها وسيادة لايتغير آفاقها وما انفك بنود الدين يباهر صولته مرفوعةً وأسِنَّةُ الحوادث فى نحور أعدائه مكسورة ، وجماجم حساده على رءوس الأسنة منصوبة وتحت الأقدام [ورقة ٣٣٨ ظهر] مخفوضةً ويقول لما

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٣٧٦أ - ٣٧٨ ب .

تتابعت عندنا الأخبار التى تشتمل على صعود شمس السلطنة على أوج سرير الخلافة أدامه الله وأعلاه وبارك فيه وأبقاه ، ببركة نبيه المجتبى ورسوله المصطفى عليه ،.وعلى آله من صلة الصلوات أزكاها ملئنا بهجة وسرورًا وغبطة وحبورًا ، وأنشدنا بلسان صدق هنيئًا لمصر أنت صرت عزيزُهُ بلوغ الأمانى وابتغاءُ المحامد ، ويَعْتَدِلُ الأيامُ فيها ويقتفى صنوف البرايا منه طرقَ الفوايد ، فمذ ظهرت فيه علايم بأسكم قد التطمت منها رسومُ المفاسد هنا أو أن الولاء والمواصلة بين من تكفل بمؤنة إحياء نسك الحج للعباد العُبَّاد ويَيْنَ من تحمَّل بِمَشاقٍّ تجهيز أهل الغزو والجهاد كما هو المتوارث من الأباء والأجداد أنعمهم الله النعَمَ الموعودَ فى المعاد ، فالقلب مصمم على تأييد تلك القديمة بسلوك طوابق تُنْسِى لطايفُ أُخْرَيَها نطيب نعيمها لذايذ أولَيَها فبهذا الحبل المتين نحن ماسكون ، وعلى هذا الصراط المستبين سالكون فشددنا وثاق الصدق ذلك المقر العالى أعلاه الله وأسماه ، وفتحنا أبواب المراسلة وقدمنا أسباب المواصلة وأهَدنَا طرائف التسليمات عن شوايب الريا والرُّعونات واتحفنا لطائف التحيات المنورات بنور الإخلاص المحللات بالولاء والاختصاص المُزْهِرات بصدق الطوية رياضها المُتْرِعات من زلال المحبة حياضُها ، ورفعنا الأدعية الصالحة المستجابة والأثنية الفايحة المستطابة والأشواق المبالِغَةَ فى ذِرْوَةَ الكمال والأتواقَ المتواليةَ بالغدو والآصال وانهينا إلى العلم [ورقة ٣٣٩ وجه] الكريم محفوفًا بما يسر الله تعالى من المطالب الهنية والمآرب السنية أن من أحسن سُنن أسلافنا رحمهم الله أنهم مجاهدون فى سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ونحن على تلك السنة قائمون وعلى تيك الأمنية دائمون ممتثلين بقوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ﴾ ومستمسكين بقوله عليه السلام : « من اغبرت قدماه فى سبيل الله حَرَّمَهُ الله على النار » فهمتنا فى هذا العام عمه الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل ذى الجلال والاكرام ومتمسكين بفضل الملك العلام إلى أداء فرض الغزاء فى الإسلام مؤتمرين بأمره تعالى ﴿ قاتلوا الذين يَلونكم من الكفار ﴾ جهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجورًا وكفرًا التى بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهى بكفرها فخرًا

(شعر) ، فكأنها حَصَفٌ على الخد الأغر . وكأنها كَلَفٌ على وجه القمر .
وهى محصنة صعب المرام شامخة الأركان راسخة البنيان مملوءةٌ من المشركين الشجعان جَذَلهم الله أينما كانوا وهم مستكبرون على أهل الإيمان متناصرون بالجزائر الغربية مثل ردوس وقَطْلان ووناديك وجِنويز وغيرهم من أهل الشرك والطغيان ، وحصن محصن مُسَدَّدٌ مُشَدَّدٌ مشيد متسق النظام ما ظفروا به أسلافنا العظام ، هؤلاء السلاطين الأساطين الفخام مع أنهم جاهدوا حق الجهاد ولم ينالوا بها نيلاً وهى قلعة عظيمة مشتهرة فى ألسنة أهل الأرض باسم القسطنطينية ولا تبعد من أن تكون هى التى نطق بها صحاح الأحاديث النبوية والأخبار المصطفوية عليه وعلى آله أتم الصلاة والتحية [ورقة ٣٣٩ ظهر] ، فيفتحون قسطنطينية فبينما هم يقتسمون الغنائم قد عَلَّقوا سيوفهم بالزيتون الحديث وغير هذا من الصحاح المشهورة هى هذه المدينة الواقعُ جانب منها فى البحر وجانب منها فى البر فأعددنا لها كما أمرنا الله بقوله ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ كلَّ أُهْبَةٍ يُعْتَدُّ بها وجميعَ أسلحة يعتمد عليها من البرق والرعد والمنجنيق والنَّقِبِ والمُلْجُورِ وغيرها من جانب البر والفلك المشحون والجوار المنشئات فى البحر كالأعلام من جانب البحر ونزلنا عليها فى السادس والعشرين من ربيع الأول من شهور سنة سبع وثمانمائة (شعر) فقلت للنفس جدى الآن واجتهدى . وساعدينى فهذا ما تمنيت . فكلما دُعُوا إلى الحق أصروا واستكبروا وكانوا من الكافرين ، فأحطنا بها محاصرةً وحاربناهم وقاتلناهم وقاتلونا وجرى بيننا وبينهم القتالُ أربعةً وخمسين يومًا وليلة (شعر) إذا جاء نصر الله والفتح . على المرء معسورُ الأمور وصعبُها . فمتى طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من شهر جمادى الأولى هجمنا مثل النجوم رجومًا لجنود الشيطان سخرها الحكم الصِّدِّيقى ببركة العدل الفاروقى بالضرب الحيدرى لآل عثمان قد منّ الله تعالى بالفتح بكرتئذ قبل أن ظهر الشمس من مشرقها فيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر وأول من قتل وقطع رأسه تكفورهم اللعين الكئود فأهلكوا كقوم عاد وثمود فحفظتهم ملائكة العذاب فأوردهم النارُ وبئس المآبُ فقتل من قتل وأسر

من بقى وغَارُوا خزاينهم وأخرجوا كنوزهم [ورقة ٣٤٠ وجه] ودفاينهم موفورًا فأتى عليهم حين من الدهر لم يكن شيأ مذكورًا ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، فيومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، فلما ظهرنا على هؤلاء الأرجاس الأنجاس الحالوسِ طهرنا القُوَسَ من القسوس وأخرجنا من الصليب والناقوس وصيرنا معابد عبدة الأصنام مساجد أهل الإسلام ، وتشرفت تلك الخِطَّةُ بشرف السِّكةِ والخطبة فوقع أمر الله وبَطَل ما كانوا يفعلون وبعد فكانت فى شط الشَّرمِ الذى يكونِ شماليًا منها قلعة افرنجية جِنوِزيَّةٌ وهى المحصنة المدعوة بقلعة غلطة وهى جارة لها متسقة النظام مملوة من المشركين الليام ، فلما حاصرنا قسطنطينية جاءنا أهل تلك القلعة وشددوا بنا ميثاقهم وجددوا معنا وفاقهم وقلنا لهم كونوا كما كنتم واثبتوا على ما أنتم عليه بشرط ألا تُعينُوها فقبلوا شرطنا وأطاعوا أمرنا فلما وقع ما وقع على قسطنطينية وجد بين القتلى والأسرى من أهل غلطه وهم قد حاربونا وبدا أنهم نقضوا ميثاقهم وأظهروا نفاقهم ، فأردنا أن نفعل بهم ما فعلنا بالأخرى فبينما هم جاءوا مبتهلين ومتضرعين وقالوا : إن لم ترحمنا لنكونن من الخاسرين ، فعفونا عنهم إنه هو العَفُوُّ الغفار ، ومننا عليهم المنة لله العزيز الجبار وقررنا على ملكهم الملك لله الواحد القهار ولكن جعلنا حصنهم صعيدًا جرزًا بحيث لا ترى فيها عوجًا ولا أمْتًا وملكنا أرضهم وماءهم وكتبنا فى جريدة الجِزْيِ أسماءهم حتى يعطوا الجزية من يد وهم صاغرون ، الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله (شعر) [ورقة ٣٤٠ ظهر] سعد الزمان وسعد الاقبالُ . ودنا المنا وأجابت الآمال . فلما جمع الله تعالى بفضله فى قلب عبده ذَيْنِ الشرورين العظيمين أحدهما حفظ نظام سرير السلطنة وحماية البلاد والآخر قرةٌ لعين الشرع بإحياء فرض الجهاد وُجِّهَ تلقاء الأرض المقدسة التى بارك الله فيها بإجراء أحكام السلطنة حاملُ وَقْرِ الثناء وناقلُ ورق الدعاء فخر الأماجد ذخر المحامد أمير جلالُ الدين القابونى رزقت عودته بالسلامة بهدية يسيرة من الأسَارَى والغلمان والأقمشة وغيرها حسبما ذكر مفصلا فى كتاب غير هذا وإن كانت نسبتها إلى ما وجب علينا كنسبة القطر إلى البحر فالمأمول الإغضاء بحسن

القَبولِ فإذا يسره الله التشريفَ بتقبيل بساط الخلافة زاد الله بسطه بالعدل والنصر يُتأمل ويُتمنى أن ينعم بالمُشَرّفات السارة المحتوية بسلامة النفس النفيس الطيبة وصحة الذات المطهرة أبقاها الله فى دولة دينية ودنياوية وبسوانح الأخبار من مهمات السلطنة كى نتشرف بالانتماء إلى ذلك المقر الشريف ونتلطف بالاعتراء لذلك المجلس اللطيف ونحن نترقب طيبات أدعية تلك المساكن الطيبة والله مجيبها ببركة نبيه المجتبى عليه من التحيات أزكاها الحمد لله على نواله والصلاة على محمد وآله والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب(١) .

(١٣)

الجواب مع الهدايا المنيفة

ضاعف الله تعالى نعم المقر الشريف العالى المولوى للأولوى ، الكبيرى العالمى العادلى المؤيدى ، العضدى الكهفى ، العونى الغوثى ، الغِيَاثِى المِلكى السيدى [ورقة ٣٤١ وجه] الهمامى النظامى ، القوامى المظفرى ، الذخرى المهدى ، المشيدى المجاهدى المثاغرى المرابطى الظهيرى ، الناصرى معز الإسلام والمسلمين ناصر الغزاة ذخر المجاهدين ملجأ الفقراء والمساكين زعيم جيوش الموحدين ممهد الدول مشيد الممالك عماد الملة حامى الثغور الإسلامية غياث الأمة المحمدية ظهير الملوك والسلاطين عضد أمير المؤمنين ، ولا زالت أخبار فتوحاته متواترة وركايب نصره فى ساحة الوجود سائرة وعرصة الهيجاء قايمة فالأفلاك الدائرة تجرى بتأييده فتجعل لأوليائه العقبى وعلى أعدائه الدايرة

---

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٣٣٨أ - ٣٤٠ ب .

أصدرنا هذه المفاوضة إلى المقر الكريم مهنية له بهذا الفتح الذى أدخره الله لأيام سعده وهذا النصر الذى منّ الله تعالى به على المسلمين وما النصر إلا من عند الله وتهدى إليه سلامًا طاب نشره ووضح بشره وثناء يشنف الأسماع ذكره وتبدى لعلمه الكريم أن مكاتبته الرفيعة التى جهز إلينا على يد رسوله المجلس السامى الأميرى الكبيرى الذخرى العضدى المؤتمنى الجمالى يوسف القابونى الناصرى أحسن الله وفادته ويسر بالخير إعادته ، وقفنا عليها وصرفنا وجه الإقبال إليها وسرحنا النظر فى زهر الخمايل من سطورها وشرحنا الخاطر ببديع منظومها ومنثورها ووجدنا لها محلاً من البلاغة عاليًا لايدرك ثناءه الأوهام ومنهلاً من الفصاحة عذبًا ازدحمت فيه غرايب المعانى وانتهينا إلى ما أشار إليه مما يسر الله تعالى له من فتح القسطنطينية العظمى وما خصه الله تعالى [ورقة ٣٤١ ظهر] به من آيات النصر ومنحه به من ألطافه الخفية وفهمنا مجملاً ومفصلاً ومفرعًا ومأصلاً وكررنا حمدًا لله عز وجل على ما منّ به من هذا الفتح المبين ، وهذه النعمة التى تتضمن تثبيت قلوب المتقين على اليقين وإعلاء كلمة الموحدين على الملحدين وهذه النصرة التى أصبحت بها كلمة الإيمان منتشرة وجبهة الصادقين مبيضة وشفاة المسلمين بها ضاحكة مستبشرة ووجوه المشركين عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة وقد أعدنا الجواب عن ذلك وعن جميع ما أشار إليه مفصلاً على يد رسوله المجلس الجمالى المشار إليه أعلاه كما سيحيط به علمه الكريم بعد أن عاملناه بمزيد الإنعام ووافر الاحترام وأفضنا عليه وعلى من معه خلع التشريف والإكرام وأنعمنا عليهم من مائدة الإحسان التام وأعدناهم إلى خدمتهم الكريمة على أحسن الوجوده وأجمل الحالات وجهزنا صحبتهم الواصل بهذه المكاتبة هو المجلس العالى الأميرى الكبيرى المؤيدى الذخرى الأعزى الأخصى المؤتمنى المقربى السيفى برسباى الأشرفى ، أحد أمرائنا وأوحد أخصائنا كتب الله تعالى سلامته وأدام سعادته وحملناه من السلام الوافى والإكرام الكافى ما هو أزكى من نشر الخزام وعن الحب الصافى والود الشافى ما لو تجد لكان أصفى من ماء الغمام ومن الصداقة والإخلاص والموالاة والاختصاص ، ما هو على ذلك شهيد ، وله

مبدىء ومعيد ، وجهزنا على يده من الهدية ما يؤكد أسباب الوداد والمحبة ويوثق عرى الاتحاد [ورقة ٣٤٢ وجه] والصحبة ، كما هو دأب السالفين الأقدمين من الحكام والسلاطين وهى هذه

سيف	نمجا	دبابيس
سقط ذهب ويدله سكاكين من سمك	سقط ذهب	بزدغانيات وأطبار فولاد
وسيولو مخيش		
بكتسر	جوقلان	بركسطوان
مخمل أحمر بصفاع ذهب	مخمل أحمر بسمار	مخمل أحمر بسمار ذهب
بسقط ذهب خاص	ذهب	
سرج	قماش	نحج
ذهب وعرقيه زركش خاص	اسكندرى	حا
	ما قطعه	
كحا	بندقى	تفاصيل
		اسكندرى
		أحد وثلثين
خيول	أفيال	حمار وحش
خاص جحون	اثنان	واحد
مخوله واحد		
اثنان		

رطب

زجاج ضمها

دهن بلسان

فالمقر الكريم يأمر بتسليم ذلك وقبوله ويشمل قاصدنا المشار إليه بحسن النظر ومثوله ويواصل بأخبار المسرات وما يعين له من المهمات ليستر الموافاة من الجهتين كما كان بيننا وبين آبائه العظام وأجداده الكرام أنار الله براهينهم مع الالتحاف بالمودات والإهداء بالمصافات ، والله تعالى يمتع الإسلام ببقائه ويجعل قواضيه القاضية محكمة فى أعدائه ، حتى يصبح جنود الملة المحمدية بتوالى فتوحاته منصورة الأعلام وتصير [ورقة ٣٤٢ ظهر] البلاد كلها بعزماته المؤيدة دار السلام إن شاء الله تعالى كتب فى العشرين من شهر ذى القعدة الحرام سنة سبع وخمسين وثمانمائة من الهجرة النبوية[1] .

(١٤)

[ورقة ٤٨٩ ظهر]

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى استخلف على عمارة العالم من اصطفاهم من خلقه وأحسن إليهم تمام القدرة وأعظم شأنهم ورفع مكانهم وجعلهم أمناء على رعاية حقه وخصهم بمزيد الرفعة والرتبة والصلاة والسلام على أفضل الرسل محمد ظهر بالنبوة واستعلى على كافة الأنام بهذه القوة بعد امتداد الفترة واشتداد الحيرة وعلى آله وأصحابه الذين هم أئمة البررة وقتلة الفجرة ، فإنا أصدرنا هذه المكاتبة اللطيفة والمفاوضة الشريفة إلى حضرة العلية السنية الزكية الأكملية الأكفلية الأكرمية الأفخمية الأعظمية الأعلمية الأعملية

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٣٤٠ ب - ٣٤٢ب .

الأعدلية ، الغوثية الغياثية عون الأمة كهف الملة الذى تقف السياسة بحزمه وشرف الرياسة بفهمه وأقام الأود برجاحته وأدام النصفة بسماحته وطوّق الرقاب بنعمه واسترق الأحرار بمحاسن شيمه وأقبلت الأمانى عليه وفدًا وحشدت له السعادات حشدًا وأطلع الكرم فى أفق أبوابه المنيفة صباحه وبسط الشرف فى ظلاله الظليلة جناحه وهو حامى بيت الحرام والروضة [ورقة ٤٩٠ وجه] وناصر المسلمين والإسلام المختص بالعز والتمكين من حضرة الملك العلام الله يبقيه للأيادى يقلدها وللمساعى يخلده وللمكارم يؤيدها فى دولة واسعة الأرجاء ممتدة الأفياء مأمونة من الزوال محروسة عن الانتقال ما ذرّ شارق وكر طارق وبرق بارق وطلع فجره ولمع بدره تهدى إليه سلامًا سلامًا وهو كالعقد انتظامًا والورد ابتسامًا وأوفر أقسامًا وأوسع مقامًا ويؤلف بين القلوب ويعطيهم التئاما وتبدى لعلمه الشريف أن الرياسة الأنسية والسياسة المدنية ، وحماية بيضة الممالك وحراسة الرعية عن المهالك من صعاب الأمور وعظامها بين الجمهور لا يوفق بها ولا يستسعد بتوفيقها إلا من له الرتبة العالية والدرجة السامية عند الملك القديم الذى بيده ملكوت كل شيء وهو السميع العليم ، فإن الفائزين بتلك النعمة العظمى والعطية الكبرى موسومين بسنن المرسلين والأنبياء ، وجودهم كهف البرايا وجودهم كفيل الرعايا تنكشف ظلم ظلم البعض عن البعض بعدالتهم وتنقسم الأرزاق المخرجة من رجع السماء وصدع الأرض بسماحتهم ، وتنحسم المخاوف والمحن وترتفع الحوادث والفتن بمهابتهم وإيالتهم لولاهم لاختل النظام وتساوى الخاص والعام ، وانجذبت النفوس إلى ما فى طبائعها من البأساة والبؤس لتعذر خلاصهم والخاص وتعسر مناصهن عن الملكات الردية ما دامت فى المنازل الجسمانية والمعالم الظلمانية فلا يخفى أن من اختاره الله تعالى [ورقة ٤٩٠ ظهر] لتنفيذ أوامره ونواهيه حتم على الرعية مطاوعته بحسن القبول وإطاعته بعد إطاعة الله والرسول عملاً بقوله تعالى : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ ، وواجب نذكره بالدعوات الصالحة عقيب الصلاة فى الأوقات الخمسة التى تظل فيها إجابة الدعوات وحق عليه أن يوقر الكبير ويرحم الصغير ويأمر بالمعروف وينهى عن

المنكر ويعتقد أن الدين والملك توأمان لا يتم أحدهما إلا بالآخر ، ويصرف نيته إلى تقوية الحق وإعزازه ويعطف همته على نصرة الإسلام وإحرازه ويخفض أجنحة الرأفة والمرحمة على المسلمين مسترشدًا بكلمة التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله أس الدين ، ويراعى العدالة والنصفة فى حكمه وحكومته رهبة من قوله « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ، ورغبة بسعة حاله ويفرغ شعب مآله فإن من عدل فى الحكم وكف النفس عن الظلم صفت له الدنيا ودامت عليه النعمى وملك القلوب وأمن الحروب وصارت طاعته فريضة وصحته غنيمة قال النبى عليه السلام ، (إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم مجلسًا إمام عادل) صدق رسول الله وينبغى لجيرانه الكرام من السلاطين العظام أن يهنئه بتلك الدولة البهية والسيادة السنية لأن التهنئة سنة حسنة وعادة مستحسنة بين السادات إذا تجددت لواحد منهم نعمة جزيلة وتمهدت رتبة جليلة هذا والغرض من ترتيب تلك المقدمات وتسبيبها قد سمعنا ، وعلمنا أن الله تعالى أعظم أمركم ورفع قدركم وأخذ يدكم وهيأ [ورقة ٤٩١ وجه] أدوات السعادة عندكم واصطفاكم لضبط الجمهور واجتباكم لرد المحذور وجعلكم خلف الماضين وأورثكم أرضهم وصيركم شرف الباقين وجمع بمصريمتكم شمل السداد بعد تبدده ، وقطع بعزيمتكم حبل الفساد بعد تأكده وسد بكفايتكم أبواب الخلل بعد اتساعه وشد بعنايتكم أسباب الأمل بعد انقطاعه وزين بوجودكم الشريف سرير السلطنة القاهرة وبوأكم بالطالع الأسعد الغرة الباهرة ، فأطلع كوكب العدل وكان خافيًا وواضح مذهب الفضل ، وكان عافيًا وحشد القلوب على ولائكم وشرف المنابر بصالح دعائكم ، وأصلح الجمهور بسياستكم ونظم المنشور بحسن درايتكم ، حتى استقامت الأمور وانسدت الثغور ورتبت العمال وهذبت الأعمال وسكنت الرعية وانحسمت الأذية وانكشفت الظلمة المسئولية واهتدت العقول الحايرة ونامت العيون الساهرة وقر الأمر قراره ووجد فلك الأمن مداره وهذه الأحدوثة الجميلة أزالت قلوب الأعداء عن مقارها ، وعمرت نفوس الأولياء بمسارها وأعادت الأيام أعيادًا وأحرقت للحساد أفئدة وأكبادًا ، وجعلت صدورنا

منشرحة وقلوبنا متسعة ومنقسمة بسبب الألفة الأزلية التى ثابتة فى جبلتنا لايمكن زوالها والمودة الجبلية التى نابتة عن قريحتنا لا يتصور انفصالها وسألنا الله تعالى أن يديمكم ذلك القدر والجد والفخر والمجد وتلك الغرو الشامخة والرفعة الباذخة ويزيد لهذه الدولة انتشار جناح وأسفار صباح وسناء مصباح واخترنا لتأدية التهنئة منا إلى جنابكم [ورقة ٤٩١ ظهر] الكريم ذهابًا إلى المذهب المعروف وتبعًا للرسم القديم كما مر آنفًا وتقرر سالفًا الأمير المكرم والكبير المفخم ذا القدر الأتم والنجابة والكرم المؤيد بتأييد الله الأكبر رئيس السلاحين حيدر رزقت سلامته وحسنت بالخير إعادته وحملناه السلام وأودعناه نبذًا من الكلام فالمأمول من كرمكم العميم وفضلكم الجسيم إن القاصد المرقوم إذا استسعد بحصول الوصول إلى خدمتكم الشريفة وأباح راحلته فى سدتكم المنيفة وأقبل على تبليغ ما يحمله من الرسالات وتصدى بتأدية ما تضمنه من الأمانات أن ينظر بنواظر الإكرام وعيون العز واللطف والاحترام ويسمع بحسن الاستماع إلى ما يحكيه ويمنح بمزيد الاطلاع على ما يؤديه ويصرف إلى حضرتنا العلية بأخبار المسرات لتستمر الموافاة والمصافات وقاكم الله عن المكايد والعاهات بمنه ولطفه كتب فى أواسط صفر المظفر ختم بالخير والظفر سنة ثمان وتسعمائة حسب المرسوم الشريف حامدًا لله الكبير ومصليًا على رسوله البشير النذير[١] .

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٤٨٩ ب - ٤٩١ ب .

(١٥)

الجـواب

[ورقة ٤٩١]

أعز الله تعالى أنصار المجلس العالى الأميرى الكبيرى العالمى ، العادلى الكافلى ، المجاهدى المرابطى ، العونى الغوثى ، العضدى الناصرى ، المشيدى الممهدى ، السيفى عضد الملوك والسلاطين ، قهرمان الماء والطين ، عون الغزاة والمجاهدين ، ظل الله فى الأرضين المؤيد من عند الله الملك المجيد [ورقة ٤٩٢] السلطان المظفر بايريد ، لا زال فى عز واسع الأطراف ومجد شايع الأكناف والمحب يهدى إلى خدمته العالية من التحايا الصافية ما يشبه الشمس وضحاها ويتخف من الخدم ما يخجل الورد الطرى ريّاها ومن الأدعية الصالحة ما يقارع إليه الإجابة ومن الأثنية الخالصة ما هى مستلذة مستطابة وينهى إلى العلم لازال كما وصف أن المشرف الشريف المستطاب الحاوى لفنون الألطاف المشتمل على أصناف المآثر ، وحسن الأوصاف ، ورد فى أحسن الأوان وأطيب الزمان فتبسم من وصوله أكمة رياض النشاط وضحك من وروده أهل الانبساط فزاد فى المحبة درجات كثيرة وازداد فى المودة طبقات متكاثرة فشاهدنا من مساقط نوء أقلامه ومهابط وحى كلامه روضة غناء مخضرة الأطراف ، وجنة لقاء مكللة الأكناف وأهدينا يتصفح مطاويه وتأمل معانيه نورًا إلى باصرى الكليل وسرورًا إلى خاطرى العليل وشكرنا الله سبحانه وتعالى على سلامة وجودكم الكريم الذى بسلامته مناظم الدين منظومة ومصالح الشريعة بصحته مضبوطة وسألنا عن الرب الجليل جلت قدرته أن يطيل بقاءه ويرزقنى على الوجه الأحسن لقائه ، إنه على ذلك قدير وبحسن الإجابة جدير وبعد فقد

عرف الأدانى والأقاصى وعلم الأذناب والنواصى ، أن مواقف السلطان الغازى لازالت مكنونة بالجلال ومحفوفة بالإقبال منابع الشرف الجم ومطالع المجد الأشم ومعادن الجلالة [ورقة ٤٩٢] والكرامة ومواطن الجهاد والشهادة فيها الدين مشدود النطاق والشرع ممدود الرواق والعز ملتمع الشعاع والمجد مرتفع الشراع والحكم راسخ البنيان والفضل شامخ الأركان والعدل لائح المراسم واللطف واضح المباسم ، من اعتصم بحبل اتحادها وانتظم فى شمل ودادها . لك فى الدين والدنيا غاية أمانيه ، وأدرك فى الآخرة والأولى نهاية مباغيه ، وأما المرحوم السلطان قايتباى لما انعوج عن هذا السبيل والمسالك فطرح وجوده فى غيابة جب المهالك والآن يسر الله تعالى بفضله لنا مقامه الجليل ، ونظر علينا بعيون عنايته ولطف الجزيل فعملنا بخلافه فى باب المخالفة وكشفنا عن وجوه المصادقة غطاء المنازعة فجلسنا على سرير النصفة بأعلى غرف القاهرة المصرية صانها الله من الآفات والعاهات والبلية مستدعين لدوام دولتكم العلية عن السادات والصلحاء والمشايخ والعلماء المتوطنين فى هذه الأماكن المقدسة المكرمة والمقار المشرفة المعظمة خصوصًا الحرمين الشريفين الأعظمين الأنورين المنيفين شرفهما الله وعظمهما وكنا راسخى القدم خالصى الطوية فى موالاة جانبهم ومعاداة مجانبهم وإبداع شعار خدمتهم وإعلاء منار دعوتهم والمنع عن حوزتهم باليد واللسان والمحاماة من بيضتهم بالسيف واللسان ، ولو اشتغلت أقلام الزبيرة بتمرير محاسن أخلاقهم الحسنة وتوغلت أرقام الكتبة بتسطير أحاسن أوصافهم [ورقة ٤٩٣] المحسنة وحفظهم ثغور الإسلام وربطهم مصالح الأنام وتوجههم فى كل آن بالجنود المظفرة إلى مجاهدة أعداء الدين وتدبرهم فى جميع الزمان بأركان الدولة العلية بمناهدة أحزاب الشياطين وتوغلهم فى صميم بلاد الأمان وبوادى الترك ، وبحبوحة ديار قرامان وممالك الترك وشروعهم فى غض قبائلهم وهد معاقلهم وسبى أطفالهم ونسوانهم وردى أبطالهم وشجعانهم وصون مواطن المسلمين من مكايد شرهم ومساكن المؤمنين من مصايد غدرهم لطار طيور العقول من الأوكار وانقلب أجنحة حمايم الأفكار وكل ألسنة الحاكين عن أدائه وذل أقدام السمّار عن امتداده (شعر)

أيادى أمير الدين دام نوالها * غيوث على كل البرية هاطلة * له همة أنوارها مستهلة * وأضواؤها للشرق والغرب كاملة * نفوس سلاطين الأنام نواقص ونفس أمير الدهر فى اللطف كاملة ويكون معلومًا لدى خدام أبوابه الرفيعة وعبيد سدته السنية أن سكان الممالك المصرية وقطان بوادى الحجازية والحكام الطايعين إلى جنابنا الشريفة والمشايخ المطيعين لبابنا المنيفة من الحبشية واليمنية والطائية والتميمية كلهم أطاعونا حين الاستقرار على مقام السلطنة الكبرى وزمان القيام بنيابة الخلافة الكبرى التى وقعت باذن مولانا خليفة الأنام رشيد الدين محمد بن يعقوب العباس وإجازة سيدنا الإمام الهمام الشريف محمد أمير مكة المكرمة أدام الله تعالى [ورقة ٤٩٣ ظهر] سعادتهما وعزتهما فتبشبشوا بشاشة الحاضرين فى مجمع الولايم وتفرحوا فرح المجاهدين فى مقسم الغنايم سيما من شيوع المحبة بيننا وبين جنابكم الأعلى ، لازال رفيعًا كأطباق السموات العلا ، كما قال بعض الحكماء مناط عمارة العالم الأمنية ثم العدالة فالمرجو من كرمكم العميم ولطفهم الجسيم أن لايتركوا هذه الشيمة اللطيفة والعادة المنيفة وأن يتسلسلوا سلسلة حب البين ويرتبطوا رابطة ود الجانبين وفتحوا أبواب الرسل والرسائل وجددوا أسباب الكتب والوسائل بحيث يشتد من ورودها أساس المخالصة القديمة ويستحكم عن صدورها قواعد المصادقة الصميمة ويكون مؤكدًا لمبانى الإخلاص ومشيدًا لمراسم الاختصاص وسببًا لتوسيع معاش الرعايا وباعثًا لترفيه أحوال البرايا الذين هم ودايع الله فى الأرضين المسئولين عنا رعايتهم يوم الدين فلما التقينا بقاصد حضرتكم قدوة الأماجد والأعاظم وعمدة الأكابر والأكارم سمى فانج الخير رئيس السلاّحين حيدر أفاض الله عليه نعمائكم أبدًا ودايمًا وأعاده بالخير إليكم سالمًا وغانمًا وجدناه فى غاية الدرك والكمال ، فى حالتى الجواب والسؤال ، ففرحنا عن مكالمته وأنسنا بمجالسته وسمعنا تقريراته الخفية وحكاياته البهية وشرفناه بالخلع وأنواع الرعاية وأجزناه باللطف والحماية [ورقة ٤٩٤ وجه] بعد استكماله خدمات الرسالة وأدائه نكات الوساطة على الوجه الأبلغ والأكمل والطريق الأحسن والأجمل وجهزنا برفاقته خدمة الأميرى الأمجدى النظامى الهمامى شجاع الدين

هندوباى أحد أمرائنا الخاصكى زيد قدره مع التحف اللايقة والهدايا الفايقة المكتوبة تفاصيلها فى كتاب غير هذا فالمأمول من ألطافكم العلية الأنعام بالقبول والرأفة إليه غب الوصول والإصغاء إلى كلماته الخبية ومقالاته المخفية المنقولة عنا بالأمانة الكاملة والنيابة الشاملة ثم الانصراف والرجوع إلى مقره المألوف ومستقره المشغوف بصحة الأخبار وأخبار الصحة السارة وأعلام ساير السوانح والوقايع المفرحة من الحروب والفتوحات والغنايم والغزوات ، حيث وقعت وأين صدرت بعناية الله وتوفيقه يسر الله لنا ولكم خير الدارين وسعادة المنزلين وأدامكم بالعمر الطويل والأجر الجزيل فى بساط العدال والخلافة إلى يوم الدين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين(١) .

(١٦)

[ورقة ٤٩٩ وجه]

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين الحمد لله الذى يغفر لمن يشاء وهو الغفور الرحيم ويتوب على الذين يعملون السوء بجهالة إنه عزيز حكيم والصلاة والسلام على النبى الأمى العربى الهاشمى محمد نزل فى شأنه : إنك لعلى خلق عظيم وعلى آله وأصحابه الذين اعتصموا بحبل الله جميعًا (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) وبعد فإنا أصدرنا هذه المفاوضة الشريفة والمكاتبة اللطيفة إلى الحضرة العلية الأعظمية الأكرمية الأفخمية الأكملية ، الأفضلية الأعلمية الأعدلية ، الغوثية الغياثية ، الأعدلية الغوثية الغياثية ، مفيض الحسنات مقيل العثرات ، الذى أفاض الخير ودواعيه وحسم الشر وعواديه وأنام الأنام فى أيام عدله وعمرهم بإحسانه وفضله ولان لأمره كل متعند ودان لحكمه كل متمرد وهو حامى بيت الحرام والروضة المطهرة والمقام نصير

---

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٤٩١ ب - ٤٩٤أ .

المسلمين ظهير أمير المؤمنين المختص بالعز والتمكين من حضرة رب العالمين صاحب المملكة أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره وخلده فى دولة علية وعيشة راضية ماسها الأصاغر والخدام وعفا عنهم الملوك الكرام والسلاطين العظام تهدى إليه سلام يتأرج عرفًا ويتبلج وصفًا ويكاد يمازج النسيم لطفًا [ورقة ٤٩٩ ظهر] ، وتبدى لعلمه الكريم أن كتابه المستطاب الذى انتظمت ألفاظه كالدرر وحسنت سطوره من الطرر على الغرر كان الجواهر نثرت فى أرض القراطيس ونشرت عليها أجنحة الطواويس قد وصل إلينا على يد الأميرى الكبيرى السيفى الأخصى يونس الخاصكى الأشرفى رزقت سلامته وفتح لدينا وتلى بين يدينا وألقينا السمع لإصغاء ما ينهيه وأصغينا كل ما يخبره وينبيه بروا مسفر ووجه ضاحك مستبشر فأطلعنا على ما فيه من إعلام تقبل الشفاعة وحسن القبول على الإشارة التى صدرت من سدتنا العظيمة إلى أبوابكم الكريمة للصفح عن هفوة ظهرت وزلة بدرت عن الأمير الكبير الباذل الباسل الماجد العاهل دولتباى ، دامت معاليه وفهمنا أن أمير المومى إليه قد خرج من ضيق السخط والسطو إلى سعة المرحمة والعفو وقرن الماته بالإسعاف وأفيض عليه الإتراف وسلم إليه ما يترجاه بل ما هو أجل منه قدرًا وأعظم أمرًا وهو نيابة السلطنة بالممالك الطرابلسية فابتهجت نفوسنا الرضية وانشرحت صدورنا السنية واتسعت قلوبنا الزكية بأن جنابكم العلى العافى لقد فاز فوزًا عظيمًا بذلك الإغماض والتعافى إذ قال النبى عليه السلام : « إذا كان يوم القيامة نادى المنادى ألا ليقم الذين أجره على الله فلا يقوم إلا العافون عن الناس » وتثبت أيضًا فى صحايف أعمالنا مثوبات كثيرة [ورقة ٥٠٠ وجه] وحسنات كبيرة كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ﴾ صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم هذا ثم انتهينا إلى ما اندرج فى ذيل مكاتبكم الجلية من أحوال الرجل الذى ظهر فى البلاد الشرقية فهزم واليها وعلا أهاليها وأمطر سحابه مطرًا فنال من حاجته وطرًا لاحظناه وكان كله مفهومًا وصار بأسره معلومًا ونحن نستدعى بالدعوات المستجابة عقيب الصلوات الخمسة والأوقات المستطابة من الله الملك المعين أن يختار الخير

للمؤمنين ويدفع الرجز عن المسلمين ، ويصلح بالهمم ويهذب حالهم فى كل حين ، ويمن عليهم بفضله وكرمه ، ويحسن إليهم بجزيل نعمه ، وما ذلك على الله بعزيز ، وأما التحف التى اتحفتموها فعرضت علينا بالإجلال وقوبلت بالتكريم والإقبال ، فوقعت فى موقع الرضا ومحل القبول والارتضاء ثم أهدانا القاصد المشار إليه بعد أن عاملناه بالإكرام وأفضنا عليه خلع التشريف والاحترام ، وحملناه لمقامكم الكريم من السلام ما هو أزكى من نشر الخزام ولو كان جسمًا لكان أصفى من ماء الغمام وقاكم الله من المكاره والآلام كتب فى أوائل الربيعين من شهور ستة عشر وتسعمائة[١] .

(١٧)

الجـواب

[ورقة ٥٠٠ وجه]

تيمنًا باسمه العزيز الوهاب ومنه الموالاة بين الأحباب وهو الرحيم التواب الحمد لوليه الذى ألقى المحبة بين قلوب المؤمنين واستبشر بشفاعة [ورقة ٥٠٠ ظهر] نبيه محمد ﷺ عصاة المسلمين صلاة دائمة إلى يوم الدين وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد فقد انفجر صبح صباح الاتحاد وابيض فجر مشرق الوداد ، وأشرقت شموس الألطاف من أفق السعادة ، وطلعت بدور الأعطاف عن أوج الرفعة ووردت النسايم المسكية النفحات وصلت الشمايم الوردية الفوحات وطار غراب البين كظلام الليل من الأوكار ، وتغنى بلابل الخلوص

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٤٩٩أ - ٥٠٠أ .

فى رياض الأنوار ووصل خير البريد المخبر عن حصول المرام وقبول الكلام وهو كتاب الأميرى الكبيرى العظيمى الكريمى الأعزى المعزى العالمى ، العادلى المظفرى ، المؤيدى الباذلى ، الكاملى العونى ، الغوثى الغياثى ، الغنايى المهدى ، المشيدى الظهيرى ، النصيرى الأمجدى ، الأكرمى قهرمان الماء والطين ظل الله فى الأرضين معز الإسلام والمسلمين باسط أجنحة العدل والرأفة على قاطبة المؤمنين ملجأ الضعفاء والمساكين ، ناشر ألوية العز الأتم والمجد الأشم على مفارق أهل الدول ممهد قواعد المملكة مشيد أركان الولاية بالنصفة والشفقة بين الملل ، حامى بيضة الدين وحافظ خوذة الإسلام بالأسنة والسيوف الصمصام ، المؤيد من عند الله المجيد أبو الفتح والنصر سلطان بايزيد لازال رايات سلطنته العالية متحلية بطراز التوفيق والظفر [ورقة ٥٠١ ظهر] وما برح آيات خلافته المتتالية مؤيدة بتأييد القضاء والقدر وسرادقات عزه بدعايم التمكين منوطة قايمة وخيام عمره بأوتاد الخلود مربوطة دايمة (شعر) فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحبًا * بخير كتاب جاء من خير مرسل * وأى كتاب الذى هو كالبحر اللجى المحيط والجبل الشامخ البسيط ليس لغرايب حكمه الفايقة الفاخرة بداية ونهاية ولا لعجايب جواهر نكته الرايقة الزاهرة حد وغاية ورد فى أشرف الزمان وأطيب الأوقات ووصل فى ألطف الأوان وأحسن الساعات على يد قدوة الأماجد والأعاظم وعمدة الأفاخم والأكارم سنان بيك قايد الديوان السلطانى أدام الله معاليه وأعاده إليكم بلا آذية برفاقة قاصدنا الأميرى الكبيرى السيفى الأخصى يونس الخاصكى ، الأشرفى زيد قدره فنور هو مجالسنا من لمعاته وعطر محافلنا من فوحاته ، فاتخذناه كصحف مكرمة مرفوعة مطهرة وكشفناه بأيدى سفرة كرام بررة ، وطالعناه بأنظار المحبة ، ولاحظنا فيه بخلوص الطوية وشاهدناه مكتوبًا وفق المرام ورأيناه مرقومًا بمزيد الاهتمام مبشرًا بحصول المسرات المتكاثرة ، والبشاشات المتضاعفة الناشية من عفونا عن خطية الأميرى الكبيرى ، الباذلى الكاملى ، دولتباى دامت معاليه وإحساننا إليه من تنفيذ أيالة الولاية الطرابلسية التى هى أعظم البلاد الشامية عن لواحق الممالك [ورقة ٥٠١ ظهر] المصرية عمرها الله مع ساير البلاد الإسلامية وورود شفقتنا

عليه وكثرة ألطافنا إليه حسب التماسكم الجلى واستدعائكم البهى ، فالمأمول من جنابكم الرفيع وبابكم المنيع أن ينصحوه بأبلغ النصايح وينبهوه بأوضح الصفايح حتى ةينعرج من طريق الخدمة والأدب ، ولايهرب عن سبيل الطاعة والأرب ، ويكون من المطيعين الخاشعين كساير المحكومين لدى الحاكمين ، وأما قصة غلبة الفرق الضالة القزلباشية فى البلاد الشرقية فإنها بلية عامة ظهرت فى تلك النواحى فدفعهم لازم بل واجب على الأدانى والأقاصى فالمقصود من دفعهم واستيصالهم بعناية الملك العلام الموافقة والاهتمام لأنهم أهل البدع والضلالة وأصحاب الشر والشقاوة كلهم روافض وجمعهم ملاعين ليس فى قلوبهم الردية أثر الرحمة والشفقة ولا فى طينتهم الخبيثة علايم الهواية والرأفة وأنهم هتكوا عرض المؤمنين والمؤمنات وقتلوا علماء الدين والسادات وأغاروا أموالهم وأسروا صبيانهم وعملوا فى هذه المملكة أعمالاً لا يرى مثله أحد فى خروج الأولاد الجنكزية ولا سمع شبهه أذن فى ظهور الأحزاب التيمورية (أولئك هم الكفرة الفجرة) اللهم دمرهم واقهرهم وفرق شملهم وكسر أعناقهم وطهر الأرضين عن هؤلاء الأرجاس الأنجاس (إنك على كل شيء قدير) وبإجابة دعاء (ورقة ٥٠٢ وجه] الصالحين جدير والله يؤيدكم وينصركم ويديمكم بالدولة الأبدية والسعادة السرمدية ويرزقكم عمرًا طويلاً وأجرًا جزيلاً والحمد لله رب العالمين ، والصلاة على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الحق واليقين[١]

(١٨)

يذكر ابن تغرى بردى قصة سليمان وأخته فى منهله الصافى ، فيقول : سليمان بن أرخن بن محمد **كرشچى** [محمد **چلبى**] - كان جده محمد كرشجي ملك بلاد الروم إلى أن مات محمد [فلما توفى] **كرشچى** قبض

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٥٠٠أ - ٥٠٢أ .

عمه مراد بك بن **كرشجى** على أخيه أرخن بك أعنى والد المذكور وحبسه سمله ومنعه الزواج خوفًا من أن يعقب فدس له جارية فأولدها سليمان هذا وأخته خوند شاهزاده ، ثم مات أرخن فر سليمان هذا بمملوك أبيه ومعه أخته شاهزاده وقدم بها على الملك الأشرف برسباى بالديار المصرية فأكرمهما الملك الأشرف ، وضم سليمان هذا إلى ولده الملك العزيز يوسف وجعل أخته شهزاده فى الحرم السلطانية فأقام على ذلك سنين إلى أن جاء بدار المملوك المذكور من يأخذ سليمان هذا وأخته ويفر بهما إلى البلاد الروم لمال وعد به من عند ملوك الروم بهما بحر النيل ليتوصل إلى فم رشيد ويركب بهم فى الغراب المعتد لهم ، ففطن السلطان بعد خروجهم من القاهرة فشق عليه ذلك وبعث فى أثرهم جماعة من الخاصكية والمماليك السلطانية عاده فواقوهم من فم رشيد وقد عاق بهم الريح عند الخروج إلى البحر المالح ، فاقتتل الفريقان قتالاً شديدًا إلى أن انكسر أعوان سليمان هذا ، وظفر بهم وأعيد إلى القاهرة فوسط السلطان المملوك الذى فر به وبأخته وقطع أيدى جماعة كبيرة وجلس سليمان المذكور بالبرج من قلعة الجبل فكان يومًا مهولاً إلى الغاية لعلى ما رأيت الملك الأشرف غضب فى سلطنة بمثل هذا الغضب ودام سليمان محبوسًا مدة يسيرة ثم أطلق وصار عند العزيز على عادته أولاً ، ثم تزوج السلطان بأخته شهزاده واستمر سليمان على ذلك إلى أن توفى بالطاعون فى سنة إحدى وأربعين وثمانمائة وسنة نحو خمس عشر تخمينًا رحمه الله وشاهزاده المذكور تزوج بها الملك الظاهر جقمق بعد موت زوجها الأشرف واستولدها عدة أولاد إلى أن طلقها فى سنة خمس وخمسين وثمانمائة[1] .

ويروى ابن تغرى حكاية الأمير سليمان وأخته خوند شهرزاده مرة أخرى بشيء من التفصيل فى كتاب آخر له هو « حوادث الدهور ذيل السلوك » ، فيقول : توفيت خوند شهزاده بنت الأمير أرخن بك ابن محمد **كرشجى** بن

(١) ابن تعرى بردى : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، مخطوط بمكتبة نور عثمانية باستانبول ، رقم ٣٤٢٨، ورقة ٣٣٩ .

بلدم بايزيد بن عثمان الرومية الأصل والمولد المصرية المنشأ والوفاة فى أواخر شهر رجب وكانت قدمت مع أخيها سليمان من بلاد الروم إلى الديار المصرية فأكرمها الملك الأشرف برسباى وأنزلها بقلعة الجبل فى الدور السلطانى سنين إلى حين أوحى بعض الأروام لمتولى تربيتهما المهرب بهما إلى بلاد الروم ، واستعدوا لذلك وحضر شين إلى ثغر رشيد مشحون بالزاد والمقاتلة لأخذهم فى الباطن والظاهر فى زى التجار ولازال اللالا يترقب الفرصة حتى أمكنه ذلك وأخذهما من وسط القلعة وذهب بهما إلى الثغر المذكور ولم يبق إلا نزولهما فى الشين وسفرهما وكان عند نزولهما بلغ السلطان الملك الأشرف ذاك فعظم عليه هروبهما على هذا الوجه فإن مراد بك بن عثمان متملك بلاد الروم أرسل إلى الأشرف يطلبهما غير مرة فامتنع الأشرف من إرسالهما لئلا يقتل سليمان هذا خوفًا على مملكته على جارى عادتهم من قتل إخوتهم وأقاربهم ، وكان ابن عثمان يخاف من سليمان هذا ليأخذه أعداؤه ويقاتلون به ، فوقع ذلك من غير رضا الأشرف وصار الأشرف متحيرًا هل الذى أخذهما من أعداء ابن عثمان أم مكيدة من ابن عثمان ، حتى يظفر بسليمان هذا وأخته شاهزاده المذكورة فندب الأشرف فى الحال عسكرًا من خاصكية فى إثر القوم إلى أن أدركوهم بثغر رشيد وقد منعوا من السفر لعدم الريح فوقع بين الطائفتين قتال عظيم انتصر فيه عسكر السلطان وأخذت الأروام وسليمان وأخته شاهزاده المذكورة وعادوا بالجميع إلى الديار المصرية فأبدع الملك الأشرف فى الأروام ، وقتل منهم جماعة وقطع أيدى جماعة كبيرة وأعاد سليمان وأخته هذه إلى مكانهما إلى أن مات سليمان بالطاعون فى سنة إحدى وأربعين [وثمانمائة] وأما شاه زاده هذه فإنها لما كبرت أراد تزويجها ببعض أكابر الأمراء لكونها من أولاد الملوك ، ثم تزوجها هو ودامت عنده من جملة الخوندات مدة يسيرة مات الأشرف فتزوجها بعد الملك الظاهر جقمق واستولدها عدة أولاد . ثم طلقها بعد سنة ثلاث وخمسين [وثمانمائة] ونزلت دارها بالجودرية إلى أن تزوجها الأمير برسباى البجاشى أحد مقدمى الألوف بالقاهرة ، فدامت عنده إلى أن مرضت وطال مرضها حتى ماتت فى التاريخ المذكور [رجب ٨٥٩] وسنها

ينف على ثلاثين سنة ، وخلفت مالاً كثيرًا من أنواع الأقمشة من جملة ذلك شد جبين نطاق قيمته خمسة عشر ألف دينار مصرية ، وقس على هذا من المورثة والدتها وزوجها لاغير مع بن عمها محمد ابن عثمان متملك بلاد الروم رحمهما الله تعالى[1] .

(١٩)

[ورقة ١٦ وجه]

الباب الأول : في سبب السفر المبارك فى مراكب السلامة المسحونة بالتفويض والتسليم والتوكل على الله تعالى إلى مملكة العرب ومدينة مصر المحروسة : إننى رأيت النبى ﷺ مرارًا كثيرة ، وأما فى المرة الأخيرة فرأيته معرضًا عنى فقلت له ، [ورقة ١٦ ظهر] لأى شيء يارسول الله فقال لو أحببتنا لزرتنا ألبته فعلمت منه ﷺ طلب الزيارة والقدوم إلى بين يدى حرمه الشريف فأرسلت إلى الوالد مرارًا استأذنه فى الحج والزيارة فلم يرد على جواب فعلمت من أحوال الأب المحب [ورقة ١٧ وجه] الشفوق الإمام الأعظم العزيز الأكرم أنه ليس يأذن لى فى شيء من ذلك لكثرة الشفقة والمحبة منه لى ، فحين عظم بى الشوق وتمكن الوجد وزادت عندى محبة أنواره وروضته الزهراء الشريفة وكثر عندى القلق والضجر وعدم صبرى عن (ورقة ١٧ ظهر] التخلف عن زيارة مننشق له القمر ، فتفكرت فى أحوال منهم فى خدمتنا وعشراينا فوجدت الأصلح فى أمرهم ألا آخد أحدًا منهم ولا أعلم منهم ولا أعلم منهم أحدًا ولا أخرج من باب من أبواب المدينة المعروفة بأنطاليه لئلا يظهر فيها وفى [ورقة ١٨ وجه] ساير البلاد الهرج والمرج ، وحتى ريؤدى أحد بسببى ومن أجلى خوفًا من الله عز وجل وإصلاحًا لنظام الرعية فى مملكة الوالد نصره الله وأعزه وأدام حياته وسعده فلو سافرنا على هذا الأسلوب والعياذ بالله

(١) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ذيل السلوك ، مكتبة أيا صوفيا باستانبول رقم ٣١٨٥، ص ٣٦١ .

من ذلك بأن كنا أفشينا الخبر وأظرنا السفر فوالله [ورقة ١٨ ظهر] ما كان يحصل لأحد من الرعية خيرولا عمار أبدًا وللخوف من ذلك ما سافرنا بأحد من المماليك صحبتنا ولا أحدًا من غيرهم ممن كان يجالسنا من الأكابر الذى عندنا غير خمسة مماليك من السرايا لأجل الإعانة على الوضوء وما يشبه ذلك من أمر [ورقة ١٩ وجه] العبادات وهذا كله من دعاء الوالد لنا الذى وفقنا لمثل ذلك والانسلال من المدينة فى ظلمات الليل والله أعلم ، ثم إنى تركت جميع من فى السرايا وما فيها من الأموال والمماليك باقين على حالهم وجميع من فى خدمتنا فى المدينة وغيرها كل [ورقة ١٩ ظهر] على حاله وما هو مقرر له فى الديوان ؛ لعلمى بأن الوالد المعظم قدره عند الله والناس يتولى ذلك كله بحلمه وعدله وإحسانه وينظر فى كل حال منهم بالمعروف ويرسل لهم جميع ما يحتاجون إليه ، ومن يفحص على أمرهم ويسوسهم بالبر وإخفاض الجانب كما كنا [ورقة ٢٠ وجه] معهم إلى أن نعود فى خير إن شاء الله تعالى بعد انقضاء مأربنا وحجنا ، وتمليناا تقبل الله منا ذلك آمين انتهى فليس أمامنا ومطلبنا بعد ذلك إلا الرجوع إلى وطننا ومربانا إن رضى الوالد لنا بذلك وإلا فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم ونقسم [ورقة ٢٠ ظهر] بالله على الوالد وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، إنه يصفح عن الولد ويعفو عنه هذا الذنب لعدم إذنه وإساءة أدبه بذلك الفعل ويدعو له بالتوفيق والهداية فإنه يعلم لولا وجوده لم استطاع الولد أن يتحرك من مكانه ويعذر ولده [ورقة ٢١ ظهر] فإن فى مثل الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة المصطفى عليه السلام تباع الأرواح بأبخس الأثمان ويحلو هجر الأوطان ، فكم يتّموا له الرجال من أولادكم قطعوا لأجله جبالاً وأوهاد ، وتفطرت مما يحصل لهم من المشقات أكباد ، وأيضًا قد كانت تقصده [ورقة ٢١ ظهر] أكابر العرب جاهلية وإسلامًا ، وقد يكفى فى دليل ذلك أغْزَا النبى ﷺ أهل مكة عام الفتح لأجل الحج وإقامة شعائر الإسلام بعشرة آلاف فارس من المهاجرين والأنصار ومكابدته حرارات الحرب حتى ظفر بذلك وتملى بنصرته وحجته [ورقة ٢٢ وجه] وإفشاء دينه ﷺ أما هذا كله لأجل الحج وإقامته بل وقد نقل أن الخلفاء

الراشدين كلهم حجوا هذا البيت الحرام وتملوا بزيارة الهادى عليه السلام وأيضًا نقل عن هارون الرشيد رحمه الله وعفى عنه أنه ألزم نفسه بيومين ألا يحج [ورقة ٢٢ ظهر] إلا ماشيًا حافى الأقدام فحين قرب أوان الحج أمر بجمع العلماء فجمعوا وحضروا بين يديه واستفتاهم فى ذلك اليمين فأفتوا له بالحج كما حلف ولكن ضربوا له مسئلة تَرَخّصٍ وتلطف به وأمروه بأن يأمر بتقطيع الأشجار من طرق الحج يفرش له من المرحلة [ورقة ٢٣ وجه] إلى المرحلة على الأرض بسطا واشيا من أجناس الفرش ، فأمرهم بذلك وحج على تلك الحالة فهذه الطريقة قد نسبت له وافتخر بها على سائر المتقدمين والمتأخرين من عظماء الملوك وأرباب المناصب ، والملخص من هذه الأقوال والحكايات أن الولد أو المملوك ما فعل شيئًا خارجًا عن عادة [ورقة ٢٣ ظهر] الملوك وأولادهم بل إنما فعل شيئًا واجبًا قد أمر الله ورسله به وأوعد تاركه بالعقاب والنكال وإن حصل له ذلك فقد حصّل الفضل والأجر الدنيوى والأخروى اللهم اجعلنا من المحصلين له والفائزين به والمستسرين برويته ببركة الوالد ودعائه نصره الله أمين [ورقة ٢٤ وجه] انتهى وأيضًا نحمد الله سبحانه وتعالى الذى أراد بذلك وبلغنا قصدنا فى حياة الوالد وعظم سعده وحرمته وأرانا إياها فى سائر البلاد والآفاق حرمة عظيمة لا حد لوصفها لما رأيت فى هذه البلاد العربية تكاد تفقل الحجر ولمز يستطع من هيبة الله له أحد أن يخرج عن [ورقة ٢٤ ظهر] امتثال أوامره والذى يعنى والحمد لله الذى قدر بهذا الأمر المبارك فى أيام دولة هذا المحب إلى آل عثمان على الإطلاق والمعد نفسه بأنه واحد من أولادهم لعظم محبته ، فإن الولد قد رأى منه من الحرمة والتعظيم والوقار والإكرام ما لا يطاق وصفه ولا عده فمن بعض جوابه ورقة ٢٥ وجه] إلى ولدك أهلاك ومرحبًا بالأخ الصالح ولد الأب الصالح ونسل الأجداد الصلَّح إلى أن قال أنا نائب حضور عن أبيك فكل ما فى يدى لك وجميع ما تريد وتطلب يحضر لك هذه سنة عزنا وكمال سرورنا وإن شاء الله تعالى أكون رفيقك وأنيسك [ورقة ٢٥ ظهر] إلى مكة المشرفة شرفها الله تعالى إلى يوم المعاد والله أعلم انتهى فالله الله يا والدى طيب خاطرك على ولدك وأرسل له بالإذن

المطلق فى الحج ليصير كاملاً مقبولاً عند الله عز وجل والإشارات المسرة المفهومة برضاك عليّ صحبته حامل كتابى هذا فإنه من جهتنا ومن أحد كتابنا يعنى الشيخ عبد السلام أهل كمال حافظ [ورقة ٢٦ وجه] جميع علوم من أكابر طلبة العلم بالجامع الأزهر ومن فقهاء المماليك عند سلطان مصر الملك قانصوه الأشرف نصره الله وأنت أمين وإنك تتوصى بهذا الشيخ فإن جميع ما تفعله من البر والإحسان والتوقير يعلم به السلطان ، وهو معتقد فيه والوالد أهلاً لما يُستطاع على إدراكه [ورقة ٢٦ ظهر] وترسل تبشرنى معه برضاك وإذنك لى فى الحج وسرورك به ، فإن محبة سلطان مصر قال أرسل أستأذن الوالد فإنه والدنا كلنا وله علينا تربية وإحسان ، لا نستطيع مكافأته أبدًا على ذلك وليكون حجك مبرورًا وجامعًا للشرائط الشرعية وليتم [ورقة ٢٧ وجه] صلاحك ومرضاة ربك فاحتجت إلى إرسال هذا الشيخ لكونه من أهل العلم فيستأذنك الإذن الشرعى ثم يرجع فيخبر بذلك سلطان مصر نصره الله قطعًا لريب المرتابين والزاعمين العُقُوق منا للوالد بعد تقبيل الأرض والتحية والسلام عليك إلى يوم الخلود [ورقة ١٧ ظهر] بدار السلام والله الموفق للصواب(١) .

(٢٠)

[ورقة ٥٠٢ وجه]

الحمد لله الذى اقتضت حكمته البالغة ابتلاء عزيز من عباده المكرمين فابتلاه بفرقة فلذة كبده زمانًا ، فلما بلغ الأمر أشده ومنتهاه تعلقت إرادته القديمة وعنايته العميمة بتقضى هذه الهجرة ونيله إياه بعد أن قال : إنك اليوم مكين أمين مبين وأعز مقامه وأكرم مثواه فتوجه من مصر البشير ولما فصلت العير قال أبوه : إنى لأجد ريح يوسف وعليه من الله بالفضل والجود فإنه وجد

(١) محمد قورقود : وسيلة الأحباب بإيجار تأليف ولد حركة الشوق لأرض الحجاز ، مخطوط بمكتبه أيا صوفيا باستانبول ، رقم : ٣٥٢٩، ورقة ١٦أ - ٢٧ ب .

المفقود ونال بالمولود فقرت به عيناه والصلاة والسلام على سيدنا محمد أبان رتبة مجده قوله تعالى ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ﴾ وهو خير البشر وأولاه وعلى آله وأصحابه الذين أدرك كل منهم ما يحبه ويرضاه وكان عقباه خيرًا وأحسن من أولاه وبعد : فإنا أصدرنا هذه المفاوضة الشريفة والملاطفة اللطيفة إلى الحضرة العلية الأكرمية الأفخمية الأعظمية ، الأكملية الأكفلية ، الأعلمية الأفضلية ، الأعدلية العونية ، الغوثية الغياثية ، عضد الملة كهف الأمة ، هو الذى جمع المحاسن كلها ، وجرت عليه المفاخر ذيلها [ورقة ٥٠٢ ظهر] وألقت لديه المعالى مقاليدها ، وأرجعت إليه المكارم أسانيدها حامى الحرمين المبجلين المشرفين المعظمين ناصر الإسلام والمسلمين ظهير أمير المؤمنين المختص باللطف الخفى من حضرة رب العالمين لازال خواطره الشريفة مسرورة ومواد ابتهاجه موفورة وأعماله مبرورة وأياديه مشكورة ومحامده على الألسن مذكورة والخلائق بنعمه مغمورة وغياث المكرمات بغيث لطفه ممطورة وما برحت حضرته العلية أن يعطف الصادر والوارد عطف العم والوالد ويأوى الكرام منه إلى ركن منيع واصل رفيع ما كد الصبح والمسا وجاء الربيع بعد الشتا يهدى إليه سلامًا ألطف من الشمال وأعذب من السلسال ، وأطيب من روح الوصال ، ودعاء يشنف بصفائها الأذان ، ويعطر بنوافجها أردان الزمان إن كتابه الكريم الذى هو بسجل اللطف ناشر وعن غرة الكرم سافر ، قد وصل إلينا على يد القاصد الأميرى الكبيرى الأخصى المقربى ، المؤتمنى كِسَباى أحسن الله وفادته فتلقيناه بوجه بش ورواء هش ، فكرمناه كمال التكريم ، وسألناه عن مقامكم العظيم ثم فض ختام ذلك الكتاب لدينا ، وتلا ما تضمنه بين يدينا فأصغيناه حسن الإصغاء بسمع الإرادة والرضا فلما انتهينا إلى البشارة أن الولد الأعز الأمجد والنخل الرشيد الأسعد نور حدقه السلطنة الزاهرة ، ونور حديقة الخلافة [ورقة ٥٠٣ وجه] الباهرة ثمرة نخلة السعادة السرمدية ونخيلة ثمرة الدولة الأبدية المتحلى بحلية مكارم الأخلاق الفائز بالقدح المعلى بالاستحقاق ، المختص بعناية الله الودود عضد الدولة والدنيا والدين سلطان

قورقود جعل الله السعادة مقرونة بسفره ، والسلامة مضمونة بخيره آل إلى أصله وانقلب إلى أهله ، وانصرف إلى داره وانعطف نحو دياره وكتبت مثوبات الصلة فى صفحات أعماله ، وكنتم فائزين معه بتلك المثوبات العظمى كما ورد فى قول النبى عليه السلام صلوات الله على قائله الدال على الخير كفاعله ، تبلجت الدنيا وتبرجت وتعطرت الآفاق ، وتأرجت فتكاثر السرور ، وامتلأ فؤادنا الوسيع بالفرحة والحبور . ﴿ الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴾- فبسطنا ألسنة الثناء والدعاء حتى بلغ عِنان الشكر عَنان السماء وحمدنا الله حمدًا متزايد المقدار واسعة الأقطار باقية الآثار لا تنقضى عدده ولا ينتهى أمده ، على أن الدهر يبسم بعد عبوسه ، ولانت شكيمته بعد بوسه وطلع نجم الشرف بعد افوله وجرى الماء فى عود الأمل بعد ذبوله وآب الصقر إلى الوكر بعد ذهابه ، والتصق الخليج بالبحر بعد انشعابه فحصلت لنا منة عظيمة اعيت عن العد ولم يقف عند هذا الحد حجتى لو حرضنا النفوس على تعدادها وحصرها لحرضناهن بإحجصاء السحائب [ورقة ٥٠٣ ظهر] والقطر وكانت يهبوب نسمات هذه المكرمات بفاع المحبة فى عاص صدورنا المنشرحة وبقاع المودة فى معانى قلوبنا المتفتحة روضًا حصيبًا وحلل أزهاره خزًا قشيبًا رياحينه غضكا طريًا ورشحات طله درابهيا فصلنا شفاعتكم اللطيفة وصرفنا وجوه همتنا العلية وعنايتنا الجليلة نحو إقباله وإطراد حاله وتحقق أمانيه وآماله كالعقد يوم نظامه ، والروض غب همامه ، وتعنق أنواره وتبسم أزهاره وفوضنا إليه لواء انطاليه وهو فى ممالكنا المحمية من الألوية العالية مضيفًا إليه لواء علائية ولواء منوغاد وما يناسبها من الإقطاعات والمضافات على السنن المعهود العثمانى والنهج المعروف الخاقانى ، وأفضنا شآبيب الرأفة عليه ، فبلغت مراسمه الخاصة بثلثين مائة ألف درهم على ما أشير إليه والله يجعلها له وارد الزناد ومطمئنة المهاد . هذا فالقاصد المومى إليه أدى رسالته وبلغ أمانته بأوضح لسان وأملح بيان واعدناه بعد أن عاملناه بمزيد اللطف والاحترام ، وألبسنا عليه وعلى من معه خلع التشريف والإكرام وحملناه من التحية والسلام والشوق والغرام عدد قطر الغمام والله تعالى يمدكم ويخلد نعمه عليكم ماكر الشهور والأعوام ،

والحمد لله الملك العلام والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير الأنام (١) .

(٢١)

الجـواب

ورقة رقم ٥٠٤ وجه]

نحمدك يا من أوصل يوسف إلى أبيه إسرائيل من مصر إحسانه ونشكرك يا من جمع بين يعقوب وابنه الجميل بعد افتراقه ، وجرى بمشيئة نيل السعادة وفق المرام وأنبت حب الحب من زراعة الشوق والغرام ، وطيّر إلى مقامه حمام العراق وأعاد إلى محله الغُراك ، وتلألأ بحكمته نجم الموافقة وتضأضأ بقدرته بدر الموافقة وتبسم بلطفه صبح الهداية فضحك وجه الدنيا من طلوع شمس العناية مصراع أن للهجر رجالاً ورجالاً لوصال . ونصلى على سيدنا محمد الأفصح الأملح وعلى آله وصحبه الأصلح الأنجح الذى يروى عن حوض شفاعته ظمأن برية الذنوب من الأمة ويكون حمايته سببًا للدخول فى بحبوحة الجنة صلاة ينفجر منها ينابيع رياض السالكين ويتبلج عنه غداة صباح الصالحين وبعد فلما انعكست أنوار المحبة وتشعشعت أشعة المودة وفاح نسيم المصادقة ولاح شميم الموافقة من الباب الرفيع والطود المنيع للسلطان الأعظمى الأكرمى الأمجدى ، العونى الغوثى الغياثى ، المهدى المشيدى ، المظفرى المؤيدى

---

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٥٠٢أ - ٥٠٣ ب .

كتب ملخص لهذه الوثيقة بالتركية ، وهو محفوظ الآن فى أرشيف طوبقبو سرايى باستانبول تحت رقم E. 5464

والخاقانى ، المعظمى المفخمى المنصورى ، المعينى الأقدمى الأعلمى ، المولوى الأولوى ، الأرفعى الأنفعى ، ناصب رايات المعدلة فى أوج النصفة ناشر آيات السلطنة من كتاب الخلافة ملك ملوك البر والبحر فاتح بلاد العداة بالعز والنصر ظل الله فى الأرضين عون الإسلام والمسلمين قهرمان [ورقة ٥٠٤ ظهر] الماء والطين الغازى فى سبيل الله المجاهد لوجه الله الناصر لدين الله الناطق بما نزل على الرسول من الله المؤيد من عند الله الملك المجيد الأخ الأعدل الأشجع أبو النصر سلطان بايزيد لازال أغصان حدائق سلطنته العلية مزينة بأكمام الأولاد وما برح أشجار روحة خلافته البهية مثمرة من أنوار الأحفاد تنور محفلنا عن لمايع تلك الأعطاف وتعطر مجلسنا من روايح ذاك الألطاف وأطمئن قلوبنا وقلوب الخاشعين من شر الوسواس لما عملتم بما قال عز من قائل ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ فى حق ولدنا المخدومى الأعقلى الأرشدى ، عضد الدولة العثمانية كبد الفلذة الأورخانية ، المنظور بعناية الله الملك الودود أبو الفتح سلطان قورقود أطال الله بقاءه وزاد ارتقاؤه الذى هو شعبة طاهرة من دوحتكم الزاكية وثمرة طيبة من نخل رياضكم العالية وغرة السعادة عن جبهته لايحة ونجوم الدولة من نواصيه طالعة وكان قصوى منيتى وقصارى بغيتى أن يكون هو كالدر النضيد منتظمًا فى عقد جواهر سريره الأعظم ومنخرطًا فى سلك عبيده المكرم ، والحمد لله الذى رفع العُشرَة ودفع الكلفة وألف بين قلوبهم الرأفة ووصل موكبه إلى مقامه الأصلى وحصل وصوله إلى وطنه الجبلى وتيسر البهجة لكم عن قدومه ، وازداد شفقتكم عليه وإحسانكم إليه وفق رجائنا [ورقة ٥٠٥ وجه] من تفويض إيالة الأنطالية إليه التى هى معظمة ولاية الأناطولية مضيفًا إليها لواء العلائية والمنوغاد ومثلها من النواحى والبلاد حيث نال خواصها المعينة إلى مقدار ثلثين مائة ألف درهم عثمانى وصدور مزيد عنايتكم فى حق هذات المخدوم المؤدب طبق ما قالوا رضاء الرب عند رضاء الأب فالمرجو من ألطافكم أن تزيدوا الشفقة إليه ، والمرحمة عليه على رغم أنوف الحساد وحتمكا لاطاعة أهل العناد ويتسلسلوا سلسلة المحبة والوداد ويشددوا روابط الود والاتحاد إحياء لدأب آبائكم العظام ، واقتداء لرسم أجدادكم الكرام طاب الله ثراهم

وجعل فى الفراديس مثوبهم ، ويكون معلومًا لديكم القلب واللسان متفقان فى تنطق ألفاظ الوفاق والروح والجنان متوافقان فى عدم مطالعة معانى النفاق ولا يتغير بدخل الواشين ولا يتزلزل بتحريك المفسدين بعزة رب العالمين والملائكة والناس أجمعين ، وجهزنا بموافقة قاصدكم عمدة الأكابر والأعاظم نجم الدين قباد القايد زيد مجده وبالخير عاد صحبة الأميرى الكبيرى الأشرفى الأمجدى الأمير بكناى الخاصكى شرفه الله بحسن لقائكم وأعاده بالخير من جنابكم بالهدايا والتحف المشروحة فى كتاب غير هذا فالمأمول القبول والانصراف بعد الوصول إن شاء الله تعالى الله يؤيدكم وينصركم ويديمكم إلى يوم التناد فهو المراد(١) .

(٢٢)

يقول قورقود لأخيه السلطان سليم فى رسالته :

ظل الله فى الأرضين معز السلطنة والدنيا والدين صاحب الأعطاف والألطاف والتمكين غياث الأصدقاء والمخلصين معين الأوداء وسائر المسلمين جناب العزة ، حضرة السلطان سليم المسعود نائل المرام ، سلم الله وجوده السليم إنه رءوف رحيم .. يقطع هذا المخلص الذى لاشك فى إخلاصه لكم والذى يعتبر من عداد خالصى الوداد لعدالتكم العهد والميثاق على نفسه . والله المنزه عن العيب وعلام الغيب شاهد الحال وعالم ما فى البال . إنه من المحال تزلزل إيمانى بأركان ذلك الميثاق أو تخلخله بمرور الأيام وعبور الأعوام . أما طائفة أهل النفاق صان الله المسلمين من شر كيدهم إلى يوم الميثاق ، فإنهم يقومون بالغمز والنميمة على هذا المخلص قوى الإخلاص لحضرتكم ، موفور

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٥٠٤ أ - ٥٠٥أ .

الحبور والله يشهد أنهم لكاذبون ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابًا ضعفًا من النار (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) . شعر :

اسمع بقلبك إن الأذن كاذبة   وانظر بعقلك إن الطرف خوان [1]

(٢٣)

رد سليم على أخيه بالقبول ، قائلاً :

منبع الأخوة والمحبة والمودة ذو الاحتشام أخى سلطان قورقود المسعود نائل المرام حفظه الله وأدامه . فليكن معلومًا لديك عندما يصلك التوقيع للرفيع الهمايونى ، أنه قد وصلت إلىّ رسالة الضراعة التى أرسلتها للإبقاء على عهدى السابق . وليكن واضحًا لديك أن غرضى هو إطفاء نار الفتن من السلطنة . جاء عبد الشيطان المشهور الطاغية الملعون المسمى إسماعيل بن أردبيل إلى حدود قيصرية واستولى على شرق بليد ، وبلغ الدين حد الاضطراب ووصلت الدولة إلى حد العجز من هذه الأوضاع ، فقررت عزيمتى الهمايونية التوجه إلى البلاد الشرقية بعناية الله تعالى ، وبإذن الشرع القويم فى الحال . ومادمت تقطع على نفسك العهد السابق ، فلا تشغل بالك بهذا الخصوص ولا تهتم بالدعاية ، والسلام[2] .

(٢٤)

يقول ابن إياس عن سليمان وعلاء الدين : ٦ ذو القعدة ٩١٨ وفى يوم الخميس سادسه حضر إلى الأبواب الشريفة أحد أولاد أحمد بيك ابن عثمان

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٥٢٥ ظهر .

(٢) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٥٢٧ وجه .

ملك الروم ، وهو شخص يسمى سليمان بيك فلما حضر أكرمه السلطان وألبسه سلارى صوف بصمور من ملابيسه وقيل : إن والده أحمد بيك فر من أخيه سليم شاه الذى تولى على مملكة الروم وقصد أنه يحضر إلىّ عند السلطان فبدا له من بعد ذلك أمر فتوجه إلى عند شاه إسماعيل الصوفى وحضر ابنه إلىّ عند السلطان ، فما انشرح السلطان لذلك وخشى مما يأتى من هذه الحركة .

ومن الحوادث فى غيبة السلطان قد حضر المقر علام الدين بيك أخو سليمان بيك أولاد المقر الشهابى أحمد بن السلطان أبو يزيد بن عثمان ملك الروم توجه إلى زيارة بيت المقدس ، فلم يحضر صحبته أخوه سليمان بيك لما حضر فأنزلوه عندما حضر فى بيت الأتابكى تمراز الذى عند القبو إلى أن يحضر السلطان(١)

(٢٥)

لا أبلغ فى سرد قصة قاسم من ابن إياس الذى عاصر هذه الأحداث ، حيث يقول : وفى جمادى الأولى [٩٢٢] خرج الأمير ماماى الصغير المحتسب وسافر ولحق بالسلطان وخرج حجته شخص صبى صغير عمره نحو ثلاث عشر سنة ، وهو يقال له قاسم بن أحمد بك بن أبى يزيد بن عثمان وكان عمه سليم شاه بن عثمان لما قتل أخاه أحمد بك ففر ابنه قاسم هذا هو ولالاه ودخل إلى حلب فى الخفية فلما بلغ السلطان ذلك أحضره إلى مصر فى الخفية وأقام بها إلى أن خرج السلطان إلى البلاد الشامية فأخذه صحبته ليبلغ بذلك مقاصده فلك يفد من ذلك شيئًا

٩٢٢ رجب ثم إن السلطان أرسل خلف قاسم بك بن أحمد بك بن عثمان الذى خرج من مصر صحبته السلطان كما تقدم ، وكان السلطان لما

(٢) ابن إياس : المرجع السابق ، م ٤، ص ٢٩٨، ٢٩١ .

توجه إلى حلب ترك قاسم بك فى حماة فطلبه وأخلع عليه وأشهر أمره بحلب ...

وسافر قاسم بك هذا صحبته الملك للأشرف قانصوه الغورى إلى حلب ، وصنع له يرق وشنيح حافل وجعل له صنجق حرير أخضر وأحمر كما هى عادة ملوك الروم ، وحضر الوقعة التى كانت فى مرج دابق فلما فقد السلطان الغورى ، وجرى ما جرى رجع قاسم بك صحبة الأمراء إلى مصر وصار معظمًا عند السلطان طومان باى ، وحضر معه فى الوقعة التى كانت بالمطرية فلما انكسر السطان طومان باى هرب معه إلى جهة الصعيد فلما انقع طومان باى هو وابن عثمان فى الجزيرة بالقرب من وردان ، وأنكر طومان باى وهرب ، فلما قبضوا عليه وشنق اختفى قاسم بك ولم يعلم له خبر مدة طويلة .

وكان السلطان سليم شاه حاسبًا حسابه ليلاً ونهارًا وكان عسكر ابن عثمان قصدهم المخامرة عليه والتوجه إلى قاسم بك وقد أشيع بين الناس أنه لما هرب بعد كسرة طومان باى توجه مع بعض العربان إلى نحو الجبل الأخضر الذى بأعلا البحيرة وكان قد نسى أمره ، فلما كان يوم الجمعة المقدم ذكره أشاعوا أنهم قد قبضوا عليه فى مكان عند العطوف بالقرب من البرقية ، وقد غمز عليه بعض غلمانه فى ذلك المكان فتوجه إليه كمشبغا والى القاهرة وشخص آخر يقال له جانم الحمزاوى شاد الشون [أمين المخازن] بخدمة ملك الأمراء خاير بك وهو دواداره الآن فتوجها إليه وقبضا عليه من ذلك المكان المذكور ، فلما قبضوا عليه عروه من أثوابه وقلموه عمامته وألبسوه برنس أسود وغطوا وجهه ، وسبب ذلك أنهم خشوا أن العثمانية متى بلغهم أنهم قد قبضوا عليه ، وهو طالع إلى القلعة فيخلصونه ويقتلون من معه ، وتثور بين العثمانية فتنة عظيمة ، وتكون سببًا إلى زوال ملك سليم شاه ابن عثمان فلما طلعوا به إلى القلعة بعد العصر قريب المغرب من يوم الجمعة فعرضوه على ملك الأمراء خاير بك فرسم بادخاله إلى سجن العرقانة الذى هو داخل الحوش السلطانى

فأدخلوه به وأغلقوا عليه باب السجن . ثم اجتمع ملك الأمراء خاير بك والأمير قايتباى الدوادار ومن الأمراء العثمانية فايق بك وسنان بك ومصطفى بك وخير الدين بك نايب القلعة فلما اجتمعوا ضربوا مشورة فى أمر قاسم بك . فقال ملك الأمراء خاير بك دعوه فى السجن وارسلوا كاتبوا الخندكار فى أمره وانتظروا الجواب فيما يرسم به فايق بك هذا ما هو رآى متى ما بات فى قيد الحياة تدخل علينا التراكمة وتقتلنا عن آخرنا وتقع فتنة كبيرة . فلما دخل وقت العشاء أحضروا المشاعلى ودخلوا عليه وهو فى العرقانة فخنقوه بها وكان آخر العهد به . فلما أصبح يوم السبت ثامن عشر [١٨ محرم ٩٢٤] أخرجوا قاسم بك من المعرقانة وهو ميت وأرقدوه على مصطبة بالحوش وكشفوا عن وجهه وأرسلوا خلف العثمانية قاطبة حتى رأوه فقالوا لهم : هل هذا قاسم بك بن أحمد بك بن أبى يزيد بن عثمان فصاروا يقبلونه باطنًا وظاهرًا ثم شهد منهم جماعة كثيرة أن هذا هو قاسم بك بن أحمد بن عثمان فعند ذلك أرسل ملك الأمراء خاير بك خلف قاضى القضاة الشافعى الطرابلسى وقامت عندهما البينة بصحة معرفة قاسم بك هذا فكتبوا بذلك محضرًا وثبت على قضاة القضاة ثم إنهم شرعوا فى تجهيز قاسم بك فغسلوم وكفنوه وأخرجوه إلى قدام التكة التى بالحوش السلطانى فصلوا عليه هناك ، وكان الذى صلى عليه قاضى القضاة الشافعى وكان فى يوم السبت باكر النهار أطلقوا له مدراء فى القاهرة بأن الصلاة على الشاب الشهيد قاسم بك بن عثمان ينزل من القلعة ثم إن ملك الأمراء خاير بك أشهر المناداة فى القاهرة بأن يصلى على قاسم بك بن عثمان فى الجوامع صلاة الغيبة ، كل هذا حتى يتحقق الناس من موته عن يقين فلما صلوا عليه بالحوش حملت الأمراء نعشه على أكتافها ، ثم نزلوا به من سل مالدرج ووضعوا عمامته على نعشه ورفعوا عليه علمًا أبيض ، ثم توجهوا به إلى تربة البجاسى فدفنوه بها على أقاربه وكانت جنازته مشهودة وكثر عليه الأسف والحزن من الناس فإنه كان شابًا جميل الصورة حسن المنظر له من العمر نحو سبعة عشر سنة وقد قتل ظلمًا بغير ذنب وقد تناحرت عليه العثمانية بالبكاء . دفنوه بالصحراء فى تربة البجاسى . أشاعوا بين الناس أنهم لما دفنوه ولحدوه

قطعوا رأسه ووضعوها فى علبة وتوجه بها هى والمحضر على يده جانم الحمزاوى شاء الشون إلى عند الخنكار بالشام ، هذا ما أشيع واستفاض بين الناس والله أعلم بصحة ذلك[1] .

(٢٦)

الابن العزيز الأسعد الأرشد الأمجد ، نور حدقة الجلال والسلطنة ، ونور حديقة كمال المملكة ، سلطان بحر الأنصاف ، در أوج الخلافة ، المخصوص بمزيد عناية الله سليمان شاه طال بقاه . فليكن معلومًا لديك عندما يصلك التوقيع الرفيع الهمايونى ، أن حضرتى السلطانية قد حلت بقلعة كماخ فى يوم السبت الخامس من شهر ربيع الآخر من هذه السنة المباركة [٩٢١هـ] التى عمت ميامنها . صببنا على أبدانهم رعد الصدا وبرق القوارع ، وصوبنا نحوهم سموم المجانيق ونيران المدافع . وعندما بدأت القلعة فى الانهيار ، ظهرت بشائر القيامة على رءوس القزلباش (الشيعة) الرفضة الملاحدة الملاعين ، الذين نهضوا للمقاومة والعراك . لكنه فزعوا ولم يتمكنوا من تجنب الجيش الجرار ، الذى اعتاد على هزيمة الأعداء . تسلق الجيش البرج والأسوار ، ورفع علم الإسلام على قلة القلعة . وتمكن من الاستيلاء عليها وقت العصر تقريبًا ، وقطع رءوس المشئومين . ملأ المسلمون القلعة المذكورة وطهروها من طائفة الملاحدة . ظهرت فحوى الآية (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) . وبعد أن عين محافظ للقلعة ، تفضلت ذاتى الهمايونية بالعودة إلى سيواس .

ولما انحرف عن ركابى الهمايونى علاء الدولة المشئوم حاكم ذولقار – الذى أظهر الولاء لنا عند حرب جالديران – وأظهر أنواعًا من الخيانة ، واتضح لنا أنه اتفق مع القزلباش الأوباش ، صار من الواجب الدينى محوه وإزالته من

---

(١) ابن إياس : المرجع السابق ، م ٥، ص ٤٧، ٦٢، ٢٣٠، ٢٢٢، ٢٢٣ .

الحياة أرسلت إليه الصدر الأعظم سنان باشا نمر الوغى وتمساح بحر الهيجاء ، الذى كان فى ذلك الوقت أمير أمراء الروملى أرسلته على رأس جيش مظفر ، مكون من عشرة آلاف جندى مختار وعدد من الانكشارية . تحركوا مع ذاتى عظيمة السمات بعد يوم . وفى اليوم السابع استرحنا يومًا فى قلعة جينى من توابع ذولقار . وفى تلك الأثناء تقابل الباشا المذكور مع العدو وغلبه . وصل إلينا الخبر . وفى اليوم التالى وهو الأربعاء غرة جمادى الأولى من السنة المذكورة ، وصلت من طرف الوزير المذكور فى معية عدة جنود أتراك ، رءوس مقطوعة هى : رأس علاء الدولة المنحوس ورءوس أربعة من أبنائه المشئومين ورءوس ثلاثين من خيرة أمرائه . وألقوا بهم أذلاء عند سنبك حصانى . فأديت الشكر لله أمامهم ، وقلت : ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾ . منحت حكم الولاية المذكورة لأحد أقربائه من الأصدقاء ، ممن لا يدخرون وسعًا فى بذل الغالى والنفيس فى خدمة حضرتى ، صاحب السعادة ملاذ الإيالة عضد الدولة والدين ، على بك ابن شهسوار دامت معاليه . ومن هناك توجهت إلى قيصرية ، وسأعود إن شاء الله عن قريب إلى القسطنطينية المحروسة .

أرسلت أحد عبيدى قدوة الأماجد والأماثل ، كبير الذواقة زيد مجده ، لكى يخبركم بهذه البشرى البهية والنصرة النسية . وعند وصوله إليك ، اشكر ربك وانشر البهجة والسرور . اقرأ رسالة الفتوح السلطانية هذه على رءوس الاشهاد افتح أبواب البهجة أمام وجوه عامة الناس . واجتهد فى الغدو والآصال بالدعاء لرفعة قدرى وجاهى . تحريرًا فى أواسط شهر جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين وتسعمائة .

بمدينة قيصرية[1]

---

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٥٧١أ - ٥٧٢أ .

(٢٧)

[ورقة ٥٧٣ ظهر]

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله فاتح أبواب النصرة على وجوه المؤمنين وقامع أبنية الظلمة والباغين الذين هم كانوا إخوان الشياطين ، وقاهر [ورقة ٥٧٤ وجه] من يترك حجته الظاهرة وناصر من يسلك محجته الباهرة وعامر من يعمر العالم بالعدل والإحسان ودامر من سفك دماء بنى آدم بالظلم والعدوان قدم جبَروته ومعظم ملكوته لا مرد لوارد قضائه ولا مفر عن نازل بلائه كل أمير فى قبضة قدرته أسير وكل عسير مع بسطة رحمته يسير يدور بحكمه الفلك الداير ويسير بأمره الكوكب الساير الإله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين والصلاة على من دعى الخلق إلى المنهج القويم وهداهم إلى الصراط المستقيم بعد ماكانوا متورطين فى مهلكة الجهالة متخبطين فى هواة الضلالة بعينون الرفضة وأصحاب الطغيان ويقبعون الهمزة وأحزاب الشيطان ، فبلغ لرسالة وبيّن الدلالة وأظهر شعار الدين حتى اهتدوا بأنواره وأوضح منار اليقين حتى اقتدوا بآثاره وانهدم بظهوره رواق دولة الأكاسر من الإعجام واتسع بجودة نطاق ملة الإسلام محمد سيد البشر والشفيع المشفع فى المحشر وعلى آله مصابيح الظلم ومفاتيح الحكم الذين أذهب الله عنهم الرجس وتطهرهم تطهيرًا ثم نحمد ونشكر حمدًا يوافى كرمه وشكرًا يكافى نعمه على ما منّ الله تعالى علينا ببركات الأدعية الصالحة والهمم العالية للسلطانى الأعظمى ، الأكرمى الأمجدى ، المجدى العونى ، الغوثى الغياثى ، الممهدى المشيدى الأعدلى ، [ورقة ٥٧٤ ظهر] الأورعى ، ظهير الإسلام والمسلمين حامى خدام الحرمين الشريفين أسوة الملوك والخواقين معين الغزاة والمجاهدين ، نصير أمير المؤمنين الذى قصرت عن تعداد أوصافه عقول العقلاء وكلت عن ذكر شمائله ألسنة البلغاء مزين سرير القاهرة بوجوده وجوده ومشيد بنيان السلطنة بصفوف جنوده أدامه

الله فى دولة لا تنهدم دارها وشوكة لا تنفصم آثارها ونعمة لا يطرى عليها زوال وسعادة لا يقع فيها اختلال من الفتوحات الواقعة فى شهرين من هذه السنة بل فى أحد عشر شهرًا من الحولين أى بعد مراجعتنا من فتح العجم إلى أعظم بلادنا أماسية حماها الله مع سائر البلاد الإسلامية عن كل البلية ووقوفنا فيها إلى آخر الشتاء توجهنا متوكلاً على الله تعالى ومستظهرًا بمعجزات رسوله محمد ﷺ ومستمدًا من أرواح أصحابه وأولياء الدين رضوان الله عليهم أجمعين مع عساكرنا المنصورة فى أول فصل الربيع يوم الخميس الخامس من شهر ربيع الأول أولاً إلى قلعة كماخ التى كانت فى أيدى الرفضة الملاحدة لعاين الله عليهم ونزلنا عليها يوم السبت خامس شهر ربيع الآخر فشرعنا فى قلعها وقمعها مع القوارع الصعبة والمناجيق الشديدة وحاصرناها بجنود كثيرة وأقيال عديدة واشتعل نار القتال وتزلزل عن أقدام [ورقة ٥٧٥ وجه] أقدام الرجال التلال والجبال فصعق أهل تلك القلعة وتحير كمال الحيرة وامتلأ آذان المجاهدين بنداء نصر من الله وفتح قريب وابتهج قلوب الموحدين بأنواع المسرة من محض لطف الله الملك المجيب فلما حان وقت العصر تنسم رياح الظفر والنصر فصعد بعض من المبارزين على بروجها وهُدِىَ البادى إلى طريق الفوز والنجاة حين عروجها ونصب ألوية الفتح على قللها الشامخة وانهدم أكثر جدرانها الراسخة فدخل العساكر فيها صفًا صفًا ، وقرعوا أبواب بيوتها دكًا دكًا ، وأخرجوهم من مفازاتهم وفرقوا الآباء من بنيهم وبناتهم وأخذوا أموالهم وضربوا أعناقهم ﴿ أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ﴾ وبقية السيوف ﴿ لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون ﴾ ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ فطهرناها من هؤلاء الأرجاس الأنجاس وزيناها بالجمع والجماعة والناس وبنينا جدرانها بناء أحسن من الأول ورتبنا ذخائرها وما يحتاج إليه فيها بأتم وجه وأكمل ورجعنا بعد نصب الوالى إلى سيواس حماه الله ﴿ من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ﴾ وبعد الوصول إلى البلد المزبور عزمنا ثانيًا إلى بلاد ذو القدرية فصار مقدمة [ورقة ٥٧٥ ظهر]

الجيوش فى تلك الأيام أمير الأمراء الكرام بولاية روم ايلى والآن هو وزيرى ومشيرى الدستور الأعظم والوكيل المفخم ، نظام العالم مبارزًا للدول والدنيا والدين سنان باشا أدام الله اقباله وضاعف إجلاله فخرج يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من الشهر المسفور ، ووصل إلى العدو فى آخر الشهر المذكور ، وقام بالحرب وغلب عليهم بأشد الضرب فلما نزلنا يوم الأربعاء غرة جمادى الأولى بالعز والنصر على الكلاء الشهير بكوسكون فى وسط تلك المملكة قريبًا من الوضع الذى وقع فيه المحاربة ، ورد من فضل الله وتوفيقه مبشرًا منه إلينا منبئًا عن حصول المرام وانهزام الأعداء اللئام وآتيًا برأس رأس هؤلاء الطوائف أعنى علاء الدولة المقتول المخذول مع رءوس أبنائه وأمرائه قريبًا من خمسين كأنها رءوس الشياطين فقرأنا آية ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾ وأرسلنا من محض المسرة وفرط البشاشة رأس ذلك الأمير المخذول إلى ديوان القاهرة مصحوبًا بخدمة قدوة الأماجد والأكارم سيف الدين بيك زيد مجده ليكون أيضًا سببًا لنشاطكم وباعثًا لانبساطكم فالمأمول من مكارم أخلاقكم الحسنة ومحاسن ألطافكم المستحسنة أن تعلنوا هذا الفتح المبين فى الأقطار والأمصار من بلاد [ورقة ٥٧٥ وجه] الموحدين كما هو دأب الملوك والسلاطين ولا تنسونى من الدعاء الخير الذى نحن به فرحين ويكون معلومًا لدى خدمتكم المنيفة أنه قد رجعنا إلى القسطنطينية المحمية سالمًا وغانمًا ، وصممنا العزيمة فى السنة الآتية إلى تسخير البلاد الشرقية ودفع بقية السيوف من الرفضة القزلباشية خذلهم الله ودمرهم بعون الله الأزلى وتوفيقه الأبدى فالمرجو منكم ألا تلتفتوا بتضرعاتهم ولا تتقيدوا بسفسطاتهم ، وما عندهم من عقول أثر كلام المجانين لايعتبر وأن تعيدوا الرسول حسن الإعادة بعد أدائه مراسم الرسالة أدامكم الله وأبقاكم بالدولة والسعادة إلى يوم القيامة حرر فى يوم الثلاثاء الرابع من شهر جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين وتسعمائة .

بيوت قيصرية[١]

---

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٥٧٣ ب - ٥٧٦أ .

(٢٨)

[ورقة ٥٨٤ ظهر]

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين الحمد لله الذى أعز عبده ونصر جنده ليكون للعالمين نذيرًا وأيده بالتوفيق ليجعل له من لدنا سلطانًا نصيرًا وصير لمعان حسامه فى إزالة [ورقة ٥٨٥ وجه] الكفر ، وظلامه شمسًا وقمرًا منيرًا وجعل نقمته للأشرار مشبوبة ونعمته للأخيار مصبوبة ، فمن اعتصم بحبل مشايعته نال مناه ومن انتظم فى سلك متابعته حاز مبتغاه وصار من القوم الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنزن والصلاة والسلام على من اقتدينا بآثاره واهتدينا بأنواره محمد الذى منّ الله على المؤمنين به إذ بعث فيهم رسولاً أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون وعلى آله وأصحابه الذين هم قاموا لحماية الدين ونصرة الإسلام والمسلمين (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) وبعد فإنا أصدرنا هذه المفاوضة الشريفة مخبرة عن خلوص نيتنا والمكاتبة اللطيفة معربة عن صفاء طويتنا إلى الحضرة العلية الأكرمية الأفخمية الأعظمية ، الأعلمية الأعملية ، الأعدلية الأكملية ، الأكفلية الأفضلية العونية الغوثية ، وهو الذى شمل المحاسن كلها وجرت عليه المفاخر ذيلها وألقت لديه المعالى مقاليدها وأرجعت إليه المكارم أسانيدها حامى الحرمين المكرمين المحترمين المبجلين المعظمين ناصر الإسلام والمسلمين ظهير أمير المؤمنين ، لازالت خواطره الشريفة مسرورة ومواد ابتهاجها موفورة وأياديه مشكورة ومحاسنه مذكورة ، ولا خلا من عزة يتمهد أساسها ونعمة يتجدد لباسها وحشنة [ورقة ٥٨٥ ظهر] يرتفع شراعها ودولة يلتمع شعاعها ما سبح سمك وسبح ملك نهدى إليه سلامًا يجمع القلوب على حبه وولائه ويرفع الكروب عن عراض الصدور بطلائع صدقه وصفائه وثناء يرتفع غياهب التناكر عن مجالس الأنس بنوره وسنائه ويتضح المناهج القويمة والمعارج المستقيمة إلى

منازل القدس بتلألأ نجوم سمائه وتبدى لخواطره الكريمة أن علمه الشريف محيط بأنا لما عدنا من فتح الكماخ مصحوبين بالسلامة محفوفين بالعزة والكرامة ، بلغ الشتاء وبرد الهواء وجاءت السماء وتواصلت الأنواء وتواترت الأنداء ، واختلت مناوبة القتال وانحلت معاقد النزال فقلنا نستريح هذه الشنوة ونستكمل الخطوة ونواصل الغزوة وييمن صدق هذه العزيمة والاستمرار فى الجهاد على الشيمة نزلنا بدار سلطنتنا فأقمنا فيها بدولة وارية الزياد عالية العماد مطمئنة المهاد راسية الأوتاد إلى أن جاء الربيع وعرض نسايم الأسحار صفوف الأزهار على مراكب الأشجار وشارب النبت قد طر وهارب البرد قد فر فتقاضى عزيم عزمنا بإعلاء كلمة الموحدين على الملحدين وتثبيت قلوب المتقين على اليقين وهذه العزيمة التى أصبحت بها كلمة الإيمان منتشرة ، ووجوه المسلمين بها ضاحكة مستبشرة ووجوه المشركين ﴿ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ [ورقة ٥٨٦ وجه] جهزنا الفيالق ونشرنا البيارق وحسرنا الرواعد والبوارق ، وترنحت الصواهل وتريحت الذوايل ، فضربت الكوس وسمت النفوس ، فعبرنا البحر والنصر مقبل والظفر متهلل والميمنة والميسرة باليمن ممتدتان والقلب له من التأييد والتمكين جناحان وتوجهنا إلى الديار الشرقية فحين مجيئنا بلدة آفشهر وقيت عن الآفة والقهر ظهر شيء من الاتفاقات النادرة وإمارات السعد الباهرة وورد البشير من قبل ليث خادر وأسد زائر وهو أمير الأمراء الكرام بالديار البكرية محمد صانه عن المكاره الملك الأحد ، فأخبر أن إسماعيل المخذول بعد انفتاح الآمد المحروسة والخربوت وسائر قلاعها وجبالها جمع جمًا كثيرًا ، كان مقداره عشرين ألفًا أو يزيدون ، وجعل لهم قسيم رأسه المشهور بقراخان أميرًا وهو مقدم جيشه فايق على أقرانه وأرسل معه أمير البغداد وأمير الهمدان وأمير الحله وأمير السلطانية ، وأمير الكلهور ، وأمير السعيد ، وأمير الكشان والغزوين والأمير المزبور مع بعض الأمراء من العساكر المنصورة انقض عليهم انقضاض البزاة على البغاث وصدهم عن الانبثاث والانبعاث فلما رأتهم الطائفة المذكورة رتبوا الجبال وطلبوا الفرسان وأقاموا الصفوف على الموازاة قلبًا كمجتمع الليل وميمنة كمندفع السيل

وميسرة مشحونة بأشاهب الخيل وهاج الفريقان بعضهم فى بعض كالجراد [ورقة ٥٨٦ ظهر] المنتشر ضربًا يزيل الرءوس عن العوانق ويبين الزنود عن المرافق وطعنًا يهتك ودايع الصدور ويرد مشارق الغموم والسموم ورشقًا يصيب شواكل الأبصار ويطلب وراء القفار مضجع القرار واشتد الحرب حتى تقلصت الشفاه وتغضنت الجباه وتقطعت له الأنفاس وتحسرت الفرسان والفراس واغبرت الآفاق واحمرت الحماليق والأصداق وجلت دياجير النقع من لمعان الحديد السوافر الوافرة واتصلت للموحدين من الملائكة المسومين امداد النصرة المتواترة ، فهبت نسمات الفتح المبين عن مهب ﴿ وأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ خرقوا حجاب الصف وفرقوا شمل الجمع الملتف حتى زلت أقدامهم عن مقارها وتهاوت الرقاب عن مزارّها وقضت الرماح من قلب العدو أوطارها ، وبردت المشرفيات أوارها ، خذل الضلال ونصر الهدى ، فانقلب الضلال خاسئًا حسيرًا ونكص على عقبيه ملومًا مدحورًا فصمم الأمراء المذكورة العزيمة على الهزيمة فطاروا بين الأقطار كل مطار وسقتهم ساقية الدمار والإِدبار ، متطرق الفرق فيالقهم وتلقاهم الفرسان بالسيف فحلوا عاتقهم وفرشت القتلى فى الوهاد والجبال وقيدت الأسارى فى الأصفاد والحبال فلم يبق منهم بعدها إثنان عند تنزل الأقران [ورقة ٥٨٧ وجه] وتناوب الضراب والطعان ﴿ ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ وكذلك يفعل الله بالظالمين لم ينج منهم إلا أقل قليل أسروا بأسرهم ، فذاقوا وبال أمرهم ﴿ جزاء بما كانوا يعملون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ فلما وصل إلينا أخبار هذه الفتوح المترادفة والسعادات المتضاعفة برءوس الأمراء المذكورة التى هى بفضل الله تعالى ، ومنه للفتوح سائقة ولا مثالها قائدة وسابقة وجب أن نرد بها البشرى والبشر إلى المجلس السامى أسماء الله عز وعلا ليسر خواطرهم الشريفة وقلوبهم المنيفة ويجدد المودة الأزلية والمحبة الأزلية فلذلك جهزنا الأميرى الكبيرى المقربى من خواص حضرتنا حسن رزقت سلامته مع رأس قراجان وحملناه من السلام ما هو أزكى من عرف الورد ونشر الخزام فالمترقب من الألطاف العميمة أن ينظر بعيون الإِكرام والعزة

والاحترام ، ويكثر فى تكريمه وتبجيله وتعظيمه وتكريمه والله تعالى متعكم بنيل السعادات وبلغكم أقصى الأمانى والمرادات تحريرًا فى أواخر شهر رمضان المبارك سنة إحدى وعشرين وتسعمائة .

بمقام أدرنة[١]

---

(١) أحمد فريدون : المرجع السابق ، ورقة ٥٨٤ ب - ٥٨٧أ .

الوثقة الأولى :

دفتر لبيان الذين جاءوا لطلب الأمان من مقدمى الألوف وأمراء الأربعينات والعشرات :

مقدمو ألوف	أمراء أربعينات	أمراء عشرات	جنود خاصكية	جنود	المجموع
عدد (٥)	عدد (١٢)	عدد (٢٤)	عدد (١٠٢)	عدد (٤٦٢)	(٦٠٧)
		عدد (٢) من العرب			

بيان بالمرافقين لجان بردى :

مقدم ألف	أمير أربعين	أمير عشرة	خدم جان بردى الذين يتسلمون مرتباتهم من السلطان	نائب جان بردى
عدد (١)	عدد (١)	عدد (٨)	عدد (٦)	عدد (١)

العاغملون فى السراى :

جنود خاصكية	جنود	
عدد (٢١)	عدد (٧٦)	لم يكن الأمير محمد يأخذ مرتبا من السلطان ، وكان مرافقًا لجان بردى منذ صغره

تبعه جان بردى ... عدد (١١٥)

سجناء القلعة ..... عدد (٦٠٧)

المجموع .... (٧٢٢)

الوثيقة الثانية :

دفتر لبيان البكوات الذين جاءوا مع جان بردى الغزالى :

مقدم ألف	أمير أربعين	أمير عشرة	
قيتى بك	أمير رشيد	قرجه بك	
أمير عشرة	أمير عشرة	أمير عشرة	أمير عشرة
أردوش	خوشقدم	إلى قانصو	
أمير عشرة	أمير عشرة	أمير عشرة	
تليننم	مامى	قانصو	

خدم جان بردى الغزالى الذين يأخذون مرتباتهم من السلطان وقد ذكروا آنفًا وهم :

قابيردى جان پولد تمور ارصلان اشبك اوزربك

ونائبه محمود لم يكن الأمير محمد يأخذ مرتبًا من السلطان ، وكان مرافقًا لجان بردى منذ صغره

بيان بخدم السلطان الذين قدموا مع جان بردى من العاملين فى السراى :

سبعة وتسعون

واحد وعشرون منهم من الجنود الخاصكية

خمسون من خدم جان بردى يعملون بالسراى ولا يأخذون مرتبات من السلطان

الوثيقة الثالثة :

قايتباى	ازدمور	قراجه
مقدم ألف	أمير رشيد	أمير عشرة
وردبش	خوشقدم	يلباى
أمير عشرة	أمير عشرة	أمير عشرة
قانصوه	ماماى	قانصوه
أمير عشرة	أمير عشرة	أمير عشرة
تنم		
أمير عشرة[١]		

(١) أصل هذه الوثائق الثلاث محفوظ فى أرشيف طوبقبو سراى ، تحت رقم تعتبر الوثيقة الثالثة تكرارًا لجزء من الوثيقة الثانية ، ولا أعرف لذلك سببًا .

(٣٠)
الرسالة التى أرسلها
السلطان سليم إلى شريف الكعبة

[ورقة ١٤٣ ب]

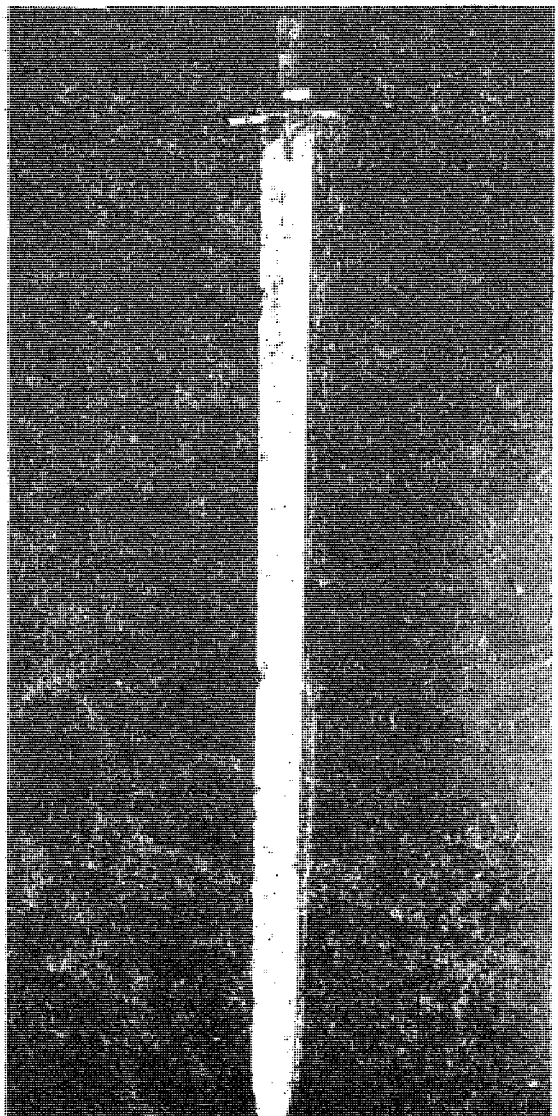
وبعد فقد وردت المطالبة الطيبة . مقرونة بالتطيب بطيب النية الخالصة وصعدت المفاوضة الفائضة . بفيوض صفاء العقيدة المتخلصة إلى موارد أبوابنا العلية السلطانية . ومصاعد أعتابنا السمية الخاقانية . من مقام الشريف الأشرفى الأصيلى . العريقى الأرفعى الأورعى ، الأعدلى الأكملى المكملى ، النصيرى النصرى المؤيدى ، المؤبدى الجهادى ، الرباطى السيفى الدينى . حاوى مناقب سيادات السادات . وثاوى مثاوى المراتب باستحقاق ذاته المحبوبة على صفات السعادات غصن دوحة حديقة حقيقة النبوة . فرع أصل الشجرة الرسالة والمتأصل بأصالة النبوية . سيد الأشراف فى الأكناف . قاعد مقاعد صدق الإمارة بين أمراء الأطراف . السيد الشريف . زين الدين بركات . بن السيد الشريف محمد لايزال مظهرًا لظهور عناية الله خفى الألطاف . صحبة الجناب صاحب الانتحاب الخلفى الشرفى الألطف الحسيبى النسبى الأعربى الأميرى . الكبيرى الأبركى الأسعدى . الأرشدى الأمجدى صالح مصالح أمور المسلمين فاتح مغاليق معضلات ثغور المسلمين . المخصوص المستثنى باستثناء إلا المودة فى القربى . فى منصوص كلام الله تعالى الأمير الشريف الخليف محمد أبو نماى لا برح سالكًا مسالك أسلافه فى مهام القوى والنحيف . فاستسعدت بسعادة مطالعتنا الشريفة . وتيمنت بميامن ملاطفتنا اللطيفة . وأحاط محيط علمنا الكريم بما فى أجواف أصداف الإخلاص ومقولات مقالات الاختصاص لسدتنا السديدة العقيدة فيها العوايد العديدة . وصارت كلها منظومة بمناظم حسن القبول . ومعلومة بمعالم العناية بالفروع والأصول . وفهم انعطافكم إلى الامتثال بالأمر المعطوف على أطيعوا الله وأطيعوا الرسول . فهذا هو الأمر المرمى

من مرايا أحاسن إخلاصكم المرضية والمروى من مزايا محاسن وفاقكم الرضية [ورقة ١٤٤أ] فأدام الله الجناب العالى . على هذا الشيم الشماءِ بالتوالى . ما تعاقب الأيام والليالى . والجناب الحلفى الشريف المشار إليه أدام الله توفيقه . وأقام على أقامة الحق تحقيقه . لما وصل إلى مواقفنا الرفيعة . وقبل لدى عتبتنا المنيعة . أمرنا بأن يتلقى كمال الالتفات . وأن يتلقى بالتقاءِ غاية المراعات من موايد عواطنا الجليلة . وعوايد عوارفنا الجزيلة . وأن يعامل بعناية التبجيل والإكرام . ونهاية التفصل والاحترام . كما هو كرام العادات وعادات الكرام . وبعد أن راعيناه بالرعاية الكاملة الوافرة الأقسام . تلاطمت فى حقه أمواج بحار عناياتنا الزاخرة . وتزاحمت فى شأنه أفواج خياراتنا المتكاثرة . فشرفناه بتشاريف الخلع الحليقة . بأشارف الخليفة . وخصصناه بخصائص النعم الحقيقة . لأهالى تصادق على الحقيقة . وأذنناه إذنًا مقرونًا لوفرت التعقلات العالية وأجزناه إجازة معلنة بكثرة التصدقات العالية . ورسمنا له بأن يكون قاعد إمارتكم العتيقة . ونايبًا فى مقام إيالتكم على الطريقة الأنيقة . كما كان فوض إليه المقر الشريفى . سالفًا وقلده بطيب احناه آنفًا . وأمرناه بأن يكون أميرًا بمكة المشرفة المنورة المطهرة ونواحيها وضواحيها وتوابعها . ولواحقها المعطرات ولكل موضع كان الجناب الكريم حاكمًا وضابطًا فيه بمراسم السلاطين القديمة . وأصدرنا من بابنا العالى وموقفنا المتعالى منشورًا شريفًا ومرسومًا رصيفًا متضمنًا بما فيه من المضمون المنظوم . كاللؤلؤ المكنون على ما قرر فى كتابنا الكريم وخطابنا القويمة فأوصله الله إلى المواصل المستقر المحرم وأنزله إلى منازل المقر المحترم مع السلامة البدنية والروحانية . بالعنايات الربانية وهمتنا السلطانية . إن شاء الله تعالى[١] .

---

(١) حلال زاده قوجه نشانجى مصطفى : المرحع السابق ، ورقة ١٤٣ ب ، ١٤٤أ .

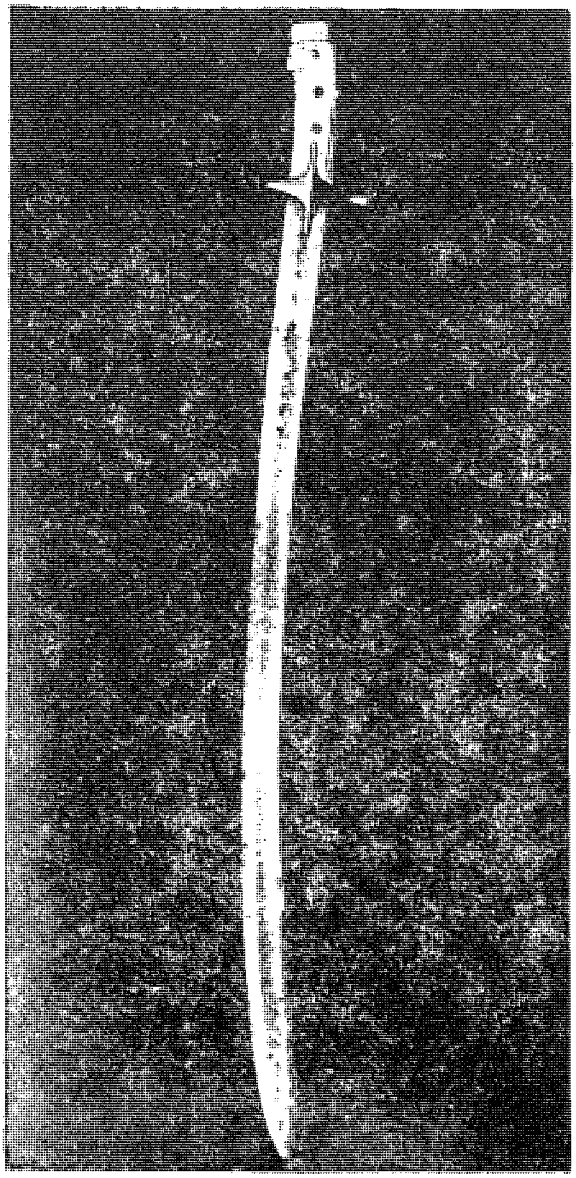
اللوحـــــــات



لوحة رقم (١)

سيف قايتباي محفوظ في متحف طوبقبو

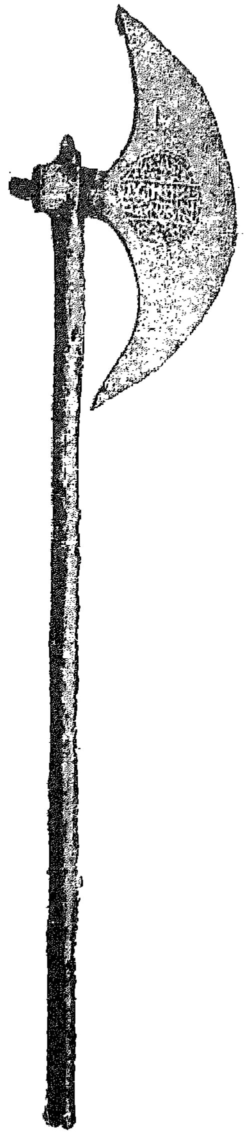
سرايي باستانبول، تحت رقم 86-1



لوحة رقم (٢)

سيف آخر لقايتباى محفوظ فى متحف طوپقپو

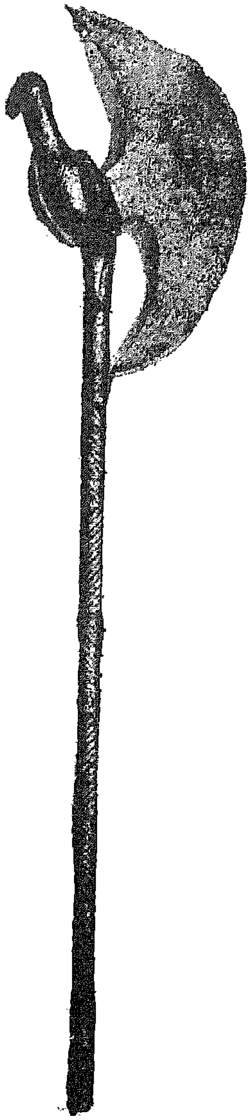
سرايى باستانبول ، تحت رقم 181-1



لوحة رقم (٣)

بلطة الغورى محفوظة فى متحف طوپقپو

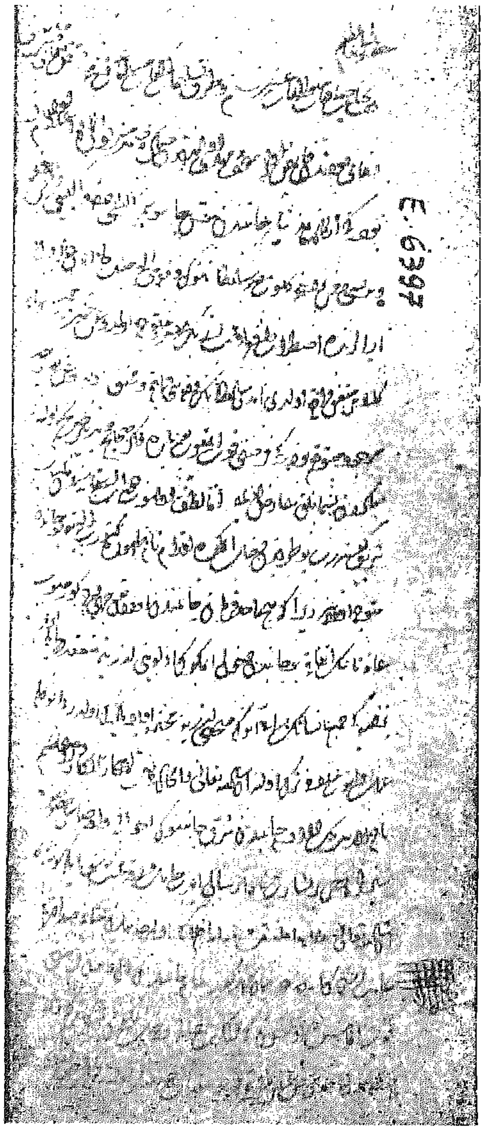
سرايى باستانبول، تحت رقم 1-2347



لوحة رقم (٤)

بلطة أخرى للغورى محفوظة فى متحف طوپقپو

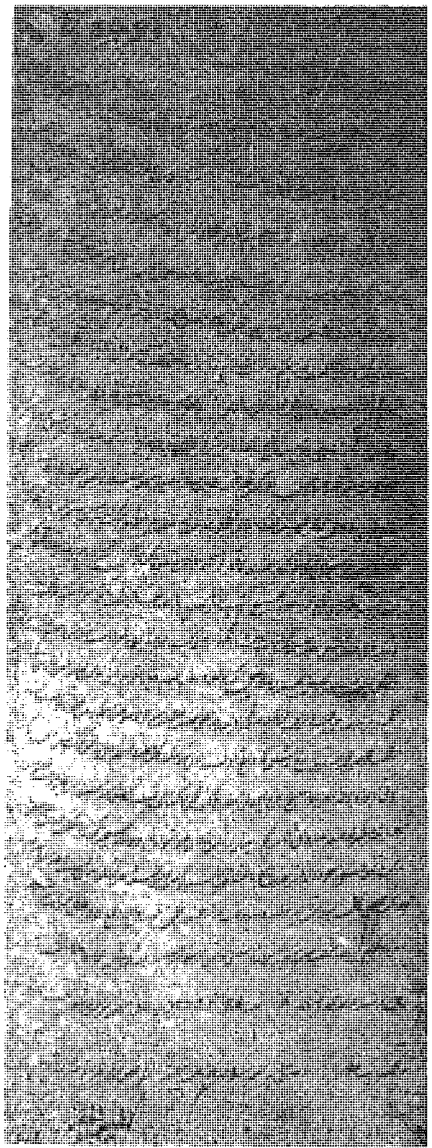
سرايى باستانبول ، تحت رقم 2357-1



لوحة رقم (٥)

وثيقة محفوظة فى أرشيف متحف طوپقپو

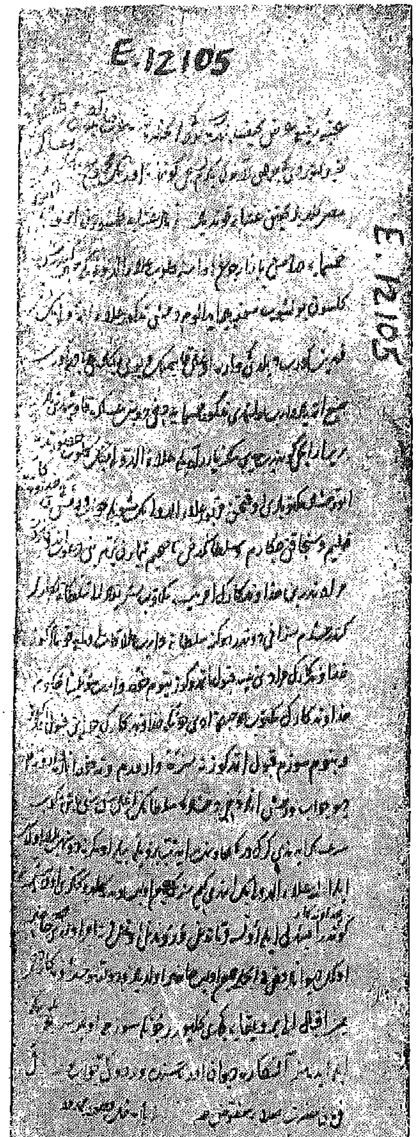
سرايى باستانبول، تحت رقم E,6397



لوحة رقم (٦)

وثيقة محفوظة فى أرشيف طويقبو سرايى

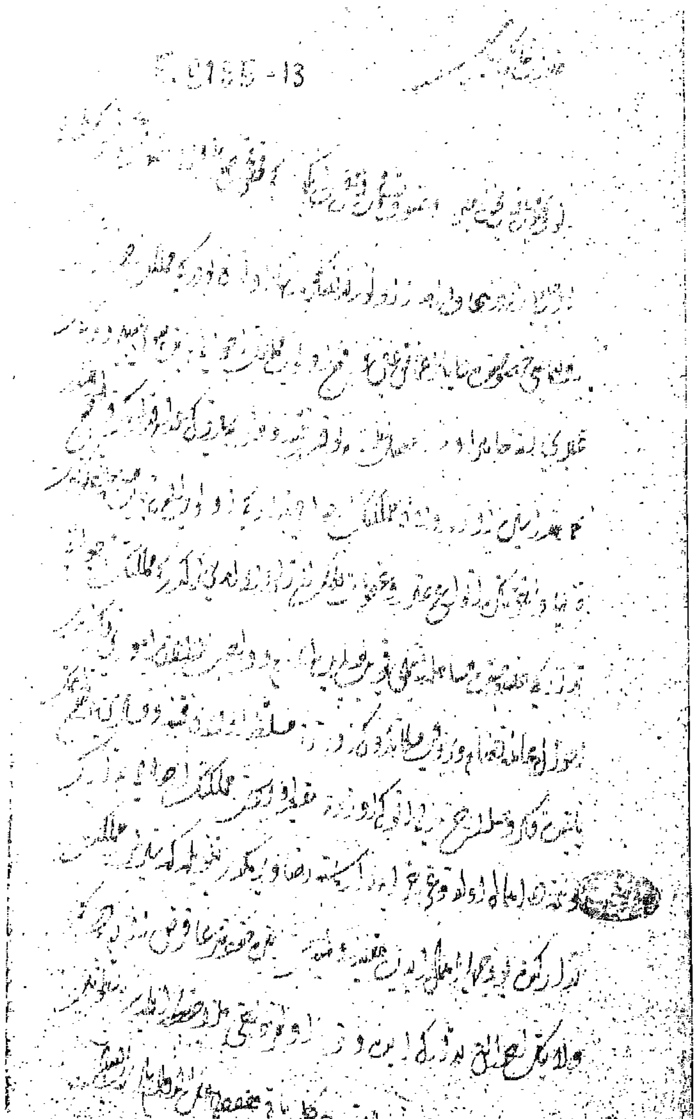
باستانبول ، تحت رقم E.6483


E.12105

لوحة رقم (٧)

وثيقة محفوظة فى أرشيف طوپقپو سرايى

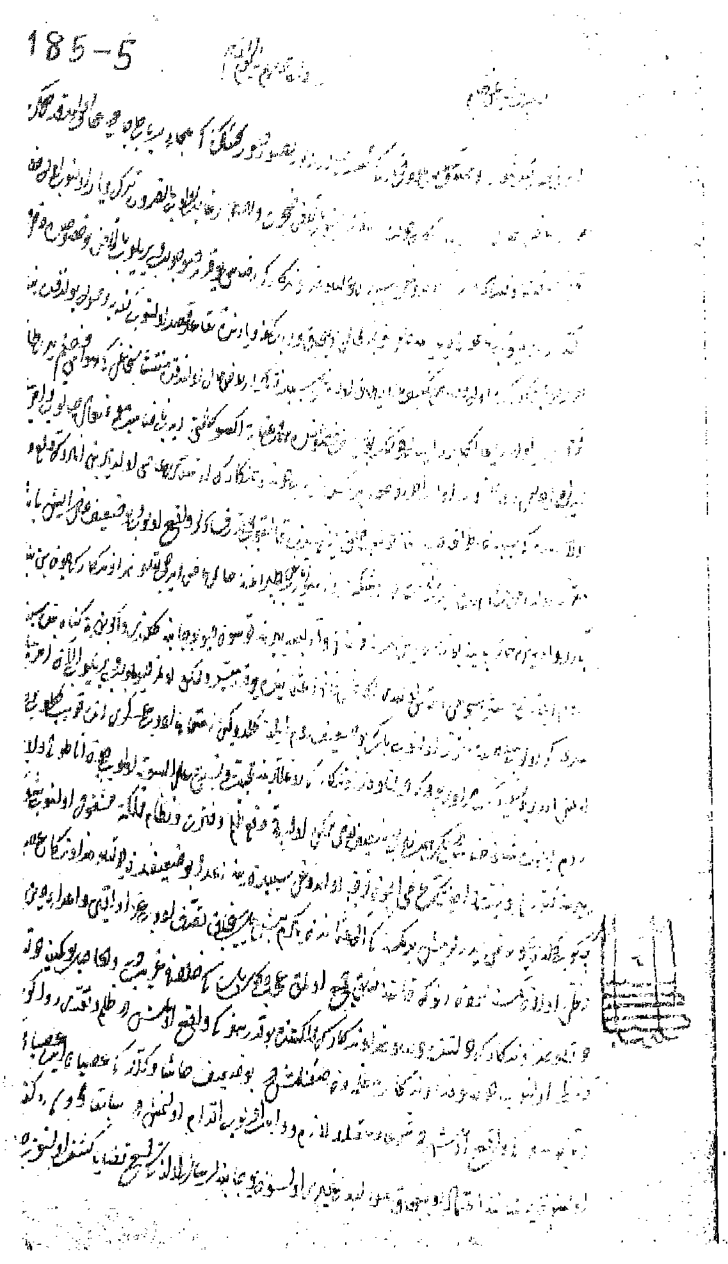
باستانبول ، تحت رقم E.12105



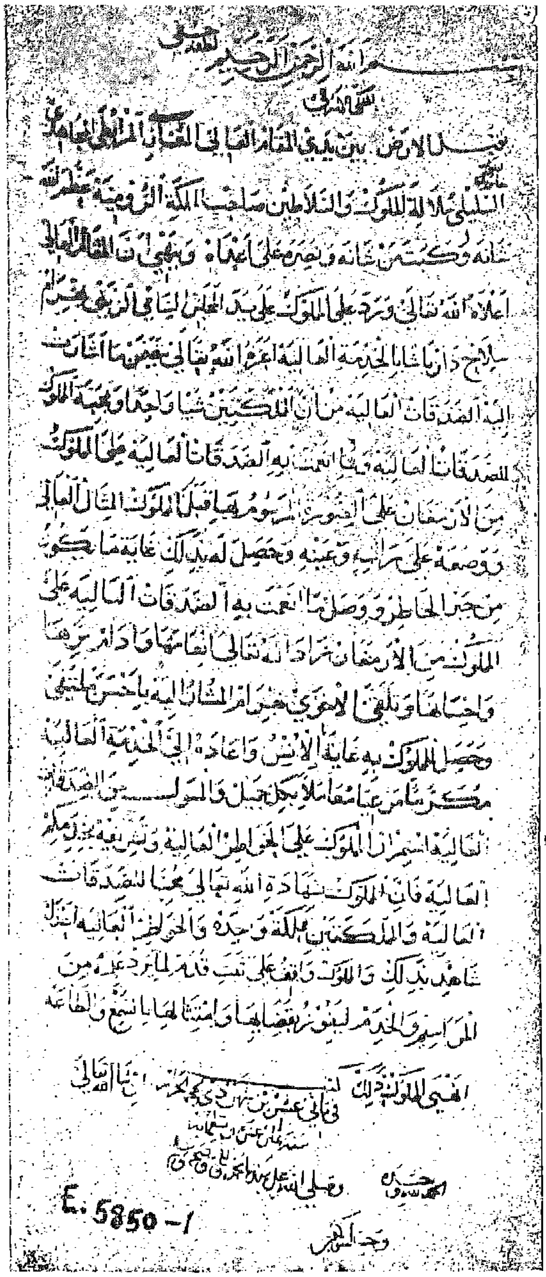
لوحة رقم (٨)

وثيقة محفوظة فى أرشيف طوبقبو سرايى

باستانبول، تحت رقم E.6185-13



لوحة رقم (٩)
وثيقة محفوظة فى أرشيف طوپقپو سرايى
باستانبول ، تحت رقم E.6185-5


بسم الله الرحمن الرحيم

يقبل الأرض بين يدي المقام العالي [illegible]

السلطاني ملاذ الملوك والسلاطين صاحب المملكة الرومية عظم الله

شأنه وكبت من شانه ونصره على أعدائه وينهي أن المثال العالي

أعلاه الله تعالى ورد على المملوك على يد المجلس السامي [illegible]

سلاح دار باشا الخدمة العالية أعزه الله تعالى يتضمن ما اشتملت

إليه الصدقات العالية من أن المملوكين [illegible] ومحبة المملوك

للصدقات العالية وما أنعمت به الصدقات العالية على المملوك

من الأرمغان على الفور [illegible] قبل المملوك المثال العالي

ووضعه على رأسه وعينه وحصل له بذلك غاية ما يكون

من جبر الخاطر ووصل ما أنعمت به الصدقات العالية على

المملوك من الأرمغان أدام الله تعالى إنعامها وأدام برها

وإحسانها وتلقى [illegible] المثال الشريف بأحسن التلقي

وحصل للمملوك به غاية الأنس وأعاده إلى الخدمة العالية

[illegible] والمملوك يسأل من الصدقات

العالية استمرار المملوك على الخواطر العالية وتشريفه بمراسيمها

العالية فإن المملوك [illegible] أدام الله تعالى [illegible] للصدقات

العالية والمملوكين [illegible] والخواطر العالية [illegible]

شاهد بذلك والمملوك واقف على [illegible]

المراسيم والخدم ليتشرف بقضائها وامتثالها بالسمع والطاعة

أنهى المملوك ذلك [illegible] إن شاء الله تعالى

في ثاني عشر [illegible] ذي الحجة [illegible]

E. 5850 - 1

لوحة رقم (١٠)

وثيقة محفوظة فى أرشيف طوبقپو سرايى

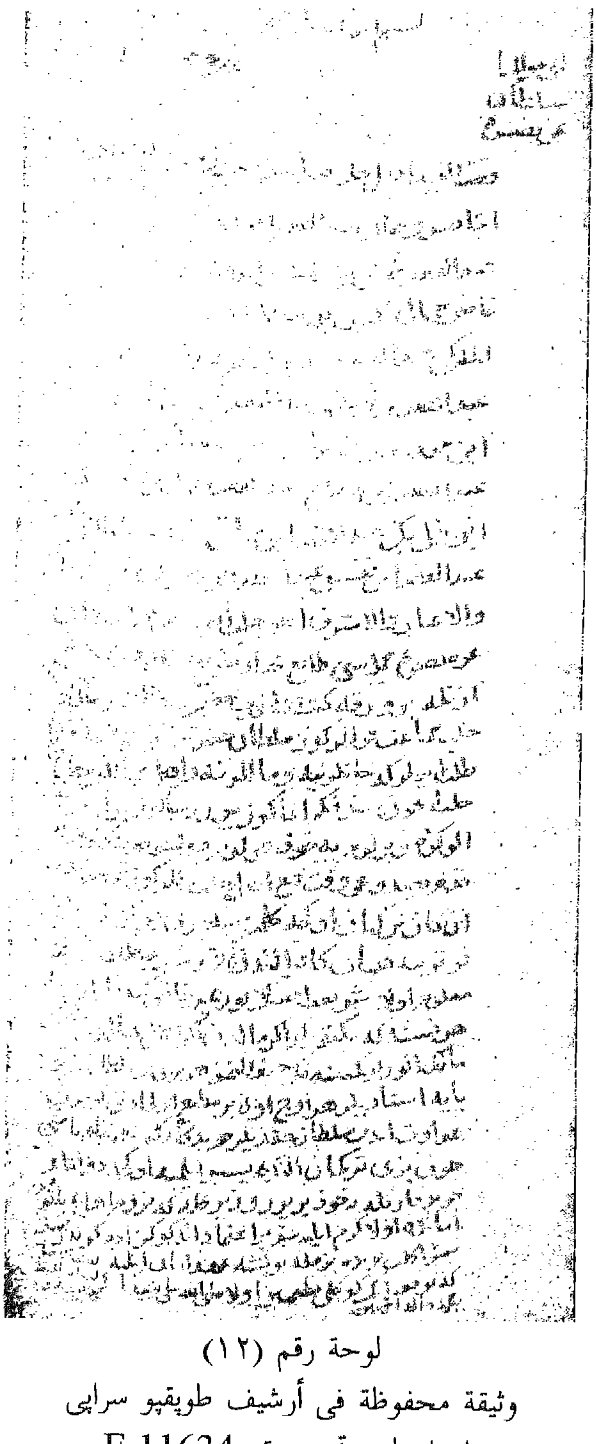
باستانبول، تحت رقم E.5850-1



لوحة رقم (١١)

وثيقة محفوظة فى أرشيف طوبقبو سرايى

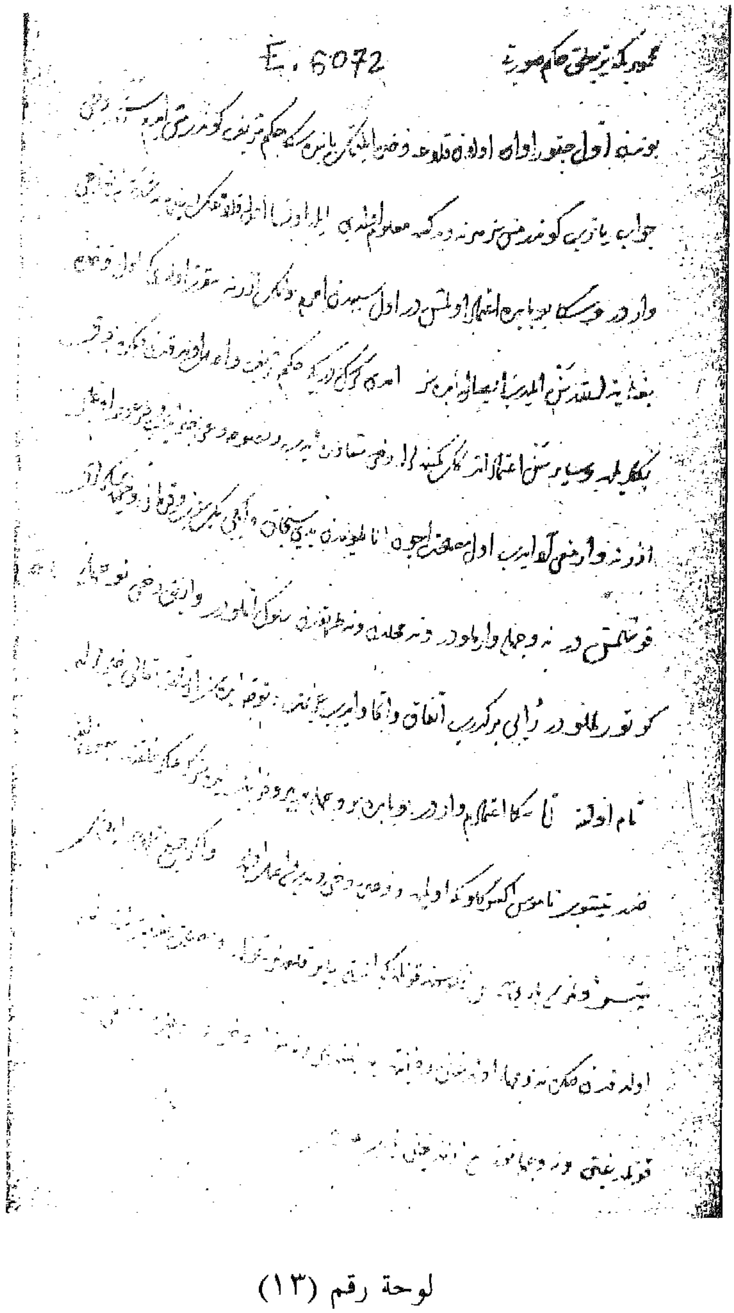
باستانبول، تحت رقم E.5552



لوحة رقم (١٢)

وثيقة محفوظة في أرشيف طوپقپو سرايى

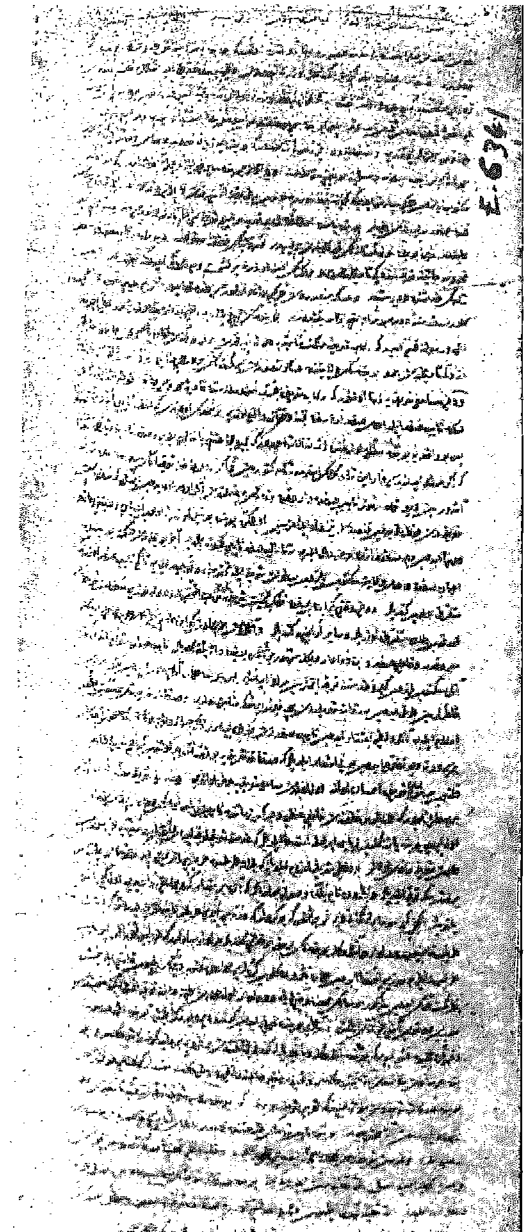
باستانبول، تحت رقم E.11634


E. 6072

لوحة رقم (١٣)

وثيقة محفوظة فى أرشيف طوبقبو سرايى

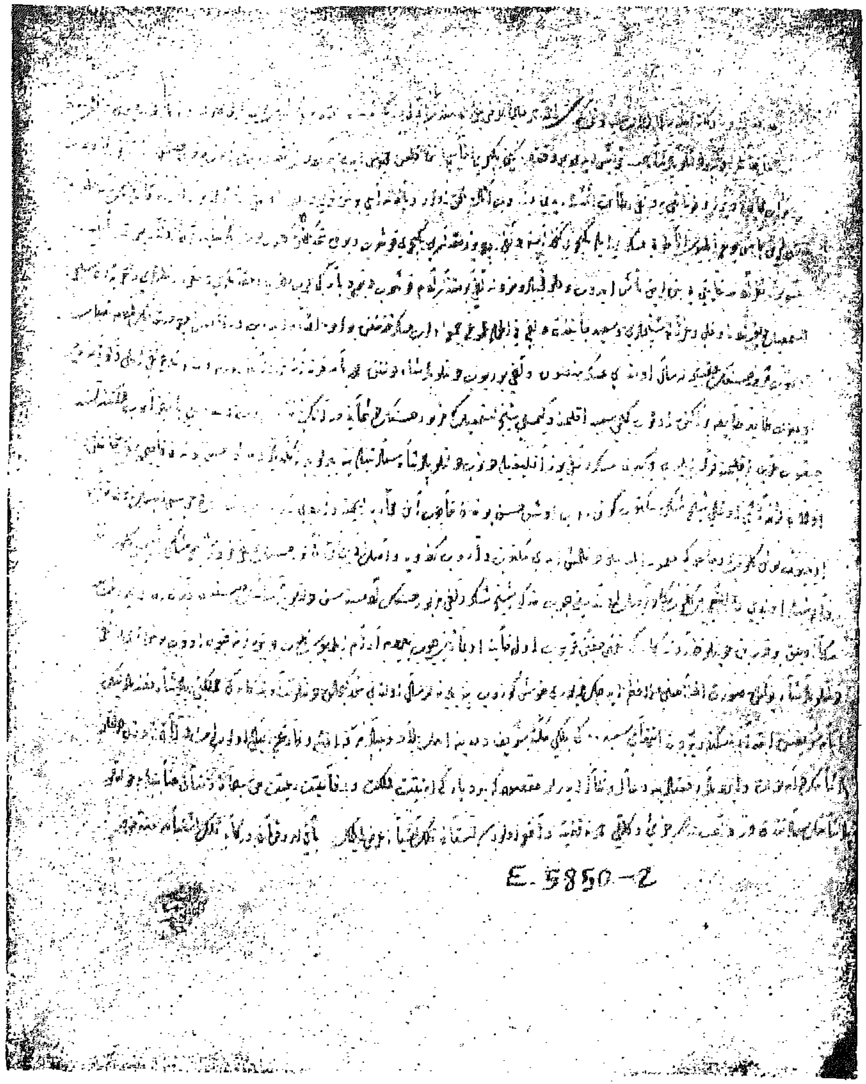
باستانبول ، تحت رقم E.6072



لوحة رقم (١٤)

وثيقة محفوظة فى أرشيف طوبقبو سرايى

باستانبول ، تحت رقم E.6341 A



لوحة رقم (١٥)

وثيقة محفوظة فى أرشيف طوبقبو سرايى

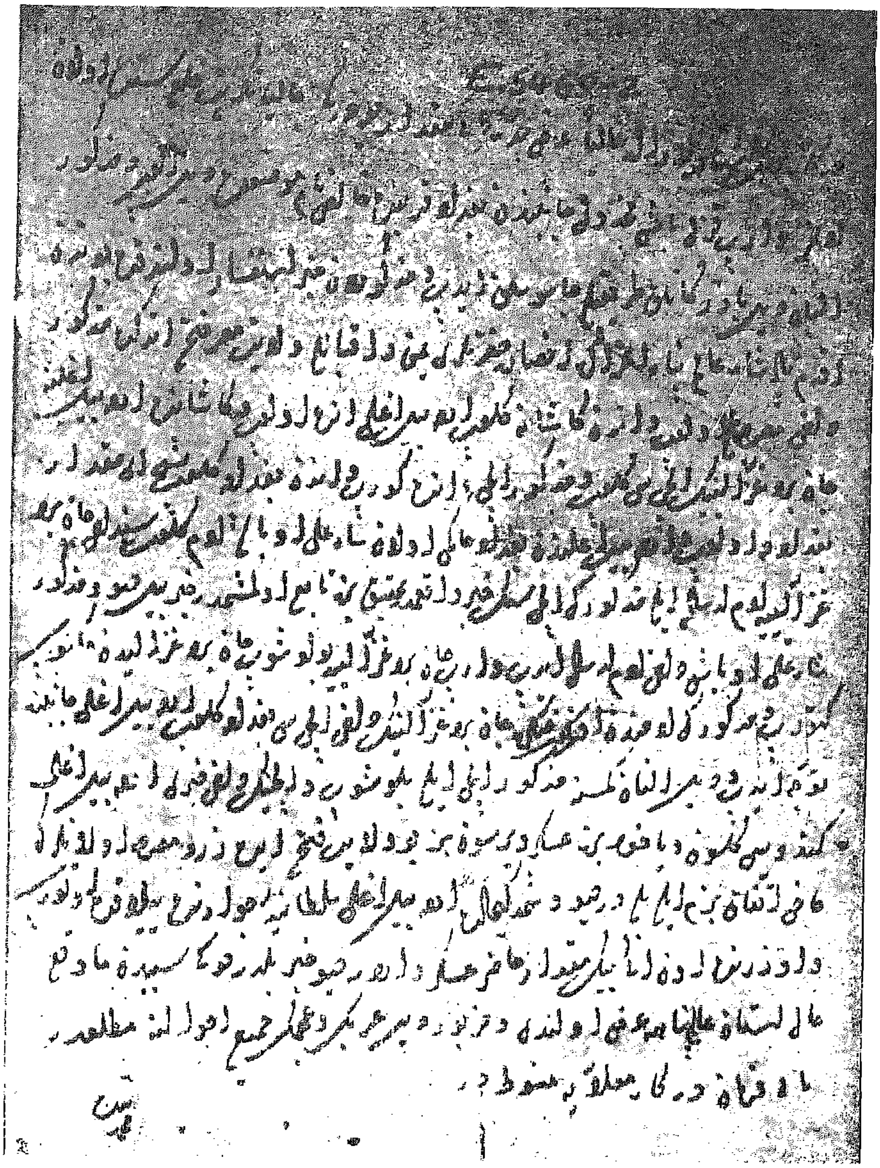
باستانبول ، تحت رقم E.5850-2


E. 5594

لوحة رقم (١٦)

وثيقة محفوظة فى أرشيف طويقپو سرايى

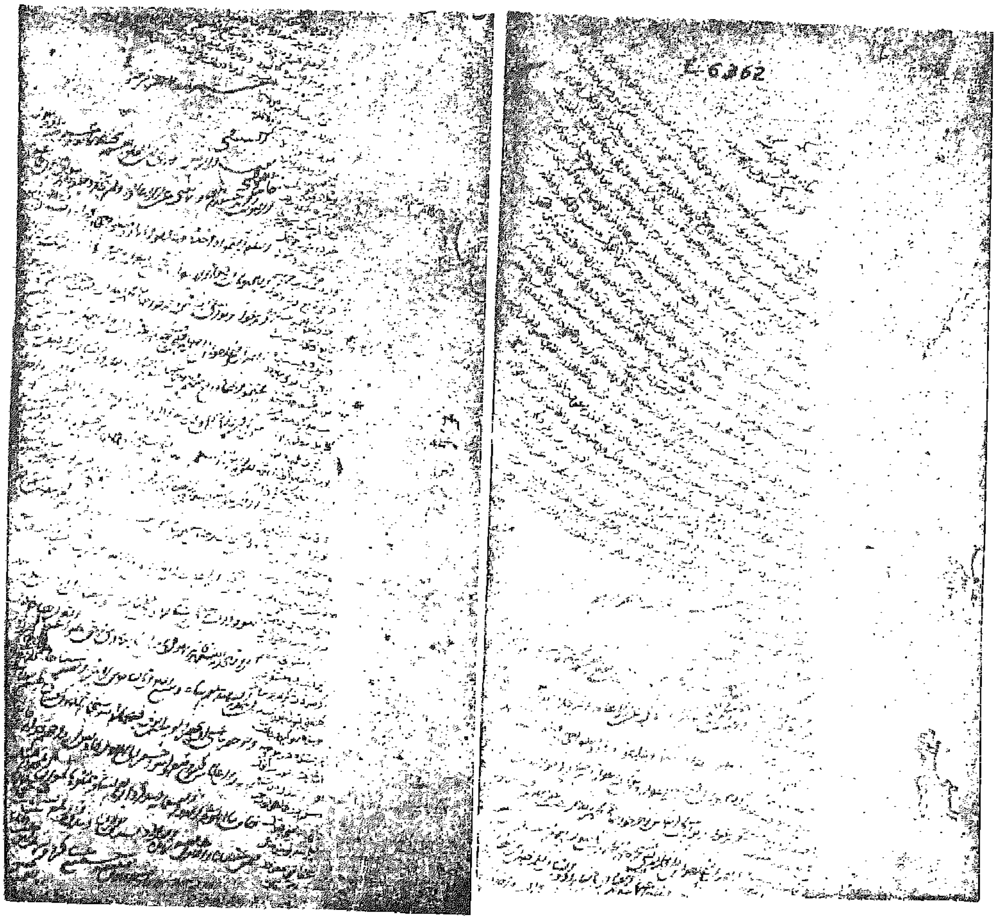
باستانبول ، تحت رقم E.5594



لوحة رقم (١٧)

وثيقة محفوظة فى أرشيف طوبقبو سرايى

باستانبول ، تحت رقم E.5469-2


E.6362

لوحة رقم (١٨)

وثيقة محفوظة فى أرشيف طوبقبو سرايى

باستانبول، تحت رقم E.6362

المصـادر

(١) الوثائق :

وثائق تركية وعربية محفوظة فى أرشيف طوپقپو سرايى باستانبول تتضمن فرمانات وأوامر ومراسلات وتقارير جواسيس

(٢) المخطوطات :

(أ) المخطوطات العربية :

١ - ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ،ج ٢، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ١٢٠٩ تاريخ تيمور .

٢ - الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ١١٦ تاريخ م .

٣ - السخاوى : التبر المسبوك ذيل السلوك ، مخطوط بمكتبة أيا صوفيا باستانبول ، رقم . ٣١١٣

٤ - العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ١٥٨٤ تاريخ .

٥ - منجم باشى أحمد دده (ت ١١١٣هـ) : صحايف الأخبار فى وقائع الأعصار ، ج ٢، مخطوط بمكتبة طوپقپو سرايى ، رقم ا. . ٢٩٥٤

(ب) المخطوطات التركية :

١ - أحمد فريدون : (ت ٩٩١هـ ، ١٥٨٣م) : منشآت الملوك والسلاطين ، مخطوط بمكتبة طوپقپو سرايى ،رقم R. ١٩٦٠.

٢ - اسحق بن إبراهيم : تاريخ سلطان سليم ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٧١ تاريخ تركى م ١١٧٣هـ .

٣ - جلال زاده قوجه نشانجى مصطفى : مآثر سليم خانى طاب ثراه ، مخطوط بمكتبة طوپقپو سرايى ، رقم . ٤١٥

٤ - حيدر چلبى : روزنامه حيدر چلبى . ضمن مخطوط برقم ع. ١٩٥٥ فى مكتبة طوپقپو سرايى ، بعنوان : سلطان سليمك ايران سفرينه دائر مخابرات .

٥ - عبد الله رضوان : تاريخ مصر ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة ، برقم ٢٩٤٠ تا .

٦ - مترقجى نصوح : فتح نامه ء ديار عرب ، مخطوط وحيد فى مكتبة نور عثمانية فى استانبول ، رقم . ٤٠٨٧

٧ - محمد قورقود : وسيلة الأحباب بإيجاز تأليف ولد حركة الشوق لأرض الحجاز ، مخطوط بمكتبة أيا صوفيا ، برقم K . ٣٥٢٩.

٨ - مجهول المؤلف : تاريخ آل عثمان ، مخطوط بمكتبة طوپقپو سرايى ، برقم R. ١٠٩٩.

(٣) الكتب المطبوعة :

(أ) بالعربية :

١ - د .إبراهيم طرخان : مصر فى عصر المماليك **الجراكسة** الخرطوم ١٩٥٩

٢ - ابن إياس : (ت ٩٣٠هـ ، ١٥٢٤م) : بدائع الزهور (تحقيق محمد مصطفى) ج ٤، ٥ القاهرة : ١٩٦٠، ١٩٦١

٣ - ابن الحنبلى (ت ٩٧١هـ) : در الحبب فى تارسخ أعيان حلب ، ج ١، ٢ من القسم الأول (تحقيق محمود الفاخورى)

دمشق ١٩٧٢، ١٩٧٣

٤ - ابن زنبل : (ت ٩٦٠هـ ، ١٥٥٢م) : آخر المماليك « واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى » (تحقيق عبد المنعم عامر)

القاهرة : ١٩٦٢

٥ - ابن طولون : (ت ٩٥٣هـ ، ١٥٤٦م) : إعلام الورى (تحقيق عبد العظيم خطاب) القاهرة ١٩٧٣

٦ -مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ، القسم الثانى تحقيق محمد مصطفى القاهرة ١٩٦٤

٧ - د . أحمد السعيد سليمان : التيارات القومية والدينية فى تركيا المعاصرة القاهرة : ١٩٦١

٨ - د . بديع جمعة ، د . أحمد الخولى : تاريخ الصفويين وحضارتهم ج ١ القاهرة ١٩٧٦

٩ - د . سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ط ١

القاهرة ١٩٧٥

١٠ - السيد أحمد بن السيد زينى دحلان : الفتوحات الإسلامية ج ٢ القاهرة ١٣٢٣هـ

١١ - عبد الرحمن زكى : السيف فى الإسلام القاهرة ١٩٥٧

١٢ - د . عبد الكريم رافق : بلاد الشام ومصر ، من الفتح العثمانى

إلى حملة نابليون ط ٢ دمشق ١٩٦٨

١٣ – القلقشندى : صبح الأعشى القاهرة ١٩١٥

١٤ – د . محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ، فصلة فى المجلة التاريخية المصرية م ٤، ع ١، مايو ١٩٥١

١٥ – نعوم بك شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، ج٢، مصر ١٩٠٣

(ب) بالتركية :

١ – أحمد راسم : عثمانلى تاريخى استانبول ١٣٢٩

٢ – سهيل أفندى : تاريخ مصر الجديد القسطنطينية ١١٤٢هـ

٣ – صولاق زاده : صولاق زاده تاريخى م ١، ج ١ استانبول ١٢٩٧هـ

٤ – قانون السلطان محمد الفاتح المسمى قانو ننامه ء آل عثمان استانبول ١٣٣٠هـ

٥ – Dr. Abdulkadir Altunsu : Osmanli Seyhulislamlari, Ankara 1972.

٦ – Dr. Ahmet Asrar : Osmanli Devletinin Dini Siyaseti ve Islam Alemi Istanbul 1972

٧ – Cavid Baysun : Cem Sultan Istanbul 1946

٨ – Cagatay Ulucay : Yavag Sultan Selim

Istanbul 1959

Pref. Dr. Ismail Hakki Uzuncarsili : - ٩
Anadolu Beylikleri Ankara 1969

: Il Bayezid in Ogullarindan - ١٠
Sultan Korkud Ankara 1966

Ismail Hami Danismend : Izabli Osmanli -١١
Tarihi Kronolojisi, vol.2 Istanbul 1950.

Mehmet Zeki Pakalin : Osmanli Tarihi - ١٢
Deyimleri ve Tarimleri, vel.3 Istanbul 1971

Muallim Fuad Gucuyener : Yavuz Sultan - ١٣
Selim vol. 1 Istanbul 1945

Uilmaz Oztuna : Turkiye Tarihi vol. 5 - ١٤
Istanbul 1964

Turk Ansiklopedisi, vol. 13 Ankara 1966 - ١٥

(جـ) بالإنجليزية :

Teynbee : A Study of History, vol. 1 Oxford - ١
1945

الفهـرس

* * *

رقم الإيداع : ٢٢٨٣ / ٩٥
الترقيم الدولى : ٨- ٢٣٣ - ٢٥٧ - ٩٧٧

الزهراء للإعلام العربي الإدارة ١٤ شارع الطيران ـ رابعة العدوية
مدينة نصر ت ٤٠٢١٩٨٨ ـ ٢٦١١٩٠٦
فاكس ٢٦١٨٢٤٠

المطابع ٩ ش عباد الدين كامل ـ متفرع من عباس
العقاد ـ مدينة نصر ت . ٢٦٣٧٢٨٣
القاهرة

الفتح العثماني

للشام ومصر

الزهراء للإعلام العربي